

محبة الله

عز وجل

تأليف

ابن قيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١ هـ)

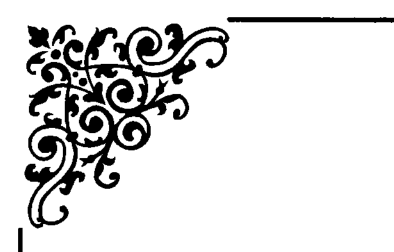
حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه

يوسف علي بديوي

اليمامة

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - بيروت



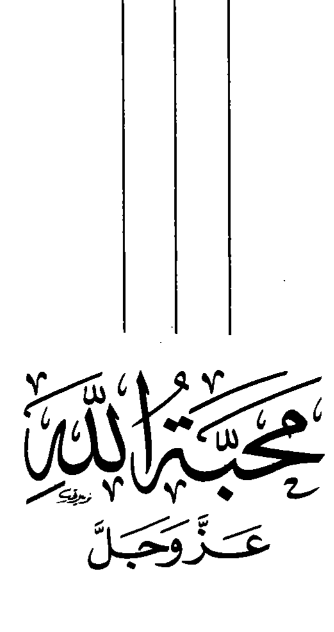

بسم الله الرحمن الرحيم

قال ابن القيم :

* أعظمُ أنواعِ المحبة المحمودة : محبة الله وحده ، ومحبة ما أحبَّ ، وهذه المحبةُ هي أصلُ السعادة ، ورأسُها ؛ التي لا ينجو أحدٌ من العذاب إلاَّ بها . ومدارُ القرآن على الأمر بتلك المحبة ولوازمها . وأصلُ دعوةِ جميع الرسل إنَّما هي عبادةُ الله وحده ؛ المتضمِّنة لكمال حُبِّه ، وكمال الخضوع له .

* كلُّ المحابِّ باطلةٌ مُضْمحلةٌ سوى محبَّةِ الله وما والاها ، فهذه المحبةُ تدوم ، وتدومُ ثمرتُها ونعيمُها بدوام مَنْ تعلَّقتْ به ، وفَضْلُها على سائر المحابِّ كفضل مَنْ تعلَّقتْ به على ما سِواه .





محبة الله
عز وجل

الطبعة الثالثة
١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م



دمشق - برامكة - جانب الهجرة والجوازات - ص.ب ٣٧٧ - تلفاكس ٢١٢٢٠٥٩ - ٢١٢٣٢٤٥
بيروت - ص.ب ٥٤٨٨ / ١١٣ - تلفاكس ٠١ ٤٧٥٨٥٧ - جوال ٠٣ ٨٥٣٥٨٦
Http://www.dar-alyamama.com
e-mail: alyamama@scs-net.org




مقدمة التحقيق

القسم الأول: مضمون الكتاب وخطة العمل

القسم الثاني: بين العبادة ومحبة الله تعالى




القسم الأول

مضمون الكتاب

حـمـدٌ ودعـــاء:

الحمد لله حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيه . . . حَمْداً تدومُ به النعمة ، وتُصْرَفُ به النقمة ، ويُستجاب معه الدعاء ، ويزيدُ اللهُ تعالى به مِنْ فَضْله على مَنْ يشاء.

الحمدُ لله الذي جَعَل محبَّته قوتاً للقلوب ، وغذاءً للأرواح ، وقرَّة للعيون ، ففيها تنافس المتنافسون ، وشخص إليها العاملون ، وعليها تفانى المحبُّون ، وبرَوْحِ نسيمها تروَّح العابدون.

اللهم اجعلْ محبَّتَكَ بلسماً لأرواحنا ، وشفاءً لأدوائنا ، ونوراً لبصائرنا ، وهَدْفاً نسعى لتحقيقه ، وننعم لتحصيله بالرضا والسماح ، في الإدلاج والغُدوِّ والرواح.

اللهم اغرسْ شجرةَ محبَّتِكَ في قلوبنا ، ويسِّر لنا سقايتها بماء الإخلاص ، ومتابعة التشذيب والتهذيب ، ونحن نعقدُ بيعة الرضوان ، فلا نقيلك ولا نستقيلك ، فكُنْ معنا ـ يا ربنا ـ في سعينا لنيل رضاك ، وحيازة موجبات محبتك ، والاسترواح بثمراتها ، وعلاماتها ، وشواهدها ، وموجباتها.

وصلى الله على سيدنا محمد ، سيِّد المحبين ، حيث أكَّد أن محبةَ الله تعالى نجاةٌ وأمان ، وسِلْم واطمئنان ، وهي مِنْ أفضل ما سُئِل به المولى ، وهو ـ ﷺ ـ القائل: «اللهم إني أسألُكَ حبَّـكَ ، وحب من يحبك ، وحبَّ عمل يُقرِّبني إلى حبك . . . اللهم أَحْيِ قلبي بحبك ، واجعلني لك كما تحب. اللهم

اجعلني أُحبّك بقلبي كله ، وأرضيك بجُهدي كلّه . اللهم اجعلْ حبي كلّه لك ، وسعي كلَّه في مرضاتك»[1] .

أما بعد :

المؤلِّف والمؤلَّف :

فإننا في كَنَفِ مُؤلَّف خاص ، له مكانته المتميزة ، وموضوعه المحبَّب إلى نفوس المؤمنين؛ كما أننا في رحاب مُؤلِّف طبّق الآفاق شهرةً ، وعُرِف بفكره المتألق ، واتباعه للهدي الإلهي ، والمنهج النبوي ، والاقتداء بالسلف الصالح في إيمانهم وفَهْمهم ومحبَّتهم لله الخالق عز وجل .

أمَّا الكتابُ فهو «محبة الله عز وجل» ، وأمَّا المؤلف الكبير فهو العلامة الإمام ابن قيِّم الجوزية .

قال فيه ابنُ كثير : «كان ملازِماً للاشتغال بالعلم ليلاً ونهاراً ، كثير الصلاة والتلاوة ، حَسَن الخُلُق ، كثير التودُّد ، لا يحسد ، ولا يحقد» .

وقال ابنُ رجب : «ما رأيتُ أوسعَ منه علماً ، ولا أعرفَ بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان» .

وقد عايشنا كُتُبَ ابن القيم فترةً طويلة من الزمن ، وما زلنا نحيا معها ، ونطالعها باستمرار ، ففيها رحيقُ الإيمان ، وعبير الفضائل ، وحديثاً لا ينضب عن ضرورة محبة الله عز وجل ومحبة رسول الله ﷺ ، تلك المحبة التي تقوم العبادةُ على أساسها ، وترتكز إليها ارتكازاً كلياً لا محيصَ عنه ، ولا مفرَّ منه . فالعبادة لا تقوم دون محبة ، والمحبة لا تصح من غير عبادة ، فكلاهما وجهان لدرّةٍ واحدة ، وبهما يتكامل الإيمانُ ، ويسمو المؤمنُ في حياته المعطاء ، محبّاً لله ، مطيعاً لرسوله ، مجاهداً في سبيل الحق ، حيث يعيش بالحب ،

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٩٠) والحاكم (٢/ ٤٣٣) .

ويدعو له ، ويُحلِّق بقلبه ، ويعلو بروحه ، ورحم اللهُ جلال الدِّين الرومي إذ يقول:

«إنَّ الحبَّ يُحوِّل المرَّ حلواً ، والترابَ تِبْراً ، والكدر صفاءً ، والألم شفاء ، والسجنَ روضة ، والسقم نعمة ، والقهر رحمة ، وهو الذي يلين الحديد ، ويذيب الحجر ، ويبعث الميت ، وينفخ فيه الحياة ، ويُسوِّد العبد.

إنَّ هذا الحبَّ هو الجناحُ الذي يطير به الإنسانُ الماديُّ الثقيلُ في الأجواء ، ويصل من السمك إلى السِّماك ، ومن الثرى إلى الثريّا».

ولكنْ أيُّ حبٍّ هذا؟!

«إنَّ هذا الحب يجري من صاحبه مجرىٰ الدم؛ إنْ وُضِع في محلِّه ، وصادَفَ أَهْلَه ، فإنَّه شمسٌ لا ينتابُها الأفول ، وزهرةٌ ناضرةٌ لا يعتريها الذبول. عليك بهذا الحبِّ السرمدي الذي يبقى ، ويفني كلَّ شيء؛ الذي يدورُ عليك بكؤوسه التي تروي ظمأك. عليكَ بهذا الحبِّ الذي ساد به الأنبياء ، وحكموا».

وما قيمةُ علاقةٍ دون محبة؟! لا سيما العلاقة بين العبد ومولاه ، والتي تتتوَّج بالقلب الحيِّ ، النابض بالحياة والحرارة ، حيث يجدُ المرءُ كرامتَه بين يدي ربِّه ، وهو يعبده في محراب الصلاة... ويتصدَّق بزكاة المال... ويلبِّي في الحج... ، ويتابع التحصيل العلمي... ويكتشف دواءً لداءٍ عضال... ويصدر حكم العدل في قاعة المحكمة... ويُلبِّي حاجة الملهوف... ويسعى على الأرامل واليتامى والمساكين... ويدافع عن المظلومين في كل مكان...

إن هذا الجهد ، وذاك السعي ، لا يصدر إلاَّ عن مؤمنٍ بالله ، قد عاش في رحابِ محبة ربِّه ، وكان قلبُه اصطرلاباً لأسرار العبودية ، وشفاءً للأمراض الإنسانية ، والأسقام التي يحيا كثيرٌ من الناس في أتونها المحرق. فيأتي المؤمنُ المحبُّ لله ، والمطيعُ لرسوله ﷺ؛ كالشعلة التي تحرق الضنى والحزن

والحسد ، وتلغي الأضاليل والأغلوطات ، فحكايـةُ الحب لا تنتهي؛ حتى تخفق بنودُ الحق ، وتعلو رايةُ الإيمان.

ومن هنا لا بُـدَّ للحب من نمـوّ مطـرد ، واستمرار لا ينقطـع ، بل يعـلو ويدأب ، ويشتد ويترعرع ، فإذا حدائقُ العبادة ممرعة ، وأُكُل الروح يانعة ، ربيعها دائم ، وكنوزها فيَّاضة ، وخزائنها ملأى.

فمزيداً من الشوق إلى الله ، وقَطْع أَكَم الشهوات ، وهضاب المطامع؛ ليذوقَ السائرُ إلى ربّه طعم الحب الحقيقي؛ الحب الذي يدرك معنى اليقين ، وتنفتح زهرته ، ويشرق فجرُه ، وينشرح صدره ، ويتسع طريقه ، وهو يلحظُ الكون والحياة والأحياء بعيونٍ صافية ، وفؤاد مُترع بمحبة الله ، بعيداً عن الأوضار والأوشاب.

وبعد هذا أقول: لقد استطاع ابن قيم الجوزية أن يشرح المحبة ، ويُبيِّن دواعيها ، ويحدِّد منشأها ، ويُعدِّد مكوِّناتها ، ويغوص عميقاً وهو يتملَّى أسرارها الشفَّافة ، ويسكب من ذَوْب روحه ما يجعلها واضحة المعالم ، مشرقة الأبعاد؛ لكل طالب ومرتاد.

وقد عكف ابنُ القيِّم على موضوع المحبة عُمرَه كله ، إذ قضاه في العلم والمعرفة ، وما نَفْعُ علمٍ دون محبة؟! وما قيمةُ معرفةٍ لا تسمو بصاحبها إلى المنزلة التي يتسابق إليها المتسابقون ، وهي منزلةُ محبةِ الله عز وجل؟!

إنها مطلبٌ عزيز المرام ، لكن تحقيقه ليس بالمستحيل ، فمن امتلك قلباً خاشعاً ، ونفساً مطمئنة ، وروحاً محلِّقة ، وسعياً لا يهدأ له قرار إلا بالوصول وحيازة المطلوب. . . إن من يمتلك هذه الأدوات ، لا بُدَّ ـ بإذن الله ـ أن يحقق المراد ، ويحظى بشاطىء الأمان ، فيعمل بالطاعات ، ويفعل الخيرات ، ويناجي الحق بأسمائه الحسنى ، ويا لها من أُويقات جليلة!

وفي عصرٍ حرون ، تكالبت فيه المادة على حياة كثيرٍ من الناس ، فَخَوَتِ الأرواح ، وعانى الخَلْق من فوضى المذاهب والتيارات الفكرية والروحية ،

فكثر الضياع ، واستشرى التيه ، وعمَّ البلاء . . . فلم يَبْقَ من ملاذٍ آمنٍ ، وحِمىً حصين؛ إلا اللجوء إلى رحاب الإسلام ، والاعتصام بحبل الله المتين ، وعروته الوثقى ، حيث تبرز محبةُ الله بلسماً للجراح ، وطمأنينة للنفوس الشاردة عن منهج الحق والاستقامة .

هـذا الـكتـاب :

وهذا الكتاب قبساتٌ هادية من وحي الكتاب والسنة ، يغرسُ في نفس قارئه والمطَّلع عليه قيمَ الإسلام الفاضلة ، وعلى رأسها محبة الله تعالى ، التي تُعمِّق الإيمان ، وتُثَبِّت العقيدة الصحيحة ، وترسِّخ مفهوم العبادة ، وتحضُّ على الإخلاص وتمثُّل محابِّ الخالق عز وجل .

فالمحبةُ أصلُ كل عمل وإرادة وتوجُّه ، والإيمان عِلْمٌ وعمل ، والعملُ ثمرةُ العلم ، وهو نوعان : عملُ القلب حباً وبغضاً ، ويترتَّب عليهما عمل الجوارح فِعْلاً وتركاً ، فإذا كانت هذه الأربعةُ ـ الحب والبغض والفِعْل والترك ـ لله تعالى ؛ كان صاحبُها مُسْتكمِلَ الإيمان .

ومدارُ الدين وأصلُه يتمثل في محبة الله تعالى ، والأنس به ، والرضا عنه ، والشوق إلى لقائه ، فعبادتُه أشرفُ الأعمال ، وإرادةُ وجهه الكريم أجلُّ المقاصد ، وهذا أساس الحنيفية السمحاء مِلّة إبراهيم عليه السلام . وقد قال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٣] .

اللهم علِّمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزِدْنا علماً يا أرحم الراحمين .
والحمد لله رب العالمين .

دمشق في ١/ رمضان / ١٤٢٠هـ **يوسف بديوي**

ابن القيم ومحبة الله تعالى

ثمة مصنَّفات دبَّجها يراعُ ابن القيم ، وصاغها من ذَوْب روحه ، وعصارة فكره ، وهي تدور حول موضوعٍ مهمٍّ لِلغاية ، أَلاَ وهو: محبة الله عز وجل. ومن تلك المصنَّفات[1]:

(١) قـرة عيـون المحبيـن وروضـة قلـوب العارفيـن:

وهذا الكتابُ ذكره البغداديُّ في «هدية العارفين» وأشار إليه ابنُ القيم في «مدارج السالكين» إشارةً واضحة لا غبارَ عليها ، وذلك عند بحثه في محبة الله تعالى لعبده ، والردّ على مَنْ أنكرها ، فقال: «وقد بيَّنَّا فسادَ قولهم هذا ، وإنكارهم محبة الله مِنْ أكثر من ثمانين وجهاً؛ في كتابنا المسمَّى: قرة عيون المحبين وروضة قلوب العارفين».

(٢) المـورد الصافـي والـظـل الـوافـي:

أشار إليه ابنُ القيم في كتابه «طريق الهجرتين» (ص ١٠٣) ، وذكر أنه بيَّن فيه أقسام المحبة ، وأنواعها ، وأحكامها.

(٣) الـفـرق بيـن الخُلَّـة والمحبـة:

ذكره البغداديُّ بهذا الاسم ، وهو عند ابن رجب بعنوان: «الفرق بين الخلة والمحبة ومناظرة الخليل لقومه».

---

(١) يُنظر كتاب «الإمام ابن قيم الجوزية وآراؤه النحوية» للأخ الأستاذ أيمن الشوا (ص ٥٩ ـ ٨٨).

وهذه الكتب الثلاثة تُعدُّ في عداد الكتب المفقودة؛ التي عَدَتْ عليها العوادي ، ولكنها تُوضِّح اهتمامَ ابن القيم ـ رحمه الله ـ بموضوع المحبة ، لا سيما محبة الله تعالى.

أما الكتبُ المطبوعة لابن القيم ففيها فصول شائقة ، وشذرات قيِّمة ، تُنبىء بأهمية موضوع المحبة لدى هذا الباحث الكبير ، والعلاَّمة الإمام ، ففي كتابه: «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» بيَّن ابنُ القيم أن التعبدَ غايةُ الحب ، ولا تصلح هذه المرتبة لأحدٍ غير الله عز وجل ، فمحبة العبودية هي أشرف أنواع المحبة ، وهي خالصُ حقِّ الله على عباده.

وأوضح أن الله سبحانه يغارُ على قلب عبده أن يكون مُعطَّلاً من حبه وخوفه ورجائه ، وأن يكون فيه غيرُه ، فالله تعالى خَلَقه لنفسه ، واختاره من بين خَلْقه للعبادة ، ومن أجل ذلك حرَّم الفواحش ، وشرع عليها أعظم العقوبات؛ لشدة غيرته تعالى على عبيده.

وبيَّن ابنُ القيم أن ملاك الأمر: الرغبة في الله ، وإرادة وجهه الكريم ، والتقرب إليه بأنواع الوسائل ، والشوق إلى الوصول إليه وإلى لقائه ، وهذا يقتضي نَبْذَ الهوى ، وتركه ، وضرورة القيام بالعمل الصالح ، وأن يكون الهوى تبعاً لما جاء في الكتاب والسُّنة؛ وبذا تتحقق المحبةُ لله عز وجل.

ومَنْ يستقصِ كتب ابن القيم يجدْ مصداقَ ما نذهب إليه ، فهو يرفع اللثامَ عن مفهوم المحبة ، ويوضح أبعادها ، ويرسم نتائجها وثمراتها؛ بأبلغ بيان ، وأوفى تعبير ، وأصدق عاطفة ، وأرقى أسلوب ، يرشحُ فيه الوضوحُ ، والعمق ، والتأثير.

وقد سار ـ رحمه الله ـ في حديثه عن محبة الله سيرةً واحدة ، فلم يشذّ ، ولم يشطط ، بل اتبع نهجاً واضحاً لاحباً مستبيناً ، يفور بالحب لله عز وجل ، وبَسْط الكلام ، والتوسُّع في المسألة ، ومعالجة القضية؛ في بحثٍ طويل يستوعب الأطراف ، ويأتي بالجديد الخيِّر الممتع؛ بما تنشرح له قلوب القراء ،

وتقرّ عيونهم؛ لعذوبة الألفاظ ، وحُسْن التصرف ، وجودة الأداء.

وقد قضى ابنُ القيم دهره يحملُ قلمَ المحبة ، ويكتب شواهدها ، ويدلي بالحجج الساطعة ، والأدلة القاطعة؛ التي تحضُّ على متابعة الطريق؛ الذي سمَّاه: طريق الهجرتين ، وهما: الطريق إلى الله ، والطريق إلى الرسول ﷺ ، فقام بحقِّ العلم عليه ، واستبان له المنهج ، فسرَّح الطرف ، واقتنص التُّحف ، وظفر بالمنى ، فكان التِّرياقُ شيئاً عجيباً ، يهدي للتي هي أقوم.

وبينما كان ابنُ القيم يغوصُ في موضوع المحبة ليستخرج اللؤلؤ النادر ، والياقوت الشفّاف ، نراه يدلي دلوه في رحاب اللغة ، ومن ذلك حديثه عن معاني الأبنية ، إذ قال:

«حبيب» أبلغ من محبوب؛ لأن المحبوب هو الذي حصلت فيه الصفات والأفعال التي يُحَبُّ لأجلها ، وأما المحبوب فهو الذي تعلق به حبُّ المحب ، فصار محبوباً بحب الغير له ، وأما الحبيب فهو حبيب بذاته وصفاته ، تعلَّق به حب الغير أو لم يتعلق[1].

وأما «حبيب» فأكثر استعمالهم له بمعنى المحبوب. قال الشاعر:

وما زرتُ ليلى أن تكونَ حَبيبةً ... إليَّ ولا دَيْنٌ لها أنا طَالِبُه

وقد استعملوه بمعنى المحب. قال الشاعر:

وما هجرتكِ النفسُ أنكِ عندَها ... قليلٌ ولا أنْ قلَّ مِنْك نصيبُها

ولكنَّهم يا أحسنَ الناسِ أُوْلِعُوا ... بِقَوْل إذا ما جئتُ: هذا حبيبُها[2]

وأمَّا «الحِبّ» ـ بكسر الحاء ـ فلغة في الحب ، وغالبُ استعماله بمعنى المحبوب ، نظير: ذِبْح ، بمعنى مذبوح ، ورِزْق ، بمعنى مرزوق. وفي إعطائهم ضمّة الحاء للمصدر سِرٌّ لطيف ، فإنَّ الكسر أخفُّ من الضمة ،

---

(١) جلاء الأفهام (١٨٧).

(٢) روضة المحبين (٢٥ ـ ٢٦).

والمحبوب أخفّ على قلوبهم من نفس الحب ، فأعطوا الحركة الخفيفة لَلأخف ، والثقيلة للأثقل.

وقالوا في فعل المحبة : حَبَّه وأحبَّه. قال الشاعر :

أحبّ أبا ثروان من حبِّ تمره ولم تعلم بأن الرفق بالجار أرفق
فوالله لولا تمره ما حببتُه ولا كان أدنى من عبيد ومشرق

ثم اقتصروا من حب ، فقالوا: محبوب. ولم يقولوا مُحَبّ إلا قليلاً ، كما قال الشاعر :

ولقد نزلتِ فلا تظنّي غيرَه مني بمنزلة المُحَبِّ المُكْرَمِ[1]

وهذا وغيره يدلُّ دلالةً قاطعة على تمكُّن ابن القيم من ناصية اللغة ، وقدرته على اصطياد ما يريد من بطون المعاجم والدواوين ونحوها ؛ ليخرج تأليفه رائداً متألقاً متفرداً.

* * *

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٠).

هذا الكتاب

بعد أن أمعنّا النظر في المؤلَّفات المطبوعة لابن القيم ، ومؤلفاته المخطوطة ، وتلك المفقودة ، صحَّ منّا العزمُ - بتوفيقٍ من الله تعالى - على القيام بجمع المادة العلمية لموضوع محبة الله عز وجل؛ من كتبه المطبوعة ، وتنسيقها ، وتبويبها في فصول متّسقة؛ لعلها تحقق شيئاً مما فُقِد من مُصنَّفات المحبة لابن القيم ، أو تكون قريبة من مراده - رحمه الله - وبالتالي نُوجِد في عالم الطباعة كتاباً يُوضِّح محبة الله سُبحانه بقلم العلاَّمة ابن القيم من مقدمته إلى خاتمته ، ولا حظَّ لنا فيه إلا القيام بالإعداد ، والجمع ، والتنسيق ، والتعليق؛ بما يُوضِّح المرادَ ، ويفي بالغاية المنشودة من نشر هذا الكتاب.

وللقراء الأعزّاء باعٌ كبير في تشجيعنا على متابعة إعداد موضوعاتٍ بعينها؛ لابن القيم؛ أراد لها أن تُكتب ، أو كَتَبَها؛ لكنها تعرَّضتْ للضياع ، فبدأنا بكتاب: «أسماء الله الحسنى» وصدرتْ له عدّة طبعات ، وتلقّاه الناسُ بالقبول ، وكان فَضْلُ الله عظيماً.

ومتابعةً لهذا النهج قمنا باستقصاء موضوع المحبة من الكتب المطبوعة ، وفي الجعبة موضوع آخر ، لعلّنا نُوفَّق إلى جَمْعه ونَشْره في المستقبل القريب.

أمَّا الدار الناشرة - أثاب اللهُ القائمين عليها خيراً[1] - فقد استقبلوا هذا

---

(١) لا يسعني في هذا المقام إلا أن أزجيَ الشكر للأخ الكريم عبد الرؤوف قدور ، أبي حمزة - صاحب دار اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع - على تبنِّيه لهذا الكتاب ، وأربعة كتب سبقت، هي: =

الكتاب بالترحاب ، وأولوه عنايتهم ، ورأوا فيه سدّاً لثغرة ، وملأً لفراغ ، عسى أن يكون بديلاً لكتابٍ مفقودٍ ألّفه ابنُ القيم يوماً ما .

* * *

= * الجواهر اللؤلؤية شرح الأربعين النووية ؛ للجرداني الدمياطي .
* صيد الخاطر ؛ لابن الجوزي .
* أهوال يوم القيامة ؛ لابن كثير .
* تهذيب السيرة النبوية ؛ لابن هشام .
إلى جانب عدّة كُتيِّبات أصدرها ـ أثابه الله ـ في سلسلة «مفاهيم إسلامية» فجزاه الله تعالى خيراً، ونفع به، وجَعَل التوفيق حليفه، والسداد أليفه .

خطة الكتاب ومنهج العمل

انصبَّ عملُنا في هذا الكتاب وفق الخطوات التالية :

(١) استخراج ما يتعلّق بموضوع محبة الله عز وجل من الكتب المطبوعة لابن قيم الجوزية .

(٢) توزيع هذه المادة العلمية إلى أربعة أبواب ، وكل باب ينقسم إلى ثلاثة فصول .

(٣) ضبط النص بالشكل المناسب .

(٤) تخريج الآيات من أماكنها من السور القرآنية .

(٥) تخريج الأحاديث النبوية من مظانّها الحديثية .

(٦) التعريف بطائفة من الأعلام .

(٧) التعليق على بعض المواطن بما يفيد ويُغني .

(٨) كتابة مقدمة للكتاب تتحدث عن مفهوم المحبة ، وعلاقتها بالعبادة ، وأنها عنوانُ طريق النجاة ، وهي أثرٌ من آثار الإيمان بالله ورسوله ، ومفتاحٌ لدخول الجنة ؛ بإذن الله تعالى .

ولعلَّنا بهذه الخطوات نكون قد خَدَمْنا كتاب ابن القيم ؛ بما يجعله قريباً من الأفهام ، سهلاً ، واضحاً ، مُحبَّباً إلى النفوس ، فهو موسوعةٌ في المحبة الإلهية ، وَفْق العقيدة الصحيحة ، ومنهج السَّلف الصالح .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

دمشق في ١/ رمضان/ ١٤٢٠هـ. **يوسف بديوي**

القسم الثاني

بين العبادة ومحبة الله تعالى

من أقباس الحديث:

قال النبيُّ ﷺ يوم خَيْبر: «لأعطينَّ الرايةَ غداً رجلاً يفتحُ اللهُ على يديه، يحبُّ اللهَ ورسوله، ويحبّه اللهُ ورسولُه».

فبات الناسُ ليلتهم أيّهم يُعطىٰ، فَغَدَوا كلُّهم يرجوه[(١)].

وفي رواية أخرى:

قال: فباتَ الناسُ يَدُوكون ليلتهم أيُّهم يُعطاها، فلما أصبح الناسُ غَدَوْا علىٰ رسول الله ﷺ، كلّهم يرجو أنْ يُعْطاها[(٢)].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسولَ الله ﷺ قال يوم خِيْبر: «لأعطينَّ هذه الرايةَ رجلاً يحبُّ اللهَ ورسولَه، يفتحُ اللهُ على يديه» قال عمر بن الخطاب ما أحببتُ الإمارةَ إلا يومئذ. قال: فَتَساورتُ لها رجاءَ أن أُدعى إليها. قال: فدعا رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب، فأعطاه إيّـاها[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٣٠٠٩).

(٢) رواه البخاري (٣٧٠١).

«يدوكون»: يخوضون ويموجون فيمن يدفعها إليه.

(٣) رواه مسلم (٢٤٠٥).

«فتساورت لها»: تطاولت لها، وحرصتُ عليها.

رايـة الـمحبـة:

تُرى لماذا كان هذا الحرصُ كلُّه من الصحابة كلهم على أن يُعطوا الراية ، وتكون لهم الإمارة؟!

ألحرصٍ على الدنيا ورغبةٍ في متاعها ، أم حبّاً في السلطة والإمارة؟! أم سعياً وراء المنصب والرفعة والمركز السامق المرموق؟!!

إن كان الأمرُ كذلك فما بال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول لأبي بكر رضي الله عنه عندما أوصىٰ له بالخلافة: لا حاجةَ لي فيها؟!

وهو يُوصي له بالخلافة على المسلمين جميعهم ، لا علىٰ إمارة جيشٍ في غزوة وحسب ، فما السبب يا ترى؟!

السببُ واضحٌ وضوحَ الشمس. . . وحيد ليس هناك سواه. . ، فريد ليس هناك ما يعادله.

إنَّ من سيعطى الرّاية في هذا اليوم رجلٌ لا كالرجال ، وعَلَم لا كالأعلام. . رجلٌ يفتح اللهُ على يديه حصنَ خيبر ، ويمتاز بخصلةٍ فريدة ، وصفةٍ متميزة ، يُقِرُّ له رسولُ الله ﷺ؛ الذي لا ينطقُ عن الهوى؛ بوجودها ، ألا وهي أنه يحبُّ الله ورسوله ، ويحبهُ الله ورسوله».

أيُّ رفعة مَلَك؟! بل أيّ شرف قد نال مَنْ مُنِح هذه الشهادة من أعظم مخلوق على وجه البسيطة كلها؟!

إنَّ الحريص على منزلةٍ كهذه ، ومقام كهذا ، وشهادة كتلك ، هو المدركُ لما يناله بسعيه هذا ، وهو العالمُ بما سيحوز في نفسه عندما يصلُ إلى مرتبة كهذه ، ومكانة كتلك.

الخطوة الأولى في المحبة:

عن أنس قال: قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين»[1].

تلك هي الخطوةُ الأولى، فمن لم يكن رسولُ الله ﷺ - وهو المبلِّغُ الأمينُ للرسالة وحسب - أحبَّ إليه من نفسه وماله والناس أجمعين؛ لم يكن كاملَ الإيمان، مكتملَ اليقين، ولم يَرْقَ إلى درجة الصِّلة مع رب العالمين، خالق الأكوان، وفاطر السموات والأرض، الرحمن الرحيم.

وعن أنس عن النبي ﷺ قال: «ثلاثٌ من كُنَّ فيه وَجَدَ حلاوةَ الإيمان: أن يكون اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأنْ يحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله، وأن يكره أن يعودَ في الكفر، بعد أن أنقذه اللهُ تعالى منه، كما يكره أن يُقْذَفَ في النار»[2].

حلاوةُ الإيمان... ذلك الإحساسُ الرائع؛ الذي لا يدرك طعمه إلا مَنْ ذاقه، ولا يعيشُ في تجلِّياته إلا مَنْ خبِره وعايَشَه، ولا يحلِّق في أجوائه، ويتنسَّم عَبِيرَه؛ إلا مَنْ أدرك كيف يكون حبُّ الله ورسوله....

وانطلق إلى الله عز وجل انطلاقَ الكائن الهشّ الضعيف إلى الخالق القوي المدبّر البصير، واتّصل به اتصال الذرة الصغيرة الهائجة في كونٍ هائل فسيح بمنسِّق هذا الكون كله، ومبدعه، وخالقه.

وعاش في خضمٍّ هذا المنهل الصافي والمعين الثر يعبُّ منه حتى الثمالة.

قال أبو بكر الكتاني: جرت مسألةٌ في محبة الله عز وجل بمكة، فتكلم الشيوخُ فيها، وكان الجنيدُ أصغرهم سنّاً، فقالوا: هاتِ ما عندك يا عراقي!

فأطرق رأسَه، ودمعت عيناه، ثم قال: «عبدٌ ذاهبٌ عن نفسه، متَّصلٌ بذِكْر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه. فإنْ تكلم فبالله، وإن نطق فعن

---

(1) رواه البخاري (١٥) ومسلم (٤٤).

(2) رواه البخاري (٦٩٤١) ومسلم (٤٣).

الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله . فهو بالله ، ولله ، ومع الله» .

هذا عبدٌ أدرك كيف تكون الصلةُ مع الله فهو مع الله في كل حركة وسَكَنَة ، يرقبُه في كل صغيرة وكبيرة ، ويرجعُ إليه في كلِّ أمرٍ مهما صغر أو كبر .

إنه مع الله في كلِّ حال ، فهو مع الله في سُبُحات الفكر ، ومع الله في لمحات البصر ، ومع الله في الرهط والمؤتمر ، ومع الله حالَ احتدام الخطر ، ومع الله في حُبِّ أهل التُّقى ، ومع الله في كُرْه مَنْ قد فَجَر .

إنه بهذا يرقىٰ إلى منزلة الإحسان؛ التي أخبرنا عنها الصادقُ الأمينُ ، عندما سأله جبريلُ عليه السلام قائلاً : فأخبرني عَن الإحسان ، فقال : «أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكنْ تراه فإنه يراك» .

عندما يشعر الإنسانُ أن الله يراه في كل تصرف من تصرفاته ، ويرقبه في كل حركة من حركاته ، ويحسُّ أنه مَعَه في كل خاطرة تخطر له ، وفي كلِّ هاجس يسيطرُ عَلى قلبه وعقله ، يكون قد أدرك معنى العبادة لله حقاً ، وعايش لذةَ الصِّلة مع الله الواحد الأحد العليم البصير .

فرقٌ كبير بين تصوّرَيْن :

من هنا . . . . ومن هذه النقطة يبرزُ الفرقُ بين تصوُّر المسلمينِ لله عز وجل ، وصلتهم به ، وتصوُّر الآخرينِ لهذا الإله العظيم .

كان «أرسطو» يرى اللهَ كائناً أزلياً أبدياً ، مطلق الكمال ، لا أولَ له ولا آخر ، لا عملَ له ولا إرادة؛ إذ أن العملَ طلبٌ لشيء ، والله غنيٌّ عن الطلب ، والإرادة اختيارٌ بين أمرين ، والله قد اجتمع عنده الأفضلُ من كل كمال ، فلا حاجة للاختيار بين صالح وغير صالح ، أو بين فاضل ومفضول .

والإلهُ الكاملُ المطلق الكمال لا يعنيه خَلْقُ العالم ، أو خَلْقُ مادته الأولى ، فهي تخرجُ إلى الوجود بفعل شوقها إلى هذا الوجود؛ لذا لا يقالُ عنها إنها من خَلْق الله؛ إلا لأن الله قد أفاض عليها بهذا الشَّوق فقط .

أما «أفلاطون» فقد غالىٰ بشكل يفوقُ كلَّ معقول في تنزيه الإله؛ إذ قال بأن مِنْ كمال الإله أن يشعر بغير ذاته ، وألا يفكّر إلا في ذاته؛ لأنه لا يفكّر إلا في أشرف الموجودات ، وذاته هي أشرفُ الموجودات ، وهو لا يعلمُ الموجودات؛ لأنها أقلُّ من أن يعلمها .

فاختصاصُ الإله عنده ينحصرُ في خَلْق العقل ، وتنتهي مهمته عند ذلك ، فاللهُ قد خَلَق العقل ، والعقل خَلَقَ الروح ، والروحُ خلقتْ ما دونها من الموجودات .

هذا هو تصوُّر كبارِ الفلاسفة للإله ، فما بالك بتصور الآخرين له كالفُرْس الذين يعتقدون بالثنوية ـ وجود إلهين واحد للخير وواحد للشر ـ وغيرهم ، وغيرهم؟!

الإسلام وحده يرسم الصورة الحقيقية :

إنَّ الإسلام وحده هو الذي رسم الصورةَ الحقيقيةَ للإله ، فهو الخالقُ المدبِّر المريدُ المهيمنُ القادرُ المحيي ، المميتُ الوهاب الرزاق ، وهو الفعالُ لما يريد ، إليه يرجعُ الأمرُ كله ، فلا يتمُّ في الكون شيءٌ دون إرادته وعلمه وتدبيره .

وقد أشار القرآنُ الكريمُ إلى هذه الصورة لهذا الإله في مواقع وآيات لا تحصى . . .

قال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٢٦ ـ ٢٧] .

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ

بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد: ٨ ـ ١٣].

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٧ ـ ١٨].

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

هذا بعضُ مما بُثَّ في كتاب الله عز وجل ، ونُثِر فوق صفحاته ؛ ليبين للناس مقدار الصِّلة بين هذا الخالق العظيم وبين هذا المخلوق الضعيف ، وليشعرهم بحرارة قُرْبه منهم ، وينذرهم بأنه لن يكونَ هناك في الكون كلِّه ما يغيبُ عن علمه مهما دقَّ ، أو حتى تناهىٰ في الصِّغر ، ولن تكون هناكَ في حادثة أنىٰ كانت دون إرادةٍ منه ، أو دون عِلْمه.

يقول تعالى في الحديث القدسي:

«يا بنَ آدم؛ إذا ذَكرتني في نفسك ذكرتُك في نفسي ، وإذا ذكرتني في ملأ ذكرتُك في ملأ خيرٍ منهم ، وإذا دنوتَ مني شبراً دنوتُ منك ذراعاً ، وإذا دنوتَ

مني ذراعاً دنوتُ منك باعاً ، وإذا أتيتني تمشي أتيتُك هرولةً»[1].

ويقول أيضاً:

«يا بن آدم تفرَّغْ لعبادتي أملأ صدرك غِنىٰ وأسدّ فقرك ، وإلا تفعل ملأتُ يديك شغلاً ولم أسدّ فقرك»[2].

وفي الحديث القدسي أن الله يقول يوم القيامة:

«أدنوا مني أحبائي ، فتقول الملائكة: من أحباؤك؟ فيقول: فقراء المسلمين. فيدنون منه فيقول: أما إني لم أَزْوِ الدُّنيا عنكم لهوانٍ كان بكم عليّ ، ولكن أردتُ بذلك أن أضعفَ لكم كرامتي اليوم ، فتمنّوا عليَّ ما شئتم اليوم ، فَيُؤْمَر بهم إلى الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفاً»[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «ينزل ربُّنا كلَّ ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقىٰ ثلثُ الليل الأخير ، فيقول: من يدعوني فأستجيب له ، مَنْ يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟»[4].

إنَّ تصورالإنسان لإلهه على هذه الصورة ، هو الذي يحدِّد مكانةَ هذا الإله في نفسه ، ويرسم صورةَ العلاقة بين العبد وربِّه ، ويؤطّر هذه الصلة بينهما.

ولا شكَّ أن الفرقَ كبيرٌ جداً بين من ينظر إلى الإله كما تصوّره أرسطو وأفلاطون ، لا يعبأ بخَلْقه ، ولا يحفل بهم ، ولا يهتمّ لأمرهم ، وبين من يرى في إلهه الخالق الرازق ، ومالك كل شيء ، والمطَّلع على كلِّ صغيرة وكبيرة في هذا الكون الشاسع المترامي.

ولا شك أيضاً بأن الهوة واسعة سحيقة بين من يرى للكون إلهين متنازعين ،

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٣٨) وانظره في مجمع الزوائد (١٠/ ٧٨).
(٢) رواه أحمد (٢/ ٣٥٨) والترمذي (٢٤٦٦) وابن ماجه (٤١٠٧).
(٣) انظره في كنز العمال (٦/ ١٦٦٣٠) والإتحافات (١٨٤) معزواً لأبي الشيخ.
(٤) رواه البخاري (١١٤٥) ومسلم (٧٥٨).

أو آلهة متفرقة ، وبين من يرى لهذا الكون إلهاً واحداً ، بإرادة واحدة نافذة ، ونواميس ثابتة لا تتغير ولا تتبدل.

إن الإسلام بتأكيده علىٰ هذه الصورة الجليلة لهذا الإله؛ الذي يرى كلَّ شاردة وواردة ، ويسمع حتى دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء ، على الصخرة الصماء في قاع الماء ، ويسجِّل كلَّ صغيرة وكبيرة في كل لحظة وكل ثانيةٍ من حياة كل مخلوقٍ في هذا الكون كله ، إنما يرسمُ بذلك الصورةَ التي يتوجَّبُ أن يكونَ عليها كلُّ مخلوق في علاقته مع ربِّه.

الله معنا:

إن الآياتِ المبثوثةَ في القرآن كله لتشعرك بأن الله معك لحظة بلحظة ، وأنك لا تغيبُ عنه ، ولا حتى مقدار طرفة عين.

عندما تقرأ قوله عز وجل:

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ

أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٢ ـ ١٣].

وعندما تتلو قوله جل وعلا:

﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ٩ ـ ١٣].

عندما تتلو مثل هذه الآيات، وتقرأ هذه القصص المنثورة في القرآن يتملّكُكَ الإحساسُ بأنَّ هذا الإلَه يعيشُ الحدثَ لحظة بلحظة، أينما كان الإنسان، وفي أي وقت كان، ويتدخل وقت يشاء ليقرِّر ما يريدُ، ولا يكون إلا ما يريد.

نقطة التحوُّل:

إنَّ هذا التصور لهذا الإله بهذا الشكل إذا استقر في أذهان الناس وأفئدتهم، وتغلغل في ضمائرهم، جعل منهم أناساً آخرين، يرقبون الله في كل حركاتهم وسكناتهم، وفي كل أمورهم صغيرها وكبيرها.

يجعل منهم أناساً مؤمنين حقاً، فالأمرُ ليس مجردَ مشاعر تجيشُ في النفس، وتجولُ في الخاطر، ولكنها مشاعر محرِّكة دافعة، تقود إلى بناء واقع خاصٍ له سماتٌ خاصّة، تربطُ العبد بربِّه، وتشعره أنه على اتصال مباشر معه في أي ظرف كان، وأي مكان كان، وتزرع في قلبه وعقله ووجدانه أنَّه مُكلَّف بالعمل لإعمار هذا الكون وَفْق منهجٍ واضحٍ سليمٍ، وميزان ثابت لا يختلُّ.

يقول محمد الغزالي في كتابه «مع الله»:

«إن هناك إيماناً أساسه الخيال، أو الشعور الموقوت، أو التأثر العاجل، وإيجاد هذا الإيمان سهل، وسمو المرء به حيناً ممكن.

دوام الإيمان واستمراره:

ولكنَّ الإسلامَ يبتغي إيماناً يصحبُ المرءَ في أحيانه كلها، ويصبغ أحواله المتباينة بصبغة ثابتة، ويظلُّ معه في صحواته وغفواته، في بيعه وشرائه، في صداقته وخصومته، في فرحه وترحه، في وحدته وعشرته.

وهو بهذا يكونُ مع الله، أو يكون اللهُ معه، لأن الله: ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]».

منهج واضح وميزان ثابت:

إن وجود هذا المنهج الواضح والميزان الثابت؛ الذي يرجع الإنسانُ إليه في كل ما يعرضُ له من مشاعر وأفكار وتصورات، وبكلِّ ما يجدُّ في حياته من ملابسات وظروف ليزنها، ويرى قُربها أو بُعْدها عن الحق والصواب، يجعله في أمانٍ دائم، ويبقيه على الطريق القويم على الدوام.

وإدراك الإنسان أنَّ الغايةَ من وجوده هي عبادةُ الله، وأنَّ العبادة تتمثَّل في كلِّ نشاطٍ يتَّجه به إلى الله؛ مهما صَغُر أو كَبُر.

وأنه إنما خُلق ليكون خليفةً في أرضه، وأنَّ أولَ مستلزمات هذه الخلافة هي أن يعرفَ الله حقَّ معرفته، ويعبده حقَّ عبادته؛ بالتحاكم إليه وحده في كل شؤون حياته، مهما عظمت أو تضاءلت.

يكون بذلك قد وصل إلى المعنى الحقيقي للعبادة، وهو الخضوعُ والحبُّ معاً في ثوبٍ واحدٍ لا ينفصم.

الغاية من خَلْق الإنسان:

وإدراكه لهذا يدلُّ على فهمه للغاية التي خُلِق من أجلها، والتي قال فيها ربُّ العزة جل وعلا في كتابه الكريم:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

وأوضحها في الحديث القدسي؛ إذ يقول:

«عبادي، إني ما خلقتكُم لأستأنس بكم من وحشة، ولا لأستكثر بكم من قلَّة، ولا لأستعين بكم من وحدة على أمرٍ عجزتُ عنه، ولا لجلب منفعة، ولا لدَفْع مضرّة، وإنما خلقتُكم لتعبدوني طويلاً، وتذكروني كثيراً، وتسبحوني بكرة وأصيلاً».

يقول الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه: «العبادة في الإسلام»:

«إنَّ المتأملَ في هذا الكون الذي نعيشُ فيه، يرىٰ كلَّ شيء فيه يحيا ويعمل لغيره، فنحن نرى أن الماءَ للأرض، والأرض للنبات، والنبات للحيوان، والحيوان للإنسان، والإنسان لمن؟ هذا هو السؤال....

والجوابُ الذي تنادي به الفطرة، وتنطق به مراتبُ الكائنات في هذا الكون؛ أن الإنسان لله... لمعرفته... لعبادته... للقيام بحقه وحده... ولا يجوزُ أن يكونَ الإنسانُ لشيء آخر في الأرض أو الأفلاك؛ لأن العوالم العلوية والسفلية مُسخَّرة له، وتعمل في خدمته كما هو مشاهدٌ، فكيف يكونُ هولها، أو يعمل في خدمتها؟!

ومِنْ هنا كانت عبادةُ الإنسان لقوىٰ الطبيعة ومظاهرها من فوقه ومن تحته؛ قَلْباً للوضع، وانتكاساً بالإنسان أي انتكاس».

مفهوم العبادة:

إن العبادة في الله هي الطاعة، وأصل العبادة هي التذليل، حيث يقال: تعبّد فلان لفلان، أي: تذلَّل له. وكلُّ طاعة لله على وجه الخضوع والتذلُّل هي عبادة.

فالعبادة إذاً نوعٌ من الخضوع لا يستحقّه إلا المنعم بأجَلِّ النِّعم، وأغلاها؛ كالحياة والفهم والسمع والبصر.

يقول أبو الأعلى رحمه الله:

«إنَّ مفهومَ العبادة الأساسي هو: أن يذعنَ المرءُ لعلوِّ أحدٍ وغلبته، ثم ينزلُ له عن حريته واستقلاله، ويترك إزاءه كلَّ مقاومة وعصيان، وينقادُ له انقياداً.

فإن كان العبدُ لم يقفْ به الأمرُ على أن يكونَ قد أسلم نفسه لسيِّده طاعةً وتذللاً، بل كان مع ذلك يعتقدُ بعلائه، ويعترف بعلوِّ شأنه، وكان قلبُه مفعماً بعواطف الشكر والامتنان على نعمه وأياديه، فإنه يبالغُ في تمجيده وتعظيْمه، ويتفنَّنُ في إبداء الشكر على آلائه، وفي أداء شعائر العبودية له.

كلُّ ذلك اسمه التأله والتنسك، وهذا التصور لا ينضمُّ إلى معاني العبودية، إلا إذا كان العبد لا يخضعُ رأسه لسيده فحسب، بل يخضعُ معه قلبه أيضاً».

إذاً فأبو الأعلى يرى ـ هنا ـ أن العبادة هي إذعانٌ كلي، وخضوع كامل، وطاعة مطلقة.

ويُضاف إلى ذلك عنصر عاطفي، يتمثلُ في عبودية القلب بعد عبودية الرأس والجسد.

سموّ العلاقة بين الرب والعبد:

إنَّ عبودية القلب لتُشير إلى سموّ العلاقة بين العبد وربِّه، ورفعه هذه العلاقة، وتدل على ارتقاء العبد وتجرده من متاع الدنيا وزخرفها، وبلوغه أعلى مراتب العبادة وأسماها، ودخوله مرتبة الإحسان.

إنَّ العاشق ليغلو في تعظيم معشوقه غلواً كبيراً إلى حدٍّ قد تذوبُ فيه إرادتُه أمام هذا المعشوق، وتطيش أفكارُه، ومع ذلك لا يُسمَّىٰ هذا التعظيم لهذا المعشوق عبادة، بل هو الهوى.

مضار الهوى:

وللهوى مضارّ أربع:

* فهو يصدُّ عن الحق؛ إذ إنَّ الهاوي يجحدُ الدليل والحجة.

* وهو يفسدُ العقل؛ إذ تكونُ اجتهاداتُه وقراراته غير موزونة.

يقول الشاعر:

فخذْ بمنهج من يعصي هواه وقد أطاع أهل الحجا في كلِّ مؤتمر
إن الهوىٰ يفسدُ العقلَ السليمَ ومَنْ يعصي الهوىٰ عاش في أمنٍ من الضَّرر

* وهو يؤدي إلى التنازع بين الأخوة وتطوير الاختلاف في وجهات النظر إلى تخالف في القلوب.

* وهو فوق هذا يؤدي إلى تَرْك الجماعة، والقعود عن العملِ، والبعد عن الطريق القويم.

دلالة العبادة وآفاقها:

إنَّ العربَ قد استعملوا كلمةَ العبادة للدلالة على ضَرْبٍ من الخضوع، يصلُ إلى منتهاه، ينشأ عن استشعار القلب عظمةً للمعبود، لا يعرف منشأها، واعتقاده سلطة لا يدرك تفهمها وماهيتها، وقصارىٰ ما يعرفه عنها أنها محيطةٌ به، ولكنها فوق إدراكه.

وعلى هذا فالعبادةُ لا تقتصرُ على الطاعة، ولا تتضمنُ معنى الذل فقط، ولكنها تشملُ فوق ذلك الحبَّ بمعناه.

فالعبادة هي غايةُ الذل لله تعالى بغاية المحبة له.

يقول الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ:

تعصي الإلهَ وأنت تُظْهِرُ حُبَّهُ هذا محالٌ في القياسِ بديعُ
لو كان حُبُّكَ صادقاً لأطعته إنَّ المحبَّ لمن يُحَبُّ مُطيعُ
في كلِّ يومٍ يبتديكَ بنعمةٍ وأنتَ لشكر ذاك مُضيعُ

مراتب الحب:

إنَّ الحب في اللغة هو الوداد ، وأولُ الحب هو العلاقة؛ لتعلُّق القلب بالمحبوب ثم الصَّبابة؛ لانصباب القلب إليه .

ثم الكَلَف ، وهو التجشُّمُ على مشقة ، وعلى خلاف العادة .

ثم الشَّغَف ، يقال: شَغَفه الحب ، أي: بلغ شغافَ قلبه .

ثم الشَّعَف ، وهو ما يغشىٰ قلبَ صاحبه حتى يصل به إلى المرض واحتراق القلب بالحب .

ثم الهيام ، وهو كالجنون ، والهُيام همُّ العشاق الذين يذهبون على وجوههم من العشق .

ثم العشق ، وهو عَجَبُ المحب بمحبوبه ، أو إفراط الحب ، ويكون في عفافٍ ، أو في غيره .

يقول صاحب القاموس المحيط :

«إن العشق هو عمىٰ الحس عن إدراك العيوب ، أو مرض وسواسي يجلبه إلى نفسه بتسليط فكره علىٰ استحسان بعض الصور» .

ويأتي بعد ذلك التتيم ، التتيم هو المعبّد لمحبوبه . يقال: متيم: معبد مذلل ، وتيمه الحبُّ؛ إذا استولى عليه .

أما الحبُّ فهو الجانب الإيجابي المضيء من هذه التعابير كلها ، يأسرُ القلب ، ويشاغل العقل ، ويعانق الروح ، ويصبغ الإنسان بصبغةٍ خاصة .

من هنا كان لا بُدَّ مِنْ أن تشملَ العبادةُ الذل والحب معاً ، فهي غايةُ الذل لله تعالى؛ ممزوجة بغاية المحبة له .

يقول شيخُ الإسلام :

«ومَنْ خضع لإنسانٍ مع بغضه له ، لا يكون عابداً له ، ولو أحبَّ شيئاً ،

ولم يخضع له ، لم يكنْ عابداً له ، كما قد يحبُّ الرجلُ ولده وصديقه .

ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالىٰ ، بل يجبُ أن يكونَ اللهُ أحبَّ إلى العبد من كل شيء ، وأن يكونَ اللهُ عنده أعظمَ مِنْ كلِّ شيء ، بل لا يستحقُّ المحبةَ والخضوع التام إلا الله ، وكلّ ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة ، وما عُظِّم بغير أمر الله فتعظيمُه باطل .

محكُّ الرجال :

قال الله تعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة : ٢٤] .

إنَّ الله جل وعلا يضعُ في هذه الآية مختلفَ الوشائج والمطامع واللذائذ في كفّة ، ويضعُ العقيدة ومقتضياتها في الكفّة الأخرى .

يضعُ الآباء ، والأبناء ، والإخوة ، والأزواج (وشيجة الدم والنسب والقرابة والزواج) والأموال والتجارة (مطمح الفطرة ورغبتها) والمساكن المريحة (متاع الحياة ولذّتها) في كفّة ، وحب الله ورسوله والجهاد في سبيله في الكفة الأخرى .

إنها لكبيرةٌ حقاً ، ولكنَّ الله أرادها كذلك ، وإلا ﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ .

التكليف والطاقة البشرية :

إنَّ الله عز وجل لا يُكلِّف هذا الإنسانَ فوق طاقته ، ولكنه ومِنْ رحمته بعباده أودع فِطْرتهم هذه الطاقةَ العاليةَ من التجرد والاحتمال ، وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد ، لا تعدلها لذائذ الأرض كلها ؛ لذة الشعور بالاتصال

بالله ، ولذة الرجاء في رضوان الله ، ولذة الاستعلاء على الضعف والهبوط والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضيء.

خصائص العبادة:

إن العبادة إذاً لا بُدَّ لكي تكون كما أرادها ربنا جل وعلا أن تتَّسمَ بأمرين:

العبادة التزام بالشرع الإلهي:

الأول: الالتزام بما شرعه اللهُ عز وجل ، وجاء به رسولُ الله صلوات ربي وسلامه عليه؛ أمراً ونهياً ، وتحليلاً وتحريماً.

وهذا الذي يمثلُ جانبَ الطاعة والخضوع لله ، فليس من العبادة في شيء أن يرفضَ الإنسانُ الاستسلام لأمر الله ، ويستكبر عن اتباع منهجه ، والانقياد لشرعه ، وإن كان مقرّاً بأنَّ اللهَ خالقه ورازقه ، فقد كان مشركو العرب يقرُّون بذلك ، ولكن القرآن لم يجعلهم في عداد المؤمنين ، ولم يضعهم بين عباد الله الطائعين.

يقول الدكتور القرضاوي:

«فخضوعُ الإقرار بالربوبية لا يكفي ، وخضوعُ الاستعانة في الكربات ، والاستغاثة في الشدائد لا يكفي ، ولا بد من خضوع التقيد والانقياد والاتباع الذي هو حقُّ الألوهية».

إن الخضوع لله يقوم على أسس واضحة وهي:

١ ـ أن يملك الشعور بداخله بوحدانية الله تعالى وقهره لكلِّ مَنْ في الوجود ، أي: أن يدركَ تماماً أنَّ ما في الوجود كلّه هم خَلْقُ الله وعبيده ، وفي قبضته ، وتحت قدرته وسُلْطانه.

يقول تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ (١٥) قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ

﴿... يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٥ ـ ١٦].

٢ ـ أن يغرسَ في نفسه وضميره ذلك الإحساسَ الملحّ بالحاجة إلى مَنْ يملكُ الضُّرَّ والنفع والموت والحياة، ومَنْ له الأمر والنهي، ومَنْ بيده ملكوتُ كلِّ شيء، ومَنْ إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وأن يملكَ الشعور بالضعف أمام من يملكُ القوة كلَّ القوة، والشعور بالجهل أمام مَنْ أحاط بكلِّ شيء علماً، والشعور بالعجز أمام من يملكُ القدرة كل القدرة، والشعور بالفقر أمام الغنيِّ كلّ الغنى.

وبكلمة أخرى: أن يجدَ في نفسه شعورَ العبودية المخلوقة الفانية الفقيرة أمام الربوبية الخالقة الأزلية المالكة لكل شيء، والمدبِّرة لكلِّ أمر.

إن الإنسانَ عندما يدركَ حقيقةَ نفسه وكيانه، ويعرف ربَّه حقَّ معرفته تزدادُ صِلته بهذا الخالق، ويشتدُّ اعتماده عليه، واتجاهه إليه، وتوكله عليه، واستعانته به، وتقرُّبه إليه، وتضرُّعه بين يديه، وهو بهذا يزدادُ عبوديةً لله، ويزدادُ تحرراً وانطلاقاً من إسار الحياة المادية وروابطها.

إن عبودية الله في الإسلام هي الأداةُ التي يُحطِّم بها الإنسان كلَّ سيطرة وكل عبودية أخرىٰ؛ لأنَّ هذه العبودية في معناها الرفيع تشعره بأنه يقفُ وسائر القوى الأخرى التي يعايشها على صعيدٍ واحدٍ أمام رب واحد، فليس من حق أيِّ قوة في الكون أن تتصرَّفَ في مصيره، وتتحكم في وجوده وحياته.

ولا ينبعُ هذا الشعورُ من أن الإنسانَ يملكُ السيطرة على نفسه، أو يملك حق تقرير سلوكه ومنهجه في الحياة، ولكنه ينبعُ من كونه عبداً لله قبل كل شيء، وهو بوصفه عبداً لله لا يمكنُ أن يقرّ بسيطرة غير الله عليه، ويخضع لأية علاقة صَنَمية مهما كان لونُها أو شكلها، بل إنه يقفُ على صعيد العبودية المخلصة لله مع المجموعة الكونية كلها على قدم المساواة.

العابد مُحِبٌّ لله تعالى:

الثاني: أن يصدرَ هذا الالتزامُ من قلب يحبُّ الله تعالى.

إنَّ للحب عند الإنسان عموماً دواعيَ وأسباباً كثيرة:

* فهو يحبُّ نفسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده، ويكره هلاكه، أي: إنه يحبُّ ذاته، ثم سلامة أعضائه، ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقاءه، وهو لا يحب هذه الأشياء لأعيانها، بل لارتباط حظّه في دوام الوجود بها.

* وهو يحبُّ المحسنَ إلى الناس؛ لأن الإنسان عبدُ الإحسان، وقد جُبلت القلوب على حب مَنْ أحسن إليها، وبُغْض مَنْ أساء إليها.

يقول عليه الصلاة والسلام:

«اللهم لا تجعلْ لفاجر عندي نعمةً أُكافيه بها في الدنيا والآخرة»[1].

إنَّ الإنسانَ يحبُّ المحسن، ولو لم يكنْ هو موضع الإحسان، ولكنه يُحبُّه لخُلُقه، وكرمه، وجوده، وسماحة نفسه، وهو ـ هنا ـ لا يحبُّه لذاته، ولكن لأنه سببٌ في الوصول إلى المطلوب، فالصحةُ محبوبةٌ لذاتها، والطبيب محبوب لا لذاته، بل لأنَّه سببُ الصحة.

* وهو يحبُّ كلَّ ما هو جميل في ذاته، حيث يستهويه الوجهُ الحسن، والمنظر البديع، والصوت الجميل، والخطّ المتميز، وهذا لا يشتملُ على الأشياء المرئية أو المتخيلة فقط، فالعينُ تستلذُّ بالنظر إلى ما هو جميل، والأذن تستلذُّ بالاستماع إلى النغمات الرقيقة العذبة المتناسقة، والقلب يستشعرُ الجمال الضمني الذي ينعكس على تصرفات المرء ومعاملاته.

فالحسنُ والجمالُ موجودٌ في المحسوسات وغير المحسوسات، حيث يقال: هذا علم جيد، وهذه سيرة حسنة، وهذه أخلاقٌ جميلة.

---

(١) رواه الديلمي كما في كنز العمال (٣٨١٠).

فالصفاتُ الحميدة منها ما يُدرك بالحواس الخمسة ، ومنها ما يدركُ بنور البصيرة.

وهذه الخلالُ الجميلة محبوبة ، والموصوف بها محبوب عند كل من عُرفت فيه هذه الصفات.

* وهو يحبُّ الشيء لذاته لا لحظٍّ يناله من وراء ذلك ، بل تكون ذاتُه هي عين حظه ، وهذا هو الحبُّ الحقيقي الذي يُوثق بدوامه؛ كحب الجمال والحسن؛ إذ إن كلَّ جمال محبوب عند مدرِكِ الجمال ، وذلك لعين الجمال؛ لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة ، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها ، وليس حبُّ الصور الجميلة مرهُوناً بقضاء الشهوة فقط ، إذ إن قضاء الشهوة لذة متميزة مختلفة ، والجمال المدرك من قبل النفس قد يكون محبوباً لذاته ، كما هو الحال عند من يستمتعُ بمنظر الخضرة الرائع والمياه المتدفقة؛ لا ليأكل الخضرة ، ويشرب الماء ، ولكن لجمالها الأخاذ ، وروعتها ، ولما تتركه في النفس من آثار.

فلو اجتمعت هذه الصفاتُ والأسبابُ في شخصٍ واحدٍ؛ لكان محبوباً لا محالة ، بل لا شكَّ بأن حبه سيتضاعف أضعافاً مضاعفة.

فما بالك بشابٍّ جميل حَسَن الخُلق ، حسن التدبير ، فَطِن ، سريع البديهة ، مُحْسنٍ لوالديه ، متواضع مع الناس ، لا يألو جهداً في مساعدتهم ونصرتهم ، والسعي في حاجاتهم ، فكيف ستكون علاقةُ الناس معه ، ونظرتهم إليه؟!

إنه لا شك سيكونُ محبوباً غاية الحب مِنْ قِبَل كل من يتعامل معه ، حيث تميلُ إليه النفوسُ ، وتهواه القلوبُ ، وتهيم به الأرواح.

ولا شك بأن اجتماعَ هذه الخصال ، وتضافرها ، وتساميها نحو الكمال ، تزيدُ من تحليق هذا الإنسان في أعين الناس ، وتجعلُ منه عَلَماً ترنو إليه

الأعين ، وتتطاول إليه الرقابة ، وتتعلَّق به القلوبُ ، وتهفو إليه العقول والأرواح .

محبة الله هي المحبة الحقيقية :

يشيرُ الغزالي ـ رحمه الله ـ في «الإحياء» إلى أن هذه الأسباب كلها لا يتصوّر كمالها ، واجتماعها إلا في حقِّ الله عز وجل ، وبالتالي لا يستحق المحبة حقيقةً إلا الله سبحانه وتعالى .

الجهل في المحبة :

يقول الغزالي :

«من أحبَّ غير الله لا من حيث نسبته إلى الله ، فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى ، وحب رسول الله ﷺ محمودٌ لأنه عينُ حب الله تعالى ، وكذلك حبّ العلماء والأتقياء؛ لأن محبوبَ المحبوبِ محبوبٌ ، وكُلُّ ذلك يرجعُ إلى حب الأصل ، فلا يتجاوزه إلى غيره ، فلا محبوبَ في الحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى ، ولا مستحقّ للمحبة سواه .

إنَّ مَنْ عرف نفسه ، وعرف ربَّه ، عرف ـ قطعاً ـ أنه لا وجودَ له من ذاته ، وإنما وجودُ ذاته ، وكمالُ وجوده من الله ، وإلى الله ، وبالله ، فهو الموجِدُ له ، وهو المبقي عليه ، وهو المكملُ لوجوده بخَلْق صفات الكمال ، وخَلْق الأسبابِ الموصلة إليه ، وخَلْق الهداية إلى استعمال الأسباب ، وإلا فالعبدُ من حيث ذاته لا وجود له من ذاته ، بل هو عدمٌ صرف لولا فَضْلُ الله تعالى عليه بالإيجاد ، وهو هالكٌ عقيب وجوده لولا فضلُ الله عليه بالإبقاء ، وهو ناقصٌ بعد الوجود لولا فضلُ الله عليه بالتكميل لخلقته ، وبالجملة فليس في الوجود شيء له بنفسه قوامٌ إلا الحيّ القيوم؛ الذي هو قائم بذاته ، وكل ما سواه قائمٌ به ، فإن أحب العارف ذاته ـ ووجود ذاته مستفاد من غيره ـ فبالضرورة يحبُّ المفيد لوجوده ، والمديم له؛ إنْ عرفه خالقاً موجداً ، ومُنْشِئاً مبقياً ، وقيوماً بنفسه ومقوِّماً لغيره .

فإنْ كان لا يحبُّه فهو لجهله بنفسه وبربِّه ، والمحبةُ ثمرةُ المعرفة ، فتنعدمُ بانعدامها ، وتضعف بضعفها ، وتقوىٰ بقوتها».

وقال الحسنُ البصري :

«من عرف ربَّه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ، وكيف يتصوّر أن يحبَّ الإنسانُ نفسه ولا يحبّ ربَّه ؛ الذي به قوامُ نفسه؟!».

إنَّ الإنسانَ يحبُّ مَنْ أحسن إليه ، فواساهُ بماله ، ولاطفه بكلامه ، وأمدَّه بمعونته ، وهبَّ لنصرته ، وقام بدَفْع شرِّ الأشرار عنه ، وحُبُّه لهذا الإنسان يقتضي بالضرورة أن يحبَّ اللهَ تعالى؛ لأنه لو عرفه حقَّ المعرفة؛ لعلم أنَّ المحسنَ الوحيد إليه هو الله عز وجل.

وهو يحبُّ المحسن في نفسه ولو لم يصلْ إليه إحسانه؛ لأنَّ ذلك موجودٌ في طبعه أيضاً ، وهذا يقتضي حب الله تعالى ، بل يقتضي ألاَّ يحبَّ غيره أصلاً؛ لأنَّ الله هو المحسنُ إلى الكلِّ ، وهو المتفضِّلُ على جميع الخلائق بإيجادهم أولاً ، وتكميلهم بالأعضاء والأسباب؛ التي هي من ضروراتهم ثانياً ، وتنعيمهم بخَلْق الأسباب؛ التي هي في مظانِّ حاجاتهم ، وإنْ لم تكنْ في مظانِّ الضرورة ثالثاً ، وبتجميلهم بالمزايا؛ والتي هي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم رابعاً.

من نِعَم الله تعالى :

فهو ـ سبحانه ـ الذي أنعم علينا بخَلْق الأعضاء الضرورية فينا كالدِّماغ ، والقلب ، والكبد ، والرئتين ، والكلىٰ ، وزاد في فَضْله أنْ خَلَق لنا السمع ، والبصر ، واللسان ، واليد ، والقدم ، وتفضَّل علينا فوق ذلك بتجميلنا بالأجفان ، والحواجب ، ورقّة الشفاه ، ولون العيون ، والشعر ، والأظفار وما إلى ذلك من نِعَم وآلاء.

وهو الذي أنبت لنا الأرضَ ، فأخرج لنا منها حبّاً متراكباً ، وأرزاقاً

مختلفة ، وفجّر لنا الأرضَ عيوناً ، وأجرى لنا الماء في كلِّ حدب وصوب ، نشربه بارداً سائغاً ، لا مثيلَ له ، وسخَّر لنا الكونَ كلَّه بكلِّ ما فيه ، بسمائه ، وأرضه ، وأفلاكه ، ونجومه ، وجباله ، وبحوره ، فهو ـ سبحانه ـ المحسنُ إذاً ، وكيف يكون غيره محسناً ، وذلك المحسنُ حسنة من حسنات قدرته ، فهو خالقُ الحسن ، وخالق المحسن ، وخالق الإحسان ، وخالق أسباب الإحسان ، فالحبُّ بهذه العلَّة لغيره أيضاً جهلٌ محض ، ومَنْ عرف ذلك لم يحبَّ بهذه العلَّة إلا الله تعالى.

وهو يحبُّ بعض الناس لذواتهم لا لشيء آخر أبداً ، ويمكن أن يُعْزَىٰ هذا الحبُّ إلى عدَّة أمور:

منها: علمهم بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، وشرائع أنبيائه.

ومنها: قدرتهم على ضَبْط أنفسهم ، وإصلاح العباد بإرشادهم ، ودعوتهم ، وتوجيههم.

ومنها: ترفُّعهم عن الرذائل والخبائث ، وتنزُّههم عن الانغماس في الشَّهوات والملذَّات؛ التي تصدُّ عن الخير ، وتقودُ إلى مهاوي الرذيلة والضَّياع.

وكلُّ هذه الصِّفات هي فضلٌ من الله يمنُّ به على عباده؛ إذ أنَّ عِلْمَ الإنسان محدودٌ وعِلْمُ الله لا نهايةَ له ، وقدرة الإنسان عدمٌ أمام قدرة الله عز وجل ، فقدرتُه ليست من نفسه ، بل اللهُ هو خالقُه ، وخالقُ قدرته ، وخالقُ أسبابه ، والممكِّن له من ذلك ، أي: إنه لا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرة الله عز وجل؛ مَنْ له العظمة والكبرياء ، العليم القهَّار.

وهل يُتَصَوَّر بعد هذا أن يُحَبّ عالم لغزارة علمه ، وقادر لكمال قدرته أمام كمال قدرة الله عز وجل؛ القادر الذي يفعلُ ما يشاء ، والعالم الذي لا يعزبُ عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض ، والقاهر الذي لا يخرجُ عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ، ولا ينفلت من سطوته أحدٌ على الإطلاق ، جبار

السموات والأرض ، ذو الفضل والجلال والقدرة والكمال؟!

سُئِل أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ: بِمَ عرفتَ ربك؟

قال: عرفتُ ربي بربي ، ولولا ربي ما عرفتُ ربي.

قيل: فكيف عرفتَ ربك؟

فقال: العجز عن الإدراك إدراك ، والبحث في ذات الله إشراك؛ لأنه تعالى كان ولا مكان ، وهو ما كان قبل خَلْق المكان ، علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما لا يكون ، لو كان كيف كان يكون؟!

لوازم العبادة ومحبة الخالق العظيم:

فلا بُدَّ إذاً في العبادة من العنصرين معاً: غاية الخضوع لله ، وغاية المحبة لله.

والخطر كل الخطر يكمنُ في ادِّعاء البعض لمحبَّة الله عز وجل دون تحقيق العنصر الأول، أَلاَ وهو الخضوعُ لله، والاتباع والانقياد لتعاليمه ، ولتشريعاته، ولما جاء به رُسُلُ الله.

يقول تعالى:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

فلا يكونُ محبّاً لله إلا مَنْ يتبع رسولَه ، وطاعةُ الرسول ومتابعتُه لا تكونُ إلا بتحقيق العبودية.

يقول شيخُ الإسلام:

«إنَّما عَبَدَ اللهَ مَنْ يرضيه ما يرضي الله ، ويُسخطه ما يسخط الله ، ويحبُّ ما أحبه الله ورسوله ، ويبغضُ ما أبغضه اللهُ ورسوله ، ويُوالي أولياءَ الله تعالى ، ويُعادي أعداء الله تعالى».

هذا هو الذي استكمل الإيمانَ كما في الحديث: «من أحبَّ لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومَنَع لله ، فقد استكمل الإيمان»[1].

وقال ﷺ: «أوسطُ عُرا الإيمان: أن تحبَّ في الله ، وأن تُبْغِضَ في الله»[2].

العمل المقبول:

إنَّ رسولَ الله ﷺ يشير ـ هنا ـ إلى أنَّ تمام العبادة لا يكونُ إلا عندما يوافقُ العبدُ ربَّه فيما يحب ويكره ، ولا يعطي حين يعطي إلا ابتغاء وجهه الكريم ، ولا يمنع حين يمنع إلا امتثالاً لأمر الخالق العظيم ، واجتناباً لنواهيه.

فكلُّ عملٍ أريد به غير الله لم يكنْ لله ، وكلُّ عمل لا يوافقُ شرعَ الله لم يكنْ لله ، بل لا يكون لله إلا ما جمع بين أمرين ، وهما: أن يكون العملُ لله ، وأن يكونَ موافقاً لمحبة الله ورسوله؛ إذ أنَّ كلَّ عملٍ لا يُراد به وَجْهُ الله فهو باطل ، ولا يكون العملُ ابتغاء وَجْه الله إلا ما أحبه الله ورسوله ، وهو العملُ المشروعُ.

يقول عليه الصلاة والسلام:

«ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حلاوةَ الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما ، مَنْ أحبَّ عبداً لا يحبُّه إلا لله تعالى ، ومَنْ يكرهُ أن يعودَ في الكفر بعد أنْ أنقذه اللهُ تعالى منه؛ كما يكره أن يُقْذَفَ في النار»[3].

وعندما يكون الله ورسولُه أحبَّ إلى الإنسان من نفسه ، يكون قد أدرك كمالَ الحب ، وبلغ قمة العبودية.

فعن عمر بن الخطاب قال: يا رسول الله ، واللهِ لأنتَ أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا من نفسي. فقال: «يا عمر ، حتى أكون أحبَّ إليكَ من نفسك» فقال:

---

(١) رواه أحمد (٣/٤٣٨ و٤٤٠) وأبو داود (٤٦٨١) والترمذي (٢٥٢١) والحاكم (٢/١٦٤).
(٢) رواه أحمد (٤/٢٨٦).
(٣) سبق تخريجه ص (٢٠).

فوالله لأنتَ أحبُّ إليّ من نفسي: فقال: «الآن يا عمر»[1].

الحب في الله والبغض في الله:

ولا يقتصرُ الأمرُ على محبة الله ورسوله، فمن أحبَّ الناسَ لله لا لغرضٍ آخر، ووافق في محبته وبُغْضه ما يحبُّ الله ويبغض؛ بلغ تمام الحبِّ لله، إذ أنَّ محبة محبوبِ المحبوب من تمام محبة المحبوب، فحبُّ أنبياء الله وأوليائه لقيامهم بمحبوبات الله لا لشيء آخر؛ يرقى بحبِّ هذا الإنسان لله، ويزرع في قلبه حلاوةَ الإيمان.

يقول تعالى:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤].

إن الله عز وجل قد جعل للمحبين علامتين، هما:

الأولى: اتّباع الرسول، فمن كان محبّاً لزم عليه اتِّباع الرسول، فيصدّقه فيما أخبر، ويطيعه فيما أمر، وينتهي عمّا عنه نهىٰ وزجر، ويتأسَّىٰ ويقتدي به فيما فعل.

والثانية: هي الجهادُ في سبيله، وذلك لأنَّ الجهادَ في حقيقته هو الاجتهادُ في حصول ما يحبُّه من الإيمان، والعمل الصالح؛ بنشر دعوته، وتحمُّل ما في ذلك من مشاق وعقبات، وصَدٍّ وعذابات، ودَفْع لما يبغض الله من الكفر والفسوق والعصيان بشتىٰ الطرق؛ اليد، أو اللسان، أو القلب.

المحبة مصداق العبودية:

وقد يظن بعضُ الناس أن محبة الله تنافي العبودية له، ولا تصاحب خشية الله ومخافته؛ التي يتوجب على المرء أن يتَّصف بها في كل آن، وأنه إنما

---

(١) رواه أحمد (٤/٣٣٦).

يتوجَّبُ علىٰ العبد الخضوع والطاعة والتذلل فقط ، وأن المحبةَ لا تتحقق أو لا تكونُ من العبد إلى المعبود ، أو من المخلوق إلى الخالق.

ولكن هذا يخالفُ الصواب ، ويجانب الحقيقة ؛ إذ أن المحبة لا تتنافىٰ مع الخوف ، يقول ابن تيمية :

«ليس عند القلب السليم أحلىٰ ، ولا ألذّ ، ولا أطيب ، ولا أسرّ ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمِّن عبوديته لله ، ومحبته له ، وإخلاصه الدين له. وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله ، فيصير القلبُ منيباً إلى الله ، خائفاً منه ، راغباً راهباً ، كما قال تعالى : ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق : ٣٣].

إذ المحبُّ يخاف من زوال مطلوبه ، أو عدم حصول مرغوبه ، فلا يكونُ عبدُ الله ومحبّه إلا بين خوف ورجاء ، كما قال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء : ٥٧]».

يقول الإمامُ الغزالي في التدليل على وجوب حب الله ، وبيان شواهد الشرع في حب العبد لله :

«اعلم أنَّ الأمة مجمعةٌ على أن الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ فرض ، وكيف يُفرض ما لا وجودَ له ، وكيف يفسّر الحبّ بالطاعة ، والطاعة تبع الحب وثمرته؟ فلا بُدَّ وأن يتقدم الحبُّ ، ثم بعد ذلك يطيعُ من أحب».

ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة : ٥٤] وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] وهو دليلٌ على إثبات الحب ، وإثبات التفاوت فيه ، وقد أمر رسولُ الله ﷺ صحابته بمحبة الله إذ قال : «أحبُّوا اللهَ لما يغذوكم مِنْ نِعَمِهِ ، وأحبّوني بحبِّ الله»[1].

وعن عمر رضي الله عنه قال : نظر النبيُّ ﷺ إلى مصعب بن عمير ، وعليه

---

(١) رواه الترمذي (٣٧٨٩) والحاكم (٣/ ١٥٠).

إهابُ كبش قد تنطَّق به ، فقال النبيُّ ﷺ: «انظروا إلى هذا الرجل الذي نوَّر اللهُ قلبه ، لقد رأيتُه بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ، فدعاه حبُّ الله ورسوله إلى ما ترون»[١] .

وجاء أعرابيٌّ إلى النبي ﷺ ، فقال: يا رسول الله ، متى الساعة؟ قال: «ما أعددت لها»؟ فقال: ما أعددتُ لها كثيرَ صلاةٍ ولا صيام ، إلا أني أحبُّ اللهَ ورسولَه ، فقال له رسولُ الله ﷺ: «المرءُ مع مَنْ أحب».

قال أنس: فما رأيتُ المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك[٢] .

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: مَنْ ذاق مِنْ خالص محبة الله تعالى ، شَغله ذلك عن طلب الدنيا ، وأوحشه عن جميع البشر.

وقال الحسن البصري: مَنْ عرف ربَّه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل ، فإذا تفكَّر حزن.

وقال هرمُ بن حيَّان: المؤمنُ إذا عرف ربَّه عز وجل أحبه ، وإذا أحبه أقبل عليه ، وإذا وجد حلاوةَ الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهي تحسرهُ في الدنيا ، وتروحه في الآخرة.

وقال يحيى بن معاذ: إلهي إني مقيمٌ بفنائك ، مشغول بثنائك ، صغيراً أخذتني إليك ، وسَرْبلتني بمعرفتك ، وأمكنتني من لطفك ، ونقلتني في الأحوال ، وقلبتني في الأعمال ستراً وتوبة وزهداً وشوقاً ورضاً وحباً ، تسقيني من حياضك ، وتهملني في رياضك ، ملازماً لأمرك ، ومشغوفاً بقولك ، ولما طَرَّ مني شاربي ، ولاح طائري ، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً ، وقد اعتدتُ هذا منك صغيراً؟! فلي ما بقيتُ حولك دندنةٌ ، وبالضراعة إليك همهمةٌ؛ لأني محبٌّ ، وكلُّ حبيب بحبيبه مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف.

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ١٠٨) .
(٢) رواه البخاري (٦١٦٨) ومسلم (٢٦٤٠) .

المحبة هي الغاية القصوى:

يقول الغزالي:

«إنَّ المحبةَ لله هي الغايةُ القصوىٰ من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام وإلا وهو ثمرةٌ من ثمارها، وتابع من توابعها؛ كالشوق، والأنس، والرضا، وأخواتها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدّمةٌ من مقدّماتها؛ كالتوبة، والصبر، والزهد، وغيرها».

من أدعية المحبين:

وليس هناك أَدَلَّ على سموٍّ من يبلغُ مرتبةَ حب الله عز وجل مِنْ دعاء كان يتوجَّه به رسولُ الله، وحبيبه، وخاتم أنبيائه، وصفوة خَلْقه إليه في خلواته وبين أصحابه.

عن عبد الله بن يزيد الخَطْمي رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «اللهم ارزقني حُبَّك، وحُبَّ من ينفعني حُبُّه عندك، اللهم ما رزقتني مما أُحِبُّ فاجعله قوةً لي فيما تحبّ، اللهم وما زويتَ عني مما أُحِبُّ فاجْعَلْه قوةً فيما تحب»[1].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «كان من دعاء داود عليه الصلاة والسلام: اللهم إنّي أسألُكَ حُبّك، وحُبَّ مَنْ يحبُّك، والعملَ الذي يُبلِّغني حُبَّك. اللهم اجعلْ حُبَّك أحبَّ إليَّ مِنْ نفسي، وأهلي، ومن الماء البارد»[2].

وكان رسولُ الله ﷺ حين يتكلم عن داود يقول عنه: «كان أعبد البشر»[3].

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٩١).

(٢ و٣) رواه الترمذي (٣٤٩٠).

ضرورة إفراد الله بالمحبة:

قال ابن القيم:

«أصلُ العبادةِ محبةُ الله ، بل إفراده بالمحبة ، وأن يكون الحبُّ كله لله ، فلا يُحَبّ معه سواه ، وإنما يُحَبّ لأجله وفيه».

حُبُّ الله تعالى في عصر الذَّرَّة:

تُرى هل هناك مبررٌ لمثل هذا الحديث في مثل هذا العصر بالذات ، عصر الذرة والفضاء ، عصر المعلوماتية والحاسوب ، عصر سيطرة العقل والعلم ، وعصر انقلاب العالم بأسره إلى مجرد قرية صغيرة محدودة؟!

هل هناك مُبرِّرٌ لمثل هذا الحديث في عصرٍ أصبح فيه ديدنُ التعامل بين الناس هو التعامل المادي ، ونُبذت فيه العلاقاتُ السماوية السامية ، واستُبدلت بعلاقاتٍ أرضية سقيمة هابطة؟!

هل هناك مبررٌ لمثل هذا الحديث في عصرٍ تحوَّلتْ فيه عباداتُ الناس إلى مجرد طقوس ورسوم لا مضمون لها ولا مدلول ، ولا تعدو أن تكونَ مجرد حركاتٍ ، لا تترك في قلب مؤدِّيها وحِسِّه أيّ أثر؟!

هل هناك مبررٌ لمثل هذا الحديثِ في عصر تحوَّل فيه الدينُ إلى مجرد عبادة؛ لا دَخْلَ له بدنيا الناس أو يوميات حياتهم ، وعلاقاتهم ، وتعاملاتهم ، وآرائهم ، وأفكارهم ، وأهوائهم ، وميولهم؟!

في ضوءِ كلِّ هذا... في ضوء الكشوف العلمية الباهرة...

وفي ضوء المعجزات التي تتكشف كلَّ يوم أمام أعين الناس...

وفي ضوء كلِّ ما هو مُعْجز في هذا الكون؛ من أصغر مُكَوِّن فيه ، إلى أكبر شيء فيه... من الخلية المتناهية في الصِّغر ، إلى المجرات اللامحدودة في اتساعها وتناسقها وتماديها...

وفي ضوء ما يبرزُ كلّ يوم أمام أعين الإنسان من مُسَخّرات أوجدت بعناية ودقة ، ومنذ الأزل. . .

وفي ضوء عَجْز هذا الكائن المتكبر المتجبِّر أمام كائناتٍ لا تكاد ترىٰ ، وآلِيّاتٍ معقدة مبهمة غير مبررة .

في ضوء كلِّ هذا. . . وأمام كلِّ هذا. . . كان لا بُدَّ من الحديث عن حُبِّ الله الخالق ، المبدع ، المصوِّر ، الرزاق ، الوهاب؛ لأنك كلما ازددتَ معرفةً لهذا الإله ، وأدركتَ عظيمَ خَلْقه ، وغُصْتَ عميقاً في مجاهل هذا الكون ومناحيه ، وقفتَ على عظيم تدبيره وتنسيقه ، وعَايَنْت كلَّ صغيرة وكبيرة تتعاملُ معها في كل مطلع شمس ومغربها ، وخَبِرْتَ ما يحيطُ بك من نِعَم لا تعدُّ ، وآلاء لا تحصى. . . أيقنتَ أنك لا تقومُ دون هذا الإله المنعم المتفضل ، وأحسستَ بحاجتك اللامتناهية في اللجوء إليه ، والانكفاء على أعتابه ، وعلمتَ أنك له خُلقت. . . لمعرفته ، وعبادته. . . لطاعته ، ومحبته.

* فعندما تنظرُ إلى دماغك ، وترى عظيمَ صُنْعه ، وتفهمُ بعضاً من آليات عمله ، وكيف يسيطرُ على أعضاء جسمك كلها ، ينسّق بينها ، ويُرتِّب عملها ، وكيف يخزنُ المعلومات ، ويرتِّبها ، ويستدعيها حين الحاجة إليها ، وكيف يترجمُ ما يسقطُ على شبكية عينيك ، فيحيله صورةً بهيّة ، لا مثيلَ لها ، وكيف يحولُ الذبذبات التي تطرقُ غشاءَ الطبل في أذنيك إلى كلمات مفهومة ذات معانٍ.

وكيف يُحوِّل الموادَّ المختلفة؛ التي تقعُ على لسانك؛ إلى مذاقات جِدّ متباينة.

وكيف يصوِّرِ لك ، ومن خلال جِلْدٍ لا يعي ، ولمسة عابرة؛ ما تلمسُ من أشياء ، وكيف يوازنُ بين حركة قدميك ويديك ورأسك حين تمشي.

* وعندما تنظر إلى قلبك؛ الذي لا يجاوزُ حجمُه حجمَ قبضة يدك ، وكيف يعملُ بتناسق عجيبٍ بين شقّيه الأيمن والأيسر؛ ليوصل الدمَ القاني إلى أبعد نقطةٍ في جسمك ، قاطعاً بذلك كلَّ مرة ما ينوفُ عن محيط الكرة الأرضية

كلهـا ، ومكـرراً ذلـك يـوميـاً آلاف آلاف المـرات ، لا يكـلُّ ولا يتعـب ، ولا يقف ، أو يستريح. وكيف يوزِّع الدمَ على مختلف الأعضاء بتنسيق عجيب ، كلّ حسب حاجاته ومتطلباته. وكيف يبطىء نظمه ، أو يُسَرّعُه عند الحاجة ، وكيف يستجيبُ لخوفك ، وتوتّرك ، وهيامك.

* وعندما تنظرُ إلى كليتيك ، وترى فيهما معملاً لتنقية النفايات ، تحتاج لتقليده في الواقع إلى بناء كامل من عدَّة طبقات ، مجهّز بأفضل المعدَّات ليحاكي مجرد محاكاة عمل هذه الكلية الصغيرة القابعة هناك على جانب عمودك الفقري.

* وعندما تعلم أن هذا الجهازَ الصغير يكرِّرُ يومياً ما يعادلُ برميلاً ونصف البرميل؛ ليستخلصَ منه ليتراً أو ليترين من المواد السامة والمحلَّفات الضارة.

* وعندما تعلم أنه يلتقطُ كل ما هو مفيد لك فيردّه إلى جسمك؛ لكي تستفيد منه.

* وعندما ترى المصابين بقصور هذا الجهاز ، ومايؤولون إليه.

* وعندما تفكّر كيف تنطلقُ البويضةُ من مبيضها ليتلقفها البوقُ ، وكيف تسبحُ النّطافُ جاهدةً بعد إلقائها في المهبل نحو هذه البويضة ، لتَّتحد معها ، وتكون بذرةَ خليفتك.

* وعندما ترى كيف يدورُ الجنين عند ولادته ليوافق أكبر أقطار جسمه أكبر أقطار حوض أمه.

* وعندما تعلم أنَّ الجنين في بطن أمه يعيشُ تسعة أشهر دون أن يتنفس ، ولا يستطيع أن يعيشَ خارجَ بطن أمه دون تنفُّس ولا حتى بضع دقائق.

* وعندما تعلم أن نمط دوران الدم في قلب الجنين وجسمه يختلفُ عن نمط الدوران في قلبه خارج بطن أمه ، ولا يمكن له أن يستمرَّ في الحياة الدنيا دون تغيير هذا النمط ، وأنه يتغير تلقائياً حال ولادته.

* وعندما تشاهدُ وتلمسُ نسيانَ الأم آلام المخاض وعذاباته؛ حالما تقعُ عيناها علىٰ هذا الزائر الجديد.

* وعندما تُدْخل الطعامَ في فمك سائغاً، لا مثيلَ له؛ بطعوم مختلفة، وألوان متباينة، فيه ما لَذَّ وطَاب، وتخرجه كريهاً لا فائدةَ منه على الإطلاق.

* وعندما تشعرُ بالحلو، والمرّ، والحامض، والحارّ، والساخن، والبارد، والمذاقات المختلفة.

* وعندما تلمسُ قدرةَ جهازك الهضمي على استخلاص كلّ ما هو مفيدٌ لك، وتدرك قدرته على طَحْن، وتفتيت، وهضم كلّ ما يدخلُ إلى فمك.

* وعندما تدركُ أهميةَ شعورك بالتغوّط والتبول، وحاجتك إلى ذلك.

* وعندما تدركُ أهمية جِلْدك الذي يُغلِّفُ جسمك في حمايتك من الأخطار المختلفة كالاحتراق وغيره.

* وعندما تدركُ أهميةَ جهازك البصري في رؤية ما يحيطُ بك، واستكشاف كلّ ما هو جميل وجديد.

* وعندما تدركُ أهمية جهازك السَّمعي في تنبيهك لما قد يُحدقُ بك من أخطار.

* وعندما تدركُ أهمية عينيك، وأذنيك، ولسانك في التواصل مع محيطك الخارجي؛ بكلِّ ما فيه من مخلوقات، وجماليات، ومتغيرات.

* وعندما ترى الشمسَ بنورها تشرقُ كلَّ صباح لتدفيء العالمَ كله، وتؤذن بمجيء يوم جديد.

* وعندما تعلم أنَّ اقترابَ هذه الشمس من أرضنا التي نعيشُ عليها قِيْد أُنْملة، أو ابتعادها عنها قِيْد شعرة؛ فيه هلاكك، وهلاك كل مخلوق على وجه الأرض.

* وعندما تعلم أن الشمسَ تدورُ في مسارٍ لا تحيدُ عنه، وتعلم أن كواكبَ

مجموعتها تدورُ حولها ، وحول نفسها وَفْق نظامٍ لا يختلُّ ، وتعلم أن الأقمارَ الصغيرة التابعة لهذه الكواكب؛ تدورُ حولها في مسار لا تعدوه إلى غيره على الإطلاق.

* وعندما ترى المحيطات والبحارَ ، وتعلم أنها تغطي ما يزيدُ عن سبعين بالمئة من سطح كرتك الأرضية ، وأنك تعيشُ ومليارات من الناس ، وبلايين من الخلائق فوق ما يقلُّ عن سدس مساحة الكرة الأرضية فحسب.

* وعندما ترى خلائق المحيطات ، وترى تنوُّعَها العجيبَ ، وتنظر بعضاً من عاداتها ، وطرق تكاثرها ، ومعيشتها.

* وعندما تلحظُ الأنواعَ المختلفة من الخضراوات والفواكه؛ بألوانها المختلفة ، وأشكالها المتباينة ، وطعومها المتميزة ، وتدرك عجزك حتى عن استنباط ، أو اختراع شكلٍ جديد ، فما بالك بتركيب مختلفٍ ، ولون مختلف ، وطعم مختلف ، وفائدة مختلفة؟!

* وعندما تنظر إلى الأشجار المبثوثة في كلِّ حدب وصوب بأشكالها المتقاربة ، وأوراقها المتشابهة ، وتشاهد ثمارها المتباينة بكل شيء فيها.

* وعندما تبذر في الأرض بذرةً لا يزيدُ وزنها عن بضعة غرامات في أحسن الأحوال ، وتشاهد ما ينجمُ عنها كشجرة باسقة ، أو نبتة صغيرة ، أو سنبلة تحيلُ الحبَّة إلى مئة حبّة أو يزيد.

* وعندما تشاهدُ الماءَ يتدفق زُلالاً من بين الحجارة القاسية ، ويسيلُ جارفاً أمامه ما يعجزُ حتى الجبابرة عن تحريكه.

* وعندما تشاهدُ الماءَ ينبعُ من أعلى قمة في الجبل ، ثم يتدفَّق ليسقي كلَّ ما يقعُ تحته من أراضٍ وأناسٍ وهوام.

* وعندما يغور الماءُ في أرضك ، ولا تجدُ سبيلاً للحصول عليه.

* وعندما يهطل المطرُ سحّاً ، فيغمر الأرض بكل ما فيها ، ويقتلعُ كل ما يقع أمامه.

* وعندما يتحول هذا الماءُ الهاطلُ من نقمة إلى نعمة ، تروي الأرض ، وتملأ العيون ، وتنقع غلَّةَ العطاش.

* وعندما يتحوَّلُ الهواءُ الرقيقُ الذي تتنسَّمه ، وتستنشقه ، والنسيم العليل الذي يداعبُ وجنتيك إلى ريح صَرٍّ عاتية تدمّر ، وتخرّب ، وتقلبُ كلَّ شيء.

* وعندما تتحولُ هذه الريحُ إلى خادمة لك ، تقومُ بتلقيح نباتاتك وأزهارك. . .

* وعندما تصحو في الصباح على زقزقة عصفور يغردُ قرب نافذتك ، ونسمة عليلة تملأ رئتيك ، وتلامس وجنتيك.

* وعندما ترى الحيوانات المسخّرة لخدمتك لنقلك ، وإطعامك ، وتدفئتك.

* وعندما تشاهد أنَّ لكلِّ مخلوقٍ عدواً يهابه ، ويخافُ تسلُّطَه عليه؛ مهما صغر أو كبر.

* وعندما ترى النحلةَ في سعيها وكدِّها ، وترى ما تصنعه من الرائحة والرحيق وحبات الطلع الصفراء ، وترىٰ النملة في كدِّها ونشاطها ومواظبتها.

* وعندما ترى مملكة النحل ودقتها ، وخلية النمل وترتيبها.

* وعندما ترى كيف تحمي المخلوقات صغارها وأجنَّتها عن عيون أعدائها وأنيابها.

* وعندما تلمح ذلك ولو للحظة ، وعندما يقع ذلك في حسِّك ولو لثانية.

* وعندما تجلس لتتفكر في كل ما يحيط بك ، أو حتى بعضاً منه.

* وعندما تنبش باحثاً عن السُّنن ، والنواميس ، والقوانين.

* وعندما تقنعُ في مخيلتك أنك وبكـلِّ جبروتك ، وعنفوانك ، وأنفتك ، وتكبرك ؛ لا تعدو أن تكونَ ذرةً هائمة في فضاء وسيع .

* وعندما تـرى كلَّ هذه لا شك سيأخـذك العجبُ إنْ كنـتَ تمـلك عقـلاً يفهم ، أو قلباً يعي .

* وعندما ترى كلَّ هذه أو بعضاً منه ؛ ستشعر بضآلتـك ، وصَغَـارك ، في هذا الكون الفسيح الأفيـح ، وستدرك أنك بحاجـةٍ ، وحاجـةٍ ماسَّة ، إلى قوة علوية قادرة تلتجىء إليها ، وترتمي على أعقابها ، وتحتمي بحماها .

إنه الله ؛ الذي خلقـك في أحسن تقويـم ، وأحسن كلَّ شيء خَلَقه ، وسخَّر لك ما في الكون كله .

لهذا ولغير هذا كثير . . . قال رسولُ الله ﷺ : «أحبُّـوا اللهَ لما يغذوكم به من نِعَمِه»[1] .

دعـاء وابـتهـال :

اللهم ارزقنا حبَّـك ، وحبَّ مَنْ يحبُّـك ، وحُبَّ عمل يقرِّبنا إلى حبِّـك .

اللهم اجعلْ همسـات قلوبنـا ، وحركـات أعضائنـا ، ولمحـات أعيننـا ، ولهجات ألسنتنا في موجبات ثوابك ؛ حتى لا تفوتنا حسنة نحظى بها بجزائك ، ولا تبقى لنا سيئة نستوجب بها عقابك .

يـا مَـنْ يُـرجـى للشـدائـد كُلِّهـا ... يـا مَـنْ إليـه المشتكـى والمفـزعُ
مـا لـي سـوى قَـرْعي لبابـكَ حيلـةٌ ... ولئـن رُدِدْتُ فـأيَّ بـابٍ أقـرعُ؟!
حـاشـا لجـودك أن تقنـطَ عـاصيـاً ... الفضـلُ أَجـزلُ والمـواهـبُ أوسـعُ
ثـم الصـلاةُ علـى النبـي وآلـهِ ... خيـرِ الأنـامِ ومَـنْ بـه يُتَشَفَّـعُ

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

يوسف بديوي

---

(١) سبق تخريجه ص (٤٣) .



عَزَّ وَجَلَّ

تأليف

ابن قيِّم الجوزيَّة

(٦٩١ ـ ٧٥١ هـ)

حقَّق نصوصه وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه

يوسف علي بديوي

مقدمة المؤلف

الحمدُ الله الذي جعلَ المحبَّة إلى الظفر بالمحبوب سبيلاً ، ونصبَ طاعَته والخضوعَ له على صدق المحبَّة دليلاً ، وحرَّكَ بها النفوسَ إلى أنواع الكمالات إيثاراً لطلبها وتحصيلاً ، وأودعَها العالم العلويَّ والسُّفليَّ لإخراج كماله من القوة إلى الفعل إيجاداً وإمداداً وقبولاً ، وأثارَ بها الهمم السامية والعَزَمات العالية إلى أشرف غاياتها تخصيصاً لها وتأهيلاً ، فسبحان من صرَّف عليها القلوب كما يشاء و لما يشاء بقدرته ، واستخرجَ بها ما خلق له كل حيٍّ بحكمته ، وصرَّفها أنواعاً وأقساماً بين بَرِيَّتِهِ ، وفصَّلها تفصيلاً ، فجعلَ كلَّ محبوبٍ لمحبِّه نصيباً ، مخطئاً كان في محبَّته أو مصيباً ، وجعلَه بحبه منعَّماً أو قتيلاً . فقسمها بين محبِّ الرحمن ، ومحبِّ الأوثان ، ومحبِّ النيران ، ومحبِّ الصُّلبان ، ومحبِّ الأوطان ، ومحبِّ الإخوان ، ومحبِّ النِّسوان ، ومحبِّ الصبيان ، ومحبِّ الأثمان[1] ، ومحبِّ الإيمان ، ومحبِّ الألحان ، ومحبِّ القرآن .

وفضَّلَ أهلَ محبته ومحبة كتابه ورسوله على سائر المحبين تفضيلاً ، فبالمحبة وللمحبة وُجدت الأرض والسموات ، وعليها فُطرت المخلوقاتُ ، ولها تحرَّكت الأفلاكُ الدائرات ، وبها وصلتِ الحركاتُ إلى غاياتِها ، واتّصلتْ بداياتُها بنهاياتها ، وبها ظفرتِ النفوسُ بمطالبها ، وحصلتْ على نيل مآربها ، وتخلَّصت من مَعاطِبها[2] ، واتخذت إلى ربها سبيلاً ، وكان لها دون

---

(١) «الأثمان» جمع الثَّمَن ، وهو ما يأخذه البائعُ عوضاً عن الشيء المَبِيع .
(٢) «معاطبها» : جمع المَعْطَبة ، وهي : المَهْلَكة .

غيره مأمولاً وَسُولاً[1] ، وبها نالتِ الحياةَ الطيبة ، وذاقتْ طعمَ الإيمان لما رضيت بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً .

وأشهدُ أنْ لا إلّهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادَةَ مُقرٍّ بربوبيته ، شاهدٍ بوحدانيتِه ، منقادٍ إليه لمحبتِه ، مذعنٍ له بطاعتِه ، معترفٍ بنعمتِه ، فارٍّ إليه من ذنبه وخطيئته ، مؤمِّلٍ لعفوه ورحمتِهِ، طامع في مغفرته ، بريءٍ إليه من حَوْله وقوّته ، لا يبتغي سِواه رباً ، ولا يتخذ من دونه وليّاً ولا وكيلاً ، عائذٍ به ، ملتجٍ إليه ، لا يرومُ عن عبوديته انتقالاً ولا تحويلاً .

وأشهدُ أن محمداً عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه ، وأمينه عَلَى وحيه ، وسفيره بينه وبين عباده ، أقرب الخلق إليه وسيلةً ، وأعظمهم عنده جاهاً ، وأسمعهم لديه شفاعة ، وأحبُّهم إليه ، وأكرمهم عليه ، أرسله للإيمان منادياً ، وإلى الجنة داعياً ، وإلى صراطه المستقيم هادياً ، وفي مرضاته ومَحَابّه ساعياً ، وبكل معروفٍ آمراً ، وعن كل منكرٍ ناهياً ، رفعَ له ذكرَه ، وشرحَ له صدرَه ، ووضعَ عنه وِزْرَه ، وجعلَ الذِّلّةَ والصَّغار[2] على من خالفَ أمره ، وأقسمَ بحياته في كتابه المبين[3] ، وقرنَ اسمَه باسمِه ، فإذا ذُكِر اللهُ ذُكِر معه ، كما في الخُطَب والتَّشَهُّد والتأذين ، فلا يصح لأحدٍ خطبةٌ ولا تشهدٌ ولا أذان حتى يشهدَ أنه عبده ورسوله شهادة اليقين :

أغــرٌّ عليــه للنبــوة خَــاتــمٌ ... مِــن اللهِ مَيْمُــونٌ يلــوحُ ويُشْهَــدُ
وضــمَّ الإلّـهُ اسْـمَ النبـيِّ إلـى اسمـهِ ... إذا قالَ في الخَمْسِ المُؤَذِّنُ أشهدُ

---

(1) «سولاً»: سُؤْلاً ، وهو الطَّلَب .

(2) «الصَّغَار»: الضَّيْم والهوان والضَّعَة والاحتقار .

(3) قال الله تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : ٧٢]. قال ابن قيم الجوزية في كتابه : «التبيان في أقسام القرآن» (ص ٢٦٩) : «أكثر المفسِّرين من السلف والخلف ، بل لا يَعْرِفُ السَّلفُ فيه نزاعاً أنَّ هذا قَسَمٌ من الله بحياة رسوله ﷺ ، وهذا من أعظم فضائله أن يقسمَ الربُّ عز وجل بحياته» .

وشـــقَّ لـــه مِـــن اسمِـــه لِيُجِلَّـــه فذو العَرْشِ مَحمُودٌ وهَذا مُحمَّدُ[1]

أرسله على حين فترةٍ من الرسل ، فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السُّبل ، وافترضَ على العباد محبَّته وطاعته ، وتوقيرَهُ والقيامَ بحقوقه ، وسدَّ إلى الجنة جميعَ الطرق فلم يفتح لأحدٍ إلا من طريقه. فلا مطمعَ في الفوز بجزيل الثواب ، والنجاةِ من وَبيل[2] العقاب ، إلاَّ لمن كان خلفَه من السالكين ، ولا يؤمنُ عبدٌ حتى يكونَ أحبَّ إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين ، فصلَّى الله وملائكته وأنبياؤُه ورسلُه وجميعُ عباده المؤمنين عليه ، كما وحّد اللهَ وعرَّف أمته به ودعا إليه ، صلاةً لا ترومُ عنه انتقالاً ولا تحويلاً ، وعَلَى آله الطيبين ، وصحبه الطاهرين ، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن الله جلّ ثناؤُه ، وتقدَّستْ أسماؤُه ، جعل هذه القلوب أوعيةً ، فخيرُها أوعاها للخير والرشاد ، وشرُّها أوعاها للغَيِّ والفساد ، وسلك عليها الهوى ، وامتحنها بمخالفته لتنالَ بمخالفته جنَّةَ المأوى ، ويستحقَّ من لا يَصْلُحُ للجنة بمتابعته ناراً تلظَّى ، وجعله مركبَ النفس الأمارة بالسوء وقوتَهَا وغذاها ، وداءَ النفس المطمئنة ومخالفتَه دواها ، ثم أوجب سبحانه وتعالى على العبد في هذه المدة القصيرة التي هي بالإضافة إلى الآخرة كساعةٍ من نهـار ، أو كبللٍ ينـالُ الإصبع حين يُدخلهـا في بحرٍ من البحـار ، عصيانَ النفس الأمارة ، ومجانبة هواها ، وردعَها عن شهواتها التي في نيلها ردَاها ، ومنعَها من الركون إلى لذاتها ، ومطالبة ما استدعته العيونُ الطامحة بلحظاتها ، لتنالَ نصيبَها من كرامته وثوابه موفَّراً كاملاً ، وتلتذَّ آجلاً بأضعاف ما تركته لله عاجلاً ، وأمرها بالصيام عن محارمه ليكونَ فطرها عنده يوم لقائه ، وأخبرها أن معظمَ نهار الصيام قد ذهب ، وأن عيد اللقاء قد اقترب. فلا يطول عليها الأمد باستبطائه. كما قيل:

---

(١) الأبيات لحسان بن ثابت. انظر ديوانه (٣٣٨).

(٢) «وبيل»: شديد.

فمَا هي إلا سَاعةٌ ثمَّ تَنْقَضِي ويـذهـبُ هَـذا كُلُّـه ويَـزُولُ

هيأها لأمرٍ عظيم ، وأعدَّها لخطبٍ جسيم ، وادَّخر لها ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطرَ عَلَى قلبٍ بشر؛ من النعيم المقيم ، واقتضتْ حكمته البالغةُ أنها لا تصلُ إليه إلا من طريق المَكاره والنَّصَب ، ولا تعبُرُ إليه إلا عَلَى جسر المشقَّة والتعب ، فحجَبه بالمكروهات صِياناً له عن الأنفس الدنيّات ، المؤْثرة للرذائل والسّفليّات ، وشمَّرت إليه النفوس العلويات ، والهممُ العليّات ، امتطت في السير إليه ظهورَ العَزَمات ، فسارت في ظهورها إلى أشرف الغايات :

وركبٍ سَرَوْا والليلُ مُرْخٍ رِوَاقَه عَلَى كُلِّ مُغْبَرِّ المَـوارِدِ قَاتـمِ
حدَوْا عزماتٍ صاغت الأرضُ بينَها فصَارَ سُراهم في ظهورِ العَزائمِ[1]
أرتهـم نجـومُ اللَّيـل مـا يطلبُـونَـه عَلَى عَاتقِ الشِّعرى وهامِ النَّعائمِ[2]
فـأَمُّـوا حِمَـىً لا يَنبغـي لِسـوَاهُـمُ ومَـا أَخَـذَتْهُـمْ فيـه لَـوْمَـةُ لائـمِ

أجابوا مناديَ الحبيب لما أذَّنَ لهم حيّ على الفلاح ، وبذلوا نفوسَهم في مرضاتِه بذلَ المُحِبِّ بالرضا والسَّماح ، وواصلوا السيرَ إليه بالغدوّ والرَّواح. فحمِدوا عند الوصول مسرَاهم وإنما «يَحْمَدُ القومُ السُّرى»[3] عند الصَّبَاح ، تعبوا قليلاً ، فاستراحُوا طويلاً ، وتركوا حقيراً ، واعتاضوا عظيماً. وضعوا اللَّذةَ العاجلةَ والعاقبةَ الحميدةَ في ميزان العقل فظهرَ لهم التفاوُت ، فرأوا من أعظم السَّفه بيعَ الحياة الطيبة الدائمة في النعيم المقيم بلذة ساعةٍ تذهبُ

---

(١) «حدوا» : حَدَا الإبل : ساقها وحَثَّها على السَّيْر بالحُداء.

(٢) «الشعرى» : كوكب. وهما الشِّعْريان : العَبور والغمَيْصَاء. تزعمُ العربُ أنهما أُخْتا سُهَيْل. قال الفرزدق :

إذا اغْـرَوْرَقَـتْ عينـايَ أَسْبَـلَ منهمـا إلـى أنْ تغيـبَ الشِّـعْـريـانِ بكـائيـا

معجم المفردات المثناة؛ لشريف يحيى الأمين (٢٥٠).

(٣) «السُّرى» : السير بالليل. يُقال : «عند الصَّباح يَحْمَدُ القومُ السُّرى». وهو مَثَلٌ يُضْرَبُ في احتمال المشقَّة رجاءَ الراحة.

شهوتها ، وتبقى شقوتها . هذا وإنّ مِن أيام اللذات لو صفت للعبد من أوّل عمره إلى آخره لكانت كسحابة صيفٍ تتقشّعُ عن قليل ، وخيال طيفٍ ما استتمَ الزيارة حتى آذنَ بالرحيل . قال الله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٠٥ ـ ٢٠٧] ومَنْ ظفرَ بمأموله من ثواب الله ، فكأنَّه لم يُوتَر مِن دهره بما كان يُحاذره ويخشاه ، وكان عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه يتمثل بهذا البيت من الشعر :

إذا أنتَ أدركتَ الذي أنتَ طالبُه ... كـأنَّـكَ لـم تُـوْتَـرْ مِـن الـدَّهـرِ مـرةً[1]

وهذا ثمرةُ العقل الذي به عُرف الله سبحانه وتعالى وأسماؤُه وصفاتُ كماله ونعوتُ جلاله ، وبه آمن المُؤْمِنُون بكتبه ورسله ولقائه وملائكته ، وبه عُرفت آياتُ ربوبيته ، وأدلةُ وحدانيته ، ومعجزاتُ رسله ، وبه امْتُثِلَتْ أوامرُه ، واجْتُنِبَتْ نواهيه ، وهو الذي تَلَمَّحَ العواقبَ فراقبَها ، وعملَ بمقتضى مصالحها ، وقاوم الهوى فردَّ جيشه مفلولاً[2] ، وساعدَ الصبرَ حتى ظَفِرَ به بعد أن كانَ بسهامه مقتولاً ، وحثَّ عَلَى الفضائل ، ونهى عن الرذائل ، وفتَّق المعاني ، وأدركَ الغوامض ، وشدّ أَزْرَ العزم فاستوى عَلَى سُوقه ، وقوّى أَزْرَ الحزم حتى حظي من الله بتوفيقه ، فاستجلبَ ما يَزينُ ، ونفى ما يَشينُ[3] ، فإذا نَزلَ وسلطانه أسرَ جنود الهوى فحصرَها في حبس : مَنْ تركَ لله شيئاً عوَّضه الله خيراً منه ، ونهضَ بصاحبه إلى منازل الملوك ، إذا صيَّر الهوى الملكَ بمنزلة العبد المملوك ، فهي شجرةٌ عِرْقُها الفكر في العواقب ، وساقُها الصبر ، وأغصانُهَا العِلْم ، وورقها حسن الخُلُقِ ، وثمرها الحكمة ، ومادَّتها توفيق مَنْ أَزِمَّةَ الأمور بيديْه ، وابتداؤُها منه وانتهاؤُها إليه .

---

(١) «توتر» : من الوِتْر ، وهو الذَّحْل ، أي : الثأر عامة ، أو الظلم فيه .
(٢) «مفلولاً» : فلّ الجيشَ : هَزَمه . والفَلُّ : المنهزم .
(٣) «يشين» : شانه الأمرُ : عابَهُ . والشَّيْن : العيب والقُبْح .

وإذا كان هذا وصفه ، فقبيحٌ أن يُدال[1] عليه عدوُّه فيعزلَه عن مملكته؛ ويحطَّه عن رتبته ، ويستنزلَه عن درجته ، فيصبح أسيراً بعد أنْ كان أميراً ، ومحكوماً بعد أن كان حاكماً ، وتابعاً بعد أن كان متبوعاً ، ومَنْ صبرَ عَلى حكمه أرتعه[2] في رياض الأماني ، والمنى ، ومن خرجَ عن حكمه أوردَه حِياضَ الهلاك والرَّدَى.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لقد سبقَ إلى جنات عدنٍ أقوامٌ ما كانوا بأكثر الناس صلاةً ولا صِياماً ولا حَجّاً ولا اعتماراً ، لكنهم عقلوا عن الله مواعظَه فوجلَتْ منه قلوبُهم ، واطمأنت إليه نفوسُهم ، وخشعت له جوارحُهم ، ففاقوا الناسَ بطيب المنزلة ، وعلوِّ الدرجة عند الناس في الدنيا وعند الله في الآخرة.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ليس العاقلُ الذي يعرفُ الخيرَ من الشر ، ولكنه الذي يعرف خيرَ الشرين.

وقالت عائشة رضي الله عنها: قد أفلحَ من جعلَ اللهُ له عقلاً.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: وُلد لكسرى مولودٌ فأحضرَ بعض المؤدِّبينَ ، ووضعَ الصَّبيَ بين يديْه ، وقال: ما خير ما أُوتي هذا المولود؟ قال: عقلٌ يُولد معه. قال: فإن لم يكنْ؟ قال: فأدبٌ حسنٌ يعيشُ به في الناس. قال: فإن لم يكنْ؟ قال: فصاعقةٌ تحرقُه.

وقال بعضُ أهل العلم: لما أهبطَ الله تبارك وتعالى آدمَ إلى الأرض أتاه جبريلُ عليه السلام بثلاثة أشياء: الدين ، والخلق ، والعقل ، فقال: إن الله يخيِّركَ بين هذه الثلاثَة ، فقال: يا جبريلُ! ما رأيتُ أحسنَ من هؤلاءِ إلا في

---

(١) «يدال»: دال الدهرُ: انتقل من حال إلى حال. وأدالنا اللهُ من عدونا: جَعَلَ الكرَّة لنا عليه فغلبناه. والإدالة: الغَلَبَة.

(٢) «أرتعه»: رَتَعَ: أكل وشرب ما شاء في خِصْبٍ وسَعَة. والرَّتْعة: الاتساع في الخِصْب.

الجنة ، ومدَّ يدَه إلى العقل فضمَّه إلى نفسه فقال للآخرَيْن: اصْعَدَا. فقالا: أُمرنَا أن نكونَ مع العقل حيثُ كان. فصارت الثلاثة إلى آدمَ عليه السلام. وهذه الثلاثة أعظمُ كرامةٍ أكرمَ الله بها عبدَه ، وأجلُّ عطيّةٍ أعطاه إياها. وجعل لها ثلاثة أعداء: الهوى ، والشيطان ، والنفس الأمّارة. والحرب بينهما دُوَلٌ وسِجال[1]؛ ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وقال وهبُ بن منبِّه[2]: قرأت في بعض ما أنزلَ الله تعالى: إنَّ الشيطانَ لم يُكابدْ شيئاً أشدَّ عليه من مُؤْمنٍ عاقل ، وإنه ليسوقُ مئةَ جاهلٍ فيستجرّهم حتى يركبَ رقابَهم فينقادون له حيث شاء ، ويُكابد المؤْمن العاقل فَيَصْعُب عليه حتى ينالَ منه شيئاً من حاجته، قال: وإزالة الجبل صخرةً صخرةً أهونُ على الشيطان من مكابدة المؤمن العاقل ، فإذا لم يقدر عليه تحوَّلَ إلى الجاهل فيستأْسره، ويتمكن من قياده حتى يُسْلِمه إلى الفضائح التي يتعجَّلُ بها في الدنيا الجَلْد والرجم والقطع والصلب والفضيحة، وفي الآخرة العار والنَّار والشَّنار[3].

وإنَّ الرجلين ليستويان في البِرِّ ويكون بينهما في الفضل كما بينَ المشرق والمغرب بالعقل ، وما عُبِدَ اللهُ بشيءٍ أفضل من العقل.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: لو أنَّ العاقلَ أصبح وأمسى وله ذنوبٌ بعدد الرمل كان وشيكاً بالنجاة والتخلُّص منها ، ولو أنَّ الجاهلَ أصبحَ وأمسى وله من الحسنات وأعمال البرّ عددَ الرمل لكان وشيكاً ألّا يسلمَ له منها مثقال ذرَّة. قيل: وكيف ذلك؟ قال: إنَّ العاقل إذا زلَّ تداركَ ذلك بالتوبة والعقل الذي

---

(١) «سجال»: يُقال: الحرب بينهما سِجالٌ ـ جمع سَجْل ـ: أي: النَّصْرُ مُتداوَلٌ بينهما.
(٢) هو وَهْب بن مُنبِّه الصنعاني ، أبو عبد الله: مُؤرِّخ ، كثير الإخبار عن الكتب القديمة ، عالم بأساطير الأولين ولا سيما الإسرائيليات. يُعَدُّ من التابعين. ولاَّه عمر بن عبد العزيز قضاء صنعاء. من كتبه: «قصص الأنبياء». توفي سنة (١١٤هـ). وفيات الأعيان (٢/ ١٨٠) وحلية الأولياء (٤/ ٢٣) والأعلام (٨/ ١٢٥).
(٣) «الشَّنار»: أقبح العيب ، والعار.

رُزقه ، والجاهل بمنزلة الذي يبني ويهدم ، فيأْتيه من جهله ما يفسد صالح عمله .

وقال الحسن[1] : لا يَتمُّ دين الرجل حتى يتمَّ عقله ، وما أودعَ الله امرأً عقلاً إلا استنقذه به يوماً .

وقال بعضُ الحكماء : من لم يكن عقله أغلب الأشياء عليه كان حتفه[2] وهلاكه في أحب الأشياء إليه .

وقال يوسف بن أسباط : العقل سراجُ ما بطنَ ، وزينةُ ما ظهرَ ، وسائسُ الجسد ، ومِلاَكُ أمر العبد ، ولا تصلحُ الحياة إلا به ، ولا تدور الأمورُ إلا عليه .

وقيل لعبد الله بن المبارك[3] : ما أفضل ما أُعطي الرجل بعد الإسلام؟ قال : غريزةُ عقل ، قيل : فإن لم يكن؟ قال : أدبٌ حسن ، قيل : فإن لم يكنْ؟ قال : أخٌ صالحٌ يستشيرُه ، قيل : فإن لم يكن؟ قال : صمتٌ طويل ، قيل : فإن لم يكنْ؟ قال : موتٌ عاجل . وفي ذلك قيل :

ما وهب الله لامرىءٍ هِبَةً ... أحسنَ مِن عَقْلهِ ومِن أَدَبِهْ
هما جمالُ الفتى فإنْ فُقِدَا ... فَفقْدُه للحَياةِ أجملُ بِهْ

---

(١) هو الحسن بن يسار البصري ، أبو سعيد : تابعي ، كان إمام أهل البصرة ، وحبر الأمة في زمنه . وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النُّسَّاك . وكان أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء ، وأقربهم هدياً من الصحابة . وكان غاية في الفصاحة ، تتصبب الحكمةُ من فِيْه . توفي سنة (١١٠هـ) . ميزان الاعتدال (١/ ٢٥٤) وحلية الأولياء (٢/ ١٣١) والأعلام (٢/ ٢٢٦) .

(٢) «حتفه» : مَوْتُه .

(٣) هو عبد الله بن المبارك التميمي ، أبو عبد الرحمن : الحافظ ، شيخ الإسلام ، المجاهد ، التاجر ، صاحب التصانيف والرحلات . من كتبه : «الجهاد» و«الرقائق» . توفي سنة (١٨١هـ) . تذكرة الحفاظ (١/ ٢٥٣) وحلية الأولياء (٨/ ١٦٢) والأعلام (٤/ ١١٥) .

وإذا كانت الدولة للعقل سالمَهُ الهوى ، وكان من خَدَمِه وأتباعِه ، كما أن الدولة إذا كانت للهوى ، صارَ العقلُ أسيراً في يديْه ، محكوماً عليه . ولما كان العبدُ لا ينفكّ عن الهوى ما دامَ حيّاً ـ فإنَّ هواه لازمٌ له ـ كان له الأمر بخروجه عن الهوى بالكليَّةِ كالممتنع ، ولكنَّ المقدور له والمأمور به أن يصرفَ هواه عن مراتع الهلَكَةِ إلى مواطن الأمن والسَّلامة ، مثاله : أن الله سبحانه وتعالى لم يأمرْه بصرف قلبه عن هوى النساء جملةً ، بل أمره بصرف ذلك الهوى إلى نكاح ما طابَ له منهنَّ من واحدةٍ إلى أربع ، ومن الإماء ما شاء ، فانصرفَ مجرى الهوى من محلٍّ إلى محل ، وكانت الريحُ دَبوراً[1] فاستحالتْ صَباً ، وكذلك هو الظفرُ والغلبة والقهر ، لم يأمر بالخروج عنه ، بل أمرَ بصرفه إلى الظفر والقهر والغلبة للباطل وحزبه ، وشرعَ له من أنواع المغالبات بالسِّباق وغيره مما يُمرِّنه ويَعُدُّه للظفر ، وكذلك هوى الكبر والفخر والخُيَلاء مأْذونٌ فيه ، بل مستحبٌّ في محاربة أعداء الله . وقد رأى النبيُّ ﷺ أبا دُجانةَ سِمَاكَ بن خَرَشة الأنصاريَّ يتبخترُ بين الصفين ، فقال : «إنها لَمِشْيَةٌ يُبغضُها اللهُ إلا في مثل هذا الموطن»[2] . وقال : «إنَّ من الخُيَلاء ما يُحبُّها الله ومنها ما يُبغض الله ، فالتي يُحبُّها اختيالُ الرجل في الحرب ، وعند الصَّدقة . . . » وذكر الحديث[3] .

فما حرّم الله على عباده شيئاً إلا عوَّضهم خيراً منه ، كما حَرَّم عليهم الاستقسامَ بالأزلام[4] ، وعوَّضهم منه دعاءَ الاستخارة ، وحرَّم عليهم الرِّبا وعوَّضهم منه التجارةَ الرابحة ، وحرَّم عليهم القمار وأعاضَهم منه أكل المال بالمسابقة النافعة في الدِّين بالخيل والإبل والسِّهام ، وحرَّم عليهم الحريرَ وأعاضهم منه أنواعَ الملابس الفاخرة من الصُّوف والكِتَّان والقطن ، وحرَّمَ

---

(١) «دبوراً» : الدبور : ريح تهبُّ من الغرب .

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٧/ ١٠٤) برقم (٦٥٠٨) وانظره في مجمع الزوائد (٦/ ١٠٩) والسيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٧) .

(٣) رواه أحمد (٥/ ٤٤٦) وأبو داود (٢٦٥٩) والنسائي (٥/ ٧٨) والدارمي (٢/ ١٤٩) .

(٤) «الأزلام» : جمع زلم ، وهو السهم الذي لا ريش له .

عليهم الزِّنى واللِّواط وأعاضَهم منهما بالنكاح والتَّسَرِّي بصنوف النساء الحِسان ، وحرَّم عليهم شربَ المسكر ، وأعاضَهم منه بالأشربة اللذيذة النافعة للروح والبدن ، وحرَّمَ عليهم سماعَ آلات اللهو من المَعازف والمَثاني[١] ، وأعاضَهم منها بسماع القرآن والسَّبع المَثاني[٢] ، وحرَّم عليهم الخبائثَ من المطعومات ، وأعاضَهم منها بالمطاعم الطيبات .

ومن تلمَّحَ هذا وتأمَّله هانَ عليه تركُ الهوى المُرْدِي ، واعتاضَ منه بالنافع المُجدي ، وعرفَ حكمة الله ورحمته وتمامَ نعمته عَلَى عباده فيما أَمَرَهم به ، ونهاهم عنه ، وفيما أباحه لهم ، وأنه لم يأمرْهم بما أمرَهم به حاجةً منه إليهم ، ولا نهاهم عنه بخلاً منه تعالى عليهم ، بل أمرَهم بما أمرَهم إحساناً منه ورحمةً ، ونهاهم عما نهاهم عنه صِيانةً لهم وحِمْيَةً[٣][٤] .

فيا أيُّها القارئُ له ، والناظر فيه ، هذه بضاعةُ صاحبه المزجاة[٥] مسوقةٌ إليك ، وهذا فَهْمُه وعَقْلُه معروضٌ عليك ، لك غُنْمه ، وعلى مؤلِّفه غُرْمه ، ولك ثمرته ، وعليه عائدته . فإن عدم منك حمداً وشكراً ، فلا يعدم منك مغفرةً وعذراً ، وإن أبيتَ إلا الملامَ فبابه مفتوح ، وقد:

استأثر اللهُ بالثناءِ وبالحَمْـ ـدِ وولَّى الملامةَ الرَّجُلا

واللهُ المسؤولُ أن يجعله لوجهه خالصاً ، وينفع به مؤلِّفَه وقارئه وكاتبه في الدنيا والآخرة ، إنه سميع الدعاء ، وأهل الرجاء ، وهو حسبُنا ونِعْمَ الوكيل[٦] .

* * *

---

(١) «المثاني» : جمع المثنى ، وهو من أوتار العود : الثاني بعد الأول .

(٢) «السبع المثاني» : فاتحة الكتاب .

(٣) «حِمْية» : هي الامتناع عن كل ما يضرُّ ويؤذي .

(٤) روضة المحبين (٢٩) .

(٥) «المزجاة» : بضاعة مُزْجاة : قليلة مَرْدُودة تُدْفَع وتُرْفَضُ رغبةً عنها .

(٦) طريق الهجرتين (٢٥) .




الباب الأول

معاني المحبة وغايتها

الفصل الأول : المحبة أصلُ كل فعل وحركة ودين .

الفصل الثاني : منزلة المحبة وحدّها .

الفصل الثالث : غاية المحبة ومقصودها .




الفصل الأول

المحبة أصل كل فعل وحركة ودين

الحب أصل كل عمل :

* وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل ، فأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله ، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله ، وكل إرادة تمنع كمال الحب لله ورسوله وتزاحم هذه المحبة ، أو شبهة تمنع كمال التصديق ، فهي معارضة لأصل الإيمان أو مضعفة له ، فإن قويت حتى عارضت أصل الحب والتصديق كانت كفراً أو شركاً أكبر ، وإن لم تعارضه قدحت في كماله ، وأثرت فيه ضعفاً و فتوراً في العزيمة والطلب ، وهي تحجب الواصل وتقطع الطالب وتنكس الراغب ، فلا تصح الموالاة إلا بالمعاداة ، كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٧٥ ـ ٧٧] فلم يصح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة ، فإنه لا ولاء إلا لله ، ولا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه .

قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة : ٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى

﴿فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨] أي: جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه، كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض، وهي كلمة: لا إلّه إلا الله، وهي التي وَرَّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة[1].

الحب أصل الحركة:

* وكل حركة في العالم العلوي والسفلي فأصلها المحبة، فهي علتها الفاعلية والغائية.

وذلك لأن الحركات ثلاثة أنواع: حركة اختيارية وإرادية، وحركة طبيعية، وحركة قسرية.

والحركة الطبيعية أصلها السكون، وإنما يتحرك الجسم إذا خرج عن مستقره ومركزه الطبيعي، فهو يتحرك للعود إليه، وخروجه عن مركزه ومستقره إنما هو بتحريك القاسر المحرك له، فله حركة قسرية تتحرك بتحريك محركه وقاسره، وحركة طبيعية بذاتها يطلب بها العود إلى مركزه، وكلا حركتيه تابعة للقاسر المحرك، فهو أصل الحركتين.

والحركة الاختيارية الإرادية هي أصل الحركتين الأخريين، فصارت الحركات الثلاثة تابعة للإرادة والمحبة.

والدليل على انحصار الحركات في هذه الثلاث: أن المتحرك إن كان له شعور بالحركة فهي الإرادية، وإن لم يكن له شعور بها، فإما أن تكون على وفق طبعه أولاً، فالأولى هي الطبيعية، والثانية القسرية. إذا ثبت هذا فما في السموات والأرض وما بينهما من حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والمطر والنبات وحركات الأجنة في بطون أمهاتها، فإنما هي بواسطة الملائكة المدبرات أمراً والمقسمات أمراً، كما دل على ذلك

---

(١) الداء والدواء (٣٣١).

نصوص من القرآن والسنة في غير موضع ، والإيمان بذلك من تمام الإيمان بالملائكة ، فإن الله وكَّل بالرحم ملائكة ، وبالقَطْر ملائكة ، وبالنبات ملائكة ، وبالرياح ملائكة ، وبالأفلاك والشمس والقمر والنجوم ، ووكَّل بكل عبد أربعة من الملائكة ، كاتبين عن يمينه وشماله ، وحافظين من بين يديه ومن خلفه ، ووكَّل ملائكة بقبض روحه وتجهيزها إلى مستقرها من الجنة والنار ، ووكل ملائكة بمساءلته وامتحانه في قبره وعذابه هناك أو نعيمه ، وملائكة تسوقه إلى المحشر إذا قام من قبره ، وملائكة بتعذيبه في النار أو نعيمه في الجنة ، ووكَّل بالجبال ملائكة ، وبالسحاب ملائكة تسوقه حيث أمرت به ، وبالقطر ملائكة تنزله بأمر الله بقدر معلوم كما شاء الله ، ووكَّل ملائكة بغرس الجنة وعمل آلتها وفرشها وثيابها والقيام عليها ، وملائكة بالنار كذلك ، فأعظم جند الله الملائكة ، ولفظ «الملك» يشعر بأنه رسول منفّذ لأمر غيره ، فليس لهم من الأمر شيء ، بل الأمر كله لله ، وهم يدبرون الأمر ويقسمونه بأمر الله وإذنه ، وقد ذكرنا معنى ذلك وسر الإقسام به في كتاب «إيمان القرآن»[1] .

* وإذا عرف ذلك فجميع تلك المحبات والحركات والإرادات والأفعال : هي عبادة منهم لرب الأرض والسموات ، وجميع الحركات الطبيعية والقسرية تابعة لها ، فلولا الحب ما دارت الأفلاك ، ولا تحركت الكواكب النيرات ، ولا هبّت الرياح المسخرات ، ولا مرت السحب الحاملات ، ولا تحركت الأجنّة في بطون الأمهات ، ولا انصدع عن الحَبِّ أنواع النبات ، ولا اضطربت أمواج البحار الزاخرات ، ولا تحركت المدبرات والمقسمات ، ولا سبَّحت بحمد فاطرها الأرضون والسموات ، وما فيها من أنواع المخلوقات ، فسبحان من ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [الإسراء : ٤٤][2] .

---

(١) هو كتاب : «البيان في أقسام القرآن» ، وانظره ص (٢٦٨) .
(٢) الداء والدواء (٣٣٨) .

أصل كل فعل وحركة في العالم من الحب والإرادة:

إذا عُرف هذا فأصل كل فعل وحركة في العالم: من الحبّ والإرادة ، فهما مبدأ لجميع الأفعال والحركات ، كما أن البغضَ والكراهية مبدأ كل ترك وكَفٍّ ، إذا قيل: إن الترك والكفّ أمرٌ وجودي ، كما عليه أكثر الناس ، وإن قيل: إنه عَدَميٌّ ، فيكفي في عدمه عدم مقتضيه.

والتحقيق: أن الترك نوعان: ترك هو أمرٌ وجوديٌّ ، وهو كَفُّ النفسِ وَمَنْعُها وحبسها عن الفعل ، فهذا سببه أمر وجودي ، وتركٌ هو عدمٌ محضٌ ، فهذا يكفي فيه عدم المقتضى.

فانقسم التركُ إلى قسمين: قسم يكفي فيه عدمُ السبب المقتضي لوجوده ، وقسم يستلزم وجودَ السبب الموجب له: من البُغْضِ والكراهة ، وهذا السبب لا يقتضي بمجرده كَفَّ النفس وحَبسها.

والالتئام مُسَبَّبٌ عن المحبة ، والإرادة تقتضي أمراً هو أحبُّ إليه من هذا الذي كَفَّ نفسه عنه ، فيتعارضُ عنده الأمران ، فيُؤْثِرُ خَيْرَهما وأعلاهما وأنفعهما له ، وأحبهما إليه ، على أدناهما ، فلا يترك محبوباً إلا لمحبوب هو أحبُّ إليه منه ، ولا يرتكب مبغوضاً إلا ليتخلَّص به من مبغوض هو أكره إليه منه.

ثم خاصية العقل واللُّبّ: التمييز بين مراتب المحبوبات والمكروهات بقُوةِ العلم والتمييز ، وإيثار أعلى المحبوبين على أدناهما ، واحتمال أدنى المكروهين للتخلص من أعلاهما ، بقوة الصبر والثبات واليقين.

فالنفسُ لا تترك محبوباً إلا لمحبوب ، ولا تتحمل مكروهاً إلا لتحصيل محبوب ، أو للتخلص من مكروه آخر ، وهذا التخلص لا تَقْصِدُه إلا لمنافاته لمحبوبها ، فصار سَعْيُها في تحصيل محبوبها بالذات ، وأسبابه بالوسيلة ، ودَفْعُ مبغوضها بالذات ، وأسبابه بالوسيلة ، فسَعيه في تحصيل محبوبه لما لَهُ فيه من اللَّذَّة ، وكذلك سَعْيه في دفع مكروهه أيضاً لما لَهُ في دفعه من اللذة ،

كدفع من يُؤْلمه من البَول والنَّجْو ، والدم والقيء ، وما يؤلمه من الحَرِّ والبَرْد ، والجوع والعطش ، وغير ذلك .

وإذا علم أن هذا المكروه يُفضي إلى ما يحبه يصير محبوباً له ، وإن كان يكرهه ، فهو يُحِبه من وجهٍ ، ويكرهه من وجهٍ ، وكذلك إذا علم أن هذا المحبوب يُفضي إلى ما يكرهه يصير مكروهاً له ، وإن كان يحبه ، فهو يكرهه من وجه ، ويحبه من وجه .

فلا يترك الحيُّ ما يحبه ويهواه مع قدرته إلا لما يُحبه ويهواه . ولا يرتكِبُ ما يكرهه ويخشاه إلا حذار وقُوعه فيما يَكْرَهه ويَخْشاه ، لكن خاصية العقلِ أن يترك أدنى المحبوبين ، وأقلَّهما نفعاً لأعلاهما ، وأعْظمهما نفعاً ، ويرتكبُ أدنى المكروهين ضرراً ليتخلصَ به من أشدِّهما ضرراً .

فتبيَّن بذلك أن المحبة والإرادة أصلٌ للبغضِ والكراهة ، وعِلَّةٌ لهما ، من غير عكس . فكلُّ بُغضٍ فهو لمنافاة البغيض للمحبوب . ولولا وجود المحبوب لم يكن البغضُ ، بخلاف الحبِّ للشيء . فإنه قد يكون لنفسه ، لا لأجل منافاته للبغيض . وبغضُ الإنسان لما يضادُّ محبوبه مستلزمٌ لمحبته لضدِّه . وكلما كان الحبُّ أقوى كانت قوةُ البُغض للمنافي أشدَّ .

ولهذا كان «أوثقُ عُرَا الإيمان الحبُّ في الله والبغضُ في الله»[1] وكان «مَنْ أَحَبَّ لله ، وأبْغَضَ لله ، وأعْطَى لله ، ومَنَع لله ، فقد استَكْمَلَ الإيمان»[2] .

فإن الإيمان عِلمٌ وعمل ، والعمل ثَمرةُ العلم ، وهو نوعان : عملُ القلب حُبّاً وبغضاً ، ويترتب عليهما عمل الجوارح ، فعلاً ، وتركاً ، وهما العطاء والمنع .

---

(١) رواه أحمد (٤/٢٨٦) والبيهقي في شعب الإيمان (١٣) وانظره في مجمع الزوائد (١/٨٩).
«عُرا» : جمع عروة ، وهي الرابطة .

(٢) سبق تخريجه ص (٤١) .

فإذا كانت هذه الأربعة لله تعالى ، كان صاحبها مستكملَ الإيمان ، وما نقص منها فكان لغير الله ، نَقَصَ من إيمانه بحسبه .

إذا عرف هذا فكلُّ حركة في العالم العُلويِّ والسفليِّ فسببُها المحبة والإرادة ، وغايَتُها المحبة والإرادة .

فإن الحركات ثلاثة : إرادية ، وطبعية ، وقَسِرية .

فإن المتحرك إن كان له شعور بحركته وإرادة لها ، فحركته إرادية ، وإن لم يكن له شعورٌ بحركته ، أو له بها شعورٌ وهو غير مريد لها ، فحركته إما على وَفْق طبعه ، أو على خلافه ، فالأولى طبعية ، والثانية قَسْرِية .

أظهرُ من هذا أن يقال : مبدأ الحركة إما أن يكون أمراً مُبايناً للمتحرك ، أو قوّة فيه ، فالأول الحركة فيه قَسْرية . والثاني : إما أن يكون له به شعور أم لا ، فالأول : الحركة فيه إرادية ، والثاني : طبعية .

فالحركة متى لازَمَت الشعور والإرادة فهي إرادية ، ومتى انتفَى عنها الأمران ، فإن كانت بقوة في المتحرِّك فهي الطبعية ، وإن كانت من غير قوةٍ في المحرِّك فهي القَسْرِية .

فكل حركة في السموات والأرض ، من حركات الأفلاك ، والنجوم ، والشمس ، والقمر ، والرياح ، والسحاب ، والنبات ، والحيوان ، فهي ناشئة عن الملائكة الموكَّلين بالسموات والأرض ، كما قال تعالى : ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات : ٥] ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴾ [الذاريات : ٤] وهي الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل عليهم السلام ، وأما المكذبون للرسل ، المنكرون للصانع ، فيقولون : هي النجوم .

وقد أشبعنا الردّ على هؤلاء في كتابنا الكبير المسمى بالمفتاح[1] .

وقد دلَّ الكتابُ والسُّنَّة على أصنافِ الملائكة ، وأنها موكَّلة بأصناف

---

(١) هو : مفتاح دار السعادة (٢/ ١٣٢ ـ ٢٤٠) طبع مكتبة الخانجي .

المخلوقات ، وأنه سبحانه وكَّل بالجبال ملائكة ، ووكَّل بالسَّحاب والمطر ملائكة ، ووكَّل بالرَّحِم ملائكة تُدَبِّر أمر النُّطْفة حتى يتمَّ خَلْقُها. ثم وكَّل بالعبد ملائكة لِحِفْظِه ، وملائكةً لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته ، ووكَّل بالموت ملائكةً ، ووكَّل بالسؤال في القبر ملائكةً ، ووكَّل بالأفلاكِ ملائكة يُحَرِّ كونها ، ووكَّل بالشمس والقمر ملائكة ، ووكَّل بالنار وإيقادِها وتعذيب أهلِها وعمارتِها ملائكة ، ووكَّل بالجنة ، وعمارَتها ، وغِراسها ، وعمل الأنهار فيها ملائكة. فالملائكة أعظم جنود الله تعالى. ومنهم: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝٢ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝٤ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ١ ـ ٥](١) ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ١ ـ ٥](٢) ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: ١ ـ ٣](٣) ومنهم: ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذابِ ، وملائكةٌ قد وُكِّلُوا بحَمْل العرش ، وملائكةٌ قد وُكِّلوا بعِمَارَةِ السَّموات بالصلاة والتسبيح والتَّقْدِيس ، إلى غير ذلك من أصنافِ الملائكة التي لا يُحصيها إلا الله تعالى.

ولفظ الملك يُشعر بأنه رسولٌ منفذ لأمر غيره ، فليس لهم من الأمر شيء ، بل الأمر كلُّه لله الواحد القهَّار ، وهم ينفذون أمره: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم

---

(١) «المرسلات عرفاً»: أقسم اللهُ برياح العذاب متتابعة كعُرْف الفرس. «فالعاصفات عصفاً»: الرياح الشديدة الهبوب المُهْلِكة. «والناشرات نشراً»: الملائكة تنشر أجنحتها في الجو عند النزول بالوحي. «فالفارقات فرقاً»: الملائكة تأتي بالوحي فرقاناً بين الحق والباطل. «فالملقيات ذكراً»: الملائكة تلقي الوحي إلى الأنبياء.

(٢) «النازعات»: أقسم الله بالملائكة تنزع أرواح الكفار من أقاصي أجسامهم. «غرقاً»: نَزْعاً شديداً مؤلماً بالغ الغاية. «والناشطات نشطاً»: الملائكة تسلُّ أرواح المؤمنين برفق. «والسابحات سبحاً»: الملائكة تنزل مسرعةً لما أُمرتْ به. «فالسابقات سبقاً»: الملائكة تسبق بالأرواح إلى مستقرها ناراً أو جنة. «فالمدبرات أمراً»: الملائكة تنزل بالتدبير المأمور به.

(٣) «الصافات صفاً»: قسمٌ بالجماعات تصطفُّ للعبادة. «فالزاجرات زجراً»: تزجر عن المعاصي بالأقوال والأفعال. «فالتاليات ذكراً»: تتلو آيات الله للعلم والتعليم.

بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٧ ـ ٢٨] ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩ ﴾ [النحل: ٦٠]، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦] ولا تتنزل إلا بأمره، ولا تفعل شيئاً إلا من بعد إذنه. فهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦] منهم الصافُّون، ومنهم المسبِّحون، ليس منهم إلا من له مقام معلوم، لا يتخطاه، وهو على عمل قد أُمِرَ به لا يُقصِّر عنه، ولا يتعداه، وأعلاهم الذين عنده سبحانه ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩ ـ ٢٠] ورؤساؤهم الأملاك الثلاث: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل.

وكان النبيُّ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يقول: «اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطرَ السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهْدِني لما اخْتُلِف فيه من الحقِّ بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»(١).

فلنرجع إلى المقصود، وهو أنَّ حركات العالم العُلْويِّ والسُّفْليِّ بالملائكة، فالحركاتُ الإراديَّةُ كُلُّها تابعةٌ للإرادةِ التي تُحَرِّكُ المريد إلى فعل ما يفعله، والحركة الطَّبيعية سَبَبها ما في المتحرِّك من الميلِ والطَّلبِ بكماله وانتهائه، كحركة النار، وحَرَكَةِ النبات، وحَرَكَةِ الرِّياحِ. وكذلك حركةُ الجسم الثَّقِيل إلى الأسفل، فإنه بِطَبْعه يطلبُ مُسْتَقَرَّه من المرْكَزِ، ما لم يَعُقْهُ عنه عائقٌ. وأما الحركة القَسْرِيَّة، كحركته بالقَسْرِ إلى العلوّ، فتابعةٌ لإرادة القاسِر له. فلم يَبْقَ حَرَكةٌ أصليَّةٌ إلا عن الإرادة والمحبة.

---

(١) رواه أحمد (٦/ ١٥٦) ومسلم (٧٧٠) وأبو داود (٧٦٨) والترمذي (٣٤٢٠) والنسائي (٣/ ٢١٢ ـ ٢١٣).
«فاطر السموات والأرض»: مبتدىء خَلْقِهما. «الغيب»: ما غاب عن عِياننا.
«الشهادة»: ما شاهدنا، أي: علمناه بمشاهدتنا. «تحكم»: تقضي.
«بإذنك»: بتمكينك وتَسْخيرك.

فإذا عُرِف ذلك فالمحبةُ هي التي تُحَرِّكُ في طلبِ محبوبه؛ الذي يكمُلُ بحصوله له ، فتُحرِّك مُحِبَّ الرحمٰن ، ومُحِبَّ القرآن ، ومُحِبَّ العلم والإيمان ، ومحبَّ المتاع والأثمان ، ومحبَّ الأوثان والصُّلبان ، ومحبَّ النِّسوان والمُرْدان ، ومحبَّ الأوطان ، ومحبَّ الإخوان. فتثير من كل قلبٍ حركةً إلى محبوبه من هذه الأَشياء. فيتحرَّكُ عند ذكر محبوبه منها دون غيره. ولهذا تجدُ محبَّ النِّسوان والصِّبيان ، محبَّ قُرْآنِ الشيطان بالأصوات والألحان ، لا يتحرَّك عند سماع العلم وشواهدِ الإيمان ، ولا عند تلاوة القرآن ، حتى إذا ذُكِرَ له محبوبه اهْتَزَّ له ورَبَا ، وتَحرَّك باطنُه وظاهرُه شَوْقاً إليه وطَرَباً لذكره.

فكل هذه المحابِّ باطلة مُضْمَحِلَّة سوى مَحبةِ الله وما والاها ، من مَحبةِ رسوله ، وكتابه ، ودينه ، وأوليائه. فهذه المحبةُ تدوم ، وتدوم ثمرتُها ونعيمها بدوام مَنْ تَعَلَّقت به ، وفَضْلُها على سائر المحابِّ كفضلِ من تَعَلَّقت به على ما سواه. وإذا انقطعتْ علائقُ المحبين ، وأسبابُ توادِّهم وتحابِّهم لم تَنْقَطِعْ أَسبابُها. قال تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة: ١٦٦].

قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: المودَّة.

وقال مُجاهد: تَواصُلُهم في الدنيا.

وقال الضَّحَّاك: يعني تقَطَّعتْ بهم الأرحام ، وتَفَرَّقت بهم المنازل في النار.

وقال أبو صالح: الأعمال.

والكلُّ حق؛ فإن الأسباب هي الوُصَل التي كانت بينهم في الدنيا ، تَقَطَّعَتْ بهم أحوجَ ما كانوا إليها. وأما أسبابُ الموحدين المخلصين لله فاتَّصلتْ بهم ودامَ اتصالُها بدوام معبودهم ومحبوبهم ، فإنَّ السببَ تبعٌ لغايته في البقاءِ والانقطاعِ.

أصل العبادة وتمامها هو المحبة وإفراد الرب بها:

إذا تَبيَّن هذا، فأصلُ المحبَّة المحمودَة التي أمَر اللهُ تعالى بها، وَخَلَق خَلْقَه لأجلها، هي مَحَبَّتُه وحدَه لا شريك له، المتضمِّنةُ لعبادته دون عِبادةِ ما سواه.

فإن العبادة تَتضَمَّن غايةُ الحُبِّ بغاية الذُّلِّ، ولا يصلحُ ذلك إلا لله عز وجل وحده.

ولما كانت المحبة جنساً تحته أنواعٌ مُتفاوتة في القَدْر والوصفِ، كان أغلبُ ما يذكر فيها في حق الله تعالى: ما يختَصُّ به ويليقُ به، كالعبادة والإنابةِ والإخْباتِ، ولهذا لا يذكر فيها لفظُ العشقِ، والغرَام، والصَّبابة، والشغف، والهوَى، وقد يُذكر لها لفظ المحبة، كقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ومدارُ كتب الله تعالى المنزَّلة من أوّلها إلى آخرها على الأمر بتلك المحبَّة ولوازِمها، والنّهي عن محبَّة ما يضادُّها وملازمتها، وضرب الأمثال والمقاييس لأهل المحبتين، وذِكْرِ قِصَصهم: ومآلهم، ومنازلهم، وثوابهم، وعقابهم، ولا يجدُ حَلاوة الإيمان، بل لا يَذُوق طعمه، إلا من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، كما في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَد حلاوة الإيمانِ ـ وفي لفظ: لا يجد طَعم الإيمان إلا من كان فيه ثلاثة ـ مَنْ كان اللهُ ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يُحِبَّ المرءَ لا يحبه إلا لله، وأن يَكْرَه أن يرجِعَ في الكفر بعد إذ أنقذه الله تعالى منه، كما يكره أن يُلْقَى في النار»[1].

وفي الصحيحين أيضاً عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٠).

لا يؤمن أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين»[1].

ولهذا اتفقت دعوةُ الرسل من أولهم إلى آخرهم، على عبادة الله وحده لا شريك له.

وأصلُ العبادة وتمامها وكمالها هو المحبة، وإفراد الرب سبحانه بها، فلا يشرك العبدُ به فيها غيره.

والكلمة المتضمنة لهذين الأصلين هي الكلمة التي لا يدخل في الإسلام إلا بها، ولا يعصم دمه وماله إلا بالإتيان بها، ولا ينجو من عذاب الله إلا بتحقيقها بالقلب واللسان، وذكرها أفضل الذكر، كما في صحيح ابن حِبَّان عنه صلى الله تعالى عليه وسلم: «أفضل الذكر: لا إله إلا الله»[2] والآية المتضمنة لها ولتفضيلها سيدة آي القرآن، والسورة المختصة بتحقيقها تعدل ثلث القرآن[3]، وبها أرسل الله سبحانه جميع رسله، وأنزل جميع كتبه، وشرع جميع شرائعه، قياماً بحقها وتكميلاً لها، وهي التي يدخل بها العبدُ على ربه، ويصير في جواره، وهي مَفْزَع أوليائه وأعدائه، فإن أعداءه إذا مَسَّهم الضُّرُّ في البرِّ والبحر فزِعوا إلى توحيده، وتبرؤوا من شركهم، ودعوه مخلصين له الدين[4]. وأما أولياؤه فهي مفزعهم في شدائد الدنيا والآخرة.

ولهذا كانت دعواتُ المكروب: «لا إله إلا الله العظيمُ الحليمُ، لا إله إلا الله ربُّ العرشِ العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم»[5].

---

(١) رواه البخاري (١٥) ومسلم (٤٤).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٨٠٠) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٣١) وابن حبان (٨٤٣) والحاكم (١/ ٤٩٨).

(٣) يريد سورة الإخلاص.

(٤) قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [لقمان: ٣٢].

(٥) رواه البخاري (٦٣٤٥) ومسلم (٢٧٣٠).

ودعوة ذي النُّون التي ما دعا بها مكروب إلا فرّج الله كربه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧][١].

وقال ثَوْبَان ـ رضي الله عنه ـ: كان رسولُ الله صلى الله تعالى عليه وآله إذا راعَهُ أمر قال: «الله ربي لا أشرك به شيئاً» وفي لفظ قال: «هو الله لا شريك له»[٢].

وقالت أسماء بنت عُمَيْسٍ: «علَّمني رسول الله ﷺ كلمات أقولها عند الكرب: الله، الله ربي، لا أشركُ به شيئاً»[٣].

وفي الترمذي من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد بن أبي وَقَّاص، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «دعوةُ يونس إذ نادى في بطن الحوت: لا إله إلا أنتَ، سبحانك، إني كنتُ من الظالمين، فإنه لم يَدْعُ بها مسلم في شيء إلا استجيب له»[٤].

وفي مسند الإمام أحمد مرفوعاً: «دعواتُ المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تَكِلْني إلى نفسي طَرْفة عين، وأصلح لي شأني كلّه، لا إله إلا أنت»[٥].

فالتوحيدُ ملجأ الطالبين، ومفزعُ الهاربين، ونجاةُ المكروبين، وغياثُ

---

(١) رواه أحمد (١/ ١٧٠) والترمذي (٣٥٠٥) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦٥٦) والحاكم (١/ ٥٠٥) و٢/ ٣٨٣).
«ذو النون»: هو يونس ـ عليه السلام ـ.

(٢) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة (٦٥٧) وابن السني (٣٣٥).

(٣) رواه أحمد (٦/ ٣٦٩) وأبو داود (١٥٢٥) وابن ماجه (٣٨٨٢) والنسائي (٦٤٩) وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ١٩٦) والطبراني في الدعاء (١٠٢٧).

(٤) رواه أحمد (١/ ١٧٠) والترمذي (٣٥٠٥) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦٥٦) والحاكم (١/ ٥٠٥ و٢/ ٣٨٣).

(٥) رواه أحمد (٥/ ٤٢).

الملهوفين ، وحقيقتُه: إفرادُ الرب سبحانه بالمحبة ، والإجلال ، والتعظيم ، والذلّ ، والخضوع.

فإذا عرف أنَّ كلَّ حركة فأصلها الحبّ والإرادة ، فلا بُدَّ من محبوب مراد لنفسه ، لا يُطلب ويُحب لغيره ، إذ لو كان كلُّ محبوب يُحب لغيره لزم الدور أو التسلسل في العلل والغايات ، وهو باطلٌ باتفاق العقلاء ، والشيءُ قد يُحَبُّ من وجه دون وجه ، وليس شيءٌ يحبُّ لذاته من كل وجه إلا الله عزَّ وجلَّ وحده؛ الذي لا تصلح الألوهية إلاَّ له ، فلو كان في السموات والأرض آلهة إلا الله لفسدتا ، والإلٰهية التي دعت الرسلُ أممهم إلى توحيد الرب بها ، هي العبادة والتأليه. ومن لوازمها: توحيد الربوبية؛ الذي أقَرَّ به المشركون ، فاحتجَّ الله عليهم به ، فإنه يلزمُ من الإقرار به الإقرار بتوحيد الإلهية.

لا صلاح للحي إلا بأن تكون غاية حبه الله وحده:

وكل حيٍّ فله إرادة وعمل بحسبه ، وكل متحرك فله غاية يتحرك إليها ، ولا صلاح له إلا أن تكون غاية حركته ونهاية مطلبه: هو الله وحده. كما لا وجود له إلا أن يكون الله وحده هو ربه وخالقه ، فوجوده بالله وحده ، وكماله أن يكون لله وحده. فما لا يكون به لا يكون ، وما لا يكون له لا ينفع ، ولا يدوم ، ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ولم يقل لعُدِمتا ، إذ هو سبحانه قادر على أن يبقيهما على وجه الفساد ، لكن لا يمكن أن تكونا صالحتين إلا بأن يكون فاطرهما وخالقهما هو المعبود وحده لا شريك له ، فإن صلاح الأعمال والحركات بصلاح نياتها ومقاصدها ، فكل عمل تابع لنية عامله وقصده وإرادته.

وتقسيم الأعمال إلى صالح وفاسد ، هو باعتبارها في ذواتها تارة ، وباعتبار مقاصدها ونيَّاتها تارة.

وأما تقسيم المحبة والإرادة إلى نافعة وضارة ، فهو باعتبار متعلقها ، ومحبوبها ، ومرادها ، فإن كان المحبوب المراد هو الذي لا ينبغي أن يحب

لذاته ويراد لذاته إلا هو ، وهو المحبوب الأعلى ، الذي لا صلاح للعبد ، ولا فلاح ، ولا نعيم ، ولا سرور ، إلا بأن يكون هو وحده محبوبه ، ومراده ، وغاية مطلوبه ، كانت محبته نافعة له ، وإن كان محبوبه ومراده ونهاية مطلوبه غيره كانت محبته ضارة له وعذاباً وشقاء.

فالمحبة النافعة هي التي تجلب لصاحبها ما ينفعه من السعادة والنعيم ، والمحبة الضارة هي التي تجلب لصاحبها ما يضره من الشقاء والألم والعناء.

إذا تبينَّ هذا فالحيُّ العالمُ الناصح لنفسه لا يؤثرُ مَحَبَّةَ ما يضرُّه ، ويشقى به ، ويتألم به ، ولا يقعُ ذلك إلا من فساد تَصَوُّره ومعرفته ، أو من فساد قصده وإرادته.

فالأول: جهل ، والثاني: ظلم. والإنسان خلق في الأصل ظلوماً جهولاً ، ولا ينفَكُّ عن الجهل والظلم إلا بأن يعلمه الله ما ينفعه ، ويُلْهمه رُشْده ، فمن أراد به الخير علمه ما ينفعه ، فخرج به عن الجهل ، ونفعه بما علمه ، فخرج به عن الظلم ، ومتى لم يُرِدْ به خيراً أبقاه على أصل الخلقة ، كما في المسند من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «إن الله خلق خَلْقه في ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه ذلك النور اهتدَى ، ومن أخطأه ضَلَّ»[1].

فالنفس تَهْوَى ما يضرها ولا ينفعها ، لجهلها بمضرته لها تارة ، ولفساد قصدها تارة ، ولمجموعهما تارة ، وقد ذَمَّ الله تعالى في كتابه مَنْ أجاب داعيَ الجهل و الظلم ، فقال: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠] وقال: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٣].

---

(١) رواه أحمد (٢/١٧٦).

فأصلُ كل خير: هو العلمُ والعدلُ، وأصلُ كل شرٍّ: هو الجهلُ والظلم.

وقد جعل الله سبحانه للعَدْلِ المأمور به حَدّاً، فمن تجاوزه كان ظالماً معتدياً، وله من الذمِّ والعقوبة بحسب ظلمه وعدوانه؛ الذي خرج به عن العدل، ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] وقال فيمن ابتغى سوى زوجته أو ملك يمينه: ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٧][1] وقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

والمقصود: أن محبة الظلم والعدوان سَببها فسادُ العلم، أو فساد القصد، أو فسادهما جميعاً.

وقد قيل: إن فساد القَصْدِ من فساد العلم، وإلا فلو علم ما في الضارِّ من المضرّة ولوازمها حقيقة العلم لما آثَرَه، ولهذا مَن علم من طعام شَهِيٍّ لذيذ أنه مسموم فإنه لا يُقْدِمُ عليه، فضعْفُ علمه بما في الضار من وجود المضرةِ، وضعف عَزمه عن اجتنابه يوقعه في ارتكابه، ولهذا كان الإيمانُ الحقيقيُّ هو الذي يحملُ صاحبه على فِعْل ما ينفعه، وترك ما يَضُرُّهُ، فإذا لم يفعل هذا، ولم يترك هذا، لم يكن إيمانُه على الحقيقة، وإنما معه من الإيمان بحسب ذلك، فإن المؤمن بالنار حقيقة الإيمان، حتى كأنه يراها، لا يسلك طريقها الموصلة إليها، فضلاً عن أن يسعى فيها بجهده، والمؤمن بالجنة حقيقة الإيمان لا تطاوعه نفسُه أن يقعد عن طلبها، وهذا أمر يجدُه الإنسانُ في نفسه فيما يسعى فيه في الدنيا من المنافع، أو التخلص منه من المضارِّ.

إذا تبين هذا، فالعبدُ أحوجُ شيء إلى علم ما يَضُرُّه ليجتنبه، وما ينفَعُه ليحرِصَ عليه ويفعله، فيُحبُّ النافع، ويُبْغضُ الضارّ، فتكون محبته وكراهته

---

(١) «العادون»: المجاوزون الحلالَ إلى الحرام.

موافقتين لمحبة الله تعالى وكراهته ، وهذا من لوازم العبودية والمحبة ، ومتى خرجَ عن ذلك أحبَّ ما يَسْخَطُهُ رَبُّه وكره ما يحبه ، فنقصَتْ عبوديته بحسب ذلك .

وها هنا طريقان : العقلُ ، والشرع . أما العقلُ ، فقد وضعَ الله سبحانه في العقول والفِطَر استحسان الصدقِ والعدل ، والإحسانِ ، والبرّ ، والعفَّة ، والشجاعة ، ومكارم الأخلاق ، وأداء الأماناتِ ، وصلة الأرحام ، ونصيحةِ الخَلْق ، والوفاء بالعهد ، وحِفْظِ الجوار ، ونَصْرِ المظلوم ، والإعانةِ على نوائب الحقِّ ، وقِرَى الضيف ، وحمل الكَلِّ ، ونحو ذلك . ووَضعَ في العقول والفِطرِ استقباح أضدادِ ذلك ، ونسبةُ هذا الاستحسان والاستقباح إلى العقول والفِطَر كنسبة استحسان شربِ الماء البارد عند الظمأ ، وأكل الطعام اللذيذ النافع عند الجوع ، ولُبْس ما يُدفئُه عند البَرْد ، فكما لا يمكنه أن يَدْفع عن نفسه وطبعه استحسان ذلك ونفعه فكذلك لا يدفَعُ عن نفسه وفِطرته استحسانَ صفاتِ الكمال ونفعها ، واستقباح أضدادها ، ومن قال : إن ذلك لا يُعْلم بالعقلِ ، ولا بالفطرَة ، وإنما عرفَ بمجرد السمع ، فقولُه باطل ، وقد بيَّنَّا بطلانه في كتابِ «المفتاح»[1] من ستين وجهاً ، وبَيَّنا هناك دلالَة القرآن والسنة والعقول والفِطرِ على فساد هذا القول .

والطريقُ الثاني لمعرفةِ الضار والنافع من الأعمال : السمعُ . وهو أوْسَعُ وأبينُ وأصدق من الطريق الأول ، لخفاء صفات الأفعال وأحوالها ونتائجها ، وأن العالمَ بذلك على التفصيل ليس هو إلا الرسولُ صلوات الله وسلامه عليه . فأعلم الناس وأصَحُّهم عقلاً ورأياً واستحساناً مَنْ كانَ عقله ورَأيه واستحسانه وقياسه موافقاً للسُّنة ، كما قال مجاهد : أفضلُ العبادة الرأيُ الحَسَن ، وهو اتباع السنة .

---

(١) مفتاح السعادة ، الجزء الثاني .

قال تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ [سبأ: ٦].

وكان السلفُ يُسَمُّون أهلَ الآراء المخالفة للسنة وما جاء به الرسولُ في مسائل العلمِ: الخَبريَّة، وأهل مسائل الأحكام العمَليّة يسمونهم: أهلَ الشبهات والأهواء؛ لأن الرأيَ المخالفَ للسنة جهلٌ لا علم، وهوًى لا دينٌ، فصاحبه ممن اتبعَ هواه بغير هُدًى من الله، وغايتُه الضّلال في الدنيا والشقاء في الآخرة. وإنما ينتفي الضلالُ والشقاء عمنِ اتَّبع هُدَى الله الذي أرْسل به رسُله، وأنزَلَ به كتبه، كما قال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٤][١].

واتباعُ الهوَى يكون في الحب والبغض، كما قال تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ﴾ [النساء: ١٣٥][٢] وقال: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨][٣].

والهوى المنهيُّ عن اتباعه كما يكون هو هوَى الشخص في نفسه، فقد يكون أيضاً هوَى غيره، فهو منهيٌّ عن اتباع هذا وهذا، لمضادَّة كل منهما لهُدَى الله الذي أرسلَ به رسلَه، وأنزل به كُتُبَه.

المحبة أساس وجود العالم:

وهذا بابٌ شريفٌ من أشرف أبواب الكتاب، وقبل تقريره لا بدَّ من بيان

(١) «معيشة ضنكاً»: ضيّقة شديدة.
(٢) «أن تعدلوا»: كراهة العدول عن الحق.
(٣) «لا يجرمنكم»: لا يحملنكم، أو لا يكسبنكم.

مقدمة ، وهي أنَّ الحركاتِ ثلاثة : حركةٌ إرادية ، وحركةٌ طبيعية ، وحركة قَسْرية ، وبيان الحصر أن مبدأ الحركة إما أن يكون من المتحرك أو من غيره ، فإن كان من المتحرّك ، فإما أن يقارنَها شعورُه وعلمهُ بها أوْ لا ، فإن قارنَها الشعور والعلم فهي الإرادية ، وإن لم يُقارنها الشعور والعلمُ فهي الطبيعية ، وإن كانت من غيره فهي القَسْرية ، وإن شئت أن تقول المتحرّك إما أن يتحرّك بإرادته أوْ لا ، فإن تحرَّك بإرادته فحركته إرادية ، وإن تحرَّك بغير إرادته فإما أن تكون حركته إلى نحو مركزه أوْ لا ، فإن تحرَّك إلى جهة مركزه فحركتُه طبيعية ، وإن تحرَّك إلى غير جهة مركزه فحركتُه قَسْرية . إذا ثبت هذا فالحركة الإرادية تابعةٌ لإرادة المتحرّك ، والمراد إما أن يكون مراداً لنفسه أو لغيره ، ولا بد أن ينتهِيَ المراد لغيره إلى مرادٍ لنفسه دفعاً للدَّور والتسلسل . والإرادة إما أن تكونَ لجلب منفعةٍ ولذةٍ إما للمتحرّك وإما لغيره ، أو دفع ألمٍ ومضرَّة إما عن المتحرّك أو عن غيره ، والعاقلُ لا يجْلِبُ لغيره منفعةً ، ولاَ يدفعُ عنه مَضرَّةً إلا لما له في ذلك من اللَّذة ودفع الألم ، فصارت حركته الإرادية تابعةً لمحبته ، بل هذا حكم كل حيّ متحرّك . وأما الحركة الطبيعية فهي حركة الشيء إلى مستقرِّه ومركزه ، وتلك تابعةٌ للحركة التي اقتضت خروجَه عن مركزه ، وهي القَسرية التي إنما تكون بقسرٍ قاسرٍ أخرجَه عن مركزه ، إما باختياره ، كحركة الحَجَر إلى أسفل إذا رُمي به إلى جهة فوق ، وإما بغير اختيار مُحَرِّكه ، كتحريك الرياح للأجسام إلى جهة مَهَابِّها ، وهذه الحركة تابعةٌ للقاسر ، وحركةُ القاسر ليست منه بل مبدؤها من غيره ، فإن الملائكة مُوَكَّلَةٌ بالعالم العُلوي والسُّفلي تُدبِّره بأمر الله عزّ وجلّ .

وقد وكَّل الله سبحانه بالأفلاك والشمس والقمر ملائكةً تحرّكها ، ووكَّلَ بالرياح ملائكةً تُصرِّفها بأمره وهم خَزَنتُها ، قال الله تعالى : ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة : ٦][(١)] قال غيرُ واحد من السلف : عَتَتْ عَلَى

(١) «بريح صرصر» : شديدة السَّمُوم ، أو البرد ، أو الصوت . «عاتية» : شديدة العَصْف .

الْخُزَّان فلم يقدروا على ضبطها. ذكره البخاري[1] في صحيحه. ووكلَ بالقطر ملائكةً ، وبالسحاب ملائكةً تسوقه إلى حيث أُمرت به ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ إذْ سَمِعَ صَوْتاً في سَحَابَةٍ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ ، فتَتَبَّعَ السَّحَابةَ حَتَّى انْتَهتْ إلى حَدِيقَةٍ فَأَفْرَغَتْ مَاءَهَا فِيهَا ، فَنَظَرَ فإذ رَجُلٌ في الحَدِيقَةِ يُحَوِّلُ المَاءَ بِمِسْحَاةٍ ، فَقَالَ لَهُ: مَا اسْمُكَ يَا عَبْدَ اللهِ؟ فَقَالَ: فُلاَنٌ ـ الاسمُ الَّذِي سَمِعَهُ في السَّحَابةِ ـ فَقَالَ: إنّي سَمِعْتُ قَائِلاً يَقُولُ في هذه السَّحَابةِ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ ، فَمَا تَصْنَع في هذِهِ الْحَدِيقَةِ؟ فَقَالَ: إنِّي أَنْظُرُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَجْعَلُهُ ثَلاَثَةَ أثْلاَثٍ: ثُلُثٌ أَتَصَدَّقُ به ، وَثُلُثٌ أُنْفِقُهُ عَلَى عِيالي ، وثُلُثٌ أَرُدُّهُ فِيهَا»[2].

ووكّل الله سبحانه بالجبال ملائكة ، وثبت عن النبيِّ ﷺ أنه جاءه ملك الجبال يسلّم عليه ويستأْذنه في هلاك قومه إن أحب ، فقال: «بَلْ أَسْتَأني لَهُمْ لَعَلَّ الله أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً»[3] ووكّل بالرحِمِ ملَكاً يقول: يا ربّ نطفة؟ يا ربّ علقة؟ يا ربّ مضغة؟ يا ربّ ذكرٌ أو أُنثى؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ وشقيٌّ أم سعيد؟ ووكّل بكل عبدٍ أربعة من الملائكة في هذه الدنيا: حافظان عن يمينه وعن شماله يكتبان أعماله ، ومُعَقِّبَاتٌ من بين يديه ومن خلفه أقلُّهم اثنان يحفظونه من أمر الله[4] ، ووكّل بالموت ملائكة ، ووكّل بمُساءلة الموتى ملائكةً في القبور ، ووكّل بالرحمة ملائكة ، وبالعذاب ملائكة ، وبالمؤمن ملائكةً يثبتونه وَيؤُزُّونه[5] إلى الطاعات أزّاً ، ووكّل بالنار ملائكةً يبنونها ويُوقدونها ، ويصنعونَ أغلالَها وسلاسلَها ويقُومون بأمرها ،

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٣٧٦) تعليقاً.

(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٩٦) ومسلم (٢٩٨٤).

(٣) رواه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥).

(٤) «من أمر الله»: بأمر الله تعالى ، وإذنه.

(٥) «يؤزونه»: يغرونه.

ووكّل بالجنة ملائكةً يبنونها ويفرشونها ، ويصنعونَ أرائكها[1] وسُرُرَها وصِحافها وَنمارِقَها[2] وزَرابيَّها[3] فأمْرُ العالم العُلوي والسُّفلي والجنة والنار بتدبير الملائكة بإذن ربهم تبارك وتعالى وأمره ، ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٧] و﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦].

فأخبر أنهم لا يعصونه في أمره ، وأنهم قادرون عَلَى تنفيذ أوامره ، ليس بهم عجزٌ عنها ، بخلاف من يترك ما أُمر به عجزاً فلا يَعصي الله ما أمره ، وإن لم يفعلْ ما أمره به ، وكذلك البحارُ قد وُكِّلت بها ملائكةٌ تسجرُها[4] وتمنعُها أن تفيضَ عَلَى الأرض فتغرقَ أهلَها ، وكذلك أعمالُ بني آدم خيرُها وشرُّها قد وُكّلت بها ملائكةٌ تُحصيها وتحفظُها وتكتُبها ، ولهذا كان الإيمانُ بالملائكة أحدَ أركان الإيمان الذي لا يَتمّ إلا به. وهي خمس: الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر.

وإذا عُرِفَ ذلك عُرف أنَّ كلَّ حركةٍ في العالم فسببُها الملائكة ، وحركتُهم طاعةُ الله بأمره وإرادته ، فيرجعُ الأمر كلُّه إلى تنفيذ مراد الربِّ تعالى شرعاً وقَدَراً ، والملائكةُ هم المنفِّذون ذلك بأمره ، ولذلك سُمُّوا ملائكةً من الألوكة وهي الرسالة ، فهم رسل الله في تنفيذ أوامره.

والمقصود: أنَّ حركات الأفلاك وما حوتْه تابعةٌ للحركة الإرادية المستلزمة للمحبَّة ، فالمحبَّة والإرادة أصلُ كلِّ فعلٍ ومبدؤه ، فلا يكون الفعل إلا عن محبة وإرادة ، حتى دفعه للأمور التي يُبغضها ويَكرهها ، فإنما يدفعُها بإرادته ومحبته لأضدادها ، واللَّذة التي يجدُها بالدفع ، كما يُقال: شفَى غيظَه ،

---

(١) «أرائكها»: جمع أريكة ، وهي السرير المزيَّن.
(٢) «نمارقها»: وسائدها.
(٣) «زرابيها»: بُسُطها.
(٤) «تسجرها»: تُفجِّرها. وسُجِّرت البحار: فاضت وارتفعت أمواجها.

وشَفَى صدرَه ، والشفاء والعافية يكون للمحبوب وإن كان كريهاً ، مثل شرب الدواء الذي يُدْفَع به ألمُ المرض ، فإنه وإن كان مكروهاً من وجهٍ فهو محبوبٌ ، لما فيه من زوال المكروه وحصول المحبوب ، وكذلك فعلُ الأشياء المخالفة للهوى ، فإنها وإن كانت مكرهةً فإنما تُفْعَل لمحبّةٍ وإرادة ، وإن لم تكن محبوبةً لنفسها فإنها مستلزِمَةٌ للمحبوب لنفسه. فلا يتركُ الحيُّ ما يُحِبُّه ويهواه إلا لما يُحِبُّه ويهواه ، ولكن يترك أضعفَهما محبةً لأقواهما محبّة ، ولذلك كانت المحبّة والإرادة أصلاً للبغض والكراهة ، فإن البغيضَ المكروه يُنافي وجودَ المحبوب ، والفعلُ إما أن يتناولَ وجودَ المحبوب أو دفعَ المكروه المستلزِمِ لوجود المحبوب ، فعادَ الفعلُ كلُّه إلى وجود المحبوب.

والحركة الاختيارية أصلُها الإرادة ، والقسريةُ والطبيعيةُ تابِعتان لها ، فعاد الأمر إلى الحركة الإرادية ، فجميعُ حركات العالم العلويّ والسفليّ تابعة للإرادة والمحبَّة ، وبها تحرّك العالمُ ولأجلها ، فهي العلة الفاعليّة والغائيّة ، بل هي التي بها ولأجلها وُجد العالم ، فما تحرّك في العالَم العُلوي والسفلي حركةٌ إلا والإرادةُ والمحبّة سببها وغايتها ، بل حقيقة المحبّة حركة نفس المحبّ إلى محبوبه ، فالمحبة حركةٌ بلا سكون ، وكمالُ المحبّة هو العبوديةُ ، والذلّ والخضوعُ ، والطاعة للمحبوب ، وهو الحقُّ الذي به وله خُلِقَتِ السّموات والأرض والدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥] وقال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧] وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥].

والحقُّ الذي خُلِق به ولأجله الخلقُ هو عبادة الله وحده التي هي كمال محبته والخضوع والذُّل له ، ولوازم عبوديته من الأمر والنهي والثواب والعقاب ، ولأجل ذلك أرسلَ الرسلَ ، وأنزل الكتبَ ، وخلقَ الجَنَّة والنار.

والسمواتُ والأرضُ إنما قامت بالعدل الذي هو صراط الله الذي هو عليه ،

وهو أحبُّ الأشياء إلى الله تعالى ، قال الله تعالى حاكياً عن نبيّه شعيب عليه السلام : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود : ٥٦][1] فهو على صراطٍ مستقيم في شَرْعه وقَدَره ، وهو العدل الذي به ظهرَ الخلق والأمر والثواب والعقاب ، وهو الحقُّ الذي به وله خُلقت السَّموات والأرضُ وما بينهما ، ولهذا قال المؤمنون في عبادتهم : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ [آل عمران : ١٩١] فنزَّهوا ربَّهم سبحانه أن يكون خلق السَّموَات عَبَثاً لغير حكمةٍ ولا غايةٍ محمودة ، وهو سبحانه يُحْمَد لهذه الغايات المحمودة كما يُحْمَد لذاتِه وأوصافه ، فالغايات المحمودة في أفعاله هي الحكمة التي يُحبُّها ويرضاها ، وخَلَق ما يكره لاستلزامه ما يحبُّه وتَرَتُّبِ المحبوب له عليه ، ولذلك يترك سبحانه فعلَ بعض ما يحبّه لما يترتب عليه من فوات محبوبٍ له أعظمَ منه ، أو حصولِ مكروهٍ أكرهَ إليه من ذلك المحبوب ، وهذا كما ثَبَّطَ قلوب أعدائه عن الإيمان به وطاعته ، لأنه يكره طاعاتِهم ، ويُفَوِّت بها ما هو أحبُّ إليه منها من جهادهم ، وما يترتب عليه من المُوَالاة فيه والمعاداة ، وبذلِ أوليائه نفوسَهم فيه ، وإيثار محبته ورضاه على نفوسهم ، ولأجل هذا خلق الموتَ والحياةَ ، وجعلَ ما على الأرض زينةً لها ، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك : ٢] وقال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف : ٧].

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود : ٧][2] فأخبرَ سبحانه عن خلق العالم والموتِ والحياة وتزيين الأرض بما عليها أنه للابتلاء والامتحان ، ليختبرَ خلقه أيهم أحسن عملاً ، فيكون عمله موافقاً لمحابِّ الربِّ تعالى ، فيُوافق الغايةَ التي خُلِق هو لها وخُلِق لأجلها العالم ، وهي عبوديته المتضمنة

---

(١) «آخذ بناصيتها» : مالكها وقادر عليها.

(٢) «ليبلوكم» : ليختبركم وهو أعلم بأمركم. «أحسن عملاً» : أطوع لله وأورع عن محارمه.

لمحبَّته وَطاعتهِ ، وهي العملُ الأحسنُ ، وهو مَوَاقِعُ محبته ورضاه ، وقدَّر سبحانه مقاديرَ تخالفها بحكمته في تقديرها ، وامتحنَ خلقَه بين أمره وقَدَره ليبلوَهم أيُّهم أحسنُ عملاً .

فانقسمَ الخلقُ في هذا الابتلاء فريقين : فريقاً داروا مع أوامره ومحابِّه ، ووقفوا حيث وقفَ بهم الأمر ، وتحرّكوا حيث حرَّكهم الأمر ، واستعملوا الأمرَ في القَدَر ، وركبوا سفينةَ الأمر في بحر القَدَر ، وحَكَّموا الأمرَ على القَدَر ، ونازعوا القَدَرَ بالقَدَر امتثالاً لأمره واتِّباعاً لمرضاتهِ ، فهؤلاء هم الناجون .

والفريق الثاني عارضوا بين الأمر والقَدَر ، وبين ما يُحبُّه ويرضاه ، وبين ما قدَّره وقضَاه ، ثم افترقوا أربعَ فِرَقٍ :

فرقة كذَّبت بالقدر محافظةً على الأمر ، فأبطلتِ الأمرَ من حيث حافظت على القَدَر ، فإنَّ الإيمانَ بالقَدَر أصلُ الإيمان بالأمر ، وهو نظامُ التوحيد ، فمن كذَّبَ بالقدر نَقَضَ تكذيبُه إيمانَه .

وفرقةٌ ردّتِ الأمرَ بالقَدَر وهؤلاء من أكفر الخلق ، وهم الذين حكى الله قولهم في القرآن إذا قالوا : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٤٨] وقالوا أيضاً : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾ [النحل : ٣٥] . وقالوا أيضاً : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ﴾ [الزخرف : ٢٠] . وقالوا أيضاً : ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ [يس : ٤٧] .

فجعلَهم الله سبحانه وتعالى بذلّ مكذِّبين خارصينَ ليس لهم علم ، وأخبرَ أنهم في ضَلال مبين .

وفرقةٌ دارت مع القَدَر ، فسارت بسَيْره ، ونزلتْ بنزوله ، ودانت به ، ولم تُبالِ وافقَ الأمرَ أو خالفه ، بل دينُها القَدَر ، فالحلالُ ما حلّ بيدها قَدَراً ، والحرامُ ما حُرِمَتْهُ قَدْراً ، وهم مع من غلَب قَدَراً من مسلمٍ أو كافرٍ ، برّاً كان أو فاجراً ، وخواصُّ هؤلاء وعُبَّادُهم لمَّا شَهِدوا الحقيقةَ الكونية القَدَرية صاروا مع

الكفَّار المسلَّطين بالقَدَر ، وهم خُفراؤُهم ، فهؤلاء أيضاً كفَّار .

وفرقةٌ وقفت مع القَدَر مع اعترافها بأنه خلافُ الأمر ، ولم تَدِنْ به ولكنَّها استرسلت معه ، ولم تُحَكِّم عليه الأمر ، وعَجَزَت عن دفع القدَر بالقَدَر إتباعاً للأمر ، فهؤلاء مفرِّطون ، وهم بين عاجزٍ وعاصٍ لله ، وهؤلاء الفِرَقُ كلُّهم مُؤْتَمُّونَ بشيخهم إبليس ، فإنه أوّلُ من قدّم القدَر على الأمر وعارضه به ، و : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : ٣٩][1] . وقال : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف : ١٦] فردّ أمر الله بقدره ، واحتجّ به ربه بالقَدَر . وانقسم أتباعُه أربعَ فِرَق كما رأيت ، فإبليس وجنوده أرسلوا بالقدر إرسالاً كونياً . فالقَدرُ دينهُم ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم : ٨٣][2] فدِينُهم القَدَر ، ومصيرُهم سقر . فبعثَ الله الرسلَ بالأمر ، وأمرهم أن يُحاربوا به أهل القدر ، وشرَعَ لهم من أمره سُفُناً ، وأمرهم أن يركبوا فيها هم وأتباعُهم في بحر القَدَر ، وخصّ بالنجاةِ من ركبها كما خَصّ بالنجاة أصحاب السفينة وجعل ذلك آيةً للعالمين . وأصحابُ الأمر حرب لأصحاب القَدَر حتى يرُدُّوهم إلى الأمر ، وأصحابُ القدَر يُحاربونَ أصحابَ الأمر حتى يُخرجوهم منه ، فالرسلُ دينُهم الأمرُ مع إيمانهم بالقدَر وتحكيمِ الأمر عليه ، وإبليسُ وأتباعُه دينهُم القَدَر ودفعُ الأمر به ، فتأمّلْ هذه المسألة في القدر والأمر ، وانقسامِ العالم فيها إلى هذه الأقسام الخمسة ، وبالله التوفيق .

فحركاتُ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ وما فيهما موافقة للأمر ، إما الأمرُ الدينيّ الذي يُحبُّه الله ويرضاه ، وإما الأمرُ الكونيُّ الذي قدَّره وقضاه ، وهو سبحانه لم يقدِّره سدًى ولا قضاه عبثاً ، بل لما فيه من الحكمة والغايات الحميدة ، وما يترتب عليه من أمور يحبُّ غاياتِها وإن كره أسبابها ومبادئها ، فإنه سبحانه

(١) «لأغوينهم» : لأحملنهم على الغواية والضلال .
(٢) «تؤزهم أزاً» : تُغريهم بالمعاصي إغراءً .

وتعالى يحبُّ المغفرةَ وإن كره معاصيَ عباده ، ويحبُّ السَّتْر وإن كره ما يَسْتر عبدَه عليه ، ويحبُّ العتْقَ وإن كره السبب الذي يُعتق عليه من النار ، ويحبُّ العفوَ كما في الحديث: «اللَّهُمّ إنَّك عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي»[1] وإن كره ما يعفو عنه من الأوزار[2] ، ويحبُّ التوَّابين وتوبتهم وإن كره معاصيَهم التي يتوبون إليه منها ، ويحبُّ الجهادَ وأهلَه بل هم أحبُّ خلقه إليه ، وإن كره أفعال من يجاهدونه ، وهذا بابٌ واسع قد فُتح لك ، فادخل منه يُطلعك عَلَى رياضٍ من المعرفة مُونِقَةٍ مات مَنْ فاتته بحسرتها ، وبالله التوفيق.

وهذا موضعٌ يَضيقُ عنه عِدَّة أسفار ، واللَّبيب يدخلُ إليه من بابه ، وسرُّ هذا الباب أنه سبحانه كاملٌ في أسمائه وصفاتِه ، فله الكمالُ المطلقُ من جميع الوجوه الذي لا نقصَ فيه بوجهٍ ما ، وهو يحبُّ أسماءَه وصفاتِه ، ويحبُّ ظهورَ آثارها في خلقه ، فإن ذلك من لوازم كماله ، فإنه سبحانه وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ ، جميلٌ يحبّ الجمالَ ، عليمٌ يحبّ العلماءَ ، جوادٌ يحبُّ الأجوادَ ، قويٌّ ، والمؤمنُ القويُّ أَحَبُّ إليه من المؤمن الضعيف ، حَيِيٌّ يحبُّ أهلَ الحياء ، وفيٌّ يحبُّ أهلَ الوفاء ، شكورٌ يحبُّ الشاكرينَ ، صادقٌ يحبُّ الصادقينَ ، محسنٌ يحبُّ المحسنين.

فإذا كان يحبُّ العفوَ والمغفرةَ والْحِلْمَ والصَّفْحَ والسَّتْرَ لم يكن بدٌّ من تقديره للأسباب التي تَظهرُ آثارُ هذه الصفات فيها ، ويَسْتَدِلُّ بها عبادُه عَلى كمال أسمائه وصفاتِه ، ويكون ذلك أدْعى لهم إلى محبَّتِه وحمدِه وتمجيدِه والثناء عليه بما هو أهلُه ، فتحصُل الغاية التي خَلَقَ لها الخلق ، وإن فاتت من بعضهم ، فذلك الفواتُ سببٌ لكمالها وظهورها ، فتضمن ذلك الفواتُ المكروهُ له أمراً هو أحبُّ إليه من عدَمه ، فتأمَّلْ هذا الموضعَ حقَّ التأمل. وهذا

---

(١) رواه أحمد (٦/ ١٧١ ، ١٨٢ ، ١٨٣) والترمذي (٣٥١٣) وابن ماجه (٣٨٥٠) والحاكم (١/ ٥٣٠).

(٢) «الأوزار»: جمع وِزْر ، وهو الإثم والذَّنْب.

ينكشف يوم القيامة للخليقة بأجمعهم حين يجمعهم في صعيدٍ واحد ، ويُوصل إلى كل نفس ما ينبغي إيصالُه إليها من الخير والشرّ ، واللَّذَّةِ والألم ، حتى مثقال الذّرة ، ويوصل كل نفس إلى غاياتِها التي تشهد هي أنها أوْلى بها ، فحينئذ يَنْطِق الكونُ بأجمعه بحمده تباركَ وتعالى قالاً وحالاً ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الزمر : ٧٥] ، فحذف فاعل القول لأنه غيرُ معيَّن ، بل كلُّ أحدٍ يَحْمَدُه عَلَى ذلك الحُكم الذي حكم فيه ، فَيَحْمَدُه أهل السموات وأهلُ الأرض ، والأبرارُ والفجّارُ ، والإنسُ والجنُّ حتى أهلُ النار. قال الحسن أو غيره : لقد دخلوا النّارَ وإن حَمْدَه لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلاً ، وهذا ـ والله أعلمُ ـ هو السرُّ الذي حذف لأجله الفاعل في قوله : ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ ﴾ [الزمر : ٧٢] ، وقوله : ﴿ وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم : ١٠] كأنَّ الكونَ كلَّه نطقَ بذلك ، وقاله لهم ، والله تعالى أعلم بالصواب[1] .

المحبة أصل كل دين :

● وكما أن المحبة والإرادة أصل كل فعل كما تقدم؛ فهي أصل كل دين سواء أكان حقاً أو باطلاً ، فإن الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة ، والمحبة والإرادة أصل ذلك كله ، والدين هو الطاعة والعبادة والخُلُقُ ، فهو الطاعة اللازمة الدائمة التي صارت خلقاً وعادة ، ولهذا فسِّر الخلق بالدين في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤].

قال الإمام أحمد عن ابن عيينة[2] ، قال ابن عباس : لعلى دِيْن عظيم .

---

(١) روضة المحبين (٩١).

(٢) هو سفيان بن عُيَيْنة الهلالي ، أبو محمد : مُحدِّث الحرم المكي. كان حافظاً ، ثقة ، واسع العلم ، كبير القدر. حجَّ سبعين سنة. له كُتُب. توفي سنة (١٩٨هـ). تذكرة الحفاظ (١/ ٢٤٢) وتاريخ بغداد (٩/ ١٧٤) والأعلام (٣/ ١٠٥).

وسُئلت عائشة عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآن»[1].

والدِّين فيه معنى الإذلال والقهر، وفيه معنى الذل والخضوع والطاعة؛ فلذلك يكون من الأعلى إلى الأسفل. كما يقال: دنته فدان، أي: قهرته فذل.

قال الشاعر:

هُـوَ دَانَ الـرَّبَـابَ إذْ كَـرِهُـوا الـدِّيْـ ـــن فَــأَضْحَــوْا بِعِــزَّةٍ وصِيَــالِ

ويكون من الأدنى إلى الأعلى، كما يقال: دنت الله، ودنت لله. وفلان لا يدين الله ديناً، ولا يدين الله بدين، فدان الله: أي أطاع الله وأحبه وخافه، ودان لله: أي تخشع له وخضع وذل وانقاد.

والدين الباطن لا بد فيه من الحب والخضوع كالعبادة سواء، بخلاف الدين الظاهر؛ فإنه لا يستلزم الحب، وإن كان فيه انقياد وذل في الظاهر.

وسمَّى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يوم الدين؛ فإنه اليوم الذي يدين فيه الناس بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم، فلذلك فسّر بيوم الجزاء ويوم الحساب.

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦ ـ ٨٧][2] أي: هلاّ تردون الروح إلى مكانها إن كنتم غير مربوبين ولا مقهورين ولا مجزيين، وهذه الآية تحتاج إلى تفسير؛ فإنها سيقت للاحتجاج عليهم في إنكارهم البعث والحساب، ولا بد أن يكون الدليل مستلزماً لمدلوله، بحيث ينتقل الذهن منه إلى المدلول، لما بينهما من التلازم؛ فكل ملزوم دليل على لازمه، ولا يجب العكس.

ووجه الاستدلال: أنهم إذا أنكروا البعث والجزاء فقد كفروا بربهم، وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته، فإما أن يقروا بأن لهم رباً قاهراً لهم متصرفاً

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٩١، ١٦٣) ومسلم (٧٤٦) والنسائي (٣/ ١٩٩) والحاكم (٢/ ٣٩٢).

(٢) «غير مدينين»: غير مربوبين ولا مقهورين.

فيهم ، كما سيميتهم إذا شاء ، ويحييهم إذا شاء ، ويأمرهم وينهاهم ، ويُثيب محسنهم ويُعاقب مسيئهم ، وإما أن يقروا برب هذا شأنه ، فإن أقروا به آمنوا بالبعث والنشور ، والدين الأمري والجزائي ، وإن أنكروه وكفروا به ، فقد زعموا أنهم غير مربوبين ولا محكوم عليهم ، ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد ، فهلاّ يقدرون على دفع الموت عنهم إذا جاءهم ، وعلى رد الروح إلى مستقرها إذا بلغت الحلقوم؟ وهذا خطاب للحاضرين عند المحتضر ، وهم يعاينون موته ، أي: فهلاّ تردُّون روحها إلى مكانها إن كان لكم قدرة وتصرف ، ولستم مربوبين ولا مقهورين لقاهر قادر ، تمضي عليكم أحكامه ، وتنفذ فيكم أوامره ، وهذا غاية التعجيز لهم؛ إذ تبيَّن عجزهم عن ردّ نفس واحدة من مكان إلى مكان ، ولو اجتمع على ذلك الثقلان ، فيا لها من آية دالّة على ربوبيته سبحانه ، ووحدانيته ، وتصرفه في عباده ، ونفوذ أحكامه فيهم ، وجريانها عليهم.

الدين دينان:

والدين دينان: دين شرعي أمري ، ودين حسابي جزائي ، وكلاهما لله وحده؛ فالدين كله لله أمراً أو جزاء ، والمحبة أصل كل واحد من الدينين ، فإنه ما شرعه سبحانه وأمر به فإنه يحبه ويرضاه ، وما نهى عنه فإنه يكرهه ويبغضه لمنافاته لما يحبه ويرضاه؛ فهو يحب ضدّه ، فعاد دينه الأمري كله إلى محبته ورضاه.

ودين العبد لله به إنما يُقبل إذا كان عن محبة ورضا ، كما قال ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبّاً ، وَبِالإِسْلاَمِ دِيْناً ، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولاً»[1] فهذا الدين قائم بالمحبة ، وبسببها شرع ، ولأجلها شرع ، وعليها أُسِّس. وكذلك دينه الجزائي فإنه يتضمن مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، وكل من الأمرين محبوب للرب ، فإنهما عدله وفضله ، وكلاهما من صفات كماله ،

---

(١) رواه أحمد (١/٢٠٨) ومسلم (٣٤) والترمذي (٢٦٢٣).

وهو سبحانه يحب صفاته وأسماءه ، ويحب من يحبها ، وكل واحد من الدينين فهو صراطه المستقيم الذي هو عليه سبحانه فهو على صراط مستقيم ، في أمره ونهيه وثوابه وعقابه . كما قال تعالى إخباراً عن نبيه هود عليه الصلاة والسلام أنه قال لقومه : ﴿ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [هود : ٥٤ ـ ٥٦][1] .

ولما علم نبي الله هود عليه السلام أن ربه على صراط مستقيم في خلقه وأمره ونهيه ، وثوابه وعقابه ، وقضائه وقدره ، ومنعه وعطائه ، وعافيته وبلائه ، وتوفيقه وخذلانه ، لا يخرج في ذلك عن موجب كماله المقدس ، الذي تقتضيه أسماؤه وصفاته ، من العدل ، والحكمة ، والرحمة ، والإحسان ، والفضل ، ووضع الثواب في موضعه ، والعقوبة في موضعها اللائق بها ، ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والإضلال ، كل ذلك في أماكنه ومحالّه اللائقة به ، بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء ، أوجب له ذلك العلم والعرفان ، إذ نادى على رؤوس الملأ من قومه بجَنَانٍ ثابت وقلب غير خائف بل متجرد لله ﴿ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [هود : ٥٤ ـ ٥٦] .

ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره لكل ما سواه ، وذل كل شيء لعظمته ، فقال : ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ فكيف أخاف مِنْ مَنْ ناصيته بيد غيره ، وهو في قبضته وتحت قهره وسلطانه دونه ، ومثل هذا الأمر أجهل الجهل وأقبح الظلم .

ثم أخبر أنه سبحانه على صراط مستقيم ، في كل ما يقضيه ويقدره ، فلا

(١) «كيدوني» : احتالوا في كيدي وضرّي . «لا تنظرون» : لا تُمْهِلُوني . «آخذ بناصيتها» : مالكها وقادرٌ عليها .

يخاف العبد جوره ولا ظلمه ، فلا أخاف ما دونه ، فإن ناصيته بيده ، ولا أخاف جوره ولا ظلمه ، فإنه على صراط مستقيم. فهو سبحانه ماضٍ في عبده حكمه ، عدل فيه قضاؤه ، له الملك وله الحمد ، لا يخرج تصرفه في عباده عن العدل والفضل ، إن أعطى وأكرم وهدى ووفق فبفضله ورحمته ، وإن منع وأهان وأضل وخذل وأشقى فبعدله وحكمته ، وهو على صراط مستقيم في هذا وهذا.

وفي الحديث الصحيح: «مَا أَصَابَ عَبْداً قَطُّ هَمٌّ وَلاَ حُزْنٌ ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ ابْنُ أَمَتِكَ ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ ، أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ: أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي ، وَنُورَ صَدْرِي ، وَجَلاَءَ حُزْنِي ، وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي ، إِلاَّ أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَغَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجاً ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَلاَ نَتَعَلَّمُهُنَّ؟ قَالَ: بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ»[١].

وهذا يتناول حكم الرب الكوني والأمري وقضاءه الذي يكون باختيار العبد وغير اختياره ، وكلا الحكمين ماض في عبده ، وكلا القضاءين عدل فيه ، فهذا الحديث مشتق من هذه الآية ، بينهما أقرب نسب[٢].

محبة الله أصل الدين والأعمال والإرادات:

إن محبة الله سبحانه والأنسَ به ، والشوقَ إلى لقائه ، والرضا به وعنه: أصلُ الدين وأصلُ أعماله وإراداته ، كما أن معرفته ، والعلم بأسمائه وصفاته وأفعاله أجلُّ علوم الدين كلها ، فمعرفته أجلُّ المعارف ، وإرادةُ وجهه أجلُّ المقاصد ، وعبادته أشرفُ الأعمال ، والثناء عليه بأسمائه وصفاته ومدحه وتمجيده أشرفُ الأقوال ، وذلك أساس الحنيفيَّة مِلَّة إبراهيم.

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٩١ ، ٤٥٢) والحاكم (١/ ٥٠٩).

(٢) الداء والدواء (٣٤٥).

وقد قال تعالى لرسوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣][١].

وكان النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم يُوصي أصحابه إذا أصْبحوا أن يقولوا: «أصبحنا على فِطْرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، ومِلَّة أبينا إبراهيم، حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين»[٢].

وذلك هو حقيقةُ شهادةِ أن لا إله إلا الله، وعليها قامَ دينُ الإسلام؛ الذي هو دينُ جميع الأنبياء والمرسلين، وليس لله دينٌ سواه، ولا يَقبلُ من أحدٍ ديناً غيره: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فمحبته تعالى، بل كونُه أحبّ إلى العبد من كل ما سواه على الإطلاق، من أعظم واجباتِ الدِّين، وأكبر أصوله، وأجلِّ قواعده، ومن أحبَّ معه مخلوقاً مثلَ ما يحبه فهو من الشرك الذي لا يُغفَر لصاحبه، ولا يُقبل معه عمل.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥][٣].

وإذا كان العبدُ لا يكون من أهل الإيمان حتى يكون عبدُ الله ورسولُه أحبَّ إليه من نفسه وأهله وولده ووالده والناس أجمعين[٤]، ومَحبته تبعٌ لمحبة الله، فما الظنُّ بمحبته سبحانه؟! وهو سبحانه لم يخلق الجنّ والإنْسَ إلا لعبادته، التي تتضمَّنُ كمالَ محبته، وكمال تعظيمه والذلّ له، ولأجل ذلك أرسل رسله، وأنزلَ كتبه، وشرع شرائعه، وعلى ذلك وضَعَ الثوابَ والعقاب،

---

(١) «ملة إبراهيم»: شريعته، وهي التوحيد.
(٢) رواه أحمد (٣/ ٤٠٧).
(٣) «أنداداً»: أمثالاً من الأوثان يعبدونها.
(٤) رواه البخاري (١٥) ومسلم (٤٤) والنسائي (٨/ ١١٥).

وأُسِّست الجنةُ والنار ، وانقسمَ الناسُ إلى شَقِيٍّ وسعيد ، وكما أنه سبحانه ليس كمثله شيء ، فليس كمحبته وإجلاله وخوفه محبة وإجلالٌ ومخافة .

فالمخلوق كلما خِفته استوحشت منه ، وهربت منه . والله سبحانه كلما خفته أنست به وفَرَرْت إليه . والمخلوق يُخاف ظلمُه وعدوانُه ، والربُّ سبحانه إنما يُخاف عدلُه وقِسْطُه .

وكذلك المحبة ، فإن محبة المخلوق إذا لم تكن لله فهي عذاب للمحب ، ووبالٌ عليه .

وما يحصل له بها من التألم أعظمُ مما يحصل له من اللذة . وكلما كانت أبعدَ عن الله كان ألمها وعذابها أعظم .

هذا إلى ما في محبته من الإعراض عنك ، والتجنِّي عليك ، وعدم الوفاء لك ، إما لمزاحمة غيرك من المحبين له ، وإما لكراهته ومعاداته لك ، وإما لاشتغاله عنك بمصالحه وما هو أحب إليه منك ، وإما لغير ذلك من الآفات .

وأما محبةُ الرب سبحانه فشأنها غير هذا الشأن ، فإنه لا شيءَ أحبّ إلى القلوب من خالقها وفاطرها ، فهو إلهها ومعبودها ، ووليها ومولاها ، وربُّها ومدبرها ورازقها ، ومميتها ومحييها .

فمحبته نعيم النفوس ، وحياة الأرواح ، وسرور النفوس ، وقوت القلوب ، ونور العقول ، وقرة العيون ، وعمارة الباطن . فليس عند القلوب السليمة ، والأرواح الطيبة ، والعقول الزاكية أحلى ، ولا ألذ ، ولا أطيب ، ولا أسرّ ، ولا أنعم من محبته والأنس به ، والشوق إلى لقائه ، والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك فوق كل حلاوة ، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتَمُّ من كل نعيم ، واللذة التي تَناله أعلى من كل لذة . كما أخبر بعض الواجدين عن حاله بقوله : إنه لَيَمُرُّ بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة في مثل هذا ، إنهم لفي عيش طيب .

وقال آخر : إنه ليمر بالقلب أوقات يهتزُّ فيها طرباً بأُنسه بالله وحبه له .

وقال آخر: مساكين أهل الغفلة ، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها .

وقال آخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف .

وَوُجْدَانُ هذه الأمور وذوْقُها هو بحسب قوة المحبة وضعفها ، وبحسب إدراك جمال المحبوب والقرب منه ، وكلما كانت المحبة أكمل ، وإدراك المحبوب أتمّ ، والقرب منه أوفر ، كانت الحلاوةُ واللذة والسرور والنعيم أقوى .

فمن كان بالله سبحانه وأسمائه وصفاته أعرف ، وفيه أرغب ، وله أحبّ ، وإليه أقرب ، وجد من هذه الحلاوة في قلبه ما لا يمكن التعبير عنه ، ولا يعرف إلا بالذوق والوجد ، ومتى ذاق القلب ذلك لم يمكنه أن يقدِّم عليه حبّاً لغيره ، ولا أنساً به . وكلما ازداد له حبّاً ازداد له عبودية وذلاًّ ، وخضوعاً ورِقّاً له ، وحرية عن رقِّ غيره .

فالقلب لا يفلح ولا يصلح ولا يتنعم ولا يبتهج ولا يلتذ ولا يطمئن ولا يسكن؛ إلا بعبادة ربه وحبه ، والإنابة إليه . ولو حصل له جميع ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن إليها ، ولم يسكن إليها ، بل لا تزيده إلا فاقة[1] وقَلَقاً ، حتى يظفر بما خُلق له ، وهُيِّىءَ له: من كون الله وحده نهاية مراده ، وغاية مطالبه . فإن فيه فقراً ذاتياً إلى ربه وإلهه ، من حيث هو معبودُه ومحبوبه وإلهُه ومطلوبه ، كما أنَّ فيه فقراً ذاتياً إليه من حيث هو ربه وخالقه ورازقه ومدبّره . وكلما تمكنت محبة الله من القلب وقويت فيه أخرجت منه تألُّهه لما سواه وعبوديته له .

فأصبح حُرّاً عِزَّةً وصيانةً ... على وجهه أنواره وضياؤه

وما من مؤمن إلا وفي قلبه محبة لله تعالى ، وطمأنينة بذكره ، وتنعُّم

---

(١) «فاقة»: فقر وحاجة .

بمعرفته ، ولذة وسرور بذكره ، وشوق إلى لقائه ، وأنس بقربه ، وإن لم يُحِسَّ به ، لاشتغال قلبه بغيره ، وانصرافه إلى ما هو مشغول به ، فوجودُ الشيء غير الإحساس والشعور به.

وقوة ذلك وضعفه وزيادته ونقصانه: هو بحسب قوة الإيمان وضعفه وزيادته ونقصانه.

ومتى لم يكن الله وحده غاية مراد العبد ونهاية مقصوده ، وهو المحبوب المراد له بالذات والقصد الأول ، وكلُّ ما سواه فإنما يحبه ويريده ويطلبه تبعاً لأجله ، لم يكن قد حقق شهادة أن لا إله إلا الله ، وكان فيه من النقص والعيب والشرك بقدره ، وله من موجبات ذلك من الألم والحسرة والعذاب بحسب ما فاته من ذلك.

ولو سعى في هذا المطلوب بكل طريق ، واستفتح من كل باب ، ولم يكن مستعيناً بالله ، متوكلاً عليه ، مفتقراً إليه في حصوله ، متيقناً أنه إنما يحصل بتوفيقه ومشيئته ، وإعانته ، لا طريق له سوى ذلك بوجه من الوجوه. لم يحصل له مطلوبه. فإنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن. فلا يوصِّل إليه سواه ، ولا يدل عليه سواه ، ولا يُعبَد إلا بإعانته ، ولا يطاع إلا بمشيئته ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨ ـ ٢٩].

وإذا عُرف هذا ، فالعبدُ في حال معصيته واشتغاله عنه بشَهْوتِه ولَذَّته ، تكونُ تلك اللَّذَّة والحلاوةُ الإيمانيةُ قد اسْتَتَرَتْ عنه ، وتوارَتْ ، أو نَقَصَتْ ، أو ذهبت. فإنها لو كانت موجودةً كاملةً لما قَدَّم عليها لَذَّةً وشَهْوَةً ، لا نِسْبَةَ بينها وبينها بوجهٍ ما ، بل هو أدنَى من حَبَّةِ خَرْدَلٍ بالنسبة إلى الدنيا وما فيها. ولهذا قال النبي ﷺ: «لا يَزْنِي الزاني حين يَزْنِي وهو مؤمنٌ ، ولا يَسْرِقُ السارق

حين يسرقُ وهو مؤمنٌ ، ولا يشرب الخمر حين يَشْرَبُها وهو مؤمن»[1] فإن ذَوقَ حقيقةِ الإيمان ومباشرته لقَلْبِه يمنعه من أنْ يُؤثِر عليه ذلك القَدْرَ الخسيسَ ، ويَنْهاهُ عَمَّا يُشَعِّثُه ويَنْقُصُه.

ولهذا تجدُ العبدَ إذا كَان مُخْلِصاً لله ، مُنيباً إليه ، مطمئنّاً بذكره ، مشتاقاً قلبُه إلى لقائه ، منصرفاً عن هذه المحرماتِ ، لا يلتفتُ إليها ، ولا يُعَوِّلُ عليها ، ويَرَى استبداله بها عَمَّا هو فيه كاستبداله البَعْرَ الخسيس بالجَوْهَرِ النَّفِيس ، وبيعِه الذهبَ بأعقاب الجزَرِ ، وبَيْعِه المسكَ بالرَّجيع[2].

ولا ريبَ أنَّ في النفوسِ البشَرِيَّة من هو بهذه المثابة ، إنما يصبُو إلى ما يناسبُه ، ويميلُ إلى ما يُشاكِلُه ، يَنْفُرُ من المطالبِ العاليـة ، واللذات الكاملة ، كما ينفر الجُعَلُ[3] من رائحة الوَرْدِ. وشاهَدْنا مَنْ يُمْسِكَ بأنفِه عند وجُودِ رائحة المسك ، ويَتَكَرَّه بها ، لما يناله بها من المضَرَّةِ.

* * *

(١) رواه البخاري (٢٤٧٥) ومسلم (٥٧).
(٢) «الرجيع» : الروث.
(٣) «الجُعَل» : جِنْس خَنَافِسَ من مُغْمدات الأجنحة.

الفصل الثاني
منزلة المحبة وحدُّها

منـزلـة الـمحبـــة:

وهي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون ، وإليها شخص العاملون ، وإلى عَلَمها شمر السابقون ، وعليها تفاني المحبون ، وبِرَوْحِ نسيمها تروَّح العابدون ، فهي قوتُ القلوب ، وغذاءُ الأرواح ، وقرّة العيون ، وهي الحياةُ التي مَنْ حُرمها فهو من جملة الأموات ، والنور الذي مَنْ فقده فهو في بحار الظلمات ، والشفاء الذي من عدمه حَلَّت بقلبه جميع الأسقام. واللذة التي من لم يظفر بها فعيشه كله غموم وآلام.

وهي روح الإيمان والأعمال ، والمقامات والأحوال؛ التي متى خَلَت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه ، تحملُ أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشِقِّ الأنفس بالغيها ، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبداً واصليها ، وتُبوِّئهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها.

وهي مطايا القوم التي مسراهم على ظهورها دائماً إلى الحبيب ، وطريقهم الأقوام الذين يبلغهم إلى منازلهم الأولى من قريب.

تالله لقد ذهب أهلُها بشرف الدنيا والآخرة ، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصبب. وقد قضى الله ـ يوم قدَّر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة ـ: أن المرء مع من أحب ، فيا لها من نعمة على المحبين سابغة!

تالله لقد سبق القوم السُّعاة ، وهم على ظهور الفرش نائمون ، وقد تقدَّموا الركب بمراحل ، وهم في سيرهم واقفون .

مَـنْ لـي بمثـل سيـرك المـدلـل   تمشـي رويـداً وتجي فـي الأول؟!

أجابوا منادي الشوق إذ نادى بهم : حَيَّ على الفلاح ، وبذلوا نفوسَهم في طلب الوصولِ إلى محبوبهم ، وكان بذلهم بالرضا والسَّماح ، وواصلوا إليه المسيرَ بالإدلاج[1] والغدو[2] والرواح[3] . تالله لقد حمدوا عند الوصول سُراهم ، وشكروا مولاهم على ما أعطاهم ، وإنما يحمد القومُ السُّرىَ عند الصَّباح[4] .

فحيَّهـلاً ، إن كنـتَ ذا همـةٍ ، فقـد   حدا بك حادي الشَّوقِ فاطْوِ المراحلا
وقـلْ لمنـادي حُبِّهـم ورضـاهـم   إذا مـا دعـا «لبيـك» ألفـاً كـوامـلا
ولا تنظرِ الأطلالَ من دونهم ، فإن   نظرتَ إلى الأطلال عُدْنَ حوائلا
ولا تنتظـرْ بـالسيـر رُفقـةَ قـاعـدٍ   ودَعْهُ ، فإنَّ الشوقَ يكفيك حاملا
وخُذْ منهمُ زاداً إليهم ، وسِرْ على   طريقِ الهدى والفقرِ تصبحْ واصلا
وأحْيِ بذكراهم سُراكَ ، إذا وَنَتْ   ركابك ، فالذكرى تعيدكَ عاملا
وإما تخافَنَّ الكلال ، فقال لها :   أمامَك وِردُ الوصلِ ، فابْغِ المناهلا
وخُذْ قَبَساً من نورهم ، ثم سرْ به   فنورُهم يهديك ، ليس المشاعلا
وحَيّ على وادي الأراك ، فَقِلْ به   عساك تراهم فيه ، إن كنت قائلا[5]
وإلا ففـي نَعْمـانَ عنـد مُعَـرِّف الأحبّـة ، فـاطلبْهـم إذا كنـتَ سـائـلا[6]

---

(١) «الإدلاج» : السير من أول الليل ، وسَيْر الليل كلّه .
(٢) «الغدو» : ضد الرواح ، وهو وقت ما بين الفجر وطلوع الشمس .
(٣) «الرواح» : نقيض الغدو ، وهو وقتٌ من زوال الشمس إلى الليل .
(٤) هذا مثل يُضرب في احتمال المشقة رجاءَ الراحة . و«السُّرى» : السير بالليل .
(٥) «فقل به» : مِنْ : قال قَيْلولة : نام واستراح في نصف النهار .
(٦) «نَعْمان» : قال الأصمعي : نعمان : وادٍ يسكنه بنو عمرو بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل . بين أدناه ومكة نصف ليلة . معجم البلدان (٥/ ٢٩٣) .
=

وإلا ففـي جَمْـعٍ بليلتـه ، فـإن تَفُتْ ، فمتى؟ يا ويح مَنْ كان غافلا[1]
وحـيَّ على جنـاتِ عَـدْنٍ بقـربهـم منـازلُـكَ الأولـى بهـا كنـتَ نـازلا
ولكن سباك الكاشحون؛ لأجل ذا وقفتَ على الأطلال تبكي المنازلا[2]
فَدَعْها رُسُوماً دارسات ، فما بها مَقِيل ، فجاوزها ، فليست منازلا
رسومٌ عَفَتْ يَفْنَى بها الخلقُ كَمْ بها قتيل! وكم فيها لذا الخلق قاتلا!
وخُذْ يَمْنةً عنها على المنهج الذي عليـه سـرى وفـد المحبـةِ آهـلا
وقل: ساعدي ، يا نفسُ بالصبر ساعة فعنـد اللقـا ذا الكـدُّ يصبـح زائـلا
فمـا هـي إلا سـاعـة ، ثـم تنقضـي ويصبحُ ذو الأحزان فرحانَ جاذلا

أول نقدة من أثمان المحبة: بذل الروح. فما للمفلس الجبان البخيل وسومها؟!

بـدمِ المحـبِّ يبـاعُ وَصْلُهـم فمـن الـذي يبتـاعُ بـالثمـن؟

تـالله مـا هُـزِلـت فيستـامهـا المفلسـون ، ولا كَسَـدت فيبيعهـا بـالنسيئـة المعسرون.

لقد أقيمت للعَرْض في سوق من يزيد ، فلم يرض لها بثمن دون بذل النفوس ، فتأخر البطَّالون ، وقام المحبون ينظرون: أيهم يصلحُ أن يكون ثمناً؟ فدارت السلعةُ بينهم. ووقعت في يد ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

ولما كثر المدَّعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى ، فلو يُعْطَى الناس بدعواهم لادَّعى الْخَليُّ حُرقة الشَّجِيِّ[3] ، فتنوع المدعون في

= «مُعرِّف الأحبة»: يقصد: عرفة.
(١) «جمع»: مزدلفة.
(٢) «الكاشحون»: جمع الكاشح ، وهو العدو المبْغِض.
(٣) «الخلي»: الفارغ البال من الهم. و«الشجي»: الحزين والمشغول البال.

الشهود ، فقيل: لا تقبل هذه الدعوى إلا ببيِّنة ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فتأخر الخلق كلهم. وثبت أتباع الحبيب في أفعاله وأقواله وأخلاقه. فطولبوا بعدالة البينة بتزكية ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

فتأخر أكثرُ المحبين وقام المجاهدون ، فقيل لهم: إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم. فهلموا إلى بيعة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

فلما عرفوا عظمة المشتري ، وفضل الثمن ، وجلالة مَنْ جرى على يديه عقد التبايع: عرفوا قدر السلعة ، وأن لها شأناً ، فرأوا من أعظم الغَبْن[1] أن يبيعوها لغيرها بثمن بخس ، فعقدوا معه بيعة الرضوان بالتراضي ، من غير ثبوت خيار ، وقالوا: «والله لا نقيلك ولا نستقيلك».

فلما تم العقدُ ، وسلموا المبيع ، قيل لهم: مذ صارتْ نفوسكم وأموالكم لنا رددناها عليكم أوفر ما كانت ، وأضعافها معاً ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠].

وإذا غُرست شجرة المحبة في القلب ، وسُقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار ، وآتت أكلُها كل حين بإذن ربها ، أصلها ثابت في قرار القلب ، وفرعها متصلٌ بسدرة المنتهى.

ولا يزال سعيُ المحب صاعداً إلى حبيبه لا يحجبه دونه شيء ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠].

---

(١) «الغبن»: الظلم.

المحبة هي المحبة:

لا تحدّ المحبة بحدّ أوضح منها ، فالحدودُ لا تزيدُها إلا خفاء وجفاء ، فحدُّها وجودها ، ولا توصف المحبةُ بوصف أظهر من «المحبة».

وإنما يتكلم الناسُ في أسبابها وموجباتها، وعلاماتها وشواهدها، وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت في هذه الستة، وتنوعت بهم العبارات، وكثرت الإشارات ، بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله ، وملكه للعبارة.

وهذه المادة تدورُ في اللغة على خمسة أشياء:

أحدها: الصفاء والبياض. ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حَبَبُ الأسنان.

الثاني: العلو والظهور. ومنه حَبَب الماء وحُبابه ، وهو ما يعلوه عند المطر الشديد. وحَبَب الكأس منه.

الثالث: اللزوم والثبات. ومنه: حَبَّ البعير وأحب ، إذا برك ولم يقم.

قال الشاعر[1]:

حُلْتُ عَلَيْهِ بالقَضِيلِ ضَرْبا ضَرْبَ بَعيرِ السَّوْءِ إذْ أَحَبّا

الرابع: اللب. ومنه: حبة القلب ، للُبِّه وداخله. ومنه: الحَبَّة لواحدة الحبوب. إذ هي أصلُ الشيء ومادته وقوامه.

الخامس: الحفظ والإمساك. ومنه حِبُّ الماء للوعاء الذي يحفظ فيه ويمسكه ، وفيه معنى الثبوت أيضاً.

ولا ريبَ أن هذه الخمسة من لوازم المحبة ، فإنها صفاء المودة ، وهيجان إرادات القلب للمحبوب ، وعلوها وظهورها منه لتعلقها بالمحبوب المراد ، وثبوت إرادة القلب للمحبوب ، ولزومها لزوماً لا تفارقه ، ولإعطاء المحب

---

(١) هو أبو محمد الفقعسي ، كما في لسان العرب ، مادة (حبب).
«القضيل»: السَّوْط.

محبوبه لُبَّه ، وأشرف ما عنده ، وهو قلبه ، ولاجتماع عزماته وإراداته وهمومه على محبوبه.

فاجتمعت فيها المعاني الخمسة. ووضعوا لمعناها حرفين مناسبين للمسمَّى غاية المناسبة «الحاء» التي هي من أقصى الحلق. و«الباء» الشفوية التي هي نهايته ، فللحاء الابتداء ، وللباء الانتهاء. وهذا شأنُ المحبة وتعلقها بالمحبوب ، فإن ابتداءها منه وانتهاءها إليه ، وقالوا في فعلها: حَبَّه وأحَبَّه. قال الشاعر[1]:

أُحِبُّ أبا مَرْوانَ مِنْ حُبِّ تمرهِ ... ولم تعلم أنَّ الرفقَ بالجارِ أَرْفَقُ
فواللهِ لولا تَمْرُهُ ما حَبَبْتُهُ ... ولا كان أَدْنى مِنْ عُبيدٍ ومُشْرِقِ

ثم اقتصروا على اسم الفاعل من «أحب» فقالوا «محب» ولم يقولوا «حابٌّ» واقتصروا على اسم المفعول من «حب» فقالوا «محبوب» ولم يقولوا «مُحَبٌّ» إلا قليلاً. كما قال الشاعر[2]:

ولَقَد نَزَلْتِ ، فلا تَظُنِّي غَيْرَهُ ... مِنِّي بِمَنْزلةِ المُحَبِّ المُكْرَمِ[3]

وأعطوا «الحب» حركة الضم التي هي أشد الحركات وأقواها ، مطابقة لشدة حركة مسماه وقوتها. وأعطوا «الحِبَّ» وهو المحبوب: حركة الكسر لخفتها عن الضمة ، وخفة المحبوب ، وخفة ذكره على قلوبهم وألسنتهم: من إعطائه حكم نظائره ، كنِهْب بمعنى منهوب ، وذِبْح بمعنى مذبوح ، وحِمْل للمحمول ، بخلاف الحَمْل ـ الذي هو مصدر ـ لخفته ، ثم ألحقوا به حملاً لا يشق على حامله حمله ، كحمل الشجرة والولد.

فتأمَّلْ هذه اللطف والمطابقة والمناسبة العجيبة بين الألفاظ والمعاني ، تطلعك على قدر هذه اللغة ، وأن لها شأناً ليس لسائر اللغات.

---

(١) هو غَيْلان بن شُجاع النَّهْشَلي ، كما في لسان العرب ، مادة (حبب).
(٢) هو عنترة بن شداد العبسي.
(٣) ديوان عنترة (١٨٧).

رسوم المحبة :

ذكر العلماءُ رسوماً وحدوداً في المحبة ، بحسب آثارها وشواهدها ، والكلام على ما يحتاج إليه منها :

الأول : قيل : المحبة الميل الدائم ، بالقلب الهائم .

وهذا الحدُّ لا تمييزَ فيه بين المحبة الخاصة والمشتركة ، والصحيحة والمعلولة .

الثاني : إيثار المحبوب ، على جميع المصحوب .

وهذا حكم من أحكام المحبة وأثر من آثارها .

الثالث : موافقة الحبيب ، في المشهد والمغيب .

وهذا أيضاً موجبها ومقتضاها ، وهو أكمل من الحدين قبله ، فإنه يتناول المحبة الصادقة الصحيحة خاصّة ، بخلاف مجرد الميل والإيثار بالإرادة ، فإنه إن لم تصحبه موافقة فمحبته معلولة .

الرابع : محو الحب لصفاته ، وإثبات المحبوب لذاته .

وهذا أيضاً من أحكام الفناء في المحبة : أن تنمحي صفات المحب ، وتفنى في صفات محبوبه وذاته . وهذا يستدعي بياناً أتم من هذا ، لا يدركه إلا من أفناه واردُ المحبة عنه ، وأخذه منه .

الخامس : مواطأة القلب لمرادات المحبوب .

وهذا أيضاً من موجباتها وأحكامها . والمواطأة : الموافقة لمرادات المحبوب ، وأوامره ، ومراضيه .

السادس : خوف ترك الحرمة ، مع إقامة الخدمة .

وهذا أيضاً من أعلامها وشواهدها وآثارها : أن يقوم بالخدمة كما ينبغي ، مع خوفه من ترك الحرمة والتعظيم .

السابع: استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيبك.

وهذا قول أبي يزيد[1]، وهو أيضاً من أحكامها وموجباتها وشواهدها. والمحب الصادقُ لو بذل لمحبوبه جميعَ ما يقدر عليه لاستقلّه، واستحيا منه، ولو ناله من محبوبه أيسر شيء لاستكثره، واستعظمه.

الثامن: استكثار القليل من جنايتك، واستقلال الكثير من طاعتك.

وهو قريبٌ مِنَ الذي قبله، لكنه مخصوصٌ بما من المحب.

التاسع: معانقة الطاعة، ومباينة المخالفة.

وهو لسهل بن عبد الله[2]. وهو أيضاً حُكم المحبة، وموجبها.

العاشر: دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب، وهو للجنيد، وفيه غموضٌ، ومراده: أن استيلاء ذكر المحبوب وصفاته وأسمائه على قلب المحب، حتى لا يكون الغالب عليه إلا ذلك، ولا يكون شعوره وإحساسه في الغالب إلا بها، فيصير شعورُه وإحساسُه بدلاً من شعوره وإحساسه بصفات نفسه، وقد يحتمل معنى أشرف من هذا، وهو: تبدُّل صفات المحب الذميمة ـ التي لا توافقُ صفات المحبوب ـ بالصفات الجميلة المحبوبة التي توافق صفاته.

الحادي عشر: أن تهب كُلَّك لمن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء.

وهو لأبي عبد الله القرشي، وهو أيضاً من موجبات المحبة وأحكامها، والمراد: أن تهب إرادتك وعزمك وأفعالك ونفسك ومالك ووقتك لمن تحبه،

---

(١) هو طيفور بن عيسى البِسْطامي، أبو يزيد: زاهد مشهور. له أخبار كثيرة. قيل: إنه كان يقول بوحدة الوجود، ومذهب الفناء. توفي سنة (٢٦١هـ). طبقات الصوفية (٦٧) ووفيات الأعيان (١/ ٢٤٠) والأعلام (٣/ ٢٣٥).

(٢) هو سَهْل بن عبد الله التُّسْتَري، أبو محمد: أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضات وعيوب الأفعال. له «تفسير القرآن» و«رقائق المحبين». توفي سنة (٢٨٣هـ). طبقات الصوفية (٢٠٦) وحلية الأولياء (١٠/ ١٨٩).

وتجعلها حبساً في مرضاته ومحابه. فلا تأخذ لنفسك منها إلا ما أعطاك، فتأخذه منه له.

الثاني عشر: أن تمحو من القلب ما سوى المحبوب. وهو للشبلي[1]، وكمال المحبة يقتضي ذلك، فإنه ما دامتْ في القلب بقية لغيره ومسكن لغيره؛ فالمحبة مدخولة.

الثالث عشر: إقامة العتاب على الدوام. وهو لابن عطاء[2]. وفيه غموض.

ومراده: ألاَّ تزال عاتباً على نفسك في مرضاة المحبوب، وألاَّ ترضى له فيها عملاً وحالاً.

الرابع عشر: أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك. وهو للشبلي أيضاً. ومراده: احتقارك لنفسك واستصغارها؛ أن يكون مثلك من محبيه.

الخامس عشر: إرادة غُرست أغصانها في القلب، فأَثمرت الموافقة والطاعة.

السادس عشر: أن ينسى المحبُّ حظه في محبوبه، وينسى حوائجه إليه. وهو لأبي يعقوب السوسي. ومراده: أن استيلاء سلطانها على قلبه غَيَّبه عن حظوظه وعن حوائجه، واندرجت كلها في حكم المحبة.

---

(١) هو دُلف بن جحدر الشِّبْلي: ناسك، كان في مبدأ أمره والياً في «دبناوند» وولي الحجابة للموفق العباسي، ثم ترك الولاية، وعكف على العبادة، فاشتهر بالصلاح. له شعر جيد، سلك به مسلك المتصوفة. توفي سنة (٣٣٤هـ). وفيات الأعيان (١/ ١٨٠) وصفة الصفوة (٢/ ٢٥٨) والأعلام (٢/ ٣٤١).

(٢) هو أحمد بن محمد، ابن عطاء الله الإسكندري، أبو الفضل: متصوف شاذلي، من العلماء. كان من أشد خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية. له «الحكم العطائية» و«تاج العروس» و«لطائف المنن». توفي سنة (٧٠٩هـ). الدرر الكامنة (١/ ٢٧٣) والأعلام (١/ ٢٢١).

السابع عشر: مجانبة السلو في كل حال. وهو للنصراباذي. وهو أيضاً من لوازمها وثمراتها، كما قيل:

مـرتْ بـأرجـاءِ الخيـالِ طيُـوفُـه   فبكـتْ علـى رَسْـم السُّلـو الـدَّارس

الثامن عشر: توحيد المحبوب بخالص الإرادة وصدق الطلب.

التاسع عشر: سقوط كلّ محبة من القلب إلا محبة الحبيب. وهو لمحمد بن الفضل[١]. ومراده: توحيد المحبوب بالمحبة.

العشرون: غضّ طرف القلب عما سوى المحبوب غَيْرة، وعن المحبوب هيْبة.

وهذا يحتاج إلى تبيين.

أما الأول: فظاهر. وأما الثاني: فإن غضّ طرف القلب عن المحبوب ـ مع كمال محبته ـ كالمستحيل. ولكن عند استيلاء الهيبة يقع مثل هذا. وذلك من علامات المحبة المقارنة للهيبة والتعظيم. وقد قيل: إنَّ هذا تفسير قول النبي ﷺ: «حبك الشيءَ يُعْمي ويصم»[٢] أي: يعمي عما سواه غيرة، وعنه هيبة.

وليس هذا مراد الحديث، ولكن المراد به: أن حبك للشيء يعمي ويصم عن تأمل قبائحه ومساويه، فلا تراها ولا تسمعها، وإن كانت فيه. وليس المراد به: ذكر المحبة المطلوبة المتعلقة بالرب. ولا يقال في حبِّ الرب تبارك وتعالى: حبك الشيء، ولا يُوصف صاحبها بالعمى والصم.

ونحن لا ننكر المرتبتين المذكورتين؛ فإن المحبَّ قد يعمى ويصم عنه بالهيبة والإجلال، ولكن لا تُوصف محبةُ العبد لربه تعالى بذلك، وليس أهلها

---

(١) هو محمد بن الفضل البَلْخي، أبو عبد الله: صوفي شهير، من أجلَّة مشايخ خراسان، له كلام سائر. توفي سنة (٣١٩هـ). طبقات الصوفية (٢١٢) وحلية الأولياء (١٠/ ٢٣٢) والأعلام (٦/ ٣٣٠).

(٢) رواه أحمد (٥/ ١٩٤ و٦/ ٤٥٠) وأبو داود (٥١٠٨) والبخاري في التاريخ الكبير (٣/ ١/ ١٧٢) والقضاعي في مسند الشهاب (١٥١).

من أهل العمى والصم ، بل هم أهلُ الأسماع والأبصار على الحقيقة ، ومَنْ سواهم هم البكم العمي الصم الذين لا يعقلون.

الحادي والعشرون: ميلك للشيء بكليتك ، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سراً وجهراً ، ثم علمك بتقصيرك في حبه.

قال الجنيد[1] : سمعتُ الحارث المحاسبي[2] يقول ذلك.

الثاني والعشرون: المحبةُ نار في القلب ، تحرق ما سوى مراد المحبوب.

وسمعتُ شيخَ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: لمتُ بعضَ الإباحية ، فقال لي ذلك ، ثم قال: والكون كله مراده ، فأي شيء أبغض منه؟

قال الشيخُ : فقلت له : إذا كان المحبوبُ قد أبغض أفعالاً وأقوالاً وأقواماً ، وعاداهم فطردهم ولعنهم ، فأحببتهم ، تكون موالياً للمحبوب أو معادياً له؟ قال: فكأنما أُلْقِم حجراً ، وافتضح بين أصحابه ، وكان مُقدَّماً فيهم ، مشاراً إليه.

وهذا الحدُّ صحيح ، وقائله إنما أراد: أنها تحرقُ من القلب ما سوى مراد المحبوب الديني الأمري؛ الذي يحبه ويرضاه ، لا المراد الذي قَدَّره وقضاه. لكن لقلة حظ المتأخرين منهم وغيرهم من العلم ، وقعوا فيما وقعوا فيه من الإباحة والحلول والاتحاد ، والمعصوم مَنْ عصمه الله.

الثالث والعشرون: المحبةُ بذل المجهود، وترك الاعتراض على المحبوب.

---

(١) هو الجُنَيْد بن محمد البغدادي: صوفي ، من العلماء بالدين. وقد ضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة ، وصانه عن العقائد الذميمة. توفي سنة (٢٩٧هـ). تاريخ بغداد (٧/ ٢٤١) وحلية الأولياء (١٠/ ٢٥٥) والأعلام (٢/ ١٤١).

(٢) هو الحارث بن أسد ، أبو عبد الله: من أكابر الصوفية. كان عالماً بالأصول والمعاملات ، واعظاً مُبكياً. وله تصانيف ، منها: «آداب النفوس» و«الرعاية لحقوق الله» و«رسالة المسترشدين». توفي سنة (٢٤٣هـ).
صفة الصفوة (٢/ ٢٠٧) وحلية الأولياء (١٠/ ٧٣) والأعلام (٢/ ١٥٣).

وهذا أيضاً من حقوقها ، وثمراتها ، وموجباتها .

الرابع والعشرون: سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه. ثم السكر الذي يحصلُ عند المشاهدة لا يوصف ، وأنشد :

فـأسْكَـرَ القـومَ دورُ الكـأسِ بينهـم لكنَّ سُكْرِي نشا من رؤية السَّاقي

وينبغي صونُ المحبة والحبيب عن هذه الألفاظ ، التي غاية صاحبها : أن يعذر بصدقه وغلبة الوارد عليه ، وقهره له. فمحبةُ الله أعلى وأجلّ من أن تضربَ لها هذه الأمثال ، وتُجعل عرضةً للأفواه المتلوثة ، والألفاظ المبتدعة ، ولكن الصادق في خفارة[1] صدقه .

الخامس والعشرون: ألاَّ يؤثر على المحبوب غيره ، وألاَّ يتولى أمورك غيره .

السادس والعشرون: الدخول تحت رقّ المحبوب وعبوديته ، والحرية من استرقاق ما سواه .

السابع والعشرون: المحبة سَفَر القلب في طلب المحبوب ، ولهج اللسان بذكره على الدوام .

قلت: أما سَفَر القلب في طلب المحبوب ، فهو الشوقُ إلى لقائه ، وأما لهجُ اللسان بذكره ، فلا ريبَ أنَّ مَنْ أحبَّ شيئاً أكثر مِنْ ذكره .

الثامن والعشرون: أن المحبة هي ما لا ينقصُ بالجفاء ، ولا تزيد بالبر ، وهو ليحيى بن معاذ[2] ، بل الإرادة والطلب والشوق إلى المحبوب لذاته ، فلا ينقصُ ذلك جفاؤه ، ولا يزيده بِرُّه .

وفي ذلك ما فيه ، فإن المحبة الذاتية تزيد بالبر ، ولا تنقصها زيادتها بالبر ، وليس ذلك بعلة ، ولكن مراد يحيى: أن القلب قد امتلأ بالمحبة

---

(١) «خفارة»: حماية وحراسة .

(٢) هو يحيى بن مُعَاذ الرازي ، أبو زكريا: واعظ ، زاهد ، لم يكنْ له نظيرٌ في وقته. له كلمات سائرة. توفي سنة (٢٥٨هـ). طبقات الصوفية (١٠٧) وصفة الصفوة (٤/ ٧١) والأعلام (٨/ ١٧٢).

الذاتية ، فإذا جاء البرّ من محبوبه ، لم يجدْ في القلب مكاناً خالياً من حبه يشغله محبة البرّ، بل تلك المحبة قد استحقتْ عليه بالذات بلا سبب ، ومع هذا فلا يزيلُ الوهم ، فإن المحبة لا نهاية لها ، وكلما قويت المعرفة والبر قويت المحبة ، ولا نهاية لجمال المحبوب ولا بره ، فلا نهاية لمحبته ، بل لو اجتمعت محبةُ الخلق كلهم ، وكان على قلب رجل واحد منهم؛ كان ذلك دون ما يستحقُّه الربُّ جل جلاله. ولهذا لا تُسمَّى محبة العبدِ لربه عشقاً لأنه إفراط المحبة ، والعبد لا يصلُ في محبة الله إلى حد الإفراط ، ألبتة.

التاسع والعشرون: المحبةُ أن يكونَ كلُّك بالمحبوب مشغولاً ، وذُلُّك له مبذولاً.

الثلاثون: ـ وهو من أجمع ما قيل فيها ـ قال أبو بكر الكتاني: جرت مسألةٌ في المحبة بمكة أعزها الله تعالى ـ أيام الموسم ـ فتكلم الشيوخُ فيها ، وكان الجنيدُ أصغرهم سنّاً ، فقالوا: هات ما عندك يا عراقي. فأطرق رأسه ، ودمعتْ عيناه ، ثم قال: عبدٌ ذاهب عن نفسه ، متّصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرقت قلبه أنوار هيبته. وصفا شِرُبه من كأس وُدِّه ، وانكشف له الجبار من أستار غيبه[1]. فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو بالله ، ولله ، ومع الله.

فبكى الشيوخُ ، وقالوا: ما على هذا مزيد ، جزاك اللهُ يا تاجَ العارفين[2].

حدّ المحبة نوعُ دلالة لا كشف حقيقة:

قال أبو العباس[3]: «وأما المحبةُ فقد أشار أهلُ التحقيق في العبارة عنها ،

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٦).

(٢) كيف ينكشف الله تعالى من أستار الغيب؟!

(٣) هو أحمد بن محمد بن موسى الصنهاجي الأندلسي المري ، أبو العباس: فاضل شهير بالصلاح ، له شعر ومشاركة في العلوم ، وصنف كتاب «محاسن المجالس». توفي سنة (٥٢٦هـ). وفيات الأعيان (١/ ٥٤) والأعلام (١/ ٢١٥).

وكلٌّ نطقَ بحسب ذوقه ، وانفسح بمقدار شوقه».

قلت: الشيء إذا كان في الأمور الوجدانية الذَّوقية التي إنما تُعلمُ بآثارها وعلاماتها ، وكان ممّا يقعُ في التَّفاوت بالشِّدَّة والضعف ، وكان له لوازم وآثار وعلامات مُتعدّدة ، اختلفت العباراتُ عنه بحسب اختلاف هذه الأشياءِ. وهذا شأن المحبّة ، فإنها ليست ـ بحقيقة معانيها ـ تُرى بالأبصار ، فيشترك الواصفون لها في الصِّفة. وهي في نفسها متفاوتة أعظم تفاوت.

كما بين العلاقة التي هي تعلّق القلب بالمحبوب ، والخلّة التي هي أعلى مراتب الحبّ ، وبينهما درجاتٌ متفاوتةٌ تفاوتاً لا ينحصرُ. ولها آثارٌ تُوجبها وعلامات تدلّ عليها ، فكلٌّ أدركَ بعضَ علاماتها فعبَّر بحسب ما أدركه وهي وراءَ ذلك كله: ليس اسمها كمسمّاها ، ولا لفظها مبين لمعناها.

وكذلك اسم المصيبة والبليّة والشِّدَّة والألم إنما تدلُّ أسماؤها عليها نوع دلالة لا تكشفُ حقيقتها ، ولا تعلمُ حقيقتها إلاّ بذوقها ووجودها. وفرق بين الذّوق والوجود وبين التّصوّر والعلم. فالحدودُ والرّسومُ التي قيلت في المحبة صحيحةٌ غير وافية بحقيقتها ، بل هي إشاراتٌ وعلاماتٌ وتنبيهاتٌ.

قال: «وهي ـ على الإجمال قبل أن ننتهيَ إلى التفصيل ـ وجودُ تعظيم في القلب يمنع الانقياد لغير محبوبه».

فيقال: هذا التعظيمُ المانع من الانقياد لغير المحبوب هو أثرٌ من آثار المحبّة وموجبٌ من موجباتها ، لا أنه نفسُ المحبة. فإنَّ المحبّةَ إذا كانت صادقةً أوجبتْ للمحبّ تعظيماً لمحبوبه يمنعه من انقياده إلى غيره. وليس مجرّد التعظيم هو المانعُ له من الانقياد إلى غيره ، بل التعظيمُ المقارنُ للحب هو الذي يمنعُ من الانقياد إلى غير المعظم. وكذلك إذا كان الحبُّ خالياً عن التّعظيم ، وامتلأ القلب بهما امتنعَ انقيادُه إلى غير المحبوب[1].

---

(١) طريق الهجرتين (٥٣١).

أقوال في المحبة:

وقد قيل في حدّ المحبة حدود كثيرة غير ما ذكره أبو العباس.

فقيل: المحبة: ميلُ القلب إلى محبوبه. وهذا الحدّ لا يُعطي تصوّر حقيقة المحبة. فإنّ المحبة أعرفُ عند القلب من الميل. وأيضاً فإن الميل لا يدلُّ على حقيقة المحبة، فإنها أخصُّ من مجرد ميل القلب، إذ قد يميلُ قلبُ العبد إلى الشيء ولا يكون مُحبّاً له لمعرفته بمضرّته له، فإن سُمِّي هذا الميلُ محبّةً فهو اختلافُ عبارة.

وقيل: المحبّة علمُ المحبّ بجمال المحبوب ومحاسنه. وهذا حدٌّ قاصرٌ، فإنَّ العلمَ بجماله ومحاسنه هو السببُ الدَّاعي إلى محبته، فعبَّر عن المحبة بسببها.

وقيل: المحبَّةُ تعلُّقُ القلب بالمحبوب.

وقيل: انصبابُ القلب إلى المحبوب.

وقيل: سكون القلب إليه.

وقيل: اشتغال القلب بالمحبوب بحيث لا يتفرغ قلبه لغيره.

وقيل: المحبة بذل المجهود في معرفة محبوبك، وبذل المجهود في مرضاته.

وقيل: هيجان القلب عند ذكر المحبوب، وقيل: شجرة تنبت في القلب تسقى بماء المراقبة، وإيثار رضا المحبوب.

وقيل: المحبة حفظ الحدود، فليس بصادق من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده.

وقيل: المحبة إرادة لا تنقص بالجفاءِ ولا تزيد بالبر.

وقيل: المحبة هي السخاءُ بالنفس للمحبوب.

وقيل: المحبة ألاَّ يزال عليك رقيب من المحبوب لا يمكنك من الانصراف عنه أبداً. وأنشد في ذلك:

أَبَـتْ غَلَبَـاتُ الشَّـوقِ إلاَّ تَقَـرُّبـا إليـك، ويـأبـى العـذلُ إلاَّ تَجَنُّبـا
وَمَا كَانَ صَدِّي عنك صدَّ مَلاَمَةٍ وَلاَ ذلـك الإعـراضُ إلاَّ تَقَـرُّبـا
ومَـا كَـانَ ذاكَ الْعَـذْلُ إلاَّ نصيحـةً ولا ذلـك الإغضـاءُ إلاَّ تَهَيُّبـا
عَلَـيَّ رَقِيـبٌ منـكِ حَـلَّ بِمُهْجَتِـي إِذَا رُمْـتُ تَسْهِيـلاً علـيَّ تَصَعَّبـا

وقيل: المحبة سقوطُ كلّ محبّة من القلب سوى محبة حبيبك.

وقيل: المحبة صدقُ المجاهدة في أوامر الله، وتجريدُ المتابعة لسنة رسول الله ﷺ.

وقيل: المحبة ألا يفتر من ذكره، ولا يأنس بغيره.

وقال أبو يزيد: المحبَّةُ استقلالُ الكثير من نفسك، واستكثارُ القليل من حبيبك.

وقيل: المحبةُ أن يميتك حبيبُك وتحيا به.

وقيل: أن تمحوَ من قلبك ما سوى المحبوب.

وقيل: المحبة نسيانُ حظّك من محبوبك، وفقرك بكلّك إليه.

وقال النصر آباذي[1]: المحبة مجانبة السلوّ على كل حال.

وقيل: المحبة سكرٌ لا يصحو إلا بمشاهدة المحبوب.

وقيل: المحبَّةُ إقامتُك بالباب على الدوام.

وقيل: المحبة حرفان: حاءٌ، وباءٌ، فالحاءُ الخروج عن الروح، وبذلها

---

(١) هو إبراهيم بن محمد بن مَحْمَويْه، أبو القاسم: شيخ خراسان في وقته، نيسابوري الأصل والمنشأ والمولد. صحب الشبلي وغيره. وخرج في آخر عمره إلى مكة وحج. توفي سنة (٣٦٧هـ). طبقات الصوفية (٤٨٤) وتاريخ بغداد (٦/ ١٦٩).

للمحبوب. والباءُ الخروج عن البدن وصرفه في طاعة المحبوب.

وقال أبو عمرو الزجاجي[1]: سألت الجنيد عن المحبة، فقال: تريد الإشارة؟ قلت: لا. قال: تريد الدعوى؟ قلت: لا. قال: فإيش تريد؟ قلت: عين المحبة. فقال: أن تحب ما يحب الله في عباده، وتكره ما يكره الله في عباده.

وقيل: المحبة معيَّةُ القلب والروح مع المحبوب معيةً لا تفارقه، فإن المرءَ مع من أحب. وقد قيل في المحبة حدود أكثر من هذا، وكل هذا نعني.

ولا توصف المحبة ولا تحدّ بحد أوضح من المحبة، ولا أقرب إلى الفهم من لفظها.

وأما ذكر الحدود والتعريفات فإنما يكون عند حصول الإشكال والاستعجام على الفهم، فإذا زال الإشكال وعدم الاستعجام فلا حاجة إلى ذكر الحدود والتعريفات، كما قال بعض العارفين: إن كلَّ لفظ يعبّر به عن الشيء فلا بد أَن يكون ألطف وأرق منه. والمحبة ألطفُ وأرقُّ من كُلّ ما يُعَبَّرُ به عنها.

سموّ المحبة عن التعريف:

قال أبو العباس: «وقال قوم: ليس للمحبة صيغةٌ يُعبّر بها عن حقيقتها؛ فإنَّ الغيرة من أوصاف المحبة، والغيرة تأبى إلاَّ التستُّر والاختفاءَ، وكل من بسط لسانه بالعبارة عنها والكشف عن سرّها فليس له منها ذوق، وإنما حرّكه وجدان الرائحة، ولو ذاقَ منها شيئاً لغاب عن الشرح والوصف. فإن المحبة لا تظهر على المحب بلفظه، وإنما تظهر عليه بشمائله ونحوله، ولا يفهم حقيقتها مع المحب سوى المحبوب، لوضع اقتداح الأسرار من القلوب، كما قيل:

---

(١) هو محمد بن إبراهيم: نيسابوري الأصل، صحب أبا عثمان، والجنيد، ورويماً، وغيرهم. دخل مكة، وأقام بها، وصار شيخها. وفضائله أكثر من أنْ تُحصى. توفي سنة (٣٤٨هـ). طبقات الصوفية (٤٣١) وحلية الأولياء (١٠/ ٣٧٦).

تشيرُ فـأدري مـا تقـولُ بِطَـرْفِهَـا وأُطْـرِقُ طـرفـي عنـد ذاكَ فتَعْلَـمُ
تكلَّـمُ منـا فـي الـوجـوه عيـونُنـا فنحـنُ سكـوتٌ والهـوى يَتَكَلَّـمُ»

قلت: كلُّ معنى فله صيغةٌ تُعبّر به عنه ، ولا سيما إذا كانت من المعاني المعروفة للخاصّ والعامّ ، ولكنَّ العبارة قد تكون كاشفةً للمعنى مطابقةً له ، كلفظ الدَّراهم والخبز والماء واللبن ونحوها ، وهي أكبر الألفاظ. وقد يكون المعنى فوق ما يشيرُ إليه اللَّفظُ ويعبّر عنه ، وهو أجلُّ من أن يدلّ لفظُه على كمال ماهيته؛ وهذا كأسماءِ الرب سبحانه وأسماءِ كتابه.

وكذلك اسمُ الحب فإنه لا يكشفُ اسْمُهُ مُسَمَّاه ، بل مُسَمَّاه فوقَ لفظه ، وكذلك اسمُ الشوق والعشق والموت والبلاءِ ونحوها. وقد يكون المعنى دون اللفظ بكثير ، واللفظُ أَجلّ منه أعظم. وهذا كلفظ الجوهر الفرد الذي هو عبارة عن أقلّ شيء وأصغره وأدقّه وأحقره ، فليس معناه على قدر لفظه.

وإذا عرف هذا فقولهم: «ليس للمحبة صيغة يعبّر بها عن حقيقتها» المرادُ به أنّ لَفْظَها لا يفهم حقيقة معناها ومعناها فوق ما يفهم من لفظها. وقوله: «الغيرة من أوصاف المحبة ، وهي تأْبىٰ إلا التستر والاختفاءَ» هذه كلام في حكم المحبة ومقتضاها ، لا في حقيقتها ومعناها ، والمحبُّون مُتباينون في هذا الحكم ، فمنهم من يجعل الغيرة من لوازم المحبة وعلامة ثبوتها وتمكّنها ، ويجعل نداءَ المرءِ عليها وبسط لسانه بالإخبار بها دليلاً على أنه دُعي فيها ، وأن ما معه منها رائحتها لا حقيقتها ، وحقيقتها تأْبى إلاَّ التستُّر والكتمان. وهذه طريقة الملامتية[1]. كما قيل:

---

(١) الملامتية: هم الذين لم يظهر على ظواهرهم ممّا في بطونهم أثر البتة ، وهم يجتهدون في تحقيق كمال الإخلاص فيضعون الأمور مواضعها حسبما هي في الغيب؛ فلا تخالف إرادتهم وعلمهم إرادة وعلم الحق تعالى ، فلا ينفون الأسباب ولا يثبتونها إلاّ في محل يقتضي نفيها أو ثبوتها. والملامي لذلك لا يُظْهِر خيراً ولا يضمر شراً ، وإنما هو مخلص مقيم في أوطان إخلاصه ، غير متطلّع إلى حقيقة خلاصه. (معجم مصطلحات الصوفية ص ٢٤٩).

لا تنكِري جَحْدي هواكِ ، فإنَّما ذاكَ الجحودُ عليه سِتْرٌ مُسْبَلُ

ولهذا قيل: المحبَّةُ كتمانُ الإرادة ، وإظهارُ الموافقة. وهذه الطائفة رأت أنّ كمالَ المحبة بكتمانها لأسبابٍ عديدةٍ:

أحدها: إنَّ الحبَّ كلّما كان مكتوماً كان أشدّ وأعظم سرياناً وسكوناً في أجزاءِ القلب كلها ، كما قيل: الحب أقتله أكتمه ، فإذا أفشاه المحب وأظهره ، وباح به ، ونادىٰ عليه؛ ضعف أثره ، وصار عرضةً للزوال.

الثاني: إن الحبَّ كنزٌ من الكنوز ، بل هو أعظمُ الكنوزِ المودَعَةِ في سِرِّ العبد وقلبه ، فلا طريقَ لِلّصوص إليه ، فإذا باح به ونادى عليه فقد دلَّ قُطَّاعَ الطريق واللصوص على موضع كنزه ، وعرّضه لسلبه منه ، فإنَّ النفوسَ غيّارةٌ مغيرة ، تغارُ على المحبوب أن يشارِكَها في حُبِّه أحد. فإذا غارتْ عليه أغارتْ على القلوب التي فيها حبّه فانتزعته منه.

وهذه الآفةُ قد ابتُلي بها كثيرٌ من السَّالكين الذين هم في الحقيقة قُطّاع الطريق على السّالكين إلى الله ، وسوّلت لهم أنفسهم أنَّ هذه غيرة منهم على محبوبهم أن يحبّ مثل هذه النفوس المتلوّثة بالدّنيا ، وغرّتهم أنفسهم ومنَّتهم أنهم يغارون على الله وهو أوّل من مَلَكَ النفوس ، وبين محبته ، فعادوا وأغاروا ونهبوا واستلبوا ، وهذه الطريق عند المحبّين المخلصين ، أولياء الله ، الدّاعين إلى الله؛ عداوة لله في الحقيقة ومعاونة للشيطان ، وقعود على طريق الله المستقيم الذي خلق عباده لأجله وأمرهم به.

فالحذرُ من هؤلاءِ القطّاع اللصوص حَمَلَ أهلَ المحبة على المبالغة في كتمانها ، وإظهار التَّخلِّي منها بأسباب يُلامون عليها ظاهراً ، وقلوبهم مغمورة بالمحبة مأْهولة بها.

وهذا الذي ظنُّوه غيرة هو من تلبيس الشيطان وخدعه لهم ومكره بهم ، وإنما هو حسد حملهم على أن يعدوه ظنّاً ، أو أن يسموه غيرة ، وإنما غيرة المحبِّين لله أن يغار أحدهم لمحارم الله إذا انتهكت ، فيغار لله لا على الله ، كما

قال النبي ﷺ: «إنَّ اللهَ يَغَارُ ، وإنَّ المؤمنَ يَغَارُ ، وغَيرةُ اللهِ أن يأْتي العبدُ ما حَرَّمَ عليه»[1].

فغيرةُ المحبّ هي الموافقةُ لغيرة محبوبه ، وهي أن يغارَ مِمَّا يغار منه المحبوب ، وإذا كان المحبوبُ مِمّن يحبّه ، وهذا يغارُ ممن يحبه الله فهو في الحقيقة ساعٍ في خلاف مراد محبوبه وفي إعدام ما يحبّه محبوبه ، فأين هذا من الغيرة المحبوبة لله؟ وإنما هذه غيرةٌ من أخيه المسلم كيف خصَّه الله بعطائه وألبسه ثوب نعمائه ، فهي غيرةٌ منه لا غيرةٌ على الله ، فإنَّ اللهُ لا يغارُ عليه بل يغارُ له. وسنفرد إن شاءَ الله للغيرة فصلاً نذكر فيه أقسامها وحقيقتها.

الثالث: إنَّ المحبَّةَ التَّامَّةَ تستدعي شغلَ القلب بالمحبوب وعدم تفرّغه للشرح والوصف ، فلو صدقت محبّته لاستغرق فيها عن شرح حاله ووصفه ، فهذه طريقةُ هؤلاءِ ، ومنهم من يجعلُ تهتّكه وبوحه بها ، وإعلامه لها؛ من تمامها وقوّتها ، ومن علامات قهرها له ، وأنها غلبت على سرّه حتى لم يطقْ صبرُه كتمانها ، كما قال النوري[2]: المحبة هتك الأستار ، وكشف الأسرار. فهذا حال النوري وأضرابه.

وعند هؤلاءِ: التكتّم ضعفٌ في المحبة وجور فيها ، وحقيقتُها أن تخليها ومقتضاها من ظهور آثارها على الجوارح والبدن ، فإن أثرت حركة لم يسكنها ، وإن أثرت بذلاً وإيثاراً لم يمسكه. وكمالُ المحبّة عندهم أن تنادي عليه أعضاؤه وألفاظه وألحاظه وحركاته وسكناته بالحب نداءً لا يملك إنكاره.

وقال علي بن عبيد: كتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد: سكرتُ من كثرة ما شربت من كأس محبته. فكتب إليه أبو يزيد: غيرُك شرب بحور السموات

---

(١) رواه البخاري (٥٢٢٣) ومسلم (٢٧٦١).

(٢) هو أحمد بن محمد ، أبو الحسين النوري: صوفي. بغدادي المنشأ والمولد. خراساني الأصل ، من قرية بين هراة ومَرْو الرُّود يُقال لها: بَغْشُور. كان من أجلِّ الصوفية وعلمائهم. توفي سنة (٢٩٥هـ). طبقات الصوفية (١٦٤) وحلية الأولياء (١/ ٢٤٩).

والأرض وما روي بعد ، ولسانه خارج وهو يقول : هل من مزيد؟

فلم يَـرَ هذان العارفان التكتُّم بها وإخفاءَها وجحدها ، وهما هما .

وكان الأُستاذ أبو علي الدقاق ينشد كثيراً :

لـي سَكْـرتـان ولِلنـدمـان واحـدةٌ شيءٌ خُصِصْتُ به من بينهم وحدي[1]

وجاء رجل[2] إلى عبد الله بن المنازل[3] فقال : رأيتُ في المنام كأنك تموت إلى سنة ، فقال عبد الله : لقد أجّلتني إلى أجلٍ بعيدٍ أعيشُ إلى سنة! لقد كان لي أنس ببيتٍ سمعته من أبي علي الثقفي[4] :

يا من شكا شوقَه من طُولِ فرقتِهِ اصبرْ لَعَلَّكَ تلقى مَن تُحِبُّ غدا[5]

وقال الشبلي : المحبُّ إذا سكت هلك ، والعارفُ إن لم يسكتْ هلك .

والتَّحقيقُ : أن هذا هو حالُ المتمكّن في حُبِّه ، الذي تزولُ الجبال الراسيات وقلبه على الودّ لا يلوي ولا يتغيّر . والأوّل حالُ المريد المبتدىء الذي قد علقت نارُ المحبّة في قلبه ، ولم يتمكّن اشتغالُها ، فهو يخافُ عليها عواصفَ الرِّياح أن تطفئها ، فهو يخبئها ويكتمها ويسترها من الرياح جهده ، فإذا اشتعلت وتمكّن وقودها في القلب لم تزدها كثرةُ الرياح إلاَّ وقوداً واشتعالاً .

---

(١) ذكره القشيري في الرسالة القشيرية (٣٢٦) .

(٢) هو أحمد بن حامد الأسود .

(٣) هو عبد الله بن محمد بن منازل ، أبو محمد : من أجلِّ مشايخ نيسابور ، له طريقة يتفرَّد بها . كان عالماً بعلوم الظاهر ، وكَتَب الحديث الكثير ، ورواه . توفي سنة (٣٢٩هـ) . طبقات الصوفية (٣٦٦) وطبقات الشعراني (١/١٠٧) .

(٤) هو محمد بن عبد الوهاب ، أبو علي : كان إماماً في أكثر علوم الشرع ، مُقَدَّماً في كل فنٍّ منه ، عطَّل أكثر علومه ، واشتغل بعلم الصوفية ، وكان حَسَن الكلام في عيوب النفس وآفات الأعمال . توفي سنة (٣٢٨هـ) . طبقات الصوفية (٣٦١) وطبقات الشعراني (١/١٠٧) .

(٥) البيت في الرسالة القشيرية (٣٣٠) .

فهذا يختلفُ باختلاف الناس وتفاوتهم في قوّة المحبة وضعفها.

والمقصودُ أَنَّ مَن بسط لسانه بالعبارة عنها، والكشف عن سرّها وأحكامها؛ لن يؤمن أن يكون من أهل العلم بالمحبّة لا من المتّصفين بها حالاً، فكم بين العلم بالشيء والاتّصاف به ذوقاً وحالاً، فعلمُ المحبة شيء ووجودُها في القلب شيء.

وكثيرٌ من المحبِّين الذين امتلأت قلوبُهم محبة لو سُئِل عن حدّها وأحكامها وحقيقتها لم يطقْ أن يعبّر عنها، ولا يتهيّأ له أن يصفَها ويصفَ أحكامها، وأكثرُ المتكلمين فيها إنّما تكلّموا فيها بلسان العلم لا بلسان الحال. وهذا ـ والله أعلم ـ هو معنى قول بعض المشايخ: أعظم الناس حجاباً عن الله أكثرُهم إليه إشارةً، فإنه إنما حظّه منه الإشارة إليه لا علوق القلب عليه، كالفقير الذي دأبه وصف الأغنياءِ وأموالهم، ووصف الدنيا وممالكها، وهو خلوّ من ذلك.

ولا ريبَ أنَّ وجودَ الحبّ في القلب وترك الكلام علماً، خيرٌ من كثرة الكلام في هذه المسألة وخلوّ القلب منها، وخيرٌ من الرجلين من امتلأ قلبُه منها حالاً وذوقاً، وفاضت على لسانه إرشاداً وتعليماً ونصيحة للأُمة. فهذا حالُ الكملة من الناس. والله المسؤول من فضله وكرمه.

قوله: «المحبّةُ لا تظهرُ على المحبّ بلفظه، وإنما تظهرُ عليه بشمائله ونحوله».

هذا حقّ؛ فإنّ دلالةَ الحال على المحبّة أعظمُ من دلالة المقال عليها، بل الدلالةُ عليها في الحقيقة هو شاهدُ الحال لا صريح المقال. ففرقٌ بين مَن يقولُ لك بلسانه إنِّي أحبّك ولا شاهد عليه من حاله، وبين من هو ساكتٌ لا يتكلّم وأنت ترى شواهدَ أحواله كلها ناطقةٌ بحبه لك.

قال جعفر: قال الجنيد: دفع السّري[1] إليّ رقعة وقال: هذه خيرٌ لك من سبعمئة قصّة وكذا وكذا، فإذا فيها:

ولما ادّعيتُ الحبَّ قالتْ: كذبتني فما لي أرى الأعضاءَ منك كواسيا
فما الحبُّ حتى يلصقَ القلبُ بالحشا وتـذبـلَ حتَّـى لا تجيـب المنـاديـا
وتنحل حتى ليس يُبقي لك الهوى سـوى مقلـة تبكـي بهـا وتُنـاجيـا[2]

وبالجملة فشاهدُ الحب الذي لا يكذب هو شاهدُ الحال، وأمّا شاهدُ المقال فصادقٌ وكاذبٌ.

قوله: «ولا يفهم حقيقتها من المحب سوى المحبوب، لموضع امتداح الأسرار من القلوب».

يعني: أنَّ حقيقةَ المحبّة وسِرَّها لا يفهمه من المحبّ إلاَّ محبوبه؛ وذلك لشدَّة الاتّصال الذي بينه وبين محبوبه في الباطن، فروحُه أقربُ شيء إليه، والغير وإن علم أنه محبّ بظهور أثر المحبّة عليه وقيام شاهدها، لكن لا يدركُ تلك اللطيفة والحقيقة التي يدركها المحبوبُ من مُحِبّه؛ لموضع اتّصال سِرّه به، وقرب ما بين الروحين، ولا سيما إذا كانت المحبَّةُ من الطرفين، فهناك العجبُ والمناجاةُ والملاطفة والإشارة والعتاب والشكوى، وهما ساكنان لا يدري جليسُهما بشأْنهما[3].

* * *

---

(١) هو سَرِي بن المُغَلِّس السَّقَطِيّ، أبو الحسن: من كبار المتصوفة. وهو أول مَنْ تكلم في بغداد بلسان التوحيد وأحوال الصوفية. وكان إمام البغداديين وشيخهم في وقته. وهو خالُ الجنيد، وأستاذه. توفي سنة (٢٥٣هـ). طبقات الصوفية (٤٨) والأعلام (٣/ ٨٢).

(٢) الأبيات في الرسالة القشيرية (٣٢٤) وتزيين الأسواق (٤٧).

(٣) طريق الهجرتين (٥٥٧).

الفصل الثالث
غاية المحبة ومقصودها

التعبد غاية الحب:

وأما التعبُّد: فهو غاية الحبِّ، وغاية الذلِّ، يقال: عبَّده الحبُّ، أي ذلَّله. وطريقٌ معبّدٌ بالأقدام، أي: مُذَلَّلٌ، وكذلك المحبُّ قد ذلَّلَه الحبُّ ووطَّأَه، ولا تصلُحُ هذه المرتبة لأحد غير الله عزّ وجلّ، ولا يغفرُ الله سبحانه لمن أشركَ به في عبادته، ويغفرُ ما دونَ ذلك لمن شاء. فمحبَّة العبودية هي أشرفُ أنواع المحبَّة، وهي خالصُ حقِّ الله عَلَى عباده.

وفي الصحيح: عن مُعاذ، أنه قال: كنتُ سائراً مع رسول الله ﷺ قال: «يا مُعاذ!» فقلت: لَبَّيْكَ يا رسولَ الله وسَعْدَيْك! قال: ثم سارَ ساعةً ثم قال: «يا معاذ!» قلت: لَبَّيْكَ يا رسولَ اللهِ وسَعْدَيْكَ، ثم سارَ ساعةً فقال: «يا معاذُ!» قلت: لَبَّيْكَ يا رسولَ الله وسَعْدَيك، قال: «أتدري ما حَقُّ الله على عبادِه؟» قلت: اللهُ ورسولُه أعلم، قال: «حقُّه عليهم أن يعبدوه لا يُشركوا به شيئاً، أتدري ما حقُّ العباد عَلَى الله إذا فعلوا ذلك؟ ألاَّ يُعذِّبهم بالنار»[1].

وقد ذكرَ الله سبحانه رسولَه بالعبودية في أشرف مقاماته، وهي مقام التحدِّي، ومقام الإسراء، ومقام الدعوة، فقال في التحدِّي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال في مقام

---

(١) رواه البخاري (٦٢٦٧ و٧٣٧٣) ومسلم (٣٠) والترمذي (٢٦٤٣).

الإسراءِ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١]، وقال في مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]. وإذا تدافعَ أولو العزم الشفاعةَ الكبرى يوم القيامة يقول المسيحُ لهم: «اذهبوا إلى محمدٍ، عبدٌ غفرَ الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر»[1]. فنالَ ذلك المقامَ بكمال العبودية لله وكمال مغفرة الله له، فأشرفُ صفاتِ العبد صفة العبودية، و«أَحَبُّ الأسماءِ إلى اللهِ عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمٰنِ، وَأَصْدَقُها حارثٌ وَهَمَّام، وأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمُرَّة»[2].

وإنما كان حارث وهمَّام أصدقَها لأن كلَّ أحد لا بدّ له من همّ وإرادة وعزم ينشأ عنه حرثه وفعله، وكلُّ أحدٍ حارثٌ وَهَمَّام، وإنما كان أَقبَحَها حربٌ ومُرّة لما في مُسمَّى هذين الاسمين من الكراهة ونفور العقل عنهما، وبالله التوفيق[3].

مـلاك الأمـر الـرغـبـة فـي الله:

ومِلاكُ الأمر كله الرغبةُ في الله، وإرادة وجهه، والتقرُّبُ إليه بأنواع الوسائل، والشوقُ إلى الوصول إليه وإلى لقائه، فإن لم يكن للعبد همَّةٌ إلى ذلك فالرغبة في الجنة ونعيمها وما أعدَّ اللهُ فيها لأوليائه، فإن لم تكن له همَّةٌ عاليةٌ تطالبه بذلك فخشية النار ما أعدَّ اللهُ فيها لمن عصاه، فإن لم تطاوعه نفسه بشيءٍ من ذلك فليعلم أنه خُلق للجحيم لا للنعيم، ولا يقدر على ذلك بعد قدَر الله وتوفيقه إلا بمخالفة هواه، فهذه فصول أربعة هن: ربيعُ المؤمن وصيفه وخريفه وشتاؤه، وهن منازلُه في سيره إلى الله عزّ وجلّ، وليس له منزلةٌ غيرها، فأما مخالفةُ الهوى فلم يجعل اللهُ للجنة طريقاً غيرَ مخالفته، ولم

---

(١) رواه أحمد (٣/٢٤٨) والبخاري (٧٤١٠) ومسلم (١٩٣).
(٢) رواه أحمد (٤/ ٣٤٥) وأبو داود (٤٩٥٠) والترمذي (٦/٢١٨ ـ ٢١٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٣٠٦).
(٣) روضة المحبين (٨٧).

يجعل للنار طريقاً غير متابعته ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٤١] وقال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦][1] قيل: هو العبد يهوى المعصية فيذكر مقامَ ربّه عليه في الدُّنيا ، ومقامَه بين يديه في الآخرة فيتركها لله .

وقد أخبر سبحانه أن اتباع الهوى يُضل عن سبيله ، فقال الله تعالى : ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [صٓ: ٢٦] ثم ذكر مآلَ الضالّين عن سبيله ومصيرَهم فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [صٓ: ٢٦] وأخبر سبحانه أن باتّباع الهوى يطبع على قلب العبد فقال : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٦] وقد أخبر النبيّ ﷺ أن العاجز هو الذي اتّبع هواه ، وتمنّى على الله .

وذكر من حديث جعفر بن حَيَّان ، عن أبي الحكم ، عن أبي بَرْزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَخوَفُ مَا أَخَافُ عليكم شَهَواتُ الغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمُضِلاَّتُ الهوَى»[2] .

وفي نسخة كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني ، عن أبيه ، عن جدّه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أَخْوَفَ ما أَخَافُ عَلَى أُمَّتي حُكْمٌ جَائـرٌ ، وَزَلَّـةُ عالمٍ ، وهَوًى مُـتَّـبَعٌ»[3] .

(١) «هي المأوى»: هي المرجع والمقام له لا غيرها.

(٢) رواه أحمد (٤/ ٤٢٣) والبزار كما في كشف الأستار (١٣٢) وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ١٨٨) وانظره في الترغيب والترهيب (٧٨).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ١٧ برقم ١٤) والبزار كما في كشف الأستار (١٨٢) والقضاعي في مسند الشهاب (١١٢٧) وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ١٨٧) وانظره في الترغيب والترهيب (٧٩).

وقيل لبعض الحكماء: أيّ الأصحاب أبرُّ؟ قال: العمل الصالح، قيل: فأَيُّ شيءٍ أضرّ؟ قال: النفس والهوى. وقال بعض الحكماء: إذا اشتبه عليك أمران فانظر أقرَبهما من هواك فاجتنبه. وأُتِيَ بعضُ الملوك بأسيرٍ عظيم الْجُرْم فقال: لو كان هواي في العفو عنك لخالفت الهوى إلى قتلك، ولكن لما كان هواي في قتلك خالفته إلى العفو عنك. وقال الهيثم بن مالك الطائيّ: سمعت النُّعمان بن بشير يقول عَلَى المنبر: إن للشيطان فخوخاً ومَصَالِي[1] وإن من مصالي الشيطان وفخوخه البطرَ بأنعُم الله، والفخرَ بإعطاء الله، والكبرياءَ عَلَى عباد الله، واتّباعَ الهوى في غير ذات الله.

وفي المسند وغيره من حديث قتادةَ، عن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ثلاثٌ مُهْلِكاتٌ، وثلاثٌ مُنْجياتٌ، فالْمُهْلِكات: شُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوىً مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ، وَالْمُنْجِيَاتُ: تقوَى الله تعالى في السرِّ والعلانيةِ، والعدلُ في الغَضَبِ والرِّضا، والقَصْدُ في الفقرِ والغِنَى»[2].

وفي جامع الترمذي من حديث أسماء بنت عُمَيْسٍ رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «بئسَ العَبْدُ عَبْدٌ تَجبَّرَ وَاعْتَدَى، وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الأَعْلَى. بئسَ العبدُ عبدٌ تَخَيَّلُ واختال، وَنَسِيَ الكبيرَ المُتَعال. بئسَ العبدُ عبدٌ سهَا ولَها، ونسيَ المقابرَ والبِلَى. بئسَ العبدُ عبدٌ بغَى وَعَتَا، ونسيَ المبدأَ والمُنتهى. بئسَ العبدُ عبـدٌ يَخْتِلُ الدُّنْـيَا بالدِّينِ. بئسَ العبدُ عبدٌ يَخْتِـلُ الدِّيـنَ بِالشُّبُهَاتِ. بئسِ العبدُ عبدٌ طَمَعٌ يقودُهُ. بئسَ العبدُ عبدٌ هوًى يُضِلُّهُ. بئسَ العبدُ عبدٌ رَغَبٌ يُذِلُّه»[3].

---

(١) «مصالي»: جمع مصلاة، وهي الشَّرَك.

(٢) رواه البزار كما في كشف الأستار (٨) والبيهقي في شعب الإيمان (٧٤٥) والطبراني في المعجم الأوسط، وانظره في مجمع الزوائد (١/ ٩١) والترغيب والترهيب (٨٢).

(٣) رواه الترمذي (٢٤٤٨) والطبراني في المعجم الكبير (٢٤/ ١٥٦) برقم (٤٠١) والحاكم (٤/ ٣١٦).

وقد أقسم النبيُّ ﷺ أنه لا يؤمنُ العبدُ حتى يكونَ هواه تَبَعاً لما جاء به[1] ، فيكون هواه تابعاً لا متبوعاً ، فمن اتَّبَعَ هواه فهواه متبوعٌ له ، ومن خالف هواه لما جاء به الرسولُ ﷺ فهواه تابعٌ له ، فالمؤمن هواه تابعٌ له ، والمنافق الفاجر هواه متبوعٌ له .

وقد حكم الله تعالى لتابع هواه بغير هُدًى من الله أنه أظلم الظالمين ، فقال الله عزَّ وجل : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص : ٥٠] وأنت تجد تحت هذا الخطاب أن الله لا يهدي من اتَّبع هواه ، وجعل سبحانه وتعالى المُتَبَعَ قسمين لا ثالث لهما : إما ما جاءَ به الرسولُ ﷺ ، وإما الهوى . فمن اتبع أحدهما لم يمكنه اتباع الآخر ، والشيطانُ يُطيف بالعبد من أين يدخل عليه فلا يجد عليه مدخلاً ولا إليه طريقاً إلا من هواه ؛ فلذلك كان الذي يخالف هواه يفْرَقُ[2] الشيطان من ظلّه ، وإنما تطاق مخالفةُ الهوى بالرغبة في الله وثوابه ، والخشيةِ من حجابه وعذابه . ووجد حلاوة الشفاء في مخالفة الهوى ، فإن متابعتَه الداءُ الأكبر ، ومخالفتَه الشفاءُ الأعظم . وقيل لأبي القاسم الْجُنَيْدِ : متى تنال النفوسُ مُناها؟ فقال : إذا صار داؤُها دواها ، قيل له : ومتى يصير داؤُها دواءَها؟ فقال : إذا خالفت هواها . ومعنى قوله : يصير داؤها دواها أن داءها هو الهوى ، فإذا خالفته تداوت منه بمخالفته . وقيل : إنما سُمِّيَ هوىً لأنه يهوي بصاحبه إلى أسفل السافلين . والهوى ثلاثة أرباع الهوان ، وهو شارع النار الأكبر ، كما أن مخالفتَه شارعُ الجنة الأعظم . وقال أبو دُلَف العِجْلي[3] :

---

(١) رواه البغوي في شرح السنة (١/ ٣١٧) والخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٣٦٩) وابن أبي عاصم في السنة (١٥) والحسن بن سفيان كما في فتح الباري (١٣/ ٢٨٩) وذكره النووي في كتابه : الأربعين النووية (٤١) .

(٢) «يفرق» : يخاف .

(٣) هو القاسم بن عيسى : أمير الكرخ ، وسيد قومه ، وأحد الأمراء والأجواد الشجعان الشعراء . قلَّده الرشيد العباسي أعمال «الجبل» ثم كان من قادة جيش المأمون ، =

واسـوأتـا لفتـى لـه أدبٌ   يُضْحِـي هـواه قـاهـراً أَدَبَـهْ
يـأتـي الـدنيَّة وهـو يعـرفُهـا   فيَشِيـنُ عِـرْضـاً صـائِنـاً أَرَبَـهْ
فـإذا ارْعَـوَى عـادتْ بصيـرتُـه   فبكـى عَلـى الحِيْـنِ الـذي سُلِبَـهْ[1]

وقال ابن المرتفق الهُذَليّ:

أبِـنْ لـي مـا تَـرى والمـرءُ يَـأتـي   عـزيمتَـه ويغلِبُـهُ هَـواه
فيَعْمـى مـا يَـرى فيـه عليـه   ويحسـبُ مَـنْ يَـراه لا يَـراه[2]

رغبـة المؤمـن فـي حـب الله تعالـى:

هذا بابٌ لا يدخل فيه إلاَّ النفوسُ الفاضلة الشريفة الأبية التي لا تقنع بالدُّون، ولا تبيع الأعلى بالأدنى بيعَ العاجز المغبون، ولا يملكها لَطْخُ جمال مُغَشٍّ[3] عَلَى أنواع من القبائح، كما قال بعضُ الأعراب وقد نظر إلى امرأةٍ مبرقَعة:

إذا بـارك الله فـي مَلْبَـسٍ   فـلا بـارك اللهُ فـي البُـرْقُـع
يُـريـك عيـونَ المَهَـا مُسْبَـلاً   ويكشِـفُ عـن منظَـرٍ أشنـع

وقال الآخر:

لا يغـرَّنْـكَ مـا تـرى مـن نقـابٍ   إنَّ تحـتَ النِّقـاب داءً دَوِيّـا

فالنفس الأبية لا ترضى بالدُّون. وقد عاب الله سبحانه أقواماً استبدلوا طعاماً بطعامٍ أدنى منه، فنعى ذلك عليهم وقال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ

= وللشعراء فيه أماديح. وله مؤلفات، منها: «سياسة الملوك» و«البزاة والصيد». وهو من العلماء بصناعة الغناء، يقول الشعر ويلحنه. توفي سنة (٢٢٦هـ). وفيات الأعيان (١/ ٤٢٣) وتاريخ بغداد (١٢/ ٤١٦) والأعلام (٥/ ١٧٩).

(١) «الحين»: الوقت.
(٢) روضة المحبين (٤٥٢).
(٣) «مغش»: يخفي ما فيه من عيوب.

﴿بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١] ، وذلك دليلٌ على وضاعة النفس ، وقلَّة قيمتها.

وقال الأصمعي[١]: خلا رجلٌ من الأعراب بامرأةٍ فهمَّ بالريبة ، فلما تمكَّن منها تنحى سليماً وجعل يقول: إن امرأً باع جنةً عرضها السموات والأرضُ بِفتر[٢] ما بينَ رجلَيكِ لقليلُ البصر بالمساحة.

وقال أبو أسماء: دخل رجلٌ غَيْضَةً[٣] فقال: لو خلوتُ ها هنا بمعصيةٍ مَن كان يراني؟ فسمع صوتاً ملأ ما بينَ لابتَيِ[٤] الغيضة ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]؟!

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا هَيْثَم ـ هو ابن خارجة ـ حدَّثنا إسماعيل بن عياش ، عن عبد الرحمن بن عَدِي البَهْرَاني ، عن يزيد بن مَيْسرة قال: إن الله تعالى يقول: أيها الشاب التاركُ شهوته لي ، المتبذل شبابه[٥] من أجلي ، أنت عندي كبعض ملائكتي.

وذكر إبراهيم بن الجُنَيْد أن رجلاً راود امرأةً عن نفسها ، فقالت له: أنت قد سمعت القرآن والحديث فأنت أعلم ، قال: فأغلقي الأبواب فأغلقتها ، فلما دنا منها قالت: بقي بابٌ لم أغلقه ، قال: أيّ باب؟ قالت: الباب الذي بينك وبين الله. فلم يتعرَّض لها.

---

(١) هو عبد الملك بن قُرَيب ، أبو سعيد: راوية العرب ، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. كان كثير التطواف في البوادي ، يقتبس علومها ، ويتلقى أخبارها ، ويُتحف بها الخلفاء ، فيُكافأ عليها بالعطايا الوافرة. وله تصانيف ، منها: «الأضداد» و«خلق الإنسان» و«الخيل» و«الأصمعيات». توفي سنة (٢١٦هـ). وفيات الأعيان (١/ ٢٨٨) وتاريخ بغداد (١٠/ ٤١٠) والأعلام (٤/ ١٦٢).

(٢) «الفتر»: ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة إذا فتحتهما.

(٣) «الغيضة»: موضع يكثر فيه الشجر الكثيف الملتف.

(٤) «لابتي»: مثنى لابة ، وهي الحرَّة ، والموضع.

(٥) «المتبذل شبابه»: الذي لا يهتم بشبابه ، ويحرم نفسه من ملذَّاته.

وذكر أيضاً عن أعرابي قال: خرجتُ في بعض ليالي الظُّلَم فإذا أنا بجارية كأنها عَلَم[1] فأردتها عن نفسها فقالت: ويلك أما كان لك زاجرٌ من عقل إذ لم يكن لك ناهٍ من دين؟ فقلت: إنه والله ما يرانا إلاَّ الكواكب، قالت: فأين مُكَوْكِبُها؟

وجلس زياد مولى ابن عياش رضي الله عنهما إلى بعض إخوانه فقال له: يا عبدَ الله، فقال له: قل ما تشاء، قال: ما هي إلاَّ الجنة أو النار؟ قلت: نعم. قال: وما بينهما منزلٌ ينزله العباد؟ قلت: لا والله. فقال: والله إن نفسي لَنَفْسٌ أضِنٌّ بها على النار، والصبرُ اليومَ عن معاصي الله خيرٌ من الصبر عَلَى الأغلال.

وقال وهب بن مُنَبِّه: قالت امرأة العزيز ليوسف عليه السلام: ادخل معي القَيْطون ـ تعني: السِّتر ـ قال: إن القَيْطون لا يسترني من ربِّي.

وقال اليزيديّ[2]: دخلت عَلَى هارون الرشيد فوجدته مُكِبّاً عَلَى ورقة ينظر فيها مكتوبةٍ بالذهب، فلما رآني تبسَّم، فقلت: فائدة أصلح الله أمير المؤمنين؟ قال: نعم وجدتُ هذين البيتين في بعض خزائن بني أُميّة فاستحسنتهما، فأضفت إليهما ثالثاً، فقال: ثم أنشدني:

إذا سُدّ بابٌ عنك من دون حاجةٍ ... فَدَعْهُ لأخرى ينفتحْ لك بابُها
فإن قُراب البطن يكفيك مَلأَه ... ويكفيك سوْءاتِ الأمور اجتنابها
فلا تكُ مِبْذالاً لدينك واجتنب ... ركوبَ المعاصي يَجْتَنِبْكَ عِقابُها

وقال أبو العباس الناشىء[3]:

---

(١) «العَلَم»: الجبل، والشيء المنصوب علامةً على الطريق.

(٢) هو يحيى بن المبارك العَدَوي، أبو محمد: عالم بالعربية والأدب. اتصل بالرشيد، فعهد إليه بتأديب المأمون، وعاش إلى أيام خلافته. من كتبه «النوادر» و«المقصور والممدود» وله نظم جيد. توفي سنة (٢٠٢هـ). وفيات الأعيان (٢/ ٢٣٠) وتاريخ بغداد (١٤/ ١٤٦) والأعلام (٨/ ١٦٣).

(٣) هو عبد الله بن محمد: شاعر مجيد، يُعَدُّ من طبقة ابن الرومي والبحتري. وهو من =

إذا المرء يحمي نفسه حِلَّ شهوةٍ لصحّة أيّامٍ تبيد وتَنْفَدُ
فما بالُه لا يحتمي من حرامها لصّحة ما يبقى له وَيُخَلَّدُ؟!

وقيل: إن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه كان ينشد هذين البيتين:

اقدع النفس[1] بالكَفاف وإلاَّ طلبتْ منك فوق ما يكفيها
إنما أنتَ طولَ عمرك ما عُمْـ ـمِرْتَ في الساعة التي أنت فيها

ومن أحسن شعر العرب، وكان عمرو بن العاص يتمثل بهما:

إذا المرءُ لم يترك طعاماً أحبَّه ولم يَنْهَ قلباً غاوياً حيث يمَّما[2]
قضى وطَراً منه وغادر سُبَّةً إذا ذُكرت أمثالُها تملأ الفما

وقال شُعْبة عن منصور، عن إبراهيم: كلَّم رجلٌ من العُبّاد امرأة فلم يزل بها حتى وضع يدَهُ عَلىَ فَخِذِها، فانطلق فوضع يده عَلَى النار حتى نَشَّت[3].

وقال زيد بن أسلم عن أبيه: كان عابدٌ في صَوْمعةٍ يتعبَّد، فأشرف ذات يومٍ فرأى امرأةً ففُتن بها، فأخرج إحدى رجليه من الصَّومعة يريد النزول إليها، ثم فكّر وادَّكر فأناب، فأراد أن يعيد رِجْله إلى الصومعة فقال: والله لا أُدخلُ رِجْلاً خرجت تريد أن تعصي الله في صومعتي أبداً، فتركها خارجة من الصومعَة، فأصابها الثلجُ والبرد والرياح حتى تقطَّعت!!

وقال بعض السلف: من كان له واعظٌ من قلبه زاده الله عز وجل عزّاً، والذلُّ في طاعة الله أقربُ من العزّ في معصيته.

وقال أبو العتَاهِية: لَقِيت أبا نُوَاس في المسجد الجامع فعذلته[4] وقلت له:

= العلماء بالأدب والدين والمنطق. وله تصانيف. توفي سنة (٢٩٣هـ). وفيات الأعيان (١/ ٢٦٣) وتاريخ بغداد (١٠/ ٩٢) والأعلام (٤/ ١١٨).

(١) «اقدع النفس»: امنعها وكفّها.
(٢) «يمم»: قصد.
(٣) «نشّت»: احترقت وجفَّتْ.
(٤) «عذلته»: لمته.

أما آن لك أنْ تَرْعَوِي[1] وتنزجر؟ فرفع رأسه إليَّ ، وقال :

أتُـــرانـــي يـــا عَتَـــاهـــي ... تـــاركـــاً تلـــكَ المَـــلاهـــي[2]؟!

أتُـــرانـــي مُفْسِـــداً بـــالنُّسـ ... ـــكِ عنْـــدَ القـــوم جـــاهـــي؟!

فلما ألححتُ عليه في العذل أنشأ يقول :

لا تـــرْجـــعُ الأنْفـــسُ عـــن غَيِّهـــا ... مـــا لـــم يكـــنْ منهـــا لهـــا زاجـــرُ

فوددتُ أني قلت هذا البيت بكل شيءٍ قلته .

وقال ابن السماك عن امرأةٍ كانت تسكُن البادية : لو طالعتْ قُلُوبُ المؤمنين بفكرها إلى ما ذُخر لها في حُجُب الغيوب من خير الآخرة ، لم يَصْفُ لهم في الدُّنيا عيشٌ ، ولم تَقَرَّ لهم عين .

وقال ضَيْغَم لرجلٍ : إن حبَّه عزّ وجلّ شغل قلوبَ محبّيه عن التلذُّذ بمحبة غيره ، فليس لهم في الدنيا مع محبته عزَّ وجلّ لذةٌ تداني محبَّتَه ، ولا يأْمُلون في الآخرة من كرامة الثواب أكبرَ عندهم من النظر إلى وجه محبوبهم . فسقط الرجل مَغْشِيّاً عليه .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث عبد الرحمن بن جُبَير بن نُفَير عن أبيه ، عن النَّوَّاس بن سمعان رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : «ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً صِراطاً مُسْتَقِيماً ، وَعَلَى جَنَبَتَي الصِّرَاطِ سُوران ، وَفِي السُّورَيْنِ أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ ، وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ وَعَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُول : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلوا الصِّراطَ وَلا تُعَرِّجُوا[3] ، وَدَاعٍ يَدْعُو فَوْقَ الصِّرَاطِ ، فإذا أَرَادَ أَحَدٌ فَتْحَ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ : وَيْحَكَ لا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهُ تَلِجْهُ[4] ، فالصِّرَاطُ الإِسْلَامُ ، وَالسُّتُورُ الْمُرْخَاةُ حُدُودُ اللهِ ، والأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللهِ ،

---

(١) «ترعوي» : تكفّ وترتدع .

(٢) «العتاهي» : ناقص العقل من غير مسّ جنون .

(٣) «لا تعرجوا» : لا تميلوا ولا تنحرفوا .

(٤) «تلجه» : تدخله .

وَالدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللهِ عزّ وَجَلّ ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كلِّ مُسْلِمٍ»[1].

وقال خالد بن مَعْدَان: ما من عبدٍ إلاَّ وله عينان في وجهه يبصر بهما أمْرَ الدُّنيا ، وعينان في قلبه يبصر بهما أمْرَ الآخرة ، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عينيه اللَّتين في قلبه فأبصر بهما ما وعده الله بالغيب ، وإذا أراد الله به غيرَ ذلك تركه على ما هو فيه ، ثم قرأ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

وفي الترمذي عنه ﷺ: «الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الأَمَانِي»[2].

وفي المسند من حديث فُضالة بن عُبيد عن النبي ﷺ: «الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللهِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ»[3].

وقال الإمام أحمدُ رحمه الله تعالى: حدَّثنا عبد الرحمن بن مَهْدي ، حدَّثنا عبد العزيز بن مسلم ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبيٍّ بن كعب رضي الله عنه قال: من أصبح وأكثر همه غير الله فليس من الله.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرحمن ، عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عطاء بن يَسَار قال: قال موسى ﷺ: يا رب مَنْ أَهْلُك الذين تظلهم في ظلّ عرشك؟ قال: هم البريئة أيديهم ، الطاهرة قلوبهم ، الذين يتحابُّون بجلالي ، الذين إذا ذُكِرت ذُكِروا بي ، وإذا ذُكِروا بي ذُكِرت بذكرهم ، الذين يُسْبغون الوضوء في المكاره ، ويُنيبون إلى ذكري كما تُنيب النسور إلى وُكورها ، ويَكْلَفون بحبِّي كما يَكْلف الصبيّ بحبّ الناس ، ويغضبون لمحارمي إذا استُحِلَّت كما يغضب النَّمِرُ إذا حَرِب.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٨٢) والحاكم (١/ ٧٣) وانظره في الترغيب والترهيب (٣٤٥٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٦٠) والحاكم (٤/ ٢٥١).

(٣) رواه أحمد (٦/ ٢٠) والترمذي (١٦٢١) والطبراني في المعجم الكبير (٧٩٧).

وقال أحمد: حدثنا إبراهيم بن خالد ، حدثني عبد الله بن يحيى قال: سمعت وهب بن مُنَبّهٍ يقول: قال موسى عليه السلام: أيْ ربّ أيُّ عبادك أحبُّ إليك؟ قال: من أُذْكَرُ برؤيته.

وقال أحمد: حدَّثنا سَيّار ، حدَّثنا جعفر ، حدَّثنا هشام الدَّسْتَوائي قال: بلغني أن حكمة عيسى ابن مريم ﷺ: تعملون للدُّنيا وأنتم تُرْزَقون فيها بغير عمل ، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترْزَقون فيها إلا بالعمل ، ويْحَكم علماءَ السوء! الأجرَ تأخذون والعملَ تُضيعون ، توشكون أن تخرجوا من الدُّنيا إلى ظلمة القبر وضيقه ، واللهُ عزَّ وجلَّ نهاكم عن المعاصي كما أمركم بالصوم والصلاة ، كيف يكون من أهل العلم مَنْ دنياه آثرُ عنده من آخرته وهو في الدنيا أعظمُ رغبةً؟ كيف يكون من أهل العلم مَنْ مَسيرُه إلى آخرته وهو مقبلٌ على دنياه ، وما يضره أشهى إليه مما لا يضره؟ كيف يكون من أهل العلم من اتهمَّ الله عزَّ وجلَّ في قضائه فليس يرضى بشيء أصابه؟ كيف يكون من أهل العلم من طلب العلم ليتحدث به ولم يطلبه ليعملَ به؟.

وقال عبد الله بن المبارك ، عن مَعْمَر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب ، قال: أو للّعب خُلِقْنا؟!.

وقال أحمد: حدَّثنا أبو بكر الحنفي ، حدَّثنا عبد الحميد بن جعفر ، حدَّثني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أن أُمه فاطمةَ حدَّثته أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ أُمَّتِي الَّذِينَ غُذُوا بِالنَّعِيمِ ، الَّذِين يَطْلُبُونَ أَلْوَانَ الطَّعَام ، وَأَلْوَانَ الثِّيَابِ ، وَيَتَشَدَّقُونَ بِالْكَلَامِ»[1].

وقال أحمد: حدَّثنا أبو قَطْن ، حدثنا شعبة ، عن أبي سَلمة ، عن أبي نضرَة قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي موسى: يا أبا موسى شوِّقْنا

---

(١) رواه أحمد في كتاب الزهد (٤٠٠).

إلى ربنا ، قال: فقرأ. فقالوا: الصلاةَ! فقال عمر: أو لسنا في الصلاة؟[1][2].

محبة الله في المحبة الحق:

ولا يتصوّر نشر هذا المقام حقّ تصوّره فضلاً عن أن يوفّيه حقه ، فأعرف خلقه به وأحبّهم له ﷺ يقول: «لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أنت كما أثنيتَ عَلى نَفْسِك»[3] ولو شهد العبد بقلبه صفةً واحدةً من أوصاف كماله لاستدعت منه المحبَّة التامّة عليها ، وهل مع المحبّين محبّة إلاّ من آثار صفات كماله؟! فإنهم لم يروه في هذه الدّار ، وإنما وصل إليهم العلمُ بآثار صفاته وآثار صنعه ، فاستدلوا بما علموه على ما غاب عنهم؛ وإلاّ فلو شاهدوه ورأوا جلاله وجماله وكماله سبحانه لكان لهم في حُبّه شأْنٌ آخر ، وإنما تفاوتت منازلُهم ومراتبُهم في محبّته على حسب تفاوت مراتبهم في معرفته والعلم به. فأعرفهم له أشدّهم حباً له ، ولهذا كانت رسلُه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهم ـ أعظمَ الناس حبّاً له ، والخليلان من بينهم أعظمهم حباً، وأعرف الأمة به أشدّ له حباً؛ ولهذا كان المنكرون لحبّه سبحانه من أجهل الخلق به ، فإنهم منكرون لحقيقة إلّهيته ولخلّة الخليلين صلى الله عليهما وسلم ولفطرة الله التي فطر الله عباده عليها ، ولو رجعوا إلى قلوبهم لوجدوا حُبّه فيها ، ووجدوا معتقدهم محبتهم يكذب فطرهم ، وإنما بعثت الرسل بتكميل هذه الفطرة ، وإعادة ما فسد منها إلى الحالة الأُولى التي فُطِرَت عليها ، وإنما دعوا إلى القيام بحقوقها ومراعاتها لئلا تفسد وتنتقل عما خلقت له.

وهل الأوامرُ والنَّواهي إلا خدم وتوابع ومكملات ومصلحات لهذه الفطرة؟

---

(١) رواه أحمد في الزهد (٦٢٢) والطبراني في المعجم الكبير (٧٥١٢ و٧٥١٣) والمعجم الأوسط (٢٣٧٢) وانظره في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٥٠) والإتحاف (٩/ ٣٥٩).

(٢) روضة المحبين (٤٤٥).

(٣) رواه مسلم (٤٨٦) وأبو داود (٨٧٩) والترمذي (٣٤٩٣) والنسائي (٣/ ٢٤٩) وابن ماجه (٣٨٤١) وأحمد (١/ ٩٦) ومالك في الموطأ (١/ ٢١٤).

وهل خَلَقَ الله سبحانه خَلْقَهُ إلاّ لعبادته التي هي غاية محبّته والذُّلّ له؟ وهل هُيِّيءَ الإنسانُ إلا لها؟ كما قيل:

قَــدْ هَيَّــؤوكَ لأمــرٍ لــو فَطنــتْ لــه　　فاربأْ بنفسِكَ أن تَرْعَىٰ مع الهَمَلِ

وهل في الوجود محبَّةٌ حقّ غير باطلة إلاّ محبته سبحانه؟ فإن كُلّ محبة مُتعلِّقةٌ بغيره فباطلة زائلة ببطلان متعلّقها ، وأما محبّته سبحانه فهي الحقّ الذي لا يزولُ ولا يبطلُ ، كما لا يزولُ متعلّقها ولا يفنى. وكلّ ما سوى الله باطل ، ومحبّة الباطل باطل. فسبحان الله كيف ينكر المحبة الحق التي لا محبة أحق منها ، ويعترف بوجود المحبة الباطلة المتلاشية؟ وهل تعلّقت المحبة بموجود محدث إلا بكمال في وجوده بالنسبة إلى غيره؟ وهل ذلك الكمال إلا من آثار صنع الله الذي أتقن كلّ شيء؟ وهل الكمالُ كله إلا له؛ فكلُّ مَن أحبّ شيئاً لكمالٍ ما يدعوه إلا محبّته فهو دليل وعبرة على محبة الله ، وأنه أولى بكمال الحب من كل شيء. ولكن إذا كانت النفوسُ صغاراً كان محبوباتُها على قدرها ، وأمّا النفوسُ الكبار الشريفة فإنها تبذلُ حُبّها لأجلّ الأشياءِ وأشرفها.

والمقصودُ أنَّ العبدَ إذا اعتبر كُلَّ كمال في الوجود؛ وجده من آثار كماله سبحانه ، فهو دالٌّ على كمال مُبدعه ، كما أنَّ كُلَّ علم في الوجود فمن آثار علمه ، وكلّ قدرة فمن آثار قدرته. ونسبة الكمالات الموجودة في العالم العلوي والسفلي إلى كماله كنسبة علوم الخلق وقدرهم وقواهم وحياتهم إلى علمه سبحانه وقدرته وقوته وحياته ، فإذاً لا نسبة أصلاً بين كمالات العالم وكمال الله جل جلاله ، فيجب ألاَّ يكونَ بين محبّته تعالى ومحبّة غيره من الموجودات نسبة ، بل يكون حبُّ العبد له أعظمَ من حبه لكل شيء بما لا نسبة بينهما ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فالمؤمنون أشدّ حباً لربهم ومعبودهم من كُلّ محب لكل محبوب. وهذا مقتضى عقد الإيمان الذي لا يتمّ إلا به.

وليست هذه المسألةُ من المسائل التي للعبد عنها غنى أو منها بُدّ ، كدقائق

العلم والمسائل التي يختصُّ بها بعض الناس دون بعض ، بل هذه أفرضُ مسألةٍ على العبد ، وهي أصلُ عقد الإيمان الذي لا يدخل فيه الداخلُ إلا بها ، ولا فلاحَ للعبد ولا نجاة له من عذاب الله إلا بها ، فليشتغلْ بها العبدُ أو ليعرض عنها ، ومن لم يتحقَّقْ بها علماً وحالاً وعملاً لم يتحقَّقْ بشهادة أن لا إلَه إلا الله ، فإنها سرُّها وحقيقتُها ومعناها ، وإن أبى ذلك الجاحدون وقصر عن علمه الجاهلون. فإن الإلَهَ هو المحبوبُ المعبودُ الذي تؤلّهه القلوبُ بحبّها وتخضعُ له ، وتذلّ له ، وتخافه وترجوه ، وتنيبُ إليه في شدائدها ، وتدعوه في مهماتها ، وتتوكل عليه في مصالحها ، وتلجأ إليه ، وتطمئنّ بذكره ، وتسكن إلى حُبِّـه ، وليس ذلك إلا الله وحده ، ولهذا كانت أصدقَ الكلام ، وكان أهلُها أهلَ الله وحزبه ، والمنكرون لها أعداؤه وأهل غضبه ونقمته.

فهذه المسألة قطبُ رحى الدِّين الذي عليه مدارُه ، وإذا صحَّتْ صحَّ بها كلّ مسألة وحال وذوق ، وإذا لم يصححها العبد فالفسادُ لازمٌ له في علومه وأعماله ، وأحواله وأقواله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقوله: «وأما محبَّـةُ العوام فهي محبّـة تنبتُ من مطالعة المنة» يعني أنَّ لهذه المحبة منشأً وثبوتاً ونموّاً. فمنشؤها الإحسان ورؤية فضل الله ومنّته على عبده ، وثبوتها باتباع أوامره التي شرعها على لسان رسوله ، ونموّها وزيادتها يكونُ بإجابة العبد لدواعي فقره وفاقته إلى ربه ، فكلّما دعاه فقره وفاقته إلى ربه أجاب هذا الداعي وهو فقير بالذات ، فلا يزال فقرُه يدعوه إليه ، فإن دامتْ استجابتُه له بدوام الداعي لم تزلِ المحبَّةُ تنمو وتتزايد ، فكلما أخطر الرّبّ تعالى في قلبه خواطر الفقر والفاقة بادر قلبُه بالإجابة والانكسار بين يديه ذلاً وفاقة وحباً وخضوعاً ، وإنما كانت هذه محبة العوام عنده لأنَّ منشأها من الأفعال ، لا من الصفات والجمال ، ولو قطع الإحسان عن هذه القلوب لتغيّرت وذهبت محبّتها أو ضعفت ، فإن باعثها إنما هو الإحسان ، ومن ودَّك لأمر ولَّى عند انقضائه ، فهو برؤية الإحسان مشغول ، وبتوالي النعم عليه محمول.

قوله: «وهي محبّـةٌ تقطعُ الوسواسَ، وتلذّذ الخدمة، وتسلّي على المصائب. وهي في طريق العوام عمدة للإيمان».

وإنما كانت هذه المحبّةُ قاطعةً للوسواس لإحضار المحبّ قلبه بين يدي محبوبه. والوسواسُ إنما ينشأُ من الغيبة والبعد، وأما الحاضر المشاهد فماله وللوسواس؟ فالموسوسُ يجاهدُ نفسه وقلبه ليحضرَ بين يدي معبوده، والمحبُّ لم يغبْ قلبه عن محبوبه فيجاهده على إحضاره، فالوسواس والمحبة متنافيان، ومن وجه آخر: إن المحبّ قد انقطعت عن قلبه وساوس الأطماع؛ لامتلاء قلبه من محبّة حبيبه فلا تتوارد على قلبه جواذب الأطماع والأماني لاشتغاله بما هو فيه.

وأيضاً فإنَّ الوسواسَ والأماني إنما تنشأُ من حاجته وفاقته إلى ما تعلّق طمعه به. وهذا عبدٌ قد جنى من الإحسان، وأُعطي من النعم ما سدَّ حاجته وأغنى فاقته، فلم يبقَ له طمع ولا وسواسٌ، بل بقي حبّه للمنعم عليه، وشكره له، وذكره إيّاه، في محل وساوسه وخواطره للمطالعة نِعَم الله عليه، وشهوده منها ما لم يشهدْ غيره.

وقوله: «وتلذذ الخدمة» هو صحيح، فإن المحبّ يتلذّذ بخدمة محبوبه وتصرّفه في طاعته، وكلما كانت المحبّةُ أقوى كانت لذّة الطاعة والخدمة أكمل. فليزِنِ العبدُ إيمانه ومحبّته لله بهذا الميزان، ولينظرْ هل هو ملتذّ بخدمة محبوبه، أو متكرّه لها يأْتي بها على السآمة والملل والكراهة؟ فهذا محكُّ إيمان العبد ومحبته لله.

قال بعضُ السلف: إني أدخلُ في الصلاة فأحمل همّ خروجي منها، ويضيقُ صدري إذا فرغتُ أني خارج منها.

ولهذا قال النبي ﷺ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصَّلاة»[1].

ومن كانت قرَّةُ عينه في شيء فإنه يودُّ ألاّ يفارقه ولا يخرج منه ، فإنَّ قُرَّةَ عين العبد نعيمه ، وطيب حياته به.

وقال بعضُ السلف: إني لأفرحُ بالليل حين يقبل ، لما يلتذّ به عيشي ، وتقرّ به عيني من مناجاة من أُحب ، وخلوتي بخدمته والتذلّل بين يديه ، وأغتم للفجر إذا طلع ، لما أشتغلُ به بالنهار عن ذلك.

فلا شيءَ ألَذّ للمحب من خدمة محبوبه وطاعته.

وقال بعضُهم: تعذَّبتُ بالصلاة عشرين سنة ، ثم تنعَّمتُ بها عشرين سنة.

وهذه اللذَّةُ والتنعُّم بالخدمة إنما تحصلُ بالمصابرة والتَّعب أولاً ، فإذا صبر عليها وصدق في صبره أفضى به إلى هذه اللذة.

قال أبو زيد: سُقْتُ نفسي إلى الله وهي تبكي ، فما زلت أسوقُها حتى انساقتْ إليه وهي تضحك.

ولا يزال السالكُ عرضةً للآفات والفتور والانتكاس حتى يصلَ إلى هذه الحالة ، فحينئذ يصيرُ نعيمه في سيره ، ولذّته في اجتهاده ، وعذابه في فتوره ووقوفه ، فترى أشدّ الأشياء عليه ضياع شيء من وقته ووقوفه عن سيره ، ولا سبيل إلى هذا إلا بالحبّ المزعج.

وقوله: «وسلا عن المصائب» صحيح ، فإنّ المحبَّ يتسلّى بمحبوبه عن كُلِّ مصيبة يُصابُ بها دونه ، فإذا سلم له محبوبه لم يبالِ لما فاته فلا يجزع على

---

(١) رواه النسائي (٧/ ٦١) وأحمد (٣/ ١٢٨) والطبراني في المعجم الصغير (١/ ٢٦٢) والحاكم (٢/ ١٦٠).
«قرة عيني في الصلاة»: إشارة إلى أن تلك المحبة غير ما نعقله من كمال المناجاة مع الرب تبارك وتعالى ، بل هو مع تلك المحبة منقطع إليه تعالى ، حتى أنه بمناجاته تقرّ عيناه ، وليس له قرة العين فيما سواه؛ فمحبَّته الحقيقية ليستْ إلا لخالقه تبارك وتعالى.
انظر: حاشية السندي على سنن النسائي (٧/ ٦١ ـ ٦٢).

ما ناله ، فإنه يرى في محبوبه عوضاً عن كُلِّ شيء ، ولا يرى في شيءٍ غيره عوضاً عنه أصلاً ، فكلُّ مصيبة عنده هيّـنةٌ إذا أبقت على محبوبه.

ولهذا لما خرجتْ تلك المرأة الأنصارية يوم أُحُد تنظرُ ما فعل رسولُ الله ﷺ مرَّت بأبيها وأخيها مقتولين ، فلم تقفْ عندهما ، وجاوزتهما تقول: ما فعل رسول الله ﷺ؟ فقيل لها: ها هو ذا حيّ ، فلما نظرتْ إليه قالت: ما أُبالي إذا سلمتَ هلك من هلك[1].

ولو لم يكنْ في المحبّـة من الفوائد إلاّ هذه الفائدة وحدها لكفى بها شرفاً ، فإنَّ المصائبَ لازمةٌ للعبد لا محيدَ له عنها ، ولا يمكن دفعها وحلّها بمثل المحبة ، وهكذا مصائب الموت وما بعدها إنما تسهلُ وتهونُ بالمحبة ، وكذلك مصائب القيامة. وأعظم المصائب مصيبة النار ، ولا يدفعها إلاّ محبة الله وحده ومتابعة رسوله ﷺ.

فالمحبةُ أصل كلّ خير في الدنيا والآخرة ، كما قال سمنون[2]: ذهب المحبُّون لله بشرف الدنيا والآخرة ، فإن النبي ﷺ قال: «المرءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»[3] فهم مع الله تعالى.

وقوله «وهي في طريق العوام عمدة الإيمان» كلام قاصر ، فإنها عمودُ الإيمان وعمدته وساقه الذي لا يقوم إلا عليـه ، فلا إيمـانَ بدونهـا البتة. وإنما مرادُه هذه المحبة الخاصة التي تنشأُ من رؤية النعم هي عمدة إيمان العوام ،

---

(١) انظر القصة في السيرة النبوية؛ لابن هشام (٣/ ١٠٥).
(٢) هو سمنون بن حمزة الخوّاص ، أبو الحسن ، أو أبو بكر: صوفي ناسك ، من الشعراء. له مقطَّعات في غاية الجودة. وهو من أهل البصرة. سكن بغداد ، وتوفي فيها سنة (٢٩٠هـ). حلية الأولياء (١٠/ ٣٠٩) وتاريخ بغداد (٩/ ٢٣٤) والأعلام (٣/ ١٤٠).
(٣) سبق تخريجه ص (٤٤).

وأما الخواص فعمدةُ إيمانهم محبّة تنشأُ من معرفة الكمال ومطالعة الأسماءِ والصفات[1].

خاصية التعبد:

خاصية التعبد: الحب مع الخضوع، والذل للمحبوب، فمن أحب محبوباً وخضع له فقد تعبد قلبه له، بل التعبد أحد مراتب الحب، ويقال له: التتيم أيضاً، فإن أول مراتبه العلاقة، وسميت علاقة لتعلق المحب بالمحبوب:

قال الشاعر:

وَعَلِقْتُ لَيْلَى وَهْيَ ذَات تَمَائِمٍ ... وَلَمْ يَبْدُ لِلأَتْرَابِ مِنْ ثَدْيِهَا حَجْمُ

وقال الآخر[2]:

أَعَلاقَةً أُمَّ الوَلِيدِ بَعْدَ مَا ... أَفْنَانُ رَأْسِك كَالثَّغَامِ الْمُخَلَّسِ[3]

ثم بعدها الصبابة، وسميت بذلك لانصباب القلب إلى المحبوب، قال الشاعر:

تَشَكَّى الْمحِبُّونَ الصَّبَابَةَ، لَيْتَنِي ... تَحَمَّلْتُ مَا يَلْقَونَ مِنْ بَيْنِهم وَحْدِي

فَكَانَتْ لِقَلْبِي لَذَّةُ الْحُبِّ كُلُّها ... فَلَمْ يَلْقَهَا قَبْلِي مُحِبٌّ وَلاَ بَعْدِي

ثم الغرام، وهو لزوم الحب للقلب لزوماً لا ينفك عنه، ومنه سُمِّيَ الغريم غريماً: لملازمته صاحبه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥][4] وقد أولع المتأخرون باستعمال هذا اللفظ في الحب، وقلّ أن تجده في أشعار العرب.

---

(١) طريق الهجرتين (٥٧٥).

(٢) هو المرار الأسدي.

(٣) «الأفنان»: جمع فنن، وأصله: الغصن. «الثغام»: نبت أبيض الزهر والثمر، يُشَبَّه به الشيب. «المخلس»: المستلب.

(٤) «غراماً»: لازماً، أو ممتداً كلزوم الغريم.

ثم العشق ، وهو إفراط المحبة ، ولهذا لا يوصف به الرب سبحانه ، ولا يطلق في حقه .

ثم الشوق ، وهو سفرُ القلب إلى المحبوب أحثَّ السفر ، وقد جاء إطلاقه في حق الرب تعالى كما في مسند الإمام أحمد من حديث عمار بن ياسر : «أَنَّـهُ صَلَّى صَلاَةً فَأَوْجَـزَ فِيهَا ، فَـقِيـلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ: أَمَا إِنِّي دَعَوتُ فِيهَا بِدَعَوَاتٍ كَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ يَـدْعُو بِهِنَّ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُك بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ ، وقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ ، أَحْيِنِي إِذَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْـراً لِي ، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَـاةُ خَيْـراً لِـي ، اللَّهُـمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَشْيَـتَـكَ فِي الْغَـيْبِ وَالشَّهَـادَةِ ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى ، وَأَسْأَلُكَ نَعِيماً لا يَنْـفَدُ ، وَأَسْأَلُكَ قُـرَّةَ عَيْنٍ لاَ تَـنْـقَطِعُ ، وَأَسْأَلُكَ بَـرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَأَسْأَلُكَ لَـذَّةَ النَّـظَرِ إِلى وَجْهِكَ ، وَأَسْأَلُكَ الشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ ، فِي غَيْر ضَرَّاءٍ مُضِرَّةٍ وَلاَ فِتْـنَـةٍ مُضِلَّةٍ ، اللَّهُمَّ زَيِّـنَّـا بِزِيْـنَـةِ الإِيْمَانِ ، وَاجْعَلْنَا هُـدَاةً مُـهْتَدِينَ»[1] .

وفي أثـر آخـر: «طَالَ شَوْقُ الأَبْـرَارِ إِلَى لِقَـائِي ، وَأَنَـا إِلَى لِقَـائِهِمْ أَشَـدُّ شَوْقاً»[2] .

وهذا هو المعنى الذي عبر عنه ﷺ بقوله: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ»[3] .

وقال بعضُ أهل البصائر في قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍۚ ﴾ [العنكبوت: ٥][4] . لما علم الله سبحانـه شدة شوق أوليائـه إلى لقائه ، وأن قلوبهـم لا تهتـدي دون لقائـه ، ضرب لهم أجلاً وموعداً للقائـه ، تسكن

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٦٤) والنسائي (٣/ ٥٤) والحاكم (١/ ٥١٦) .

(٢) انظره في الإحياء؛ للغزالي (٣/ ١٣٥٩) .

(٣) رواه البخاري (٢٤٤٣) ومسلم (٢٦٨٣) .

(٤) «أجل الله» : الوقت المعيَّن للبعث والجزاء .

نفوسهم به ، وأطيب العيش وألذه على الإطلاق عيش المحبين المشتاقين المستأنسين ، فحياتهم هي الحياة الطيبة في الحقيقة ، ولا حياة للقلب أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها ، وهي الحياة الطيبة في قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧] ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار والأبرار والفجار ، من طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح ، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافاً مضاعفة.

وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحاً أن يُحْيه حياة طيبة ، وهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده ، وأي حياة أطيب مِن حياة مَن اجتمعت همومه كلها وصارت همّاً واحداً في مرضاة الله؟ ولم يتشعب قلبه ، بل أقبل على الله ، واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت متقسمة بكل واد منها شعبة على الله ، فصار ذكر محبوبه الأعلى وحبه والشوق إلى لقائه ، والأنس بقربه هو المستولي عليه ، وعليه تدور همومه وإرادته وقصوده بل خطرات قلبه. فإن سكت سكت بالله ، وإن نطق نطق بالله ، وإن سمع فبه يسمع ، وإن بَصَر فبه يبصر ، وبه يبطش ، وبه يمشي ، وبه يتحرك ، وبه يسكن ، وبه يحيا ، وبه يموت ، وبه يبعث ، كما في صحيح البخاري عنه ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال:

«مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَلاَ يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، ورِجْلَه التي يمشي بها ، فبي يَسْمَعُ ، وبي يُبْصِرُ ، وبي يبطشُ ، وَبِي يَمْشِي ، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيْذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ ، كَتَرَدُّدِي عَنْ قَبْض نَفْسِ عَبْدِي الْمؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ ، وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْهُ»[1].

---

(١) رواه البخاري (٦١٣٧).

فتضمن هذا الحديث الشريف الإلّهي ، الذي حرم على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه ، والمراد به: حصر أسباب محبته في أمرين: أداء فرائضه ، والتقرب إليه بالنوافل.

وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب ما يتقرب به إليه المتقربون ثم بعدها النوافل ، وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوباً لله ، فإذا صار محبوباً لله أوجبت محبة الله له محبة أخرى منه لله فوق المحبة الأولى ، فشغلت هذه المحبة قلبَه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه. وملكت عليه روحه ، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه ألبتة ، فصار ذكر محبوبه وحبه ومثله الأعلى مالكاً لزمام قلبه ، مستولياً على روحه استيلاء المحبوب على محبه الصادق في محبته ، التي قد اجتمعت قوى محبة حبه كلها له.

ولا ريب أن هذا المحب إن سمع سمع بمحبوبه ، وإن أبصر أبصر به ، وإن بطش بطش به ، وإن مشى مشى به ، فهو في قلبه ومعه وأنيسه وصاحبه ، فالباء ها هنا للمصاحبة ، وهي مصاحبة لا نظير لها ، ولا تدرك بمجرد الإخبار عنها والعلم بها ، فالمسألة حالية لا علمية محضة.

وإذا كان المخلوق يجد هذا في محبة المخلوق التي لم يخلق لها ولم يفطر عليها ، كما قال بعضُ المحبين:

خَيَالُكَ فِي عَيْنِي، وَذِكْرُكَ فِي فَمِي ... وَمَثْواكَ فِي قَلْبِي ، فَأَيْنَ تَغِيبُ؟

وقال الآخر:

وَمِنْ عَجَبٍ أَنِّي أَحِنُّ إِلَيْهِمُ ... فَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ لَقِيْتُ ، وَهُمْ مَعِي

وَتَطْلُبُهُم عَيْنِي، وَهُمْ فِي سَوَادِهَا ... وَيَشْتَاقُهُم قَلْبِي ، وَهُمْ بَيْنَ أَضْلُعِي

وهذا ألطف من قول الآخر:

إِنْ قُلْتُ: غِبْتَ ، فَقَلْبِي لاَ يُصَدِّقُنِي ... إِذْ أَنتَ فِيْهِ مَكَانُ السِّرِّ لَمْ تَغِبِ

أَوْ قُلْتُ: مَا غِبْتَ، قَالَ الطَّرْفُ: ذَا كَذِبٌ ... فَقَدْ تَحَيَّرْتُ بَيْنَ الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ

فليس شيء أدنى إلى المحب من محبوبه ، وربما تمكنت منه المحبة ،

حتى يصير أدنى إليه من نفسه ، بحيث ينسى نفسه ولا ينساه ، كما قال :

أُرِيدُ لأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا   تُمَثَّلُ لِي لَيْلَى بِكُلِّ سَبِيلِ

وقال آخر :

يُرَادُ مِنَ الْقَلْبِ نِسْيَانُكُمْ   وَتَأْبَى الطِّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ[1]

وخصّ في الحديث السمع والبصر واليد والرجل بالذكر ، فإن هذه الآلات آلات الإدراك وآلات الفعل ، والسمع والبصر يوردان على القلب الإرادة والكراهة ، ويجلبان إليه الحب والبغض ، فيستعمل اليد والرجل ، فإذا سَمْعُ العبد بالله ، وبَصَرُه بالله كان محفوظاً في آلات إدراكه ، وكان محفوظاً في حبه وبغضه ، فحفظ في بطشه ومشيه.

وتأمل كيف اكتفى بذكر السمع والبصر واليد والرجل عن اللسان ، فإنه إذا كان إدراك السمع الذي يحصل باختياره تارة وبغير اختياره تارة ، وكذلك البصر قد يقع بغير الاختيار فجأة ، وكذلك حركة اليد والرجل التي لا بُدَّ للعبد منهما ، فكيف بحركة اللسان التي لا تقع إلا بقصدٍ و اختيارٍ؟ وقد يستغني العبد عنها إلا حيث أمر بها.

وأيضاً فانفعال اللسان عن القلب أتمّ من انفعال سائر الجوارح ، فإنه ترجمانه ورسوله.

وتأمل كيف حقَّق تعالى كون العبد به سمعه وبصره و بطشه ومشيه بقوله : «كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا» تحقيقاً لكونه مع عبده ، وكون عبده به في إدراكاته بسمعه وبصره وحركاته بيده ورجله.

وتأمل كيف قال : «فَبِي يَسْمَعُ ، وَبِي يُبْصِرُ» ولم يقل : فلي يسمع ولي يبصر. وربما يظن الظان أن اللام أولى بهذا الموضع ؛ إذ هي أدل على الغاية

---

(١) البيت للمتنبي ، وهو في ديوانه (٣/ ١٥٣).

ووقوع هذه الأمور لله ، وذلك أخص من وقوعها به ، وهذا من الوهم والغلط؛ إذ ليست الباء هاهنا لمجرد الاستعانة؛ فإن حركات الأبرار والفجار وإدراكاتهم إنما هي بمعونة الله لهم ، وإنما الباء ها هنا للمصاحبة ، أي إنما يسمع ويبصر ويبطش ويمشي وأنا صاحبه ومعه ، كقوله في الحديث الآخر «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»[1] وهذه هي المعية الخاصة في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠] وقول النبي ﷺ: «مَا ظَنُّـكَ بِاثْـنَـيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»[2] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] وقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] وقوله: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] وقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

فهذه الباء مقيدة لمعنى هذه المعية دون اللام ، ولا يتأتى للعبد الإخلاص والصبر والتوكل ، ونزوله في منازل العبودية إلا بهذه الباء وهذه المعية.

فمتى كان العبد بالله هانت عليه المشاق ، وانقلبت عليه المخاوف في حقه أماناً ، فبالله يهون كل صعب ، ويسهل كل عسير ، ويقرب كل بعيد ، و بالله تزول الهموم والغموم والأحزان؛ فلا همّ مع الله ، ولا غم ولا حزن إلا حيث يفوته معنى هذه الباء ، فيصير قلبه حينئذٍ كالحوت ، إذا فارق الماء يثب وينقلب حتى يعود إليه.

ولما حصلت هذه الموافقة من العبد لربه في محابه حصلت موافقة الرب لعبده في حوائجه ومطالبه؛ فقال: «وَلَئِـنْ سَأَلَنِـي لأُعْطِيَـنَّـهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيْـذَنَّـهُ» أي: كما وافقني في مرادي بامتثـال أوامري والتقرب إليّ بمحابي ، فأنا أوافقه في رغبته ورهبته فيما يسألني أن أفعله بي ويستعيذني أن يناله ،

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٥٤٠) وابن ماجه (٣٧٩٢) والحاكم (١/ ٤٩٦) وابن حبان (٨١٥).
(٢) رواه البخاري (٣٤٥٣) ومسلم (٢٣٨١).

وقوّى أمر هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى ذلك تردّد الربّ سبحانه في إماتة عبده لأنه يكره الموت والرب تعالى يكره ما يكرهه عبده ويكره مساءته ، فمن هذه الجهة يقتضي ألاَّ يميته ولكن مصلحته في إماتته ، فإنه ما أماته إلا ليحييه ، ولا أمرضه إلا ليصحّه ، ولا أفقره إلا ليغنيه ، ولا منعه إلا ليعطيه ، ولم يخرجه من الجنة في صلب أبيه إلا ليعيده إليها على أحسن أحواله ، ولم يقل لأبيه: اخرج منها إلا وهو يريد أن يعيده إليها ، فهذا هو الحبيب على الحقيقة لا سواه؛ بل لو كان في كل منبت شعرة من العبد محبة تامة لله ، لكان بعض ما يستحقه على عبده:

نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى ... مَا الْحُبُّ إِلاَّ لِلْحَبِيبِ الأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٍ فِي الأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى ... وَحَنِينُهُ أَبَداً لأَوَّلِ مَنْزِلِ[1]

آخر مراتب الحب:

ثم التتيم ، وهو آخر مراتب الحب ، وهو تعبُّد المحب لمحبوبه ، يُقال: تيَّمه الحبُّ ، إذا عبده ، ومنه: تيم الله ، أي: عبْد الله ، وحقيقة التعبد: الذلّ والخضوع للمحبوب ، ومنه قولهم: طريق معبد ، أي: مذلَّل قد ذللته الأقدام؛ فالعبد هو الذي ذلّله الحب والخضوع لمحبوبه ، ولهذا كانت أشرف أحوال العبد ومقاماته هي العبودية؛ فلا منزل له أشرف منها.

وقد ذكر الله أكرم الخلق عليه ، وأحبّهم إليه ، وهو رسوله محمد ﷺ بالعبودية في أشرف مقاماته ، وهي مقام الدعوة إليه ، ومقام التحدي بالنبوة ، ومقام الإسراء ، فقال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [الجن: ١٩][2] وقال: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] وقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء: ١].

---

(١) البيتان لأبي تمام الطائي ، وهما في ديوانه (٤/ ٢٥٣).
(٢) «عبد الله»: هو النبي محمد ﷺ. «لبداً»: متراكمين من ازدحامهم عليه.

وفي حديث الشفاعة: «اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، عَبْدٌ غفر الله لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ»(1) فنال مقام الشفاعة بكمال عبوديته، وكمال مغفرة الله له، والله سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له، التي هي أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع والذل، وهذه هو حقيقة الإسلام وملة إبراهيم التي من رغب عنها فقد سفه نفسه.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٣].

ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك(2).

* * *

(1) رواه البخاري (٤٢٠٦) ومسلم (١٩٣).

(2) الداء والدواء (٣١٢).




الباب الثاني
أنواع المحبة وأسبابها

الفصل الأول : أنواع المحبة .

الفصل الثاني : درجات المحبة ومراتبها .

الفصل الثالث: الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها .




الفصل الأول
أصناف المحبة

أنـوع الـمحبــة :

ها هنا أربعة أنواع من المحبة ، يجب التفريق بينها ، وإنما ضلَّ من ضلّ بعدم التمييز بينها .

أحدها : محبة الله ، ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه ؛ فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله .

الثاني : محبة ما يحب الله ، وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر ، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها .

الثالث : الحب لله وفيه ، وهي من لوازم محبة ما يحب ، ولا تستقيم محبة ما يحب إلا فيه وله .

الرابع : المحبة مع الله ، وهي المحبة الشركية ، وكل من أحب شيئاً مع الله لا لله ، ولا من أجله ، ولا فيه ، فقد اتخذه نِدّاً من دون الله ، وهذه محبة المشركين .

وبقي قسم **خامس** ليس مما نحن فيه ، وهو المحبة الطبيعية ، وهي ميلُ الإنسان إلى ما يلائم طبعه ، كمحبة العطشان للماء ، والجائع للطعام ، ومحبة النوم والزوجة والولد ، فتلك لا تُذَمُّ إلا إذا أَلْهَت عن ذكر الله ، وشَغَلَتْ عن محبته ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن

ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩] وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧][١].

المحبة بين الخَلْق:

والمحبة المشتركة ثلاثة أنواع:

أحدها: محبة طبيعية مشتركة ، كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماءِ وغير ذلك ، وهذه لا تستلزم التعظيم.

والنوع الثاني: محبة رحمة وإشفاق كمحبة الوالد لولده الطفل ونحوها ، وهذه أيضاً لا تستلزم التعظيم.

والنوع الثالث: محبة أُنس وإلف ، وهي محبة المشتركين ـ في صناعة أو علم أو موافقة أو تجارة أو سفر ـ بعضهم بعضاً ، وكمحبة الإخوة بعضهم بعضاً.

فهذه الأنواعُ الثلاثة هي المحبة التي تصلح للخلق بعضهم من بعض ، ووجودها فيهم لا يكون شركاً في محبة الله سبحانه. ولهذا كان رسول الله ﷺ يحب الحلواءَ والعسل[٢] ، وكان أحب الشراب إليه الحلو البارد[٣] ، وكان أحب اللحم إليه الذراع[٤] ، وكان يحب نساءَه ، وكانت عائشة رضي الله عنها أحبهن إليه[٥]. وكان يحب أصحابه ، وأحبهم إليه الصدِّيق[٦][٧].

---

(١) الداء والدواء (٣٢٣).
(٢) رواه البخاري (٥٦٨٢) والدارمي (٢/ ١٠٧).
(٣) رواه أحمد (٦/ ٣٨) والترمذي (١٨٩٥) والحاكم (٤/ ١٣٧).
(٤) رواه البخاري (٤٧١٢) وأبو داود (٣٧٨١) والترمذي (١٨٣٧) وابن ماجه (٣٣٠٧) وأحمد (١/ ٣٩٤).
(٥) رواه البخاري (٣٦٦٢) والترمذي (٣٨٨٦).
(٦) انظر المصدرين السابقين.
(٧) طريق الهجرتين (٥٣٢).

محبة العوام:

قال: «وأما محبَّةُ العوامّ فهي محبّة تنبتُ من مطالعة المنة وتثبت باتباع السُّنّة، وتنمو على الإجابة للغاية، وهي محبة تقطعُ الوسواس، وتلذّذ الخدمة، وتسلّي عن المصائب، وهي طريقُ العوامّ عمدة الإيمان».

فيقال: لا ريبَ أنّ المحبّةَ درجاتٌ متفاوتة، بعضها أكمل من بعض. وكلُّ درجةٍ خاصّةٌ بالنسبة إلى ما تحتها، عامّة بالنسبة إلى ما فوقها، فليس انقسامها إلى خاص وعام انقساماً حقيقياً متميّزاً بالنسبة بفضلٍ يميز أحد النوعين عن الآخر، وإنما تنقسمُ باعتبار الباعث عليها وسببها، وتنقسم بذلك إلى قسمين:

أحدهما: محبة تنشأُ من الإحسان، ومطالعة الآلاءِ والنعم، فإنّ القلوبَ جُبِلَتْ على حُبّ من أحسن إليها، وبُغْضِ مَن أَساءَ إليها. ولا أحد أعظم إحساناً من الله سبحانه، فإن إحسانه على عبده في كُلّ نَفَسٍ ولحظة، وهو يتقلّبُ في إحسانه في جميع أحواله، ولا سبيلَ له إلى ضبط أجناس هذا الإحسان فضلاً عن أنواعه أو عن أفراده، ويكفي أنَّ من بعض أنواعه نعمة النَّفَس التي لا تكادُ تخطرُ ببال العبد، وله عليه في كلّ يوم وليلة فيه أربعة وعشرون ألف نعمة، فإنه يتنفَّسُ في اليوم والليلة أربعة وعشرين ألف نفس. وكلّ نفس نعمة منه سبحانه.

فإذا كان أدنىٰ نعمة عليه في كُلّ يوم أربعة وعشرين ألف نعمة، فما الظَّنّ بما فوق ذلك وأعظم منه: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، هذا إلى ما يُصرف عنه من المضرَّاتِ وأنواع الأذى التي تقصده، ولعلَّها تُوازنُ النِّعم في الكثرة، والعبد لا شعورَ له بأكثرها أصلاً، والله سبحانه يكلؤه منها بالليل والنهار؛ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ [الأنبياء: ٤٢].

وسواءٌ كان المعنى من يكلؤكم ويحفظكم منه إذا أراد بكم سوءاً، ويكون يكلؤكم مضمّناً معنى يجيركم وينجيكم من بأْسه، أو كانت «من» البدلية أَي من

يكلؤكم بدل الرحمن سبحانه ، أي : هو الذي يكلؤكم وحده لا كالىءَ لكم غيره ، ونظير «من» هذه قوله : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ [الزخرف : ٦٠] على أحد القولين ، أي : عوضكم وبدلكم ، واستشهدوا على ذلك بقول الشاعر :

جـاريــةٌ لــم تــأْكُــلِ المــرَقَّقَــا ولــم تَــذُقْ مِـن البُقُـولِ الْفُسْتُقَـا[1]

أي : لم تأْكل الفستق بدل البقول .

وعلى كلا القولين فهو سبحانه مُنْعِمٌ عليهم بكلاءَتهم وحفظهم وحراستهم مِمّا يؤذيهم بالليل والنهار وحده ، لا حافظ لهم غيره . هذا مع غناه التّامّ عنهم وفقرهم التّامّ إليه من كُلّ وجه .

وفي بعض الآثار يقول تعالى : «أنا الجوادُ ، ومَن أعظمُ منّي جوداً وكرماً؟ أبيتُ أكلأُ عبادي في مَضَاجِعِهم ، وهم يُبارزونني بالعظائم»[2] .

وفي الترمذي أن النبي ﷺ لما رأى السحاب قال : «هذه رَوَايا الأرض ، يَسُوقُها اللهُ إلى قَوْمٍ لا يذكرونه ، ولا يعبدونه»[3] .

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : «لا أَحَدَ أَصْبَرُ على أذى يَسْمَعُه من الله . إنَّهم يَجْعَلُون له نِـدّاً ، ويجعلون له ولـداً ، وهو مع ذلك يرزقهـم ويعافيهـم ويعطيهم»[4] .

---

(١) البيت لأبي نُخَيْلة الراجز يصف امرأةً . انظر الشعر والشعراء (٢/ ٦٠٢) .
و«المرقق» : الرغيف الواسع الرقيق .

(٢) رواه الديلمي كما في الإتحافات السنية (١٧٠) .

(٣) رواه الترمذي (٣٢٩٨) .
«روايا» : الروايا من الإبل : الحوامل للماء ، واحدتها : راوية ، فشبّه السحابَ بالروايا .

(٤) رواه البخاري (٦٠٩٩) ومسلم (٢٨٠٤) .
«على أذى» : المراد بالأذى : أذى رسله سُبحانه وصالحي عباده؛ لاستحالة تعلُّق أذى المخلوقين به؛ لكونه صفة نقص ، وهو ـ عز وجل ـ مُنزَّه عن النقص . انظر فتح الباري (١٣/ ٣٦٠ ـ ٣٦١) .

وفي بعض الآثار: «يقول الله: ابنَ آدم، خيري إليك نازلٌ، وشرُّك إليَّ صاعِدٌ. كم أتحبَّبُ إليكَ بالنِّعم، وأنا غَنِيٌّ عنك. وكم تتبغَّضُ إليَّ بالمعاصي، وأنتَ فقيرٌ إليَّ. وَلاَ يزالُ الملكُ الكريمُ يعرجُ إليَّ مِنْكَ بعملٍ قَبِيحٍ»[1].

ولو لم يكن من تحبّبه إلى عباده وإحسانه إليهم وبِرّه بهم إلاّ أنه خَلَقَ لهم ما في السموات والأرض وما في الدنيا والآخرة، ثم أهَّلهم وكرَّمهم، وأرسل إليهم رُسُلَه، وأنزل عليهم كُتُبَهُ، وشرَّع لهم شرائعه، وأذِنَ لهم في مناجاته كُلّ وقت أرادوا، وكتب لهم بكلّ حسنة يعملونها عشرة أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وكتب لهم بالسيئة واحدة؛ فإن تابوا منها محاها وأثبت مكانها حسنة، وإذا بلغت ذنوبُ أحدهم عنان السماء ثم استغفره غفر له، ولو لقيه بقراب الأرض خطايا، ثم لقيه بالتوحيد لا يشرك به شيئاً لأتاه بقرابها مغفرة، وشرع لهم التوبة الهادمة للذنوب؛ فوفّقهم لفعلها ثم قبلها منهم، وشرع لهم الحج الذي يهدمُ ما قبله؛ فوفّقهم لفعله وكفَّر عنهم سيئاتهم به، وكذلك ما شرعه لهم من الطاعات والقربات، وهو الذي أمرهم بها وخلقها لهم وأعطاهم إياها ورتب عليها جزاءَها، فمنه السبب ومنه الجزاءُ، ومنه التوفيق ومنه العطاءُ أولاً وآخراً، وهم محل إحسانه كله منه أولاً وآخراً.

أعطى عبدَه ماله وقال: تقرّب بهذا إليَّ أقبله منك، فالعبدُ له والمالُ له والثواب له، فهو المعطي أوّلاً وآخراً، فكيف لا يُحَبُّ مَن هذا شأْنه؟ وكيف لا يستحي العبدُ أن يصرفَ شيئاً مِن محبته إلى غيره؟ ومن أولى بالحمد والثناءِ والمحبة منه؟ ومن أولى بالكرم والجود والإحسان منه؟ فسبحانه وبحمده لا إلّه إلا هو العزيز الحكيم.

ويفرح سبحانه بتوبة أحدهم إذا تاب إليه أعظم فرح وأكمله، ويكفّر عنه

---

(١) رواه الديلمي والرافعي؛ كما في الإتحافات السنية (٢١٥).

ذنوبه ، ويُوجب له محبّته بالتّوبة ، وهو الذي ألهمه إيّاها ووفّقه لها ، وأعانه عليها ، وملأ سبحانه سمواته من ملائكته ، واستعملهم في الاستغفار لأهل الأرض ، واستعمل حَمَلَةَ العرش منهم في الدعاءِ لعباده المؤمنين ، والاستغفار لذنوبهم ، ووقايتهم عذاب الجحيم ، والشفاعة إليه بإذنه أن يدخلهم جناته.

فانظرْ إلى هذه العناية ، وهذا الإحسان ، وهذا التحنّن والعطف ، والتحبُّب إلى العباد ، واللطف التّامّ بهم ، ومع هذا كله بعد أن أرسل إليهم رُسُلَه ، وأنزل عليهم كُتُبَه ، وتعرَّف إليهم بأسمائه وصفاته وآلائه ، ينزلُ كُلّ ليلةٍ إلى سماءِ الدنيا يسألُ عنهم ، ويستعرضُ حوائجَهم بنفسه ، ويدعوهم إلى سؤاله ، فيدعو مسيئهم إلى التوبة ، ومريضهم إلى أن يسأله أن يشفيه ، وفقيرهم إلى أن يسأله غناه ، وذا حاجتهم يسأله قضاءَها كلّ ليلة ، ويدعوهم إلى التوبة وقد حاربوه ، وعذّبوا أولياءَه وأحرقوهم بالنار ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠][(١)].

قال بعضُ السلف: انظروا إلى كرمه كيف عذّبوا أولياءَه وحرقوهم بالنار ، ثم هو يدعوهم إلى التوبة.

فهذا البابُ يدخلُ منه كُلّ أحد إلى محبته سبحانه ، فإنَّ نعمتَه على عباده مشهودةٌ لهم ، يتقلّبُون فيها على عَدِّ الأنفاسِ واللّحظات.

وقد رُوي في بعض الأحاديث مرفوعاً: «أحِبُّوا الله لما يَغْذُوكم به من نِعَمِهِ ، وأحِبُّوني بحبِّ اللهِ»[(٢)].

---

(١) «فتنوا»: عذَّبوا ، أو أحرقوا.
(٢) سبق تخريجه ص (٤٣).
«يغذوكم»: يرزقكم.

فهذه محبَّةٌ تنشأُ من مطالعة المنن والإحسان ، ورؤية النعم والآلاءِ ، وكلما سافر القلبُ فيما ازدادتْ محبَّتُه وتأكَّدتْ ، ولا نهايةَ لها؛ فيقفُ سَفَرُ القلب عندها. بل كلما ازداد فيها نظراً ازداد فيها اعتباراً وعَجْزاً عن ضبط القليل منها ، فيستدلّ بما عرفه على ما لم يعرفه ، والله سبحانه دعا عبادَه إليه مِنْ هذا الباب ، حتى إذا دخلوا منه دُعُوا من الباب الآخر؛ وهو باب الأسماءِ والصفات؛ الذي إنما يدخلُ منه إليه خواصّ عباده وأوليائه ، وهو بابُ المحبِّين حقّاً الذي لا يدخلُ منه غيرُهم ، ولا يشبعُ من معرفته أحدٌ منهم ، بل كلّما بدا له منه علمٌ ازداد شوقاً ومحبّةً وظمأً. فإذا انضمَّ داعي الإحسان والإنعام إلى داعي الكمال والجمال لم يتخلّفْ عن محبّة من هذا شأْنه إلا أردأ القلوب ، وأخبثها ، وأشدها نقصاً ، وأبعدها من كل خير ، فإنَّ الله فَطَرَ القلوبَ على محبَّة المحسن الكامل في أوصافه وأخلاقه.

وإذا كانت هذه فِطْرةُ الله التي فَطَرَ عليها قلوبَ عباده فمن المعلوم أنه لا أحد أعظم إحساناً منه سبحانه ولا شيء أكمل منه ولا أجمل ، فكلُّ كمال وجمال في المخلوق مِنْ آثار صنعه سبحانه ، وهو الذي لا يحدّ كماله ، ولا يوصف جلاله وجماله ، ولا يحصي أحد من خلقه ثناءً عليه بجميل صفاته ، وعظيم إحسانه ، وبديع أفعاله؛ بل هو كما أثنى على نفسه.

وإذا كان الكمالُ محبوباً لذاته ونفسه وجب أن يكونَ الله سبحانه هو المحبوب لذاته وصفاته ، إذ لا شيءَ أكملُ منه ، وكلُّ اسم من أسمائه وصفة من صفاته تستدعي محبّة خاصة ، فإنّ أسماءه كلها حُسنى ، وهي مستمدة من صفاته ، وأفعاله دالّة عليها. فهو المحبوبُ المحمودُ على كلّ ما فعل وعلى كلّ ما أمر ، إذ ليس في أفعاله عبثٌ ولا في أوامره سفه ، بل أفعالُه كلّها لا تخرجُ عن الحكمة والمصلحة والعدل والفضل والرحمة ، وكلّ واحد من ذلك يستوجبُ الحمد والثناءَ والمحبّة عليها ، وأوامره كلّها مصلحة تستوجب الحمد والمحبّة عليها ، وكلامه كلّه صدق وعدل ، وجزاؤه كلّه فضل وعدل؛ فإنه إن

أعطى فبفضله ورحمته ونعمته ، وإن مَنَعَ أو عاقب فبعدل وحكمته .

مـا للعبـادِ عليـه حـقٌّ واجـبٌ   كـلاّ ولا سعـيٌ لـديـه ضَـائِـعُ
إنْ عُـذِّبُـوا فبعـدلـه ، أو نُعِّمـوا   فبفضله ، وهو الكريمُ الواسع[1]

محبة الخواص:

قال أبو العباس: «وأما محبة الخواص فهي محبة خاطفة: تقطع العبارة ، وتدقق الإشارة ، ولا تنتهي بالنعوت ، ولا تعرف إلا بالحيرة والسكوت . وقال بعضهم:

تقـول وقـد أُلبسـت وَجـداً وحيـرة   وقـد ضمّنـا بعـد التفـرُّقِ محضـرُ
ألسـتَ الـذي كنـا نحـدِّثُ أنـه   ولـوعٌ بـذكـراهـا ، فـأيـنَ التـذكُّرُ؟
فـردَّ عليهـا الـوجـدُ: أفنيـتِ ذكـره   فلـم يبـقَ إلاّ زفـرةٌ وتحسُّـرُ»

فيقال: ها هنا مرتبتان من المحبة مختلف في أيّتهما أكمل من الأُخرى: إحداهما هذه المرتبة التي أشار إليها المصنف ، وهي الدرجة الثالثة التي ذكرها شيخ الإسلام[2] في منازله ، فقال: «والدرجة الثالثة: محبّة خاطفة ، تقطع العبارة ، وتدقّق الإشارة ، ولا تنتهي بالنعوت»[3] وهذه المحبة قطب هذا الشأْن، وما دونها مجال تنادي عليها الألسن ، وادعتها الخليقة ، وأوجبتها العقول» .

والمرتبة الثانية عند صاحب المنازل ومن تبعه دون هذه المرتبة ، وهي المحبة التي تنشأُ من مطالعة الصفات ، فقال في منازله: «الدرجةُ الثانيةُ: محبة تبعثُ على إيثار الحقّ على غيره ، وتُلْهِج اللسانَ بذكره ، وتُعَلِّقُ القلبَ

---

(١) طريق الهجرتين (٥٦٩).
(٢) هو الهروي صاحب «منازل السائرين» .
(٣) مدارج السالكين (٣/ ٣٩).

بشهوده. وهي محبّةٌ من مطالعة الصفات، والنظر في الآيات، والارتياض بالمقامات»[١].

وإنما جعل هؤلاء هذه المحبة أنقص من المحبة الثالثة بناءً على أُصولهم، فإنَّ الفناءَ هو غايةُ السالك التي لا غايةَ له وراءَها، فهذه المحبّةُ لما أفنت المحبّ واستغرقت روحه، بحيث غيبته عن شهوده، وفني فيها المحب، وانمحت رسومه الكلية، ولم يبقَ هناك إلا محبوبه وحده، فكأنه هو المحبّ لنفس بنفسه إذ فني من لم يكن، وبقي من لم يزل.

ولما ضاق نطاقُ النطق بهم عن التعبير عنها عدلوا إلى التعبير عنها بكونها «قاطعة للعبارة، مدقّقة للإشارة» يعني تدقّ عنها الإشارة، لأن الإشارة تتناول محبّاً ومحبوباً، وفي هذه المحبة قد فني المحبُّ فانقطع تعلّق الإشارة به إذ الإشارةُ لا تتعلّق بمعدوم.

وسرُّ هذا المقام عندهم هو الفناءُ في الحبّ بحيثُ لا يشاهد له رسماً ولا محبّة ولا سبباً، ولهذا كانت الدرجتان اللتان قبله عند معلولتين، لأنهما مصحوبتان بالبقاءِ وشهود الأسباب، بخلاف الثالثة، ولهذا قال «ولا تنتهي بالنعوت» يعني أن النعتَ لا يصلُ إليها ولا يدركها. وهذا بناءً على قاعدته في كلّ باب من أبواب كتابه، يجعل الدرجة العالية التي تتضمّن الفناءَ أكمل ما قبلها، والصواب أن الدرجة الثانية أكمل من هذه وأتمّ، وهي درجةُ الكملة من المحبِّين، ولهذا كان إمامُهم وسيدهم وأعظمهم حباً ﷺ في الذروة العُليا من المحبة، وهو مراع لجريان الأُمور ولجريان الأمة، مثل سماعه بكاءَ الصبي في الصلاة فيخفّفها لأجله[٢]، ومثل التفاته في صلاته إلى الشِّعب الذي بعث

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٨).

(٢) قال رسولُ الله ﷺ: «إني لأدخل الصلاة أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي، فأخفِّفُ؛ من شدَّة وَجْد أمه به». رواه البخاري (٧١٠) ومسلم (٤٧٠).

منه العين يتعرّف له أمْرَ العدو[1]. هذا وهو في أعلى درجة المحبة.

ولهذا رأى ما رأى في ليلة الإسراءِ وهو ثابت الجأْش[2]، حاضر القلب، لم يفن عن تلقّي خطاب ربّه وأوامره، ومراجعته في أمر الصلاة مراراً، ولا ريبَ أنَّ هذا الحال أكملُ من حال موسى الكليم ـ صلوات الله و سلامه عليهما ـ فإنّ موسى خرَّ صعقاً وهو في مقامه في الأرض لما تجلّى ربّه للجبل[3]، والنبي ﷺ قطع تلك المسافات، وخرق تلك الحجب، ورأى ما رأى، وما زاغ بصره[4] وما طغى[5]، ولا اضطرب فؤاده، ولا صعق، فصلوات الله وسلامه عليه. ولا ريبَ أنَّ الوراثةَ المحمدية أكملُ من الوراثة الموسوية.

وتأمل شأْنَ النسوة اللاتي رأَيْنَ يوسف كيف أدهشهنَّ حسنه، وتعلّقت قلوبُهنّ به، وأفناهن عن أنفسهن حتى قطعن أيديهن، وامرأة العزيز أكملُ حبّاً منهن له وأشدّ ولم يعرض لها ذلك، مع أنّ حُبَّها أقوى وأتمّ، لأنَّ حُبَّها كان مع البقاءِ، وحُبَّهن كان مع الفناءِ، فالنسوةُ غيبّهن حسنه وحبه عن أنفسهن، فبلغن من تقطيع أيديهن ما بلغن، وامرأةُ العزيز لم يغيّبها جماله عن نفسها؛ بل كانت حاضرة القلب متمكّنة في حبها، فحالُها حالُ الأقوياءِ من المحبِّين، وحالُ النسوة حالُ أصحاب الفناءِ.

وممّا يدلُ على أنَّ حالَ البقاءِ في الحب أكملُ من حال الفناء؛ أنَّ الفناءَ إنما يعرضُ لضعف النفس عن حمل وارد المحبة، فتمتلىء به، وتضعف عن حمله فيفنيها؛ ويغيبها عن تمييزها وشهودها؛ فيورثها الحيرة والسكوت، وأمَّا حالُ

---

(١) قال سهلُ بن الحنظلية: فجعل رسولُ الله ﷺ يُصلِّي وهو يلتفتُ إلى الشِّعْب، حتى إذا قضى صلاته، وسلَّم، قال: «أبشروا فقد جاءكم فارسكم». رواه أبو داود (٢٥٠١).

(٢) «ثابت الجأش»: رابط القلب عند الشدائد.

(٣) قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

(٤) «ما زاغ بصره»: أي: ما مال بَصَرُه عما أُمِر برؤيته.

(٥) «ما طغى»: ما جاوزه إلى ما لم يُؤمَر به.

البقاءِ فيدلُّ على ثبات النفس وتمكّنها ، وأنها حملت من الحبّ ما لم يطق حمله صاحب الفناءِ ، فتصرّفت في حبّها ولم يتصرّف فيها ، والكاملُ من إذا ورد عليه الحالُ تصرّف هو فيه ، ولا يدع حاله يتصرّف فيه.

وأيضاً فإن البقاءَ مُتضمِّنٌ لشهود كمال المحبوب ، ولشهود ذُلّ عبوديته ومحبّته ، ولشهود مراضيه وأوامره ، والتمييز بين ما يحبه ويكرهه ، والتمييز بين المحبوب إليه والأحبّ ، والعزم على إيثار الأحبّ إليه ، فكيف يكونُ للمحبوب في فناءِ المحبّ في محبّته؟ وهل العبوديةُ كُلّ العبودية إلا في البقاءِ ، والصحو ، وكمال التمييز ، وشهود عزّة محبوبه وذلّه؛ وهو في حبه واستكانته فيه ، واجتماع إرادته كلّها في تنفيذ مراد محبوبه؟ فهذا وأمثاله مما يدلُّ على أنّ الدرجةَ الثانية التي أشار إليها أكملُ من الثالثة وأتمّ ، وهكذا في جميع أبواب الكتاب ، والله أعلم.

وكأني بك تقولُ: لا يقبل في هذا إلاّ كلام مَن قطع هذه المفاوز حالاً وذوقاً ، وأما الكلام فيها بلسان العمل المجرّد فغير مقبول ، والمحبُّونَ أصحابُ الحال والذوق في المحبة لهم شأنٌ وراء الأدلّة والحجج.

فاعلم أولاً أنَّ كُلَّ حالٍ وذوق ، ووجد وشهود ، لا يشرق عليه نورُ العلم المؤيَّد بالدليل ، فهو من عبث النفس وحظوظها ، فلو قُدِّر أنَّ المتكلِّمَ إنما تكلَّم بلسان العلم المجرد فلا ريبَ أن ما كشفه العلم الصحيح المؤيّد بالحجة أنفع من حال يخالف العلم ، والعلم يخالفه.

وليس من الإنصاف ردّ العلم الصحيح بمجرّد الذَّوق والحال ، وهذا أصلُ الضلالة ، ومنه دخل الداخل على كثير من السالكين في تحكيم أذواقهم ومواجيدهم على العلم ، فكانت فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير.

وكم قد ضلَّ وأضلَّ محكم الحال على العلم ، بل الواجب تحكيم العلم على الحال ورد الحال إليه ، فما زكّاه شاهدُ العلم فهو المقبولُ ، وما جرَّحه شاهد العلم فهو المردودُ. وهذه وصيّـةُ أرباب الاستقامة من مشايخ الطريق

ـ رضي الله عنهم ـ ، كلّهم يُوصُون بذلك ، ويخبرون أنَّ كُلَّ ذوق ووجد لا يقومُ عليه شاهدان اثنان من العلم فهو باطل .

ويقال ثانياً: ليس من شرط قبول العلم بالشيء من العالم به أن يكون ذائقاً له ، أفتراكَ لا تقبلُ معرفة الآلام والأوجاع وأدويتها إلا ممّن قد مرض وتداوى بها؟ أفيقول هذا عاقل؟ .

ويقال ثالثاً: أتريدُ بالذوق أنْ يكونَ القائلُ قد بلغ الغايةَ القصوى في هذه المرتبة فلا يقبلُ إلا ممَّن هذا شأنه ، أو تريد أنه لا بُدّ أن يكون له أذواق أهله من حيث الحمل؟ فإن أردتَ الأول لزمك أن لا يقبل أحدٌ من أحد ، إذ ما من ذوق إلا وفوقه أكمل منه ، وإن أردت الثاني فمن أين لك نفيه عن صاحب العلم؟ ولكن لإعراضك عن العلم وأهله صرت تظنّ أنَّ أهلَ العلم لهم العلم والكلام والوصف ، وللمعرضين عنه الذوق والحال والاتّصاف ، والظنُّ يخطىء تارة ويُصيب ، والله أعلم(١) .

المحبـة الـخـاصّـة :

وأما المحبة الخاصة فلا تصلح إلا لله وحده ، ومتى أحبَّ العبدُ بها غيره كان شركاً لا يغفره الله ، فهي محبَّةُ العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتّعظيم ، وكمال الطاعة وإيثاره على غيره . فهذه المحبّةُ لا يجوزُ تعلّقها بغير الله أصلاً ، وهي التي سوَّى المشركون بين آلهتهم وبين الله فيها ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ وأصحُ القولين أن المعنى يحبونهم كما يحبون الله . وسوَّوا بين الله وبين أندادهم في الحبّ ، ثم نفى ذلك عن المؤمنين فقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] فإن الذين آمنوا وأخلصوا حبهم لله لم يشركوا به معه غيره ، وأما المشركون فلم يخلصوا لله .

---

(١) طريق الهجرتين (٥٨١) .

والمقصودُ من الخلق والأمر إنما هو هذه المحبّةُ وهي أوّلُ دعوة الرُّسُل ، وآخر كلام العبد المؤمن الذي إذا مات عليه دخل الجنة اعترافه وإقراره بهذه المحبّة وإفراد الرّبّ بها؛ فهو أول ما يدخلُ به في الإسلام ، وآخر ما يخرجُ به من الدُّنيا إلى الله؛ وجميع الأعمال كالأدوات والآلات لها ، وجميع المقامات وسائل إليها ، وأسباب لتحصيلها وتكميلها وتحصينها من الشوائب والعلل؛ فهي قطبُ رحى السعادة ، وروح الإيمان ، وساق شجرة الإسلام ، ولأجلها أنزل اللهُ الكتابَ والحديد: فالكتاب هادٍ إليها ودالّ عليها ومفصّل لها ، والحديدُ لمن خرجَ عنها وأشرك فيها مع الله غيره. ولأجلها خُلقت الجنة والنار ، فالجنة دار أهلها الذين أخلصوها لله وحده فأخلصهم لها ، والنار دارُ مَن أشرك فيها مع الله غيره وسوّى بينه وبين الله فيها ، كما أخبر تعالى عن أهلها أنهم يقولون في النار لآلهتهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨].

وهذه التسويةُ لم تكن منهم في الأفعال والصفات بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله في أفعاله وصفاته ، وإنما كانت تسوية منهم بين الله سبحانه في الأفعال والصفات؛ بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله في أفعاله وصفاته ، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها في المحبة والعبودية ، مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها ، فتصحيحُ هذه هو تصحيحُ شهادة أن لا إلّه إلا الله. فحقيقٌ لمن نَصَحَ نفسه وأحبَّ سعادتها ونجاتها أن يتيقّظَ لهذه المسألة علماً وعملاً وحالاً ، وتكون أهمّ الأشياء عنده ، وأجلّ علومه وأعماله ، فإن الشأْنَ كُلّه فيها ، والمدار عليها ، والسؤال يوم القيامة عنها ، قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢ ـ ٩٣] قال غيرُ واحد من السلف: هو عن قول: لا إلّه إلا الله[1].

وهذا حق ، فإن السؤال كله عنها وعن أحكامها وحقوقها وواجباتها

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (١٠/ ٥٩) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢٤٦).

ولوازمها ، فلا يسأل أحد قط إلا عنها وعن واجباتها ولوازمها وحقوقها ، قال أبو العالية: كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين[1]؟ .

فالسؤال عمّاذا كانوا يعبدون هو السؤال عنها نفسها ، والسؤال عمَّاذا أجابوا المرسلين سؤال عن الوسيلة والطريق المؤدّية إليها: هل سلكوها وأجابوا الرسل لما دعوهم إليها فعاد الأمر كله إليها؟ .

وأمرٌ هذا شأنه حقيقٌ بأن تنعقدَ عليها الخناصرُ ، ويُعضُّ عليه بالنواجذ ، ويُقبضُ فيه على الجمر ، ولا يؤخذ بأطراف الأنامل ، ولا يطلب على فضله ، بل يجعل هو المطلب الأعظم وما سواه إنما يطلب على الفضلة. والله الموفّق لا إلّه غيره ، ولا ربّ سواه.

المحبة النافعة:

اعلم أن أنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها محبة من جبلت القلوب علىٰ محبته ، وفطرت الخليقة على تأليهه ، وبها قامت الأرض والسموات ، وعليها فطرت المخلوقات ، وهي سر شهادة أن لا إلّه إلا الله ، فإن الإلّه هو الذي تألهه القلوب بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل له والخضوع والتعبد ، والعبادة لا تصلح إلا له وحده ، والعبادة هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل ، والشرك في هذه العبودية من أظلم الظلم الذي لا يغفره الله ، والله تعالى يُحَبّ لذاته من جميع الوجوه ، وما سواه فإنما يُحَبّ تبعاً لمحبته.

وقد دلَّ على وجوب محبته سبحانه جميعُ كتبه المنزلة ، ودعوة جميع رسله ، وفطرته التي فَطَرَ عبادَهُ عليها ، وما ركب فيهم من العقول ، وما أسبغ عليهم من النعم ، فإن القلوب مفطورة مجبولة على محبة من أنعم عليها وأحسن إليها ، فكيف بمن كُلّ الإحسان منه ، وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه

---

(١) ذكره ابنُ كثير في تفسيره (٢/ ٥٧٩).

وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل : ٥٣][1] وما تعرَّف به إلى عباده من أسمائه الحسنى وصفاته العلا ، وما دلت عليها آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته .

والمحبة لها داعيان : الجمال ، والجلال ، والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك ، فإنه جميل يحب الجمال بل الجمال كله له ، والإجلال كله منه ، فلا يستحق أن يُحَبّ لذاته من كل وجه سواه ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة : ٥٤ ـ ٥٦] .

والولاية أصلها الحب ، فلا موالاة إلا بحب ، كما أن العداوة أصلها البغض ، والله ولي الذين آمنوا وهم أولياؤه ، فهم يوالونه بمحبتهم له ، وهو يواليهم بمحبته لهم ، فالله تعالى يوالي عبده بحسب محبته له .

ولهذا أنكر سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء ، بخلاف من والى أولياءه ، فإنه لم يتخذهم أولياء من دونه ، بل موالاته لهم من تمام موالاته .

وقد أنكر على من يسوّي بينه وبين غيره في المحبة ، وأخبر أن من فعل ذلك فقد اتخذ من دونه أنداداً يحبهم كحب الله ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] وأخبر عمن يسوِّي بينه وبين الأنداد في الحب ، أنهم يقولون في النار لمعبوديهم : ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٩٧ ـ ٩٨] .

---

(١) «تجأرون» : تضجُّون بالاستغاثة والتضرع .

وبهذا التوحد في الحب أرسل الله سبحانه جميع رسله ، وأنزل جميع كتبه ، وأطبقت عليه دعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم ، ولأجله خلقت السموات والأرض والجنة والنار ، فجعل الجنة لأهله ، والنار للمشركين به فيه.

وقد أقسم النبي ﷺ أنه: «لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يَكُونَ هُوَ أَحَبَّ إِليهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[1] فكيف بمحبة الرب جل جلاله؟.

وقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لاَ ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيكَ مِنْ نَفْسِكَ»[2] أي: لا تؤمن حتى تصل محبتك إلى هذه الغاية.

وإذا كان النبي ﷺ أولى بنا من أنفسنا في المحبة ولوازمها ، أفليس الرب جل جلاله وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إلّه غيره ، أولى بمحبة عباده من أنفسهم؟ وكل ما مِنْهُ إلى عبده المؤمن يدعوه إلى محبته ، مما يحب العبد ويكره؟ فعطاؤه ومنعه ، ومعافاته وابتلاؤه ، وقبضه وبسطه ، وعدله ، وفضله ، وإماتته وإحياؤه ، ولطفه ، وبرّه ، ورحمته وإحسانه ، وستره وعفوه ، وحلمه وصبره على عبده ، وإجابته لدعائه ، وكشف كربه ، وإغاثة لهفته ، وتفريج كربته من غير حاجة منه إليه ، بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه ، كل ذلك داع للقلوب إلى تألهه ، ومحبته ، بل تمكينه عبده من معصيته وإعانته عليها ، وستره حتى يقضي وطَره منها وكلاءته وحراسته له ، ويقضي وطره من معصيته ، يعينه ويستعين عليها بنعمه من أقوى الدواعي إلى محبته ، فلو أن مخلوقاً فعل بمخلوق أدنى شيء من ذلك لم يملك قلبه عن محبته ، فكيف لا يحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس ، مع إساءته؟ فخيره إليه نازل ، وشره إليه صاعد ، يتحبب إليه بنعمه وهو غني عنه ، والعبد يتبغض إليه بالمعاصي وهو فقير إليه ، فلا إحسانه

---

(١) رواه البخاري (١٤ و١٥) ومسلم (٤٤).

(٢) رواه البخاري (٦٢٥٧).

وبرّه وإنعامه عليه يصدُّه عن معصيته ، ولا معصية العبد ولؤمه ، يقطع إحسان ربه عنه .

فألأم اللؤم تخلف القلوب عن محبة من هذا شأنه ، وتعلقها بمحبة سواه .

وأيضاً ، فكل من تحبه من الخلق ويحبك إنما يريدك لنفسه وغرضه منك ، والله تعالى يريدك لك ، كما في الأثر الإلّهي : «عبدي كلٌّ يريدك لنفسه ، وأنا أريدك لي» فكيف لا يستحيي العبد أن يكون ربه له بهذه المنزلة ، وهو معرض عنه مشغول بحب غيره ، قد استغرق قلبه بمحبة سواه؟ .

وأيضاً ، فكل من تعامله من الخلق إن لم يربح عليك لم يعاملك ، ولا بدَّ له من نوع من أنواع الربح ، والرب تعالى إنما يعاملك لتربح أنت عليه أعظم الربح وأعلاه ، والدرهم بعشرة أمثاله إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، والسيئة بواحدة وهي أسرع شيء محواً .

وأيضاً فهو سبحانه خلقك لنفسه ، وخلق كل شيء في الدنيا والآخرة ، فَمَنْ أولى منه باستفراغ الوسع في محبته وبذل الجهد في مرضاته؟ .

وأيضاً فمطالبك ـ بل مطالب الخلق كلهم جميعاً ـ لديه ، وهو أجود الأجودين وأكرم الأكرمين ، أعطى عبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمله ، يشكر القليل من العمل ويُنمِّيه ، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه ، يسأله من في السموات والأرض ، كل يوم هو في شأن ، لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه كثرة المسائل ، ولا يتبرح بإلحاح الملحين ، بل يحب الملحين في الدعاء ، ويحب أن يُسأل ، ويغضب إذا لم يُسأل ، يستحي من عبده حيث لا يستحي العبد منه ، ويستره حيث لا يستر نفسه ، ويرحمه حيث لا يرحم نفسه ، دعاه بنعمه وإحسانه وأياديه إلى كرامته ورضوانه فأبى ، فأرسل رسله في طلبه ، وبعث إليهم معهم عهده ، ثم نزل إليه سبحانه نفسه وقال : «مَنْ

يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»[1] كما قيل: أدعوك للوصل فتأبى، أبعث رسولي في الطلب، أنزل إليك بنفسي، ألقاك في النوم.

وكيف لا تحب القلوب من لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا يجيب الدعوات، ويقيل العثرات، ويغفر الخطيئات، ويستر العورات، ويكشف الكربات، ويغيث اللهفات، وينيل الطلبات سواه؟.

فهو أحق من ذُكر، وأحق من شكر، وأحق من عبد، وأحق من حمد، وأبصر من ابتغى، وأرأف مَنْ مَلَكَ، وأجود من سئل، وأوسع من أعطى، وأرحم من استرحم، وأكرم من قصد، وأعز من التُجِىءَ إليه، وأكفى من توكَّل العبد عليه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأشد فرحاً بتوبة التائب من الفاقد لراحته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة ثم وجدها.

وهو الملك لا شريك له، والفرد فلا نِدَّ له، كل شيء هالك إلا وجهه، لن يُطاع إلا بإذنه، ولن يُعصى إلا بعلمه، يُطاع فيشكر، وبتوفيقه ونعمته أطيع، ويُعصى فيغفر، ويعفو وحقه أضيع، فهو أقرب شهيد، وأجلّ حفيظ، وأوفى بالعهد، وأعدل قائم بالقسط، جال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وكتب الآثار، ونسخ الآجال، فالقلوب له مُفْضِيَةٌ، والسر عنده علانية، والغيب لديه مكشوف، وكل أحد إليه ملهوف، وعَنَت[2] الوجوه لنور وجهه، وعجزت العقول عن إدراك كنهه، ودلت الفطر والأدلة كلها على امتناع مثله وشبهه، أشرقت لنور وجهه الظلمات، واستنارت له الأرض والسموات، وصلحت عليه جميع المخلوقات، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار

---

(١) رواه البخاري (٦٣٢١) ومسلم (٧٥٨).

(٢) «عنت»: خضعت.

قبل عمل الليل ، حجابه النور ، ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه[1]:

مَـا اعْتَـاضَ بَـاذِلُ حُبِّـهِ لِسِـوَاهُ مِـنْ عِوَضٍ ، وَلَوْ مَلَكَ الْوُجُودَ بِأَسْرِهِ[2]

* * *

(١) قال ﷺ: «إنَّ لله سبعين حجاباً من النور ، لو كشفها لأحرقت سبُحات وجهه كلَّ ما أبصره». ذكره الشوكاني في الفوائد المجموعة (٤٥٠).

(٢) الداء والدواء (٣٨٠).

الفصل الثاني

درجات المحبة ومراتبها

درجات المحبة:

قال: «وهي على ثلاثة درجات. الدرجة الأولى: محبة تقطع الوساوس، وتَلِذُّ الخدمة، وَتُسَلِّي عن المصائب».

قوله «تقطع الوساوس» فإن الوساوس والمحبة متناقضان. فإن المحبة توجب استيلاء ذكر المحبوب على القلب. والوساوس تقتضي غيبته عنه، حتى توسوس له نفسه بغيره. فبين المحبة والوساوس تناقض شديد، كما بين الذكر والغفلة، فعزيمة المحبة: تنفي تردد القلب بين المحبوب وغيره. وذلك سبب الوساوس، وهيهات أن يجد المحب الصادق فراغاً لوسواس الغير، لاستغراق قلبه في حضوره بين يدي محبوبه. وهل الوسواس إلا لأهل الغفلة والإعراض عن الله تعالى؟ ومن أين يجتمع الحب والوسواس؟

لا كان من لسواك فيه بقيةٌ فيها يُقَسِّم فِكْره ويوسوس

قوله: «وتلذ الخدمة» أي: المحب يلتذ بخدمة محبوبه، فيرتفع عن رؤية التعب الذي يراه الخَلِيُّ في أثناء الخدمة. وهذا معلوم بالمشاهدة.

قوله: «وتسلي عن المصائب» فإن المحب يجد في لذة المحبة ما ينسيه المصائب، ولا يجد مِنْ مسها ما يجدُ غيره، حتى كأنه قد اكتسى طبيعة ثانية ليست طبيعة الخلق. بل يقوى سلطان المحبة، حتى يلتذّ المحبُّ بكثير من

المصائب التي يصيبه بها حبيبه أعظم من التذاذ الخلي بحظوظه وشهواته. والذوق والوجود شاهد بذلك، والله أعلم[1].

طرفا المحبة:

والكلام في هذه المنزلة معلّق بطرفين: طرف محبة العبد لربه، وطرف محبة الرب لعبده. والناس في إثبات ذلك ونفيه أربعة أقسام: فأهلٌ يحبهم ويحبونه على إثبات الطرفين، وأن محبة العبد لربه فوق كل محبة تقدر. ولا نسبة لسائر المحاب إليها. وهي حقيقة «لا إلّه إلا الله» وكذلك عندهم محبة الرب لأوليائه وأنبيائه ورسله: صفة زائدة على رحمته، وإحسانه، وعطائه، فإن ذلك أثر المحبة وموجبها، فإنه لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه وبره أتَمَّ نصيب.

والجهمية المعطّلة عكس هؤلاء، فإنه عندهم لا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ، ولم يمكنهم تكذيب النصوص، فأوَّلوا نصوصَ محبة العباد له على محبة طاعته وعبادته، والازدياد من الأعمال لينالوا بها الثواب، وإن أطلقوا عليهم بها لفظ «المحبة» فلما ينالون به من الثواب والأجر، والثواب المنفصل عندهم: هو المحبوب لذاته، والرب تعالى محبوب لغيره حب الوسائل.

وأولوا نصوص محبته لهم بإحسانه إليهم. وإعطائهم الثواب، و ربما أولوها بثنائه عليهم ومدحه لهم، ونحو ذلك. وبما أولوها بإرادته لذلك، فتارة يؤولونها بالمفعول المنفصل، وتارة يؤوِّلونها بنفس الإرادة.

ويقولون: الإرادةُ إن تعلقتْ بتخصيص العبد بالأحوال والمقامات العلية: سُمِّيت «محبة» وإن تعلقت بالعقوبة والانتقام: سميت «غضباً» وإن تعلَّقت بعموم الإحسان والإنعام الخاص: سميت «براً» وإن تعلقت بإيصاله في خفاء،

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٦).

من حيث لا يشعر ، ولا يحتسب: سميت «لطفاً» وهي واحدة ، ولها أسماء وأحكام باعتبار متعلقاتها.

ومن جعل محبته للعبد ثناءه عليه ومدحه له: ردها إلى صفة الكلام ، فهي عنده من صفات الذات ، لا من صفات الأفعال. والفعل عنده نفس المفعول ، فلم يقم بذات الرب محبته لعبده ، ولا لأنبيائه ورسوله ألبتة.

ومَنْ ردَّها إلى صفة «الإرادة» جعلها من صفات الذات باعتبار أصل الإرادة ، ومن صفات الأفعال باعتبار تعلّقها.

ولما رأى هؤلاء أن المحبة إرادة ، وأن الإرادة لا تتعلق إلا بالمحدَث المقدور ، والقديم يستحيل أن يُراد: أنكروا محبة العباد ، والملائكة والأنبياء ، والرسل له. وقالوا: لا معنى لها إلا إرادة التقرب إليه ، والتعظيم له ، وإرادة عبادته. فأنكروا خاصةَ الإلٰهيّة ، وخاصة العبودية ، واعتقدوا أن هذا من موجبات التوحيد والتنزيه ، فعندهم لا يتم التوحيد والتنزيه إلا بجحد حقيقة الإلٰهية ، وجحد حقيقة العبودية.

وجميع طرق الأدلة ـ عقلاً ونقلاً وفطرة ، وقياساً واعتباراً ، وذوقاً ووجداً ـ تدلُّ على إثبات محبة العبد لربه ، والرب لعبده.

وقد ذكرنا لذلك قريباً من مئة طريق في كتابنا الكبير في المحبة[1] ، وذكرنا فيه فوائد المحبة ، وما تثمر لصاحبها من الكمالات ، وأسبابها وموجباتها ، والرد على من أنكرها. وبيان فساد قوله ، وأنَّ المنكرين لذلك قد أنكروا خاصة الخلق والأمر ، والغاية التي وُجِدوا لأجلها ، فإن الخلق والأمر ، والثواب والعقاب: إنما نشأ عن «المحبة» ولأجلها ، وهي الحق الذي به خُلقت السموات والأرض ، وهي الحقّ الذي تضمَّنه الأمر والنهي ، وهي سرُّ التأليه. وتوحيدها: هو شهادة أن لا إلٰه إلا الله.

---

(١) هو كتاب «روضة المحبين».

وليس كما زعم المنكرون: أن «الإلٰه» هو الرب الخالق؛ فإن المشركين كانوا مقرين بأنه لا رب إلا الله ، ولا خالق سواه ، وبأنه وحده المنفرد بالخلق والربوبية. ولم يكونوا مقرين بتوحيد الإلٰهية. وهو المحبة والتعظيم ، بل كانوا يُؤلهون مع الله غيره. وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله ، وصاحبه ممّن اتخذ من دون الله أنداداً.

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] فأخبر أن من أحب من دون الله شيئاً ، كما يحب الله تعالى: فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً ، فهذا نِدٌّ في المحبة ، لا في الخلق والربوبية ، فإن أحداً من أهل الأرض لم يثبتْ هذا الند في الربوبية ، بخلاف ندّ المحبة ، فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم.

ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] وفي تقدير الآية قولان:

أحدهما: «والذين آمنوا أشد حباً لله» من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ، ويعظمونها من دون الله.

والثاني: «والذين آمنوا أشد حباً لله» من محبة المشركين بالأنداد لله ، فإن محبة المؤمنين خالصة ، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها. والمحبة الخالصة: أشد من المشتركة. والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى: ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] فإن فيها قولان:

أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله. فيكون قد أثبت لهم محبة الله ، ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أنداداً.

والثاني: أن المعنى: يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله. ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم[1].

---

(١) قال محمد حامد الفقهي: وفي الآية معنى آخر ـ والله أعلم ـ هو أنهم يحبون أندادهم حباً من جنس محبة المؤمنين لله ، وهي محبة ممتزجة بذل وتعظيم ، وتقديس يحملهم على=

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يرجِّحُ القولَ الأول ، ويقول: إنما ذُمُّوا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة ، ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له.

وهذه التسويةُ المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم ، وهم في النار يقولون لآلهتهم وأندادهم ، وهي مُحْضَرَة معهم في العذاب: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨] ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية[1] ، وإنما سوُّوهم به في المحبة والتعظيم.

وهذا أيضاً هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١] أي: يعدلون به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم. وهذا أصح القولين.

وقيل: الباء بمعنى «عن» ، والمعنى: ثم الذين كفروا عن ربهم يعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره. وهذا ليس بقوي؛ إذ لا تقول العرب: عدلت بكذا ، أي: عدلت عنه ، وإنما جاء هذا في فِعْل السؤال ، نحو: سألت بكذا ، أي: عنه ، كأنهم ضمَّنوه: اعتنيت به ، واهتممت ، ونحو ذلك.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]

= عبادتهم بالدعاء وغيره من أنواع العبادة ، وعلى طاعتهم فيما يشرعون لهم من الدين الخرافي الوثني.
وهي على كل حال محبة لا يثبت القلب عليها؛ لأنها على خلاف ما فطر عليها؛ لأنهامحبة تقليدية جاهلية؛ ولذلك تنتقلُ من ولي إلى ولي ، ومن حجر إلى حجر ، وهكذا بحسب ما أوهمهم شياطينُ الإنس والجن من السر في هذا الولي ، والبركة في هذا الحجر ونحوه. أما المؤمن الصادق: فمحبته تقومُ على العلم الصحيح من معرفة الله بأسمائه وصفاته ، وآثارها في الأنفس والآفاق ، فلن يتحوَّلَ عنها ولو مُزِّق إرباً.

(١) قال الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١].
وقال عز وجل: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١].

وهي تُسمَّى آية المحبة. قال أبو سليمان الداراني: لما ادَّعت القلوب محبة الله؛ أنزل الله لها محنة ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال: «يحببكم الله» إشارة إلى دليل المحبة، وثمرتها، وفائدتها. فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول، وفائدتها وثمرتها: محبة المرسِل لكم، فما لم تحصل المتابعة؛ فليست محبتكم له حاصلة، ومحبته لكم منتفية.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤] فقد ذكر لهم أربعَ علامات:

أحدها: أنهم «أذلة على المؤمنين» قيل: معناه أرقاء، رحماء مشفقين عليهم، عاطفين عليهم. فلما ضمن «أذلة» هذا المعنى عداه بأداة «على». قال عطاء: للمؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده. وعلى الكافرين كالأسد على فريسته ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩].

العلامة الثالثة[1]: الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد، واللسان والمال، وذلك تحقيق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم، وهذا علامةُ صحة المحبة، فكلُّ مُحِبٍّ يأخذه اللومُ عن محبوبه، فليس بمحب على الحقيقة، كما قيل:

لا كان من لسواك فيه بقيةٌ يجدُ السَّبيل بها إليه اللُّوم

وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ إلى قوله ﴿ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٧] فذكر المقامات الثلاث: الحب، وهو ابتغاء

---

(١) لعلَّه قصد من العلامة الأولى: اثنين؛ لأنَّها: «أذلة على المؤمنين، أعزَّة على الكافرين».

القرب إليه ، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة ، والرجاء والخوف: يدلُّ على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة ، وخوف العذاب.

ومن المعلوم قطعاً: أنك لا تتنافس إلا في قرب من تحبّ قربه ، وحُبِّ قربه تبع لمحبة ذاته ، بل محبة ذاته أوجبتْ محبة القرب منه. وعند الجهمية والمعطلة: ما من ذلك كله شيء ، فإنه عندهم لا تقربُ ذاته من شيء ، ولا يقرب من ذاته شيء ، ولا يُحَبُّ لذاته ، ولا يُحِبُّ.

فأنكروا حياة القلوب ، ونعيمَ الأرواح ، وبهجةَ النفوس ، وقرةَ العيون ، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة؛ ولذلك ضُربت قلوبُهم بالقسوة ، وضُربت دونهم ودون الله حجبٌ على معرفته ومحبته ، فلا يعرفونه ولا يحبونه ، ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته ، فذِكْرهم أعظم آثامهم وأوزارهم ، بل يُعاقبون من يذكره بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله ، ويرمونهم بالأدواء التي هم أحقّ بها وأهلُها ، وحَسْب ذي البصر وحياة القلب: ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت ، والتنفير عن محبة الله عز وجل ، ومعرفته ، وتوحيده.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢] وقال أحبابه وأولياؤه: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٩].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[الليل: ١٩ ـ ٢٠] فجعل غايةَ أعمال الأبرار والمقرَّبين والمحبين: إرادة وجهه.

وقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٩] فجعل إرادته غير إرادة الآخرة ، وهذه الإرادةُ لوجهه موجبة للذة النظر إليه في الآخرة ، كما في مستدرك الحاكم وصحيح ابن حبان في الحديث المرفوع عن النبي ﷺ؛ أنه كان يدعو: «اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق: أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي ، وتَوَفَّني إذا كانت الوفاةُ خيراً لي ، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ،

وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا ، وأسألك القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وأسألك قُـرَّة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وبَرْدَ العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك ، في غير ضرّاء مضرّة ، ولا فتنة مُضِلَّة ، اللهم زيِّنا بزينة الإيمان ، واجعلنا هُداة مهتدين»[1] .

فقد اشتمل هذا الحديثُ الشريفُ على ثبوت لذة النظر إلى وجه الله ، وعلى ثبوت الشوق إلى لقائه. وعند الجهمية لا وجهَ له سبحانه ، ولا ينظر إليه ، فضلاً أن يحصل به لذة. كما سمع بعضُهم داعياً يدعو بهذا الدعاء ، فقال: ويحك! هَبْ أن له وجهاً ، أفتلتذ بالنظر إليه؟ .

وفي الصَّحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما؛ وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعودَ في الكفر ـ بعد إذ أنقذه الله منه ـ كما يكره أن يُلقى في النار»[2] .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يقول الله تعالى: من عادى لي ولياً فقد آذنتُه بالحرب ، وما تقربَ إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ من أداء ما افترضته عليه. ولا يزال عبدي يتقربُ إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يُبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها. ولئن سألني لأعطينَّه ، ولئن استعاذني لأعيذنه»[3] .

وفي الصَّحيحين عنه أيضاً عن النبي ﷺ: «إذا أحبَّ اللهُ العبدَ دعا جبريل ،

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٦٤) والنسائي (٣/ ٥٥) والحاكم (١/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥) وابن حبان (١٩٧١) .

(٢) سبق تخريجه ص (٢٠) .

(٣) سبق تخريجه.

فقال: إني أحبُّ فلاناً، فأحبه. فيحبه جبريل. ثم ينادي في السماء، فيقول: إن الله يحبُّ فلاناً فأحبوه. فيحبه أهلُ السماء. ثم يُوضع له القبول في الأرض»[1]. وذكر في البغض عكس ذلك.

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها في حديث أمير السرية الذي كان يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ لأصحابه في كل صلاة، وقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: «أخبروه: أن الله يحبه»[2].

وفي جامع الترمذي من حديث أبي إدريس الخولاني، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «كان من دعاء داود ﷺ: اللهم إني أسألك حبك وحبّ مَنْ يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك. اللهم اجعلْ حبك أحبَّ إليَّ من نفسي وأهلي، ومن الماء البارد»[3].

وفيه أيضاً من حديث عبد الله بن يزيد الخطمي: أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «اللهم ارزقني حبك، وحبَّ من ينفعني حبُّه عندك. اللهم ما رزقتني مما أحبُّ فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويتَ عني مما أحب فاجعلْه فراغاً فيما تحب»[4].

والقرآن والسنة مملوءان بذكر من يحبه الله سبحانه من عباده المؤمنين، وذِكْر ما يحبه من أعمالهم وأقوالهم وأخلاقهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤] ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

---

(١) رواه البخاري (٦٠٤٠) ومسلم (٢٦٣٧).
(٢) رواه البخاري (٧٣٧٥) ومسلم (٨١٣).
(٣) سبق تخريجه ص (٤٥).
(٤) رواه الترمذي (٣٤٩١).

وقوله في ضد ذلك: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] ﴿اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وكم في السُّنَّة «أحب الأعمال إلى الله كذا وكذا»، «وإن الله يحب كذا وكذا» كقوله: «أحب الأعمال إلى الله: الصلاة على أول وقتها، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله»[1] و«أحب الأعمال إلى الله: الإيمان بالله، ثم الجهاد في سبيل الله، ثم حجّ مبرور»[2] و«أحب العمل إلى الله: ما داوم عليه صاحبه»[3] وقوله: «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه»[4].

وأضعاف أضعاف ذلك، وفرحه العظيم بتوبة عبده الذي هو أشدُّ فرح يعلمه العباد، وهو من محبته للتوبة وللتائب.

فلو بطلتْ مسألةُ المحبة لبطلت جميع مقامات الإيمان والإحسان، ولتعطلت منازلُ السير إلى الله؛ فإنها روحُ كل مقام ومنزلة وعمل، فإذا خلا منها فهو ميت لا روح فيه. ونسبتها إلى الأعمال كنسبة الإخلاص إليها، بل هي حقيقة الإخلاص، بل هي نفس الإسلام، فإنه الاستسلامُ بالذل والحب والطاعة لله، فمن لا محبةَ له لا إسلام له ألبتة، بل هي حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإن «الإله» هو الذي يألهه العباد حباً وذلاً، وخوفاً ورجاء، وتعظيماً وطاعة له، بمعنى «مألوه» وهو الذي تألهه القلوب، أي: تحبه، وتذلّ له.

وأصل «التأله»: التعبد. و«التعبد»: أخر مراتب الحب. يقال: عبّده الحب، وتيّمه: إذا ملكه، وذلّله لمحبوبه.

فـ«المحبة» حقيقة العبودية. وهل تمكن الإنابة بدون المحبة والرضا،

---

(١) رواه البخاري (٥٢٧) ومسلم (٨٥).

(٢) رواه البخاري (٢٦) ومسلم (٨٣).

(٣) رواه البخاري (٥٨٦١ و٦٤٦٥) ومسلم (٧٨٢).

(٤) رواه ابن حبان (٣٥٤) والبزار كما في كشف الأستار (٩٩٠) والطبراني في المعجم الكبير (١١٨٨٠).

والحمد والشكر، والخوف والرجاء؟ وهل الصبر في الحقيقة إلا صبر المحبين؟ فإنه إنما يتوكّل على المحبوب في حصول محابه ومراضيه.

وكذلك «الزهد» في الحقيقة: هو زهد المحبين، فإنهم يزهدون في محبة ما سوى محبوبهم لمحبته.

وكذلك «الحياء» في الحقيقة: إنما هو حياءُ المحبين، فإنه يتولد من بين الحب والتعظيم، وأما ما لا يكون عن محبة: فذلك خوفٌ محض.

وكذلك مقام «الفقر» فإنه في الحقيقة فَقْرُ الأرواح إلى محبوبها، وهو أعلى أنواع الفقر، فإنه لا فقرَ أتمّ من فقر القلب إلى من يحبه، لا سيما إذا وَحَّدَه في الحب، ولم يجدْ منه عوضاً سواه. هذا حقيقةُ الفقر عند العارفين.

وكذلك «الغِنى» هو غِنى القلب بحصول محبوبه. وكذلك «الشوق» إلى الله تعالى ولقائه، فإنه لبُّ المحبة وسرها.

فمنكِرُ هذه المسألة، ومُعطِّلها من القلوب: معطل لذلك كله، وحجابه أكثف الحجب، وقلبه أقسى القلوب، وأبعدها عن الله. و هو منكرٌ لخُلَّةِ إبراهيم عليه السلام؛ فإن «الخلة» كمال المحبة، وهو يتأول «الخليل» بالمحتاج، فخليلُ الله عنده: هو المحتاج. فكم ـ على قوله ـ لله من خليل من بَـرٍّ وفاجر، بل مؤمن وكافر. إذ كثيرٌ من الفجار والكفار من ينزلُ حوائجه كلها بالله صغيرها وكبيرها، ويرى نفسه أحوجَ شيء إلى ربه في كل حالة.

فـلا بـالخلـة أقـرَّ المنكـرون. ولا بـالعبـوديـة، ولا بتـوحيـد الإلٰهيـة، ولا بحقائق الإسلام والإيمان والإحسان؛ ولهذا ضَحَّى خالدُ بن عبد الله القَسْري[1] بمُقَدَّم هؤلاء وشيخهم جَعْدُ بن دِرْهم[2]، وقال في يوم عيد الله

(١) هو خالد بن عبد الله القَسْرِي، أبو الهيثم: أمير العراقين، وأحد خطباء العرب، وأجوادهم. توفي مقتولاً بيد يوسف بن عمر الثقفي سنة (١٢٦هـ). الأغاني (١٩/ ٥٣) وتهذيب ابن عساكر (٥/ ٦٧) والأعلام (٢/ ٢٩٧).

(٢) هو الجَعْد بن دِرْهَم: مبتدع، له أخبار في الزندقة. كان يقول بخلق القرآن، والقدر، =

الأكبر، عقيب خطبته: «أيها الناس، ضحّوا، تقبّل الله ضحاياكم، فإني مُضَحٍّ بالجعد بن درهم؛ فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلّم موسى تكليماً. تعالى الله عما يقول الجعد عُلوّاً كبيراً» ثم نزل فذبحه، فشكر المسلمون سعيه. ورحمه الله، وتقبّل منه.

مراتب المحبة:

أولها «العلاقة» وسُمِّيت علاقة لتعلق القلب بالمحبوب.

الثانية «الإرادة» وهي ميلُ القلب إلى محبوبه، وطلبه له.

الثالثة «الصبابة» وهي انصبابُ القلب إليه، بحيث لا يملكه صاحبه، كانصباب الماء في الحُدور. فاسم الصفة منها «صَبٌّ» والفعل صَبَا إليه يصبو، صَباً، وصبابة: فعاقبوا بين المضاعف والمعتل، وجعلوا الفعل من المعتل والصفة من المضاعف. ويقال: صَباً وصَبْوة، وصبابة. فالصّبا: أصل الميل. والصَّبْوَة: فوقه، والصبابة: الميل اللازم. وانصباب القلب بكليته.

الرابعة «الغرام» وهو الحبُّ اللازم للقلب؛ الذي لا يفارقه، بل يلازمه كملازمة الغريم لغريمه، ومنه سُمِّي عذاب النار غَراماً للزومه لأهله، وعدم مفارقته لهم. قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

الخامسة «الوداد» وهو صفة المحبة، وخالصها وَلُبُّهَا، و«الودود» من أسماء الرب تعالى. وفيه قولان:

أحدهما: أنه المودود. قال البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه[1]: «الودود: الحبيب».

= قُتِل نحو سنة (١١٨هـ). ميزان الاعتدال (١/ ١٨٥) ولسان الميزان (٢/ ١٠٥) والأعلام (٢/ ١٢٠).

(١) فتح الباري (٨/ ٦٩٨).

والثاني: أنه الوادُّ لعباده، أي: المحب لهم، وقرنه باسمه «الغفور» إعلاماً بأنـه يغفرُ الذنب، ويحبُّ التائب منه، وَيَـوَدُّه. فحـظُّ التائب: نيـلُ المغفرة منه.

وعلى القول الأول «الودود» في معنى يكون سرّ الاقتران، أي: اقتران «الودود بالغفور» استدعاء مودة العباد له، ومحبتهم إياه باسم «الغفور».

السادسة «الشغف» يقال: شُغِفَ بكذا. فهو مشغوفٌ به. وقد شَغَفَه المحبوب، أي: وصل حُبّهُ إلى شِغَاف قلبه، كما قال النسوة عن امرأة العزيز: ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [يوسف: ٣٠] وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الحبُّ المستولي على القلب، بحيث يحجبه عن غيره. قال الكلبي: حجبَ حُبُّه قلبها حتى لا تعقل سواه.

الثاني: الحب الواصل إلى داخل القلب. قال صاحب هذا القول: المعنى أحبته حتى دخل حُبُّهُ شِغَاف قلبها، أي: داخله.

الثالث: أنه الحبُّ الواصل إلى غشاء القلب. و«الشغاف» غشاءُ القلب إذا وصل الحب إليه باشر القلب. قال السّدي: الشغافُ: جلدةٌ رقيقةٌ على القلب. يقول: دخله الحب حتى أصاب القلب.

وقرأ بعضُ السلف (شَعَفَهَا) بالعين المهملة[1]. ومعناه: ذهب الحبُّ بها كلَّ مذهب، وبلغ بها أعلى مراتبه، ومنه: شَعَف الجبال؛ لرؤوسها.

السابعة «العشق» وهو الحبُّ المفرطُ الذي يخاف على صاحبه منه. وعليه تأول إبراهيم، ومحمد بن عبد الوهاب ﴿ وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال محمد: هو العشق.

---

(١) انظر هذه القراءة في إملاء ما منّ به الرحمن؛ للعكبري (٢/ ٩) والبحر المحيط (٥/ ٣٠١) وتفسير الطبري (١٢/ ١١٨) والكشاف للزمخشري (٢/ ٣١٦).

ورُفِع إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ شابٌّ وهو يعرفه ، وقد صار كالخِلال[1] ، فقال: ما به؟ قالوا: العشق. فجعل ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ عامة دعائه بعرفة : الاستعاذة من العشق.

وفي اشتقاقه قولان:

أحدهما: أنه من العَشَقَة ـ محركة ـ وهي نبتٌ أصفر يلتوي على الشجر ، فشبّه به العاشق.

والثاني: أنه من الإفراط.

وعلى القولين: فلا يُوصَفُ به الربُّ تبارك وتعالى ، ولا العبد في محبة ربه. وإن أطلقه سكران من المحبة قد أفناه الحب عن تمييزه ، كان في خفارة صدقه ومحبته.

الثامنة «التتيُّم» وهو التعبد ، والتذلل. يقال: تَيَّمَهُ الحبُّ ، أي: ذَلَّله ، وَعَبَّدَه. وتَـيْـمُ الله: عبد الله. وبينه وبين «اليتم» ـ الذي هو الانفراد ـ تـلاقٍ في الاشتقاق الأوسط ، وتناسبٌ في المعنى. فإن «المتيَّم» المنفرد بحبه وشَجْوه؛ كانفراد اليتيم بنفسه عن أبيه ، وكلٌّ منهما مكسور ذليل. هذا كسره يُتْم ، وهذا كسره تَتَيُّم.

التاسعة «التعبد» وهو فوق التتيم ، فإنَّ العبدَ هو الذي قد ملك المحبوبُ رِقَّه ، فلم يبقَ له شيءٌ من نفسه ألبتة ، بل كله عبدٌ لمحبوبه ظاهراً وباطناً ، وهذا هو حقيقةُ العبودية. ومَنْ كمل ذلك فقد كمل مرتبتها.

ولما كمل سيدُ ولد آدم هذه المرتبة ، وصفه الله بها في أشرف مقاماته ، مقام الإسراء ، كقوله: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] ومقام الدعوة؛ كقوله ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] ومقام التحدي كقوله:

(١) «الخِلال»: العود تُخلَّل به الأسنان.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] وبذلك استحقَّ التقديمَ على الخلائق في الدنيا و الآخرة.

وكذلك يقول المسيح عليه الصلاة والسلام لهم، إذا طلبوا منه الشفاعة - بعد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام -: «اذهبوا إلى محمد، عبدٍ غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر»(١).

سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدَّس الله روحه - يقول: فحصلت له تلك المرتبة؛ بتكميل عبوديته الله تعالى، وكمال مغفرة الله له.

وحقيقة العبودية: الحبُّ التام، مع الذل التام والخضوع للمحبوب. تقول العرب: «طريق معبد» أي: قد ذللته الأقدام، وسهَّلته.

العاشرة «مرتبة الْخَلة» التي انفرد بها الخليلان - إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم - كما صحَّ عنه أنه قال: «إن الله اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيمَ خليلاً»(٢).

وقال: «لو كنتُ متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الرحمن»(٣) والحديثان في الصحيح، وهما يبطلان قول من قال «الخلة» لإبراهيم، و«المحبة» لمحمد، فإبراهيم خليله، ومحمد حبيبه.

و«الْخَلَّة» هي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه، حتى لم يبقَ فيه موضع لغير المحبوب، كما قيل:

قد تخللت مسلكَ الروح مني ... ولذا سُمِّي الخليلُ خليلا

وهذا هو السرُّ الذي لأجله - والله أعلم - أُمِر الخليلُ بذبح ولده، وثمرة

---

(١) سبق تخريجه ص(١٤٩).
(٢) رواه الحاكم (٢/ ٥٥٠).
(٣) رواه البخاري (٦٧٣٨) ومسلم (٢٣٨٣).

فؤاده وفِلْذة كبده؛ لأنه لما سأل الولد فأعطيه ، تعلقتْ به شعبة من قلبه ، و«الخلة» منصب لا يقبل الشركة والقسمة ، فغار الخليل على خليله : أن يكون في قلبه موضعٌ لغيره ، فأمره بذبح الولد ، ليخرج المزاحم من قلبه ، فلما وَطَّن نفسه على ذلك ، وعزم عليه عزماً جازماً: حصل مقصود الأمر ، فلم يبقَ في إزهاق نفس الولد مصلحة ، فحال بينه وبينه ، وفداه بالذبح العظيم ، وقيل له : ﴿ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ ﴾ [الصافات : ١٠٤ ـ ١٠٥] أي : عملت عمل الصدق ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٥] نجزي من بادر إلى طاعتنا ، فنُـقِرُّ عينه كما أقرانا عينك بامتثال أوامرنا ، وإبقاء الولد وسلامته ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الصافات : ١٠٦] وهو اختبارُ المحبوب لمحبه ، وامتحانه إياه ليؤثر مرضاته ، فيتم عليه نعمه ، فهو بلاءُ محنة ومنحة عليه معاً.

وهذه الدعوةُ إنما دعا إليها بها خواص خلقه ، وأهل الألباب والبصائر منهم ، فما كلُّ أحد يجيب داعيها ، ولا كل عين قريرة بها ، وأهلها هم الذين حصلوا في وسط قبضة اليمين يوم القبضتين ، وسائر أهل اليمين في أطرافها .

فمـا كـلُّ عيـنٍ بـالحبيـبِ قـريـرةٌ ... ولا كلُّ مَنْ نُودي يجيبُ المناديا
ومَنْ لا يجبْ داعي هُداك؛ فَخَلِّه ... يُجِبْ كلَّ مَنْ أضحى إلى الغيّ داعيا
وقلْ للعيونِ الرمدِ: إياكِ أن تري ... سنا الشمس ، فاستغشي ظلامَ اللياليا
وسـامـحْ نفـوسـاً لـم يهبهـا لحبهـم ... ودَعْها وما اختارتْ ، ولا تَكُ جافيا
وقُلْ للذي قد غاب: يكفي عقوبةً ... مغيبُك ذا الشأن ، لو كنتَ واعيا
ووالله لـو أضحـى نصيبُـك وافـراً ... رحمـتَ عـدواً حـاسِـداً لـك قـاليـا
ألـم تَـرَ آثـارَ القطيعـةِ قـد بَـدَتْ ... على حاله؟! فارْحَمْهُ إن كنتَ رائيا
خفـافيـشُ أعشـاهـا النهـارُ بضـوئـه ... ولاءمهـا قِطْـعٌ مـن الليـلِ بـاديـا
فجالتْ وصالتْ فيه ، حتى إذا النَّهـ ... ـار بدا: استخفتْ ، وأعطتْ تواريا
فيا محنةَ الحسناءِ تُهدى إلى امرئٍ ... ضـريـرٍ وعِنِّيـنٍ مـن الـوَجْـدِ خـاليـا
إذا ظلمـةُ الليـلِ انجلـتْ بضيـائهـا ... يعـودُ لعينيـه ظـلامـاً كمـا هيـا
فضِنَّ بها ، إن كنتَ تعرفُ قَدْرَها ... إلـى أن تـرى كُفـؤاً أتـاكَ مـوافيـا

فما مَهْرُها شيءٌ سوى الرُّوح ، أيُّهاالـ ـجبانُ ، تأخَّرْ ، لستَ كفؤاً مساويا
فكنْ أبداً حيث استقلتْ ركائبُ الـ ـمحبة في ظهرِ العزائمِ ساريا
وأدلجْ ، ولا تَخْشَ الظلامَ ، فإنه سيكفيك وَجْهُ الحِبِّ في الليلِ هاديا
وسُقْها بذكراه مطاياك ، إنه سيكفي المطايا طيبُ ذِكْراه حاديا
وعِدْها بروح الوَصْلِ تعطيكَ سيرها فما شئتَ ، واستبقِ العظامَ البواليا
وأقدمْ ، فإمَّا مُنيةٌ ، أو مَنِيَّةٌ تُريحكَ مِنْ عيشٍ به لستَ راضيا
فما ثَمَّ إلا الوصل ، أو كَلَفٌ بهم وحَسْبُك فوزاً ذاك ، إنْ كنتَ واعيا
أما سئمتْ من عَيْشِها نفسُ والهٍ تبيتُ بنار البعدِ تلقى المكاويا
أما موتُه فيهم حياة؟ وذلُّه هو العِزُّ ، والتوفيقُ ما زال غاليا
أما يستحي مَنْ يَدَّعِي الحبَّ باخلاً بما لحبيبٍ عنه يدعوه: ذا ليا
أما تلك دعوى كاذبٍ ليس حظُّه من الحب إلا قوله والأمانيا؟
أما أنفسُ العشاقِ ملكٌ لغيرهم بإجماعِ أهلِ الحبِّ؟ ما زال فاشيا
أما سمع العشاق قولَ حبيبةٍ لصبٍّ بها وافى من الحبِّ شاكيا:
ولما شكوتُ الحب قالتْ: كذبتني فما لي أرى الأعضاءَ منكَ كواسيا؟
فلا حبّ حتى يلصقَ القلبُ بالحشا وتخرسَ ، حتى لا تجيبُ المناديا
وتنحلَ حتى لا يُبقي لك الهوى سِوى مُقْلةٍ تبكي بها وتُناجيا

المحبة بين الهمة والأنس:

قال صاحب المنازل رحمه الله: «المحبة: تعلق القلب بين الهمة والأنس».

يعني: تعلق القلب بالمحبوب تعلقاً مقترناً بهمة المحب ، وأنسه بالمحبوب ، في حالتي بذله ومنعه ، وإفراده بذلك التعلق؛ بحيث لا يكون لغيره فيه نصيب.

وإنما أشار إلى أنها «بين الهمة والأنس» لأن المحبة لما كانت هي نهاية شدة الطلب ، وكان المحبُّ شديدَ الرغبة والطلب ، كانت «الهمة» من مُقوّمات حبه ، وجملة صفاته. ولما كان الطلبُ بالهمة قد يَعْرَى عن الأنس ، وكان

المحب لا يكون إلا مستأنساً بجمال محبوبه ، وطمعه بالوصول إليه ، فمن هٰذين يتولَّد الأنس : وجب أن يكون المحب موصوفاً بالأنس ، فصارت المحبةُ قائمةً بين الهمة والأنس .

ويريد «بالبذل والمنع» أحد أمرين : إما بذل الروح والنفس لمحبوبه ، ومنعها عن غيره ، فيكون «البذل والمنع» صفة المحب ، وإما بذل الحبيب ومنعه ، فتتعلَّق همة المحب به في حالتي بذله ومنعه .

ويريدُ بالإفراد معنيين : إما إفراد المحبوب وتوحيده بذلك التعلق ، وإما فناؤه في محبته ، بحيث ينسى نفسه وصفاته في ذِكْر محاسن محبوبه ؛ حتى لا يبقى إلا المحبوب وحده .

والمقصودُ : إفرادُ المحب لمحبوبه بالتوحيد والمحبة . والله أعلم .

المحبة أول أودية الفناء :

قال : «والمحبة : أول أودية الفناء ، والعقبة التي ينحدر منها على منازل المحو ، وهي آخرُ منزلٍ تلتقي فيه مقدمة العامة ، وساقة الخاصة» .

إنما كانت «المحبة» أول أودية الفناء ؛ لأنها تفنى خواطر المحب عن التعلق بالغير ، وأول ما يفنى من المحب : خواطره المتعلقة بما سوى محبوبه ؛ لأنه إذا انجذب قلبُه بكليته إلى محبوبه انجذبتْ خواطره تبعاً .

ويريد بمنازل المحو : «مقاماته» .

وأولها : محو الأفعال في فعل الحق تعالى ، فلا يرى لنفسه ولا لغيره فعلاً .

والثاني : محو الصفات التي في العبد ، فيراها عاريةً أعيرها ، وهِبة وُهِبها ؛ ليستدلَّ بها على بارئه وفاطره ، وعلى وحدانيته وصفاته ، فيعلم بواسطة حياته : معنى حياة ربه ، وبواسطة علمه وقدرته وإرادته ، وسمعه وبصره ، وكلامه وغضبه ورضاه : معنى علم ربه ، وقدرته وإرادته ، وسمعه وبصره ، وكلامه ، وغضبه ورضاه . ولولا هذه الصفات فيه لما عرفها من ربه .

وهذا أحدُ التأويلات في الأثر الإسرائيلي: «اعرْف نفسك تعرفْ ربك».

وهذه الصِّفات في الحقيقة: أثر الصفات الإلٰهية فيه؛ فإنها أثرُ أفعال الحق، وأفعاله موجب صفاته وأسمائه، فإذاً عاد الأمرُ كله إلى أفعاله، وعادت أفعالُه إلى صفاته.

ففي هذه المنزلة يمحو العبدُ شهودَ صفاته ووجودها الذي ليس بحقيقي، ويثبت شهود صفات المعبود ووجودها الحقيقي، فاللهُ سبحانه مَنَحَ عبده هذه الصفات ليعرفه بها، ويستدلّ بها عليه، فإن لم يفعلها عطّل عليه طريق المعرفة، والاستدلال بها؛ فصارت بمنزلة العدم؛ ولهذا يُوصف الغافلُ عن الله بالصَّم والبكم والعمي والموت، وعدم العقل.

الثالث: محو الذات، وهو شهودُ تفرد الحق تعالى بالوجود أزلاً وأبداً، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء. ووجودُ كل ما سواه قائم به، وأثر صنعه، فوجوده هو الوجودُ الواجب الحق، الثابت لنفسه أزلاً وأبداً، وأنه المتفرد بذلك.

وهذا «المحو» يصحُّ باعتبارين:

أحدهما: اعتبار الوجود الذاتي، ولا ريب في إثبات محوه بهذا الاعتبار؛ إذ ليس مع الله موجود بذاته سواه، وكلُّ ما سواه فموجود بإيجاده سبحانه.

الاعتبار الثاني: المحو في المشهد، فلا يشهد فاعلاً غير الحق سبحانه، ولا صفات غير صفاته، ولا موجوداً سواه؛ لغيبته بكمال شهوده عن شهود غيره.

وأما محو ذلك من الوجود جملة: فهو محو الزنادقة وطائفة الاتحادية. وصاحبُ المنازل وكلُّ ولي الله بريء منهم حالاً وعقيدة.

والمقصود: أنَّ من عقبة المحبة ينحدرُ المحب على منازل المحو.

ولما كانت منازلُ المحو والفناء غاية عند صاحب المنازل؛ جعل المحبة عقبة ينحدرُ منها إليها.

وأما من جعل المحبة غاية: فمنازل المحو عنده أودية يصعدُ منها إلى روح المحبة، وليس بعد المحبة الصحيحة إلا منازل البقاء، وأما الفناء والمحو: فعقبات وأودية في طريقها عند هؤلاء. والله أعلم.

قوله: «وهي آخر منزلة تلتقي فيها مقدمةُ العامة وساقة الخاصة».

هذا بناء على الأصل الذي ذكره، وهو: أنَّ المحبة ينحدرُ منها على أودية الفناء، فهي أول أودية الفناء. فمقدمة العامة: هم في آخر مقام المحبة، وساقة الخاصة: في أول منزل الفناء. ومنزلةُ الفناء متصلة بآخر منزلة المحبة، فتلتقي حينئذ مقدمةُ العامة بساقه الخاصة. هذا شرحُ كلامه.

وعند الطائفة الأخرى: الأمر بالعكس، وهو أنَّ مقدمة أرباب الفناء يلتقون بساقة أرباب المحبة؛ فإنهم أمامهم في السير، وهم أمامُ الركب دائماً، وهذا بناء على أن أهل البقاء في المحبة أعلى شأناً من أهل الفناء. وهو الصواب. والله أعلم.

ما دون محبة الله أغراض لأعواض:

قال: «وما دونها: أغراض لأعواض».

يعني: ما دون المحبة من المقامات، فهي أغراض من المخلوقين لأجل أعواض ينالونها، وأما المحبون: فإنهم عبيد. والعبد ونفسه وعمله ومنافعه ملك لسيده، فكيف يعاوضه على ملكه؟! والأجير عند أخذ الأجرة ينصرف، والعبد في الباب لا ينصرف، فلا عبودية إلا عبودية أهل المحبة الخالصة، أولئك هم الفائزون بشرف الدنيا والآخرة، وأولئك لهم الأمن، وهم مهتدون[1].

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٨).

مقام الفناء في المحبة:

قال أبو العباس: «فعند القوم كلّ ما هو من العبد فهو علّة تليقُ بعجز العبد وفاقته، وإنّما عينُ الحقيقة عندهم أن يكونَ قائماً بإقامته له، محبّاً بمحبته له، ناظراً بنظره له من غير أن يبقى معه بقية تُناط باسم، أو تقف على رسم، أو تتعلّق بنظر، أو تنعت بنعت، أو تصف بوصف، أو تنسب إلى وقت، صم بكم عمي لدينا محضرون».

فيقال: هذا مقامُ الفناءِ الذي يشيرُ إليه كثيرٌ من المتأخِّرين، ويجعلونه غاية الغايات ونهاية النهايات، وكلّ ما دونه فمرقاة إليه وعيلة عليه. ولهذا كانتِ المحبَّةُ عندهم آخر منازل الطريق، وأوّل أودية الفناءِ، والعقبة التي ينحدرُ منها على منازل المحو، وهي آخرُ منزلٍ يلقى فيه مقدمة العامة ساقة الخاصة، وما دونها إعراض الإعراض. فجعلوا المحبّة منزلاً من المنازل ليست غاية، وجعلوها أول الأودية التي سلك فيها أصحابُ الفناءِ، فهي أوَّلُ أوديتهم والعقبة التي ينحدرون منها إلى منازل الفناءِ والمحو؛ فليست هي الغاية عندهم، وأصحابها عندهم مقدمة العامة، وساقة أصحاب الفناءِ عندهم مقدمون عليهم، سابقون لهم؛ فإنهم ساقة الخاصة وهؤلاءِ مقدمة العامة، فهذه كلّه بناءً على أنَّ الفناءَ هو الغايةُ التي لا غايةَ للعبد وراءَها، ولا كمال له يطلبه فوقها. وقد تبيّن ما في ذلك وما هو الصواب بحمد الله.

فقوله ـ رحمه الله ـ: «كل ما هو من العبد فهو علّة تليقُ بعجز العبد وفاقته». يُقال له: إذا كان إنما منّته العبودية التي يحبّها الله كسباً ومباشرة فهو قائم بها، شاهد لمقيمه فيها، مطالع لمنته وفضله، فأيّ علّة هنا سوى وقوفه مع شهودها منه، وغيبته عن شهود إقامة الله وتحريكه إياه وتوفيقه له؟ فالعلَّةُ هي بهذا الشهود وهذه الغيبة المنافية لكمال الافتقار والفاقة إلى الله، وأما شهود فقره وفاقته ومجموع حالاته وحركاته وسكناته إلى وليّه وبارئه؛ مستعيناً به أن يقيمَه في عبوديّة خالصةٍ له، فلا علّة هناك.

قوله: «وإنما عينُ الحقيقة أن يكونَ قائماً بإقامته له» إلى آخر كلامه، يُقال:

إن أردت أنه يشهد إقامة الله له حتى قام ، ومحبته له حتى أحبه ، ونظره إلى عبده حتى أقبل عبده عليه ناظراً إليه بقلبه؛ فهذا حقّ ، فإن ما مِن الله سَبَقَ ما مِنْ العبد ، فهو الذي أحبَّ عَبْدَه أوّلاً فأحبه العبد ، وأقام العبد في طاعته فقام بإقامته ، ونظر إليه فأقبل العبد عليه ، وتاب إليه أولاً فتاب إليه العبد.

وإن أردت أنه لا يشهد فعله البتة بل يفنى عنه جملةً ، ويشهد أنَّ الله وحده هو الذَّاكِرُ لنفسه ، الموحِّد لنفسه ، المحبّ لنفسه ، وأن هذه الأسباب والرسوم تصيرُ عدماً في شهوده وإن لم تَفْنَ وتعدم في الخارج - وهذا هو مرادُ القوم - فدعوى أن هذا هو الكمال الذي لا كمال فوقه ولا عائد وراءه دعوى مجرّدة لا يستدلُّ عليها مدعيها بأكثر من الذوق والوجد ، وقد تقدَّم أن هذا ليس بغاية ، وإنما غايتُه أن يكونَ من عوارض الطَّريق ، وأن شهود الأشياء في مراتبها ومنازلها التي أنزلها اللهُ سبحانه إيّاها أكمل وأتمّ.

ويكفي في بعض هذا الاحتجاج عليه بصفات الكفار ، فإنَّ الله ذمَّهم بأنهم صُمّ بُكم عمي ، فهذه صفاتُ نقص وذمّ لا صفات كمال ومدحة ، وهل الكمالُ إلاَّ في حضور السمع والبصر والعقل ، وكمال التمييز ، وتنزيل الخلق والأمر منازلهما ، والتفريق بين ما فرّق الله بينه؟ فالأمر كله فرقان وتمييز وتبيين ، فكلما كان تمييزُ العبد وفرقانه أتمّ؛ كان حاله أكمل ، وسيره أصحّ ، وطريقه أقوم وأقرب. والحمد لله رب العالمين[1].

* * *

---

(١) طريق الهجرتين (٥٨٧).

الفصل الثالث
الأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها

الأسباب الجالبة للمحبة:

الأسباب الجالبة للمحبة، والموجبة لها عشرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به؛ كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه؛ ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فإنها تُوصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كلِّ حال: باللسان والقلب، والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابِّه على محابك عند غلبات الهوى، والتَّسنُّم إلى محابه، وإن صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلّبه في رياض هذه المعرفة ومبادئها، فمن عَرَفَ الله بأسمائه وصفاته وأفعاله: أحبّه لا محالة؛ ولهذه كانت المعطّلة والفرعونية والجهمية قطّاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

السادس: مشاهدة بِرّه وإحسانه وآلائه، ونِعَمه الباطنة والظاهرة؛ فإنها داعيةٌ إلى محبته.

السابع: ـ وهو من أعجبها ـ: انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي؛ لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم خَتْم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقي أطايب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجَّحت مصلحة الكلام، وعلمتَ أن فيه مزيداً لحالك، ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدةُ كل سبب يحولُ بين القلب وبين الله عز وجل.

فمن هذه الأسباب العشرة وَصَل المحبُّون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب. ومِلاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة. وبالله التوفيق[١].

منشأ المحبة:

قال: «وهي محبةٌ تنبتُ من مطالعة المنة، وتثبت باتباع السنة، وتنمو على الإجابة بالفاقة».

قوله: «تنبتُ من مطالعة المنة» أي: تنشأ من مطالعة العبد مِنَّة الله عليه، ونِعمه الباطنة والظاهرة، فبقدر مطالعته ذلك تكون قوة المحبة، فإن القلوبَ مجبولةٌ على حبِّ مَنْ أحسن إليها، وبُغْض مَنْ أساء إليها. وليس للعبد قطُّ إحسان إلا من الله، ولا إساءة إلا من الشيطان.

ومِنْ أعظم مطالعة مِنَّة الله على عبده: تأهيله لمحبته ومعرفته، وإرادة وجهه، ومتابعة حبيبه. وأصل هذا: نورٌ يقذفه الله في قلب العبد، فإذا دار ذلك النور في قلب العبد وذاته: أشرقت ذاته؛ فرأى فيه نفسه، وما أُهِّلَتْ له من الكمالات والمحاسن. فعَلَتْ به همته، وقويت عزيمته، وانقشعت عنه

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ١٧).

ظلمات نفسه وطبعه؛ لأنَّ النورَ والظلمةَ لا يجتمعان إلا ويطرد أحدُهما صاحبه ، فرقيت الروح حينئذ بين الهيبة والأنس إلى الحبيب الأول .

وهذا النورُ كالشمس في قلوب المقرَّبين السابقين ، وكالبدر في قلوب الأبرار أصحاب اليمين ، وكالنَّجم في قلوب عامة المؤمنين ، وتفاوتهم فيه كتفاوت ما بين الزهرة والسُّهَا[1] .

قوله : «وتثبت باتباع السنة» أي : ثباتها إنما يكونُ بمتابعة الرسول ﷺ في أعماله ، وأقواله ، وأخلاقه . فبحسب هذا الاتباع يكونُ منشأ هذه المحبة وثباتها وقوتها ، وبحسب نقصانه يكون نقصانها ، كما تقدم : أنَّ هذا الاتباع يوجِبُ المحبة والمحبوبية معاً . ولا يتم الأمر إلا بهما . فليس الشأن في أن تحب الله ، بل الشأن في أن يحبك الله . ولا يحبك الله إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهراً وباطناً ، وصدقتَهُ خَبَراً ، وأطعته أمراً ، وأجبته دعوة ، وآثرته طوعاً . وفنيت عن حكم غيره بحكمه ، وعن محبة غيره من الخلق بمحبته ، وعن طاعة غيره بطاعته . وإن لم يكن ذلك فلا تتعنّ ، وارجعْ من حيث شئت فالتمس نوراً ، فلست على شيء .

وتأمل قوله : ﴿ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] أي : الشأن في أنَّ الله يحبكم ، لا في أنكم تحبونه ، وهذا لا تنالوه إلا باتباع الحبيبِ ﷺ .

قوله : «وتنمو على الإجابة بالفاقة» الإجابة بالفاقة : أن يجيبَ الداعي بموفور الأعمال ، وهو خالٍ منها ، كأنه لم يعملها ، بل يجيبُ دعوته بمجرد الإفلاس والفقر التام ، فإنَّ طريقة الفقر والفاقة : تأبى أن يكونَ لصاحبها عمل ، أو حال أو مقام ، وإنما يدخلُ على ربّه بالإفلاس المحض ، والفاقة المجردة . ولا ريبَ أن المحبة تنمو على هذا المشهد ، وهذه الإجابة . وما أعزَّه من مقام ، وأعلاه من مشهد! وما أنفعه للعبد! وما أجلبه للمحبة! والله المستعان .

---

(١) «السُّها» : نجمٌ خَفِيُّ الضوء مُلاصِقٌ للنجم الأوسط من الذَّيل في بنات نعش الكبرى .

قال: «الدرجة الثانية: محبة تبعثُ على إيثار الحق على غيره، وتُلْهِج اللسان بذكره، وتُعَلِّق القلبَ بشهوده، وهي محبةٌ تظهرُ من مطالعة الصفات، والنظر إلى الآيات، والارتياض بالمقامات».

هذه الدرجةُ أعلى مما قبلها، باعتبار سببها وغايتها، فإن سبب الأولى: مطالعة الإحسان والمنَّة. وسببُ هذه: مطالعة الصفات، وشهود معاني آياته المسموعة، والنظر إلى آياته المشهودة. وحصول الملكة في مقامات السلوك، وهو الارتياض بالمقامات؛ ولذلك كانت غايتها أعلى من غاية ما قبلها.

فقوله: «تبعث على إيثار الحق على غيره» أي: لكمالها وقوتها، فإنها تقتضي من المحبِّ أن يتركَ لأجل الحق ما سواه، فيؤثره على غيره، ولا يؤثر غيره عليه، ويجعل اللسان لَهِجاً بذكره، فإنَّ مَنْ أحبَّ شيئاً أكثر من ذكره.

«وتعلّق القلب بشهوده» لفرط استيلائه على القلب، وتعلقه به، حتى كأنه لا يشاهد غيره.

وقوله: «وهي محبة تظهر من مطالعة الصفات» يعني: إثباتها أولاً، ومعرفتها ثانياً، ونفي التحريف والتعطيل عن نصوصها ثالثاً، ونفي التمثيل والتكييف عن معانيها. رابعاً: فلا يصحُّ له مطالعة الصفات الباعثة على المحبة الصحيحة إلا بهذه الأمور الأربعة، وكلما أكثر قلبه من مطالعتها، ومعرفة معانيها: ازدادتْ محبته للموصوف بها؛ ولذلك كانت الجهميةُ ـ قطاعُ طريق المحبة ـ بين المحبين وبينهم السيف الأحمر.

وقوله: «والنظر إلى الآيات» أي: نظر الفكر والاعتبار إلى آياته المشهودة، وفي آياته المسموعة، وكلٌّ منهما داعٍ قويّ إلى محبته سبحانه؛ لأنها أدلة على صفات كماله، ونعوت جلاله، وتوحيد ربوبيته وإلهيته، وعلى حكمته وبرّه، وإحسانه ولطفه، وجوده وكرمه، وسعة رحمته، وسبوغ نعمته، فإدامة النظر فيها داعٍ ـ لا محالة ـ إلى محبته، وكذلك الارتياضُ بالمقامات، فإن من كانت

له رياضةٌ وملكة في مقامات الإسلام والإيمان والإحسان: كانت محبته أقوى؛ لأنَّ محبةَ الله له أتم ، وإذا أحبَّ الله عبداً أنشأ في قلبه محبته.

قال: «الدرجة الثالثة: محبة خاطفة ، تقطع العبارة ، وتدفع الإشارة ، ولا تنتهي بالنعوت».

يعني: أنها تخطفُ قلوب المحبين؛ لما يبدو لهم من جمال محبوبهم ، ويشير الشيخُ بذلك إلى الفناء في المحبة والشهود. وإن العبارةَ تنقطعُ دون حقيقة تلك المحبة ، ولا تبلغها ، ولا تصلُ إليها الإشارة؛ فإنها فوق العبارة والإشارة.

وحقيقتُها عندهم: فناء الحدوث في القدم ، واضمحلال الرسول في نور الحقيقة التي تظهرُ لقلوب المحبين ، فتملك عليها العبارة والإشارة والصفة ، فلا يقدر المحبُّ أن يعبرَ عما يجده؛ لأن واردها قد خطف فهمه ، والعبارة تابعة للفهم ، فلا يقدر المحبُّ أن يشيرَ إليه إشارة تامة.

و «العبارة» عندهم: تحت «الإشارة» وأبعد منها؛ ولذلك جعل حظها القطع ، وحظ الإشارة الدفع؛ فإنَّ مقامَ المحبة يقبلُ العبارة ، وهذه الدرجة الثالثة لا تقبلُ إشارةً ما ، ولا تقبل عبارة.

وعندهم: إنما تمنع العبارة والإشارة في مقام التوحيد ، حيث لا يبقى للمحبة رسمٌ ، ولا اسمٌ ، ولا إشارةٌ ، وهو الغايةُ عندهم.

والصوابُ: أنَّ توحيدَ المحبة أكملُ من هذا التوحيد الذي يشيرون إليه ، وأعلى مقاماً ، وأجلُّ مشهداً ، وهو مقامُ الرسل والأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وخواصُّ المقربين.

وأما توحيدُ الفناء: فدونه بكثير ، وليس ذلك من مقامات الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإن توحيدهم توحيد بقاء ومحبة ، لا توحيد فناء وغيبة ، وسكر واصطلام.

ولما كان المحبُّ عند أرباب الفناء ، لم يخلص إلى مقام توحيد الفناء بالكلية ، بل رسومُ المحبة معه بعد ، جعلوا «المحبة» هي العقبة التي ينحدرُ منها إلى أودية الفناء .

والصوابُ الذي لا ريبَ فيه؛ عند أرباب التحقيق والبصائر: أن لسان «المحبة» أتمّ ، ومقامها أكمل ، وحالها أشرف ، وصاحبها من أهل الصَّحو بعد السكر ، والتمكين بعد التلوين ، والبقاء بعد الفناء ، ولسانه نائب عن كلِّ لسان ، وبيانه وافٍ بكل ذوق ، ومقامه أعلى من كلِّ مقام ، فهو أمينٌ على كل مَنْ دونه من أرباب المقامات؛ لأن مقامه أمير على المقامات كلها .

أميـــن أميـــن عليـــه النَّـــدى جـــوادٌ بخيـــل بـــألاَّ يجـــودا

وأما كونُ نعوت المحبة لا تتناهى؛ فلأن لها في كلِّ مقام نسبة وتعلقاً به ، وهي روحُ كل مقام ، والحاملة له ، وأقدامُ السالكين إنما تتحرك بها ، فلها تعلُّقٌ بكلِّ قدم ، وحال ومقام ، فلا تتناهى نعوتها ألبتة . والله أعلم .

قوله : «وهذه المحبة : هي قطب هذا الشان . وما دونها محابٌّ ، نادتْ عليها الألسنُ ، وادَّعتها الخليقة ، وأوجبتها العقول» .

يريد : أنَّ مدار شأن السالكين المسافرين إلى الله : على هذه المحبة الثالثة ، وإنما كان ذلك لخلوصها من الشَّوائب والعلل والأغراض ، وصاحبها مراد ، ومجذوب ومطلوب ، وما دونها من المحابّ : فصاحبها باقٍ مع إرادته من محبوبه . أما محبةُ الإحسان والأفعال : فظاهر .

وأما محبةُ الصِّفات : فصاحبها مع لذة روحه ونعيم قلبه بمطالعة الصفات ، فإن لذَّة الأرواح والعقول لا محالةَ في مطالعة صفات الكمال ، ونعمة الجمال .

وصاحبُ هذه المحبة الثالثة : قد ارتقى عن هاتين الدرجتين ، وأُخِذ منه ، وغُيِّبَ عنه . وهذا مبنيٌّ على أصله في كون الفناء غاية . وقد عرفته .

وقوله: «ونادتْ عليها الألسن» أي: وصفتها الألسن، فأكثرت صفاتها، وتمكَّنت من التعبير عنها.

و«ادَّعتها الخليقة» بخلاف الدرجة الثالثة، فإنه لا وصولَ لأحدٍ إليها إلا بالحق تعالى، فهي غيرُ كسبية، ولا تُنال بسبب، فلا يمكن فيها الدعوى؛ فإنَّ شأنها أجلُّ من ذلك.

قوله: «وأوجبتها العقول» يريد: أن العقل يحكم بوجوبها، وهو كما قال؛ فإن العقولَ تحكم بوجوب تقديم محبة الله على محبة النفس والأهل والمال والولد، وكلِّ ما سواه. وكلُّ من لم يحكم عَقْله بهذا: فلا تعبأ بعقله؛ فإن العقل والفطرة والشّرعة والاعتبار والنظر، تدعو كلُّها إلى محبته سبحانه، بل إلى توحيده في المحبة، وإنما جاءتِ الرسُل بتقرير ما في الفطر والعقول، كما قيل:

هب الرسلَ لم تأتِ من عنده	ولا أخبرتْ عن جمالِ الحبيب
أليس من الواجبِ المستحـ	ـقِّ محبته في اللقا والمغيب؟
فمن لم يكنْ عقلُه آمراً	بذا، ماله في الحِجَى من نصيب
وإنَّ العقولَ لتدعو إلى	محبة فاطِرها من قريب
أليستْ على ذاك مجبولة	ومفطورة لا بكسبٍ غريب
أليس الجمالُ حبيبَ القلوب	لذاتِ الجمال، وذاتِ القلوب؟
أليس جميلاً يحبّ الجمال؟	تعالى إله الورى عن نسيب
أما بعد ذلك إحسانه	بداعٍ إليه لقلبِ المنيب؟
أليس إذا كملا أوجبا	كمالَ المحبَّة للمستجيب؟
فمن ذا يشابه أوصافه؟	تعالى إلٰه الورى عن ضَريب
ومَنْ ذا يُكافئ إحسانه؟	فيألهه قلبُ عبدٍ منيب؟
وهذا دليلٌ على أنه	إلى كلِّ ذي الخلقِ أولى حبيب
فيا منكراً ذاك والله أنتَ	عين الطريد وعين الحريب

ويا مَنْ يحبُّ سواه كمثل محبته أنت عبد الصليب
ويا مَنْ يُوَحِّدُ محبوبه ويرضيه في مشهدٍ، أو مغيب
ولو سخط الخلقُ في وجهه لقالِ هواناً، ولو بالنسيب
حظيت وخابوا فلا تبتئسْ بكيدِ العدوِّ وَهَجْرِ الرقيب[1]

دواعي المحبة ومتعلّقها:

الداعي قد يُراد به الشعورُ الذي تتبَعُه الإرادةُ والميل، فذلك قائمٌ بالمحبّ، وقد يُراد به السببُ الذي لأجله وُجدت المحبَّةُ وتعلّقت به، وذلك قائمٌ بالمحبوب، ونحن نُريد بالداعي مجموعَ الأمرين، وهو ما قامَ بالمحبوب من الصفات التي تدعو إلى محبَّته، وما قام بالمحبِّ من الشعور بها، والموافقَةَ التي بين المحبِّ والمحبوب، وهي الرابطة بينهما، وتُسمَّى بين المخلوق وَالمخلوق مناسبةً وملاءَمةً.

فها هنا ثلاثة أُمور: وصفُ المحبوب وجمالُه، وشعورُ المحبِّ به، والمناسبةُ وهي العلاقة والملاءمة التي بين المحبِّ والمحبوب، فمتى قَوِيتِ الثلاثة وكَمُلَت، قوِيت المحبَّة واستحكمت، ونقصانُ المحبَّة وضعفُها بحسب ضعفِ هذه الثلاثة أو نَقْصِها، فمتى كان المحبوبُ في غاية الجمال، وشعورُ المحبِّ بجماله أتمَّ شُعور، والمناسبةُ التي بين الرُّوحين قوية، فذلك الحبُّ اللازم الدائم، وقد يكون الجمالُ في نفسه ناقصاً، لكن هو في عين المحبِّ كامل، فتكون قوّة محبته بحسب ذلك الجمال عنده، فإن حُبَّكَ للشيء يُعمي ويُصِمّ، فلا يرى المحبُّ أحداً أحسنَ من محبوبه، كما يُحْكى أنَّ عَزَّة[2]

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٦).
(٢) هي عَزَّة بنت جميل الغفارية: صاحبة الأخبار مع كُثير الشاعر. كانت غزيرةَ الأدب، رقيقة الحديث، مِنْ أهل المدينة. توفيت بمصر سنة (٨٥هـ). سمط اللآلي (٦٩٨) والأعلام (٤/ ٢٢٩).

دخلت على الحجّاج[١] فقال لها: يا عَزَّةُ! والله ما أنتِ كما قال فيك كُثَيِّر، فقالت: أيُّها الأمير إنه لم يَرَني بالعين التي رأيتَني بها. ولا ريبَ أن المحبوبَ أحلى في عين مُحبِّه وأكبرُ من صدره من غيره، وقد أفصحَ بهذا القائلُ في قوله[٢]:

فـواللهِ مـا أدري أزِيـدَتْ مـلاحـةً ... وحُسْناً على النِّسوان أم ليس لي عَقْلُ[٣]

وقد يكون الجمالُ مُوَفَّراً لكنه ناقصُ الشعور به فتَضْعفُ محبتُه لذلك، فلو كُشفَ له عن حقيقته لأسر قلبَه، ولهذا أُمِرَ النساءُ بسَتْر وجوههن عن الرجال، فإنَّ ظهورَ الوجه يُسْفِرُ عن كمال المحاسن فيقع الافتتان، ولهذا شُرع للخاطب أن ينظرَ إلى المخطوبة، فإنه إذا شاهدَ حسنَها وجمالَها كان ذلك أدعى إلى حصول المحبَّة والأُلفة بينهما، كما أشار إليه النبي ﷺ في قوله: «إذا أَرَادَ أَحَدُكُم خِطْبَةَ امْرَأَةٍ فَلْيَنْظُرْ إلى مَا يَدْعُوهُ إلى نِكَاحِهَا فَإِنّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَهُمَا»[٤] أي: يُلأَمَ ويُوافقَ ويُصْلحَ. ومنه الإدام الذي يَصْلُح به الخبز، وإذا وُجِد ذلك كلُّه وانْتَفَتِ المناسبة والعَلاقة التي بينهما لم تَسْتَحكم المحبَّة؛ وربما لم تقع البتةَ، فإن التناسبَ الذي بين الأرواح من أقوى أسباب المحبَّة.

فكلُّ امرىءٍ يَصبُو إلى مَنْ يُناسبُه[٥]

وهذه المناسبة نوعان: أصليةٌ من أصل الخِلْقة، وعارضةٌ بسبب المجاورة

---

(١) هو الحجّاجُ بن يوسف الثقفي، أبو محمد: قائد، داهية، سفَّاك، خطيب. وأخباره كثيرة. توفي سنة (٩٥هـ). وفيات الأعيان (١/ ١٢٣) وتهذيب التهذيب (٢/ ٢١٠) والأعلام (٢/ ١٦٨).

(٢) هو الحكم بن معمر بن قنبر الخُضْري: شاعر، من خُضْر مُحارب. كان معاصراً لابن ميَّادة، وعدَّه الأصمعي من طبقته. توفي نحو سنة (١٥٠هـ). سمط اللآلي (١٦) والأصمعيات (٢٢) والأعلام (٢/ ٢٦٧).

(٣) «ملاحة»: حسناً وجمالاً.

(٤) رواه أبو داود (٢٠٨٢) من حديث جابر بن عبد الله، والترمذي (١٠٨٧) والنسائي (٦/ ٦٩ ـ ٧٠) من حديث المغيرة بن شعبة.

(٥) «يصبو»: يميل ويحنّ ويتشوّق.

أو الاشتراك في أمرٍ من الأمور ، فإن من ناسبَ قصدُك قصدَه حصلَ التوافُقُ بين رُوحك ورُوحه ، فإذا اختلف القصدُ زالَ التوافُق ، فأما التناسُب الأصلي فهو اتفاق أخلاق ، وتشاكُل أرواح ، وشوق كلّ نفس إلى مُشاكلها ، فإنَّ شبهَ الشيء ينجذبُ إليه بالطبع ، فتكون الروحان متشاكلتين في أصل الخِلقة ، فتنجذب كلٌّ منهما إلى الأُخرى بالطبع ، وقد يقعُ الانجذاب والميلُ بالخاصِّيَّةِ ، وهذا لا يعلَّل ولا يُعرف سببُه ، كانجذاب الحديد إلى الحجر الْمِغْنَاطيس. ولا ريبَ أن وقوعَ هذا القَدْر بين الأرواح أعظم من وقوعه بين الجمادات ، كما قيل:

محاسنُها هَيُولى كلِّ حسنٍ ومِغْنَاطِيسُ أَفْئِدَةِ الرِّجالِ[1]

وهذا الذي حَمَلَ بعضَ الناس على أن قال: إنَّ العشقَ لا يقفُ على الحُسْن والجمال ، ولا يلزمَ من عَدَمِه عَدَمُه ، وإنما هو تشاكُل النفوسِ وتمازُجُها في الطباع المخلوقة ، كما قيل:

وما الْحُبُّ من حُسْنٍ ولا من مَلاحةٍ ولكنَّه شيءٌ به الرُّوحُ تَكْلَفُ

قال هذا القائل: فحقيقتُه أنه مِرْآة يُبصرُ فيها المحبُّ طباعَهَ وَرِقَّته في صورة محبوبه ، ففي الحقيقة لم يحبَّ إلا نفسَه وطباعَه ومشاكِلَه.

قال بعضُهم لمحبوبه: صادفتُ فيك جوهرَ نفسي ومُشَاكِلَتَها في كلِّ أحوالها ، فانبعثتْ نفسي نحوَك وانقادتْ إليك ، وإنما هَويتُ نفسي. وهذا صحيح من وجه ، فإن المناسبة عِلَّةُ الضَّمِّ شَرْعاً وقَدَراً ، وشاهِدُ هذا بالاعتبار أن أحبَّ الأغذية إلى الحيوان ما كان أشْبَهَ بجوهر بدنه وأكثرَه مناسبةً له ، وكلَّما قويت المناسبة بين الغاذي والغذاء كان ميلُ النفس إليه أكثر ، وكلَّما بعدت المناسبة حصلت النُّفْرَةُ عنه ، ولا ريبَ أن هذ قَدْرٌ زائدٌ على مجرَّد الحسن

---

(١) هَيُولى: مادة الشيء التي يُصنع منها. وهي عند القدماء: مادة ليس لها شكل ولا صورة معينة ، قابلة للتشكيل والتصوير في شتى الصور. وهي التي صنع الله تعالى منها أجزاء العالم المادية.

والجمال ، ولهذا كانت النفوسُ الشريفة الزكيةُ العُلْوية تعشقُ صفاتِ الكمال بالذات ، فأحبُّ شيء إليها العلمُ والشجاعة والعِفَّةُ والجودُ والإحسانُ والصبرُ والثباتُ ، لمناسبة هذه الأوصاف لجوهرها ، بخلافِ النفوس اللئيمةِ الدنيَّة فإنَّها بِمَعْزِلٍ عن محبَّة هذه الصفات ، وكثيرٌ من الناس يحملُه على الجود والإحسان فرطُ عشقه ومحبَّتِه له واللَّذَّة التي يجدُها في بذله ، كما قال المأمون: لقد حُبِّبَ إليَّ العفُو حتى خشيتُ ألاَّ أُوْجَر عليه. وقيل للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: تعلَّمتَ هذا العلمَ لله؟ فقال: أمَّا لله فعزيز ، ولكنْ شيءٌ حُبِّبَ إليَّ ففعلتُه. وقال آخر: إني لأفرحُ بالعطاءِ وألْتَذُّ به أكثر ، وأعظم مما يفرحُ الآخذ بما يأخذه مني. وفي هذا قيل في مدح بعض الكرَماء:

وتأخذُه عندَ المَكارمِ هِزَّةٌ ... كما اهْتَزَّ عندَ البَارحِ الغُصُنُ الرَّطْبُ[1]

قال شاعرُ الحماسة:

تراهُ إذا ما جئتَه مُتَهَلِّلاً ... كأنَّك تُعطيه الذي أنتَ سائلُه[2]

وكثيرٌ من الأجواد يعشقُ الجودَ أعظمَ عِشق ، فلا يصبرُ عنه مع حاجته إلى ما يجودُ به ، ولا يقبلُ فيه عَذْلَ عاذلٍ ، ولا تأخذُه فيه لومةُ لائم ، وأما عشَّاق العلم فأعظمُ شَغَفاً به وعشقاً له من كل عاشقٍ بمعشوقه ، وكثيرٌ منهم لا يَشْغَلُهُ عنه أجملُ صورة من البشر. وقيل لامرأةِ الزُّبَيْرِ بن بكَّار ـ أو غيره ـ: هنيئاً لكِ إذ ليست لك ضَرَّة ، فقالت: والله لهذه الكتبُ أضرُّ عليَّ من عِدَّة ضرائرَ. وحدثني أخو شيخنا عبد الرحمن بن تيمية عن أبيه ، قال: كان الْجَدُّ إذا دخلَ الخلاءَ يقول لي: اقرأْ في هذا الكتاب وارفعْ صوتَك حتى أسمع. وأعرف من أصابه مرضٌ من صُداعٍ وحُمَّى وكان الكتابُ عند رأسه ، فإذا وَجَد إفاقةً قرأ فيه ، فإذا غُلب وضعَه ، فدخلَ عليه الطبيبُ يوماً وهو كذلك ، فقال: إن هذا

---

(١) «البارح»: الريح الحارة في الصيف.

(٢) البيت لزهير بن أبي سُلْمى ، وهو في ديوانه (١٤٢).
«متهللاً»: مستبشراً.

لا يَحِلّ لك فإنك تُعينُ على نفسك وتكونُ سبباً لفوات مطلوبك. وحدَّثني شيخنا قال: ابتدأني مرضٌ، فقال لي الطبيب: إنَّ مطالعتَك وكلامَك في العلم يزيدُ المرضَ، فقلت له: لا أصبرُ على ذلك وأنا أُحاكمُك إلى علمك، أليستِ النفسُ إذا فرحت وسُرّت قَوِيت الطبيعةُ فدفعتِ المرضَ؟ فقال: بلى، فقلت له: فإن نفسي تُسَرُّ بالعلم فتقوى به الطبيعة فأجدُ راحة، فقال: هذا خارجٌ عن علاجنا، أو كما قال.

فعشقُ صفاتِ الكمال من أنفع العشق وأعلاه، وإنما يكونُ بالمناسبة التي بينَ الرُّوح وتلك الصفاتِ، ولهذا كان أعلى الأرواح وأشرفُها معشوقاً، كما قيل:

أنـت القتيـلُ بكـلِّ مـن أَحْبَبْتَـه   فاخْتَرْ لنفسِكَ في الهوى مَن تَصْطفي

فإذا كانت المحبّةُ بالمشاكلة والمناسبة ثبتت وتمكَّنت، ولم يُزِلْها إلا مانعٌ أقوى من السبب، وإذا لم تكن بالمشاكلة فإنما هي محبةٌ لغرضٍ من الأغراض تزولُ عند انقضائه وتضمحِلّ، فمن أحبّكَ لأمرٍ ولَّى عند انقضائه، فداعي المحبّة وباعُها إن كان غَرَضاً للمحبِّ لم يكن لمحبَّته بقاءٌ، وإن كان أمراً قائماً بالمحبوب سريعَ الزوال والانتقال زالت محبَّتُه بزواله، وإن كان صفةً لازمةً فمحبَّتُه باقيةٌ ببقاء داعثها ما لم يُعارضْه معارضٌ يُوجب زوالَها، وهو إما تغيُّرُ حالٍ في المُحبِّ، أو أذًى من المحبوب، فإن الأذى إما أن يُضْعِفَ المحبَّةَ أو يزيلَها.

قال الشاعر:

خذي العفوَ مني تستديمي مَوَدَّتي   ولا تَنْطِقي في سَوْرتي حين أغضَبُ
فإني رأيتُ الحبَّ في القلبِ والأَذى   إذا اجتمعَا لم يَلْبثِ الحُبُّ يذهبُ

وهذا موضعٌ انقسمَ المحبُّون فيه قسمين: ففرقةٌ قالت: ليس بحبٍّ صحيح ما يزيله الأذى، بل علامَةُ الحبِّ الصحيح أنه لا ينقص بالجفوة ولا يذهبه

أذى. قالوا: بل المحب يلتذّ بأذى محبوبه له، كما قال أبو الشِّيص[1]:

وقفَ الهوى بي حيث أنتِ فليس لي ... مُتَـأَخَّـرٌ عنـه ولا مُتَقَـدَّمُ
وَأَهَنْتِنـي فـأَهنـتُ نفسـيَ جـاهِـداً ... مـا مَـنْ يهـونُ عليـكِ مِمَّـن يُكـرَمُ
أَشبهـتِ أعـدائـي فصِـرْتُ أُحِبُّهـم ... إذ كـان حظِّـي منـك حظِّـيَ منهـمُ
أجـدُ المـلامـةَ فـي هـواكِ لـذيـذةً ... حبّـاً لِـذكْـرِكِ فَلْيَلُمْنِـي اللُّـوَّمُ

فهذا هو الحبُّ على الحقيقة فإنه متضمنٌ لغاية الموافقة، بحيث قد اتَّخَذَ مرادَه ومرادَ محبوبه من نفسه، فأهانَ نفسَه موافقةً لإهانةِ محبوبه له، وأحبَّ أعداءَه لمَّا أشبههم محبوبهُ في أذاه. وهذا وإن كانت الطِّباعُ تأْباه لكنه مُوجَبُ الحبِّ التام ومقتضاه. وقالت فرقةٌ: بل الأذى مزيلٌ للحبِّ، فإن الطِّباعَ مجبولة على كراهة من يُؤذيها، كما أن القلوبَ مجبولةٌ على حبِّ من يُحسن إليها. وما ذكرَه أُولئك فدعوى منهم.

والإنصاف أن يُقال: يجتمعُ في القلب بغضُ أذى الحبيب وكراهتهُ، ومحبَّتُه من وجه آخر، فيحبُّه ويُبغض أذاه، وهذا هو الواقع، والغالبُ منها يواري المغلوبَ ويبقى الْحكم له، وقد كشفَ عن بعض هذا المعنى الشاعرُ في قوله[2]:

ولـو قلـتِ طَـأْ فـي النـار أعلـمُ أنـه ... رضاً لكِ أو مُدْنٍ لنا من وصالِكِ
لقـدَّمـتُ رِجْلـي نحـوَهـا فـوطئتُهـا ... هدىً منكِ لي أو ضِلّةً من ضَلالِكِ
وإنْ ســاءَنــي أن نِلْتِنــي بمَسَــاءةٍ ... فقـد سـرّنـي أنّـي خَطَـرْتُ بِبَـالِـكِ

فهذا قد أنصفَ حيث أخبر أنه يسوءُه أن ينالَه محبوبُه بمساءة، ويسرُّه خطورُه بباله، لكن ادَّعى أنه يلتذّ بأذى محبوبه له، فإنَّ هذا خارجٌ عن الطباع،

---

(١) هو محمد بن علي بن عبد الله الخزاعي: شاعر مطبوع، سريع الخاطر، رقيق الألفاظ. عمي في آخر عمره. مات مقتولاً سنة (١٩٦هـ). فوات الوفيات (٢/ ٢٢٥) وتاريخ بغداد (٥/ ٤٠١) والأعلام (٦/ ٢٧١).

(٢) هو عبد الله بن الدمينة.

اللهم إلا أن يكون ذلك الأذى وسيلةً إلى رضا المحبوب وقربِه ، فإنه يلتذّ به إذا لاحظَ غايتَه وعاقبتَه ، فهذا يقعُ. وقد أخبرني بعضُ الأطباء قال: إني أَلْتَذُّ بالدواء الكريه إذا علمتُ ما يحصُل به من الشفاء ، وأضعُه علَى لساني وأتَرَشّفُه محبةً له. ومن هذا التذاذُ المُحِبِّينَ بالمشاقِّ التي تُوصلُهم إلى وِصَال محبوبهم وقُربِه ، وكلَّما ذكروا روحَ الوِصَال وأن ما هم فيه طريقٌ موصلٌ إليه ، لذّ لهم مُقاساتُه ، وطابَ لهم تحمُّلُه ، كما قال الشاعر:

لها أحاديثُ من ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا عن الشَّرابِ وتُلْهيها عن الزَّادِ
لها بوجهِكَ نورٌ تستضيءُ به ومِن حَدِيثِكَ في أعْقَابِهَا حادِي
إذا شكَتْ من كَلاَلِ السَّيْرِ أَوعدَها رَوْحَ اللقاء فتَقوى عندَ مِيعاد[1]

والمقصودُ أن المحبّة تستدعي مشاكلةً ومناسبةً ، وقد ذكرَ الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده ، من حديث عائشة رضي الله عنها: أن امرأةً كانت تدخلُ على قريش فتُضحكُهم ، فقدمتِ المدينةَ فنزلتْ على امرأةٍ تُضْحِكُ النَّاسَ ، فقال النبيُّ ﷺ: «على مَنْ نزلت فلانة؟ فقالت: على فلانَة المُضْحكة ، فقال: «الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَا تَعَارفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»[2]. وأصلُ الحديث في الصحيح[3]. وذُكر لبقراط رجلٌ من أهل النقص يحبُّه ، فاغتمَّ لذلك ، وقال: ما أحبَّني إلا وقد وافقتُه في بعض أخلاقِه. وأخذَ المتنبي هذا المعنى فقلبَه وأجادَ ، فقال:

وإذا أتتكَ مَذَمَّتِي مِن ناقصٍ فهي الشَّهادةُ لي بأنِّي فاضِلُ[4]

وقال بعض الأطباء: العشقُ: امتزاجُ الرُّوح بالرُّوح لما بينهما من التناسب والتشاكل ، فإذا امتزج الماءُ بالماء امتنعَ تخليصُ بعضه من بعض ، ولذلك تَبْلُغُ

(١) «كلال السير»: الكلال: التعب والإعياء.
(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٩٥) ومسلم (٢٦٣٨) عن أبي هريرة ، والبخاري (٣٣٣٦) عن عائشة.
(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (٩٠١) ومسلم (٢٦٣٨) وأبو داود (٤٨٣٤).
(٤) البيت للمتنبي.

المحبَّةُ بين الشخصين حتى يتألَّم أحدُهما بتألُّم الآخر ، ويَسْقَمَ بسقمِه وهو لا يَشْعُر. ويُذكر أنَّ رجلاً كان يحبُّ شخصاً فمرضَ ، فدخل عليه أصحابُه يعودونه فوجدوا به خِفَّةً فانبسطَ معهم ، وقال: من أين جئتم؟ قالوا: من عند فلانٍ عُدْناهُ ، فقال: أوَ كان عليلاً؟ قالوا: نعم وقد عُوفِيَ ، فقال: والله لقد أنكرتُ عِلَّتِي هذه ولم أعرِفْ لها سبباً ، غير أني توهَّمْتُ أن ذلك لعلَّةٍ نالت بعضَ من أُحبّ ، ولقد وجدتُ في يومي هذا راحةً ، ففرحْتُ طمعاً أن يكون اللهُ سُبحانه وتعالى شفاه ، ثم دعا بدواةٍ فكتب إلى محبوبه شعراً:

إنـي حُمِمْـتُ ولـم أشعُـرْ بِحُمَّـاكـا … حتـى تحـدّثَ عُـوَّادِي بشكـواكـا
فقلـتُ مـا كـانـتِ الْحُمَّى لتَطْرُقَنِي … مِـن غيـرِمـا سَبـبٍ إلا لِحُمَّـاكـا
وخَصْلَـةٍ كنـتُ فيهـا غيـرَ مُتَّهَـمٍ … عـافـانـيَ اللهُ منهـا حيـنَ عـافـاكـا
حتى إذا اتفقتْ نفسِي ونفسُكِ في … هـذا وذاكَ وفـي هـذا وفـي ذاكـا[1]

ويُحْكى أن رجلاً مرض مَن يُحِبُّه فعادَه المحبُّ فمرضَ من وقته ، فعوفيَ محبوبُه ، فجاءَ يعودُه ، فلما رآه عُوفي من وقته وأنشد:

مَـــرِضَ الْحَبِيـــبُ فعُـــدْتُـــه … فمَـــرِضـــتُ مـــن حَـــذَرِي عليـــهِ
وأتـــى الْحبيـــبُ يَعـــودُنـــي … فبـــرئـــتُ مِـــنَ نَظَـــري إليـــهِ

وأنت إذا تأمَّلْتَ الوجودَ لا تكاد تجد اثنين يتحابَّان إلا وبينهما مشاكلةٌ أو اتفاقٌ في فعلٍ أو حالٍ أو مَقْصِدٍ ، فإذا تباينتِ المقاصدُ والأوصافُ والأفعالُ والطرائقُ لم يكن هناك إلا النُّفْرَةُ والبعدُ بينَ القلوب ، ويكفي في هذا الحديثُ الصحيح عن رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَراحُمِهِمْ وتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إذا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى والسّهَرِ»[2].

فإن قيل: فهذا الذي ذَكرتم يَقتضي أنه إذا أحبَّ شخصٌ شخصاً أن يكونَ

---

(١) الأبيات لأبي نواس ، وهي في ديوانه (٢٩٩) مع بعض الاختلاف.
(٢) رواه أحمد (٤/ ٢٧٠) والبخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦).

الآخرُ يحبُّه فيشتركان في المحبَّة ، والواقعُ يشهدُ بخلافه ، فكم من محبٍّ غير محبوب بل بسيف البغض مضروب ، قيل: قد اختلفَ الناس في جواب هذا السؤال ، فأما أبو محمد بن حزم فإنه قال: الذي أذهبُ إليه أن العشقَ اتصالٌ بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخلقة في أصل عُنْصُرِها الرفيع ، لا عَلَى ما حكاه محمد بن داود عن بعض أهلِ الفلسفة أن الأرواحَ أُكَرٌ[1] مقسومةٌ لكن عَلَى سبيل مناسبةِ قواها في مَقَرِّ عالَمِها العُلويِّ ومجاورتها في هيئة تركيبها. وقد علمنا أن سرَّ التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال ، فالشكلُ إنما يستدعي شكلَه ، والمثلُ إلى مثله ساكنٌ. وللمجانسة عملٌ محسوسٌ وتأثيرٌ مشاهَد. والتنافرُ في الأضداد ، والموافقةُ في الأنداد ، والنِّزاعُ فيما تشابَه موجود بيننا ، فكيف بالنفس وعالَمُها العالمُ الصَّافي الخفيف ، وجوهرُها الجوهرُ الصَّعَّاد المعتدل ، وسِنْخُها[2] المُهَيَّأُ لقَبول الاتفاق والميل والتَّوْق والانحراف والشهوة والنِّفار؟ والله تعالى يقول: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩] فجعل عِلَّةَ السكُون أنَّها منه ، ولو كان عِلَّة الحبِّ حسنُ الصورة الجسدية لوجبَ ألَا يُسْتَحْسَنَ الأنقصُ من الصُّور ، ونحن نجد كثيراً ممن يُؤْثِرُ الأدنى ويعلمُ فضلَ غيره ولا يجدُ مَحيداً لقلبه عنه ، ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحبَّ المرءُ من لا يُساعده ولا يُوافقه ، فعلمنا أنه شيءٌ في ذات النفس ، وربما كانت المحبَّةُ لسببٍ من الأسباب ، وتلك تفنى بفناء سببها.

قال: ومما يؤكد هذا القول أننا قد علمنا أنَّ المحبَّة ضُروب: فأفضلُها محبة المتحابِّين في الله عزّ وجلّ إما لاجتهاد في العمل ، وإما لاتفاق في أصل المذهب ، وإما لفضل علمٍ يُمْنَحُه الإنسانُ. ومحبَّةُ القرابة ، ومحبَّةُ الألفة والاشتراك في المطالب ، ومحبَّةُ التَّصَاحُب والمعرفة ، ومحبَّةٌ لبرٍّ يضعُه المرء

---

(١) «أكر»: جمع أكرة ، وهي الكرة.
(٢) «سنخها»: السنخ من كل شيء: أَصْلُه.

عند أخيه ، ومحبَّةٌ لطمعٍ في جاهِ المحبوب ، ومحبَّةُ المتحابَّيْن لسرٍّ يجتمعان عليه يلزمهما سَتْرُه ، ومحبَّةٌ لبلوغ اللَّذَّة وقضاء الوَطَرِ ، ومحبَّةُ العشق التي لا عِلَّةَ لها إلا ما ذكرنا في اتصال النفوس. وكلُّ هذه الأجناس فمنقضيةٌ مع انقضاء عِلَلِها ، وزائدةٌ بزيادتها ، وناقصةٌ بنقصانها ، متأكِّدَةٌ بدُنوِّها ، فاترةٌ ببعدها ، حاشا محبَّةِ العشق الصحيح المتكمن من النفس. ثم أوردَ هذا السؤال قال: والجوابُ أنَّ نفسَ الذي لا يحبُّ من يُحبه مُكْتَنَفَةَ الجهات ببعض الأعراض الساترة ، والْحُجُب المحيطة بها من الطبائع الأرضية ، فلم تُحِسَّ بالجزء الذي كان متصلاً بها قبل حلولها حيث هي ، ولو تخلّصت لاستويا في الاتصال والمحبَّة. ونفس المحبِّ متخلِّصةٌ عالمةٌ بمكان ما كان يَشْرَكُها في المجاورة. طالبةٌ له ، قاصدةٌ إليه ، باحثة عنه ، مشتهيةٌ لملاقاته ، جاذبةٌ له لو أمكنها كالْمِغْناطيس والحديد ، وكالنَّار في الحجر.

وأجابت طائفةٌ أخرى: أن الأرواحَ خُلِقَتْ عَلى هيئة الكُرَة ثُم قُسِمت ، فأيُّ رُوحين تَلاقَتا هناك وتجاورتا تآلفتا في هذا العالَم وتحابتا ، وإن تنافرتا هناك تنافرتا هنا ، وإن تآلفتا من وجهٍ وتنافرتا من وجهٍ كانتا كذلك ها هنا ، وهذا الجواب مبنيٌّ عَلى الأصل الفاسد الذي أصَّله هؤلاء أن الأرواحَ موجودةٌ قبل الأجساد ، وأنها كانت متعارفةً متجاورةً هناك ، تتلاقى وتتعارف ، وهذا خطأ ، بل الصحيح الذي دلَّ عليه الشرعُ والعقلُ أنَّ الأرواحَ مخلوقةٌ مع الأجساد ، وأن الملَك المُوَكَّلَ بنفخ الرُّوح في الجسد ينفُخ فيه الرُّوحَ إذا مضى على النطفة أربعةُ أشهر ودخلتْ في الخامس ، وذلك أوَّل حدوثِ الرُّوح فيه. ومن قال إنها مخلوقةٌ قبل ذلك فقد غلط ، وأقبحُ منه قولُ من قال: هي قديمةٌ ، أو تَوَقَّفَ في ذلك ، بل الصَّوابُ في الجواب أن يقال: إن المحبَّةَ كما تقدّم قسمان:

محبةٌ عَرَضِيَّةٌ غَرَضِيَّةٌ ، فهذه لا يجبُ الاشتراك فيها بل يقارنها مَقْتُ المحبوب وبغضُه للمحبِّ كَثيراً ، إلا إذا كان له معه غرضٌ نظيرُ غرضه فإنّه

يحبُّه لغرضه منه ، كما يكون بين الرجل والمرأة اللَّذَين لكلٍّ منهما غرضٌ مع صاحبه.

والقسم الثاني: محبَّةٌ رُوحانية سببُها المشاكلة والاتفاق بين الرُّوحين ، فهذه لا تكون إلا من الجانِبَيْن ولا بدّ ، فلو فتّش المحبُّ المحبَّةَ الصادقةَ قلبَ المحبوب لوجدَ عنده من محبَّته نظيرَ ما عنده أو دونه أو فوقه[1].

شجرة المحبة:

فالمحبة شجرةٌ في القلب عروقُها الذلُّ للمحبوب ، وساقها معرفتُه ، وأغصانُها خشيتُه ، وورقُها الحياء منه ، وثمرتُها طاعته ، ومادّتها التي تسقيها ذكرُه ، فمتى خلا الحبُّ عن شيءٍ من ذلك كان ناقصاً.

وقد وصف الله سبحانه نفسَه بأنه يحبّ عباده المؤمنين ، ويحبونه ، فأخبر أنهم أشدّ حبّاً لله ، ووصف نفسه بأنه الوَدود وهو الحبيب. قاله البخاري. والود: خالص الحب ، فهو يَوَدّ عباده المؤمنين ويودّونه.

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فيما يَروي عن ربه عزّ وجلّ أنه قال: «مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيّاً فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّه ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، ورِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَبِيَ يَبْطِشُ وَبِي يَمْشِي ، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَ بِي لأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْهُ»[2].

---

(١) روضة المحبين (١٠٢).

(٢) رواه البخاري (٦١٣٧) وأحمد (٦/٢٥٦) من حديث أبي هريرة. ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/٣١٨ ـ ٣١٩) من حديث أنس.

وفي لفظٍ في غير الموافقة في الكراهة كيف اقتضى كراهةَ الربّ تعالى لمساءَة عبده بالموت لمّا كره العبد مَساخطَ ربه ، وكمالَ الموافقة في الإرادة كيف اقتضى موافقتَه في قضاء حوائجه ، وإجابة طلباته ، وإعاذته مما استعاذ به ، كما قالت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ: ما أَرى رَبَّكَ إلاَّ يُسارعُ في هواكَ[1].

وقال له عمه أبو طالب: يا بن أخي ما أرى ربك إلاَّ يطيعك ، فقال له: وأنْتَ يا عَمّ لَوْ أطَعْتَهُ أطَاعَك. وفي تفسير ابن أبي نُجَيح عن مجاهد في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] قال: حبيباً قريباً إذا سألهُ أعطاه ، وإذا دعاه أجابه. وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام: يا موسى كن لي كما أُريد أكن لك كما تريد. وتأمل هذه الباء في قوله: «فبي يسمع وبي يُبصر وبي يَبْطِش وبي يمشي» كيف يجدها مبنيةً لمعنى قوله: كنت سمعَه الذي يسمع به وبصَره الذي يُبصر به. . . إلى آخره ، فإن سمع سمع بالله ، وأن أبصر أبصر به ، وإن بطش بطش به ، وإن مشى مشى به. وهذا تحقيق قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] ، وقولهِ: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] وقولهِ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال: ١٩] ، وقولِه فيما رواه عنه رسولُه من قوله: «أنا مع عبدي ما ذكرني وتحرَّكَت بي شفتاه»[2]. وهذا ضدّ قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣] فالصحبة التي نفاها ها هنا هي التي أثبتها لأحبابه وأوليائه ، فتأمل كيف جعل محبته لعبده متعلقةً بأداء فرائضه ، وبالتقرّب إليه بالنوافل بعدها لا غير ، وفي هذا تعزيةٌ لمدَّعي محبته بدون ذلك أنه ليس من أهلها ، وإنما معه الأماني الباطلة ، والدَّعاوي الكاذبة.

---

(١) سبق تخريجه ص (١٤٧) .

(٢) رواه أحمد (٢/ ٥٤٠) وابن ماجه (٣٧٩٢) وابن حبان (٨١٥) والحاكم (١/ ٤٩٦).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا أحبَّ اللهُ العبدَ نادى جِبريلُ إنَّ اللهَ يُحِبُّ فلاناً فأَحبُّوهُ فيُحِبُّهُ أَهْلَ السَّمَاءِ ثمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبول في الأَرْضِ»[1] وفي لفظٍ لمسلم: «إِنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبداً دعا جبريلَ فقال: إني أُحبُّ فلاناً فأحبَّهُ، قال: فيحبه جبريل. ثم ينادي في السَّماء فيقول: إن الله يحبُّ فلاناً فأَحِبُّوهُ. فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّماءِ، قالَ: ثمّ يُوضعُ له القبولُ في الأرض، وإذا أبْغَضَ عَبْداً دَعا جبريلَ فيقولُ: إني أَبْغِضُ فُلاناً فـأبْـغِضهُ، قال: فَيُبْغِضُهُ جِبريلُ، ثم يُنادِي في السَّماءِ: إنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلاناً فأبْغِضُوهُ، ثمَّ يوضعُ لهُ البَغْضاءُ في الأرْض»[2].

وفي لفظٍ آخر لمسلم عن سُهيل بن أبي صالح قال: كنّا بعرَفة فمرّ عمرُ بن عبد العزيز وهو علَى الموسم فقامَ الناسُ ينظرون إليه، فقلت لأبي: ياأَبَتِ إني أرى الله يحبُّ عمرَ بن عبد العزيز، قال: وما ذاك؟ قلت: لما له من الحبّ في قلوب الناس، فقال: إني سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يحدّث عن رسول الله ﷺ... ثم ذكرَ الحديث.

وأخرجه الترمذي[3]، ثم زاد في آخره فذلك قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]. وقال بعضُ السلف في تفسيرها: يحبّهم ويحببهم إلى عباده.

وفي الصحيحين من حديث أنسٍ رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعة فقال: «وما أَعْدَدْت لها» قالَ: لا شَيْءَ إلاَّ أني أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ؟ فقال: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»[4] قال أنس رضي الله عنه: فما فَرِحْنَا بشيءٍ فَرَحنا بقول النبي ﷺ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» قال أنس: فأنا أُحبّ النبي ﷺ وأبا بكر

---

(١) رواه البخاري (٦٠٤٠) ومسلم (٢٦٣٧).
(٢) المصدران السابقان.
(٣) رواه الترمذي (٣١٦١).
(٤) رواه البخاري (٦١٦٧) ومسلم (٢٦٣٩).

وعُمر ، وأرجو أن أكون معهم بحبي إيّاهم وإن لم أعمل أعمالهم .

وفي الترمذي عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ وَلَهُ مَا اكْتَسَبَ»[1] .

وفي سنن أبي داود عنه قال: رأيت أصحاب النبيّ ﷺ فرحوا بشيءٍ لم أرَهم فرحوا بشيءٍ أشدَّ منه ، قال رجل: يا رسولَ الله الرجلُ يحبّ الرجلَ على العمل من الخير يعمَلُ به ولا يعمل بمثله. فقال رسولُ الله ﷺ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبّ»[2] . وهذه المحبة لله توجب المحبة في الله قطعاً ، فإن من محبة الحبيب المحبةَ فيه والبغض فيه .

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلالي؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظلِّي»[3] .

وفي جامع أبي عيسى الترمذي من حديث مُعاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «قال اللهُ عزّ وجلّ: الْمُتَحَابُّونَ بِجِلاَلي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ». وفي لفظٍ لغيره: «الْمُتَحابُّون بجَلاَلِ اللهِ يَكُونُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمْ أَهْلُ الْجَمْعِ»[4] .

وفي الموطأ من حديث أبي إدريس الْخَوْلاني قال: دخلت مسجدَ دمشق فإذا فتًى برّاقُ الثنايا والناسُ حوله فإذا اختلفوا في شيءٍ أسندوه إليه ، وصدَروا عن رأيه[5] ، فسألت عنه فقالوا: هذا مُعاذ بن جبل ، فلما كان الغد هَجَّرت

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٨٦) .

(٢) رواه أبو داود (٥١٢٧) وانظره ص (٤٤ و١٤١) .

(٣) رواه مسلم (٢٥٦٦) .

(٤) رواه أحمد (٥/ ٢٣٩) والترمذي (٢٣٩٠) .

(٥) «صدروا عن رأيه»: أخذوا به ، وعملوا به .

إليه[1] فوجدتُه قد سبقني بالتهجير ، ووجدته يصلي ، فانتظرتُه حتى قضى صلاتَه ، ثم جئته من قِبَلِ وجهه فسلمت عليه ثم قلت: والله إني لأُحِبُّك في الله ، فقال: آلله؟ قلت: آلله ، فقال: آلله؟ فقلت: آلله ، فأخذ بِحَبْوَةِ ردائي[2] فجبذني[3] إليه وقال: أبشر فإني سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي للْمُتَحَابِّينَ فِيَّ ، وَالْمُتَجَالِسينَ فِيَّ ، وَالْمُتزَاوِرِينَ فِيَّ ، وَالْـمُتَـبَاذِلِينَ فِيَّ»[4].

وفي سنن أبي داود من حديث أبي ذَرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أَفْضَلُ الأَعْمَالِ الْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ»[5].

وفيه أيْضاً عَن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ لأُنَاساً مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ ، وَلاَ شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَداءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمكانِهِمْ مِنَ اللهِ» قالوا: يا رسولَ الله! تخبرُنا من هم؟ قال: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلاَ أَمْوَال يَتَعَاطَوْنَهَا. فَوَاللهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُمْ لَعَلى نُورٍ وَلاَ يَخافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلاَ يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ» وقرأ هذه الآية: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢][6].

---

(١) «هجرت إليه»: بكَّرت إليه. والتهجير: التبكير إلى كل صلاة ، ولم يرد الخروج في الهاجرة.

(٢) «حبوة ردائي»: الاحتباء: أن ينصب الرجلُ ساقيه ، ويُدير عليها ثوبه ، أو يعقد يديه على ركبتيه معتمداً على ذلك. وقوله: «فأخذ بحبوة ردائي»: أي: مجتمع ثوبه الذي يحتبي به ، وملتقى طرفيه في صدره.

(٣) «جبذني»: جذبني.

(٤) رواه أحمد (٥/ ٢٣٣) ومالك في الموطأ (٢/ ٩٥٣) وابن حبان (٥٧٥) والحاكم (٤/ ١٦٩).

(٥) رواه أحمد (٥/ ١٤٦) وأبو داود (٤٥٩٩).

(٦) رواه أبو داود (٣٥٢٧) وبنحوه النسائي في الكبرى (١١٢٣٦) وابن حبان (٥٧٣).

وفي لفظٍ لغيره: «إِنَّ للهِ عِباداً لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللهِ» قالوا: يا رسول الله صِفْهُمْ لَنَا ، حَلِّهم لنا لعلَّنا نحبّهم؟ قال: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللهِ عَلىٰ غَيْرِ أَمْوَالٍ تَبَاذَلوها وَلا أَرْحَامٍ تَوَاصَلُوهَا هُمْ نُورٌ وَوُجُوهُهُمْ نُورٌ وَعَلَى كَرَاسِيَ مِنْ نُورٍ لا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلاَ يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ» ثم قرأ هذه الآية: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢][١].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ رَجُلاً زَارَ أَخاً لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فأَرْصَدَ اللهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ[٢] مَلَكاً فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قال: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قال: أُرِيدُ أخاً لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ قال: لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعمَةٍ تَرُبُّهَا[٣]؟ قال: لا ، غَيْرَ أَنِّي أُحِبُّهُ فِي اللهِ تَعَالَى ، قال: فإِنِّي رسولُ اللهِ إِلَيْكَ أَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيه»[٤].

وقال رجلٌ لمُعاذ بن جبل: إني أُحبك في الله، قال: أحبَّك الذي أحببتني له.

وفي سنن أبي داود أن رجلاً كان عند رسول الله ﷺ فمرَّ رجلٌ فقال: يا رسول الله إني لأُحبُّ هذا ، فقال له رسول الله ﷺ: «أَعْلَمْتَهُ؟» قال: لا ، قال: «أَعْلِمْهُ» فلحقه فقال: إني أحبك في الله، قال: أحبَّك الذي أحببتني له[٥].

وفيها أيضاً عن المِقْدَام بن معدي كَرِب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ»[٦].

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٣/ ٣٤٣٣) والبغوي في شرح السنة (١٣/ ٥٠). وانظره في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٧٦) والإتحاف (٦/ ١٧٤).
(٢) «مدرجته»: طريقه.
(٣) «تربّها»: تقوم بإصلاحها.
(٤) رواه مسلم (٢٥٦٧) وأحمد (٢/ ٢٩٢) وابن حبان (٥٧٢).
(٥) رواه أبو داود (٥١٢٥) وأحم (٣/ ١٥٠) والحاكم (٤/ ١٧١).
(٦) رواه أبو داود (٥١٢٤) وأحمد (٤/ ١٣٠) والبغوي في شرح السنة (١٣/ ٦٧).

وفي الترمذي من حديث يزيدَ بن نَعامة الضَّبِّيِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا آخَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ فَلْيَسْأَلْهُ عَنِ اسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَمِمَّنْ هُوَ فَإِنَّهُ أَوْصَلُ لِلْمَوَدَّةِ»[1].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «وَالَّـذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا. أَوَلا أَدُلُّكُم عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوه تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ»[2].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حجّاج بن محمد الترمذي، أنبأنا إسرائيل، حدَّثنا شريك، عن أبي سنان، عن عبد الله بن أبي الهُذيل، عن عمّار بن ياسر أن أصحابه كانوا ينتظرونه، فلما خرج قالوا: ما أبطأك عنّا أيها الأمير؟ قال: أمَا إني سوف أحدِّثكم أنَّ أخاً لكم ممن كان قبلكم، وهو موسى ﷺ قال: يا ربّ حدّثني بأحبّ الناس إليك. قال: ولِمَ؟ قال: لأحبّه بحبك إياه، قال: عبدٌ في أقصى الأرض أو طرف الأرض سمع به عبدٌ آخرُ في أقصى أو طرف الأرض لا يعرفه، فإن أصابته مصيبةٌ فكأنما أصابته، وإن شاكته شوكةٌ فكأنما شاكته، لا يحبه إلاَّ لي، فذلك أحبُّ خلقي إليّ. قال: يا ربّ خلقُكَ تُدْخِلُهم النار أو تعذّبهم؟! فأوحى الله إليه: كلهم خَلْقي، ثم قال: ازرع زرعاً، فزرعه، فقال: اسْقِه فسقاه، ثم قال: قم عليه، فقام عليه ما شاء الله من ذلك، فحصده ورفعه، فقال: ما فعل زرعك يا موسى؟ قال: فرغت منه ورفعته، قال: ما تركت منه شيئاً؟ قال: ما لا خير فيه، أو ما لا حاجة لي فيه، قال: فكذلك أنا لا أُعذّب إلاَّ مَن لا خير فيه[3].

* * *

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٩٢) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ١٨١) وانظره في مشكاة المصابيح (٥٠٢٠).

(٢) رواه مسلم (٥٤) وأبو داود (٥١٩٣) والترمذي (٢٦٨٨) وابن ماجه (٣٦٩٢).

(٣) روضة المحبين (٤٦١).



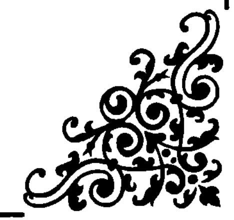

الباب الثالث

آثار المحبة وثمراتها

الفصل الأول: الإيثار في المحبة.

الفصل الثاني: حب الله تعالى قمة السعادة.

الفصل الثالث: من آثار المحبة.

الفصل الأول

الإيثار في المحبة

المحبـة إيثـار الـمحبـوب علـى غيـره:

قال: «وقيل المحبَّـةُ إيثارُ المحبوب على غيره».

وهذا الحدُّ أيضاً من جنس ما قبله، فإنَّ إيثارَ المحبوب على غيره موجبُ المحبة ومقتضاها، فإذا استقرَّتِ المحبَّـةُ في القلب استدعتْ من المحب إيثارَ محبوبه على غيره، وهذا الإيثارُ علامة ثبوتها وصحتها، فإذا آثر غير المحبوب عليه لم يكن محبّاً له، وإن زعم أنه محبّ فإنما هو محبّ لنفسه ولحظّه ممن يحبه، فإذا رأى حظّاً آخر هو أحبُّ من حظّه الذي يريده من محبوبه آثر ذلك الحظّ المحبوب إليه.

فهذا موضع يغلطُ فيه الناسُ كثيراً؛ إذ أكثرهم إما هو يحبُّ لحظِّه ومراده، فإذا علم أنه عند غيره أحبّ ذلك الغير حبّ الوسائل لا حبّاً له لذاته، ويظهرُ هذا عند حالتين، **إحداهما**: أنه يرىٰ حظّاً له آخر عند غيره فيؤثرُ ذلك الحظَّ ويتركُ محبوبَه. **الثانية**: أنه إذا نالَ ذلك الحظَّ من محبوبه فترت محبَّتُه، وسكن قلبه، وترحل قاطنُ المحبة من قلبه، كما قيل: من ودَّك لأمر ولَّى عند انقضائه. فهذه محبّةٌ مشوبةٌ بالعلل.

بل المحبّةُ الخالصةُ أن يحبّ المحبوب لكماله، وأنه أهل أن يحبّ لذاته وصفاته. وأنّ الذي يوجبُ هذه المحبة فناءُ العبد عن إرادته لمراد محبوبه،

فيكون عاملاً على مراد محبوبه منه لا على مراده هو من محبوبه. فهذه هي المحبة الخالصة من درن العلل وشوائب النفس، وهي التي تستلزم إيثار المحبوب على غيره، ولأجله، وكلما كان سلطانُ هذه المحبة أقوى كان هذا الإيثار أتمّ. وفي مثل هذا قيل:

تَعْصِي الإلَهَ وأنت تزعمُ حُبَّه ... هذا لعمرُك في القياسِ شَنِيعُ
لو كانَ حُبُّك صادقاً لأطعتَهُ ... إنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مُطيعُ[1]

وها هنا دقيقة ينبغي التفطُّنُ لها، وهي أنَّ إيثارَ المحبوب نوعان: إيثار معاوضة ومتاجرة، وإيثار حبّ وإرادة. فالأوّل: يُؤثرُ محبوبه على غيره طلباً لحظّه منه. فهو يبذلُ ما يؤثره ليعاوضه بخيرٍ منه. والثاني: يؤثره إجابةً لداعي محبّته، فإنّ المحبّةَ الصَّادقة تدعوه دائماً إلى إيثار محبوبه، فإيثارُه هو أجلّ حظوظه، فحظُّه في نفس الإيثار لا في العوض المطلوب بالإيثار، وهذا لا تفهمه إلاّ النفس اللطيفةُ الورعةُ المشرقة، وأما النفسُ الكثيفة فلا خبر عندها من هذا، وما هو بعشّها فلتدرج[2].

الإيثار في الحب:

والدِّينُ كلّه: المعاملةُ في الإيثار، فإنّه تقديمٌ وتخصيصٌ لمن تؤثره بما تؤثره به على نفسك، حتى إنَّ من شرطه الاحتياج من جهة المؤثر، إذ لو لم يكن محتاجاً إليه لكان بذله سخاءً وكرماً. وهذا إنما يصحُّ في إيثار المخلوق، والله سبحانه يؤثر عبده على غيره من غير احتياج منه سبحانه؛ فإنه الغني الحميد. وفي الدعاءِ المرفوع: «اللهم زِدْنا ولا تنقصنا، وأعطنا ولا تحرمنا،

---

(١) البيتان في (العقد الفريد ٣/ ٢١٥)، (وبهجة المجالس ١/ ٣٩٥) لمحمود الوراق، وأشار ابن عبد البر في (بهجة المجالس) إلى أن البيتين يُنسبان للشافعي، كما في ديوانه ص (٧٤). ولفظ البيت الأول:

تعصي الإلَه وأنت تظهر حُبّه ... هذا محالٌ في القياسِ بديعُ

(٢) طريق الهجرتين (٥٣٦).

وأكرمنا ولا تهنا ، وآثرنا ولا تُؤثر علينا ، وأرْضِنا وارْضَ عنا»[١] .

وقيل : من آثر الله على غيره آثره الله على غيره .

والفرقُ بين الإيثار والأثرة أنّ الإيثارَ تخصيصُ الغير بما تريده لنفسك ، والأثرة اختصاصك به على الغير ، وفي الحديث : بايعنا رسول الله ﷺ على السَّمْع والطَّاعة في عُسْرِنا ويُسْرِنا ، ومَنْشطِنا ومَكْرَهنا ، وأثَرَةٍ علينا[٢] .

فإذا عُرِفَ هذا فالإيثارُ إمّا أن يتعلّق بالخلق ، وإما أن يتعلّق بالخالق . وإن تعلّق بالخلق فكماله أن تؤثرهم على نفسك بما لا يضيعُ عليك وقتاً ، ولا يفسد عليك حالاً ، ولا يهضم لك ديناً ، ولا يسدُّ عليك طريقاً ، ولا يمنع لك وارداً . فإن كان في إيثارهم شيءٌ من ذلك فإيثارُ نفسك عليهم أولى ، فإنَّ الرجلَ من لا يؤثر بنصيبه من الله أحداً كائناً من كان . وهذا في غاية الصعوبة على السالك ، والأول أسهل منه .

فإنّ الإيثارَ المحمودَ الذي أثنى الله على فاعله : الإيثار بالدنيا لا بالوقت والدِّين وما يعودُ بصلاح القلب . قال الله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر : ٩][٣] .

فأخبر أنَّ إيثارَهم إنما هو بالشيءِ الَّذي إذا وقي الرّجل الشّحَ به كان من المفلحين ، وهذا إنما هو فضولُ الدنيا لا الأوقات المصروفة في الطاعات[٤] .

---

(١) رواه الترمذي (٣١٧٣) وأحمد (١/ ٣٤) والحاكم (٢/ ٣٩٢) .

(٢) رواه البخاري (٧٠٥٦) ومسلم (١٧٠٩) .
«بايعنا» : عاهدنا .

(٣) «خصاصة» : فَقْر واحتياج . «مَنْ يُوْقَ» : من يُجنَّب ويُكفَ . «شُحَّ نفسه» : بُخْلَها مع الحرص .

(٤) قال القرطبي في (تفسيره ١٨/ ٢٦) :
«الإيثار : هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية ، ورغبةً في الحظوظ الدينية . وذلك ينشأ عن قوّة اليقين ، وتوكيد المحبّة ، والصّبر على المشقة . يُقال : آثرته بكذا؛ أي : خصصته به وفضّلته . ومفعول الإيثار محذوف؛ أي : يؤثرونهم على أنفسهم =

فإنَّ الفَلاَحَ كُلّ الفَلاح في الشّحّ بها ، فمن لم يكن شحيحاً بوقته تركه الناس على الأرْض عياناً مفلساً ، فالشحُّ بالوقت هو عمارةُ القلب وحفظُ رأس ماله.

ومما يدلُّ على هذا أنه سبحانه أمَرَ بالمسابقة في أعمال البِرّ والتّنافس فيها والمبادرة إليها ، وهذا ضِدُّ الإيثار بها. قال الله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وقال تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [البقرة: ١٤٨] ، وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقال النبي ﷺ: «لو يَعْلَمُ الناسُ ما في النداءِ والصَّفّ الأول لكانت قُرْعَةً»[1] والقُرعةُ إنما تكون عند التزاحم والتنافس لا عند الإيثار ، فلم يجعل الشارع الطاعات والقربات محلاًّ للإيثار ، بل محلاًّ للتنافس والمسابقة ، ولهذا قال الفقهاءُ: لا يستحبُ الإيثار بالقربات. والسِّرُّ فيه ـ والله أعلم ـ أن الإيثار إنما يكون بالشيء الذي يضيقُ عن الاشتراك فيه ، فلا يسع المؤثِر والمؤثَر ، بل لا يسعُ إلاّ أحدهما ، وأما أعْمال البِرّ والطاعات فلا ضيقَ على العباد فيها ، فلو اشترك الأُلوفُ المؤلَّفةُ في الطاعة الواحدة لم يكن عليهم فيها ضيق ولا تزاحم ووسعتهم كلهم ، وإن قدِّر التزاحمُ في عملٍ واحدٍ أو مكان لا يمكن أن يفعلَه الجميعُ ، بحيث إذا فعله واحدٌ فات على غيره فإنَّ في العزم والنّيّة الجازمة على فعله من الثواب ما لفاعله ، كما ثبت عن النبي ﷺ في غير حديث. فإذا قدر فوت مباشرته له فلا يفوت عليه عزمه ونيته لفعله. وأيضاً فإنه إذا فات عليه كان في غيره من الطاعات والقربات عوضٌ منه: إما مساوٍ له ، وإما أزيد ، وإما دونه. فمتى أتى بالعِوَض وعلمَ الله من نيّته وعزيمته الصّادقة إرادته لذلك العمل الفائت أعطاه الله ثوابه وثواب ما تعوض به عنه ، فجمع له الأمرين ، وذلك

= بأموالهم ومنازلهم».

(١) رواه مسلم (٤٣٩) وابن ماجه (٩٩٨).

«النداء»: الأذان. «لكانت قرعة»: كان ـ هنا ـ تامة. و«قرعة»: نصيب.

فضلُ الله يؤتيه من يشاءُ واللهُ ذو الفضل العظيم.

وأيْضاً فإنَّ المقصودَ رغبةُ العبد في التقرُّب إلى الله، وابتغاء الوسيلة إليه والمنافسة في محابّه. والإيثار بهذا التقرُّب يدلُّ على رغبته عنه وتركه له، وعدم المنافسة فيه، وهذا بخلاف ما يحتاجُ إليه العبدُ من طعامه وشرابه ولباسه إذا كان أخوه محتاجاً إليه، فإذا اختصَّ به أحدُهما فاتَ الآخر، فندب الله سبحانه عبده إذا وجد من نفسه قوّةً وصبراً على الإيثار به ما لم يخرم عليه دِيناً، أو يجلب له مفسدةً، أو يقطع عليه طريقاً، عزم على سلوكه إلى ربّه، أو شوّش عليه قلبه بحيث يجعله مُتعلقاً بالخلق، فمفسدةُ إيثار هذا أرجحُ من مصلحته، فإذا ترجَّحَتْ مصلحةُ الإيثار بحيث تتضمَّن إنقاذ نفسه من هلكة أو عطب أو شدّة ضرورة ـ وليس للمؤثر نظيرها ـ تعيَّن عليه الإيثارُ، فإن كان به نظيرها لم يتعيَّنْ عليه الإيثار، ولكن لو فعله لكان غايةَ الكرم والسخاءِ والإحسان، فإنه من آثر حياةَ غيره على حياته، وضرورته علىٰ ضرورته، فقد استولى على أمد الكرم والسخاء وجاز قصباته، وضرب فيه بأوفر الحظّ.

وفي هذا الموضع مسائل فقهية ليس هذا موضعُ ذكرها. فإن قيل: فما الذي يسهل على النفس هذا الإيثار، فإنّ النفس مجبولة على الأثرة لا على الإيثار؟ قيل: يسهّله أُمور:

أحدها: رغبةُ العبد في مكارم الأخلاق ومعاليها، فإنَّ من أفضل أخلاق الرجل وأشرفها وأعلاها الإيثار، وقد جَبَلَ اللهُ القلوبَ على تعظيم صاحبه ومحبَّته، كما جبلها على بُغض المستأْثر ومقته، لا تبديلَ لخلق الله.

والأخلاقُ ثلاثة: خُلُق الإيثار، وهو خلق الفضل. وخُلُق القسمة والتسوية، وهو خُلُق العدل. وخُلُق الاستئثار والاستبداد، وهو خُلُق الظلم.

فصاحبُ الإيثار محبوبٌ مُطاعٌ مهيب، وصاحب العدل لا سبيلَ للنفوس إلى أذاه والتسلّط عليه، ولكنها لا تنقاد إليه انقيادها لمن يؤثرها، وصاحبُ الاستئثار؛ النفوسُ إلى أذاه والتسلّط عليه أسرعُ من السيل في حدوره. وهل

أزال الممالكَ وقلعها إلا الاستئثارُ؟ فإنَّ النفوسَ لا صبرَ لها عليه. ولهذا أمَرَ رسولُ الله ﷺ أصحابه بالسمع والطاعة لولاة الأمر وإن استأْثروا عليهم، لما في طاعة المستأْثر من المشقَّة والكُره[1].

الثاني: النّفرةُ من أخلاق اللئام، ومقت الشُّحّ وكراهته له.

الثالث: تعظيمُ الحقوق التي جعلها اللهُ للمسلمين بعضهم على بعض، فهو يرعاها حقّ رعايتها، ويخافُ من تضييعها، ويعلم أنه إن لم يبذلْ فوق العدل لم يمكنه الوقوف مع حدّه، فإن ذلك عَسِرٌ جداً، بل لا بُدَّ من مجاوزته إلى الفضل أو التقصير عنه إلى الظّلم، فهو لخوفه من تضييع الحق والدخول في الظلم يختارُ الإيثار بما لا ينقصه ولا يضرّه، ويكتسب به جميل الذكر في الدنيا وجزيل الأجر في الآخرة، مع ما يجلبه له الإيثارُ من البركة وفيضان الخير عليه، فيعودُ عليه من إيثاره أفضل مما بذله. ومَن جرَّب هذا عَرَفَهُ، ومن لم يجربه فَلْيَسْتَقْرِ أحوالَ العالم. والموفَّق مَن وفقه الله.

علامة الإيثار المتعلق بالخالق:

والإيثار المتعلّق بالخالق أجلُّ من هذا وأفضلُ؛ وهو إيثار رضاه على رضا

---

(١) قال ﷺ: «عليك السمع والطاعة في عسرك ويُسرك، ومَنْشطك ومَكْرهك، وأثرة عليك».
رواه مسلم (١٨٣٦)، و(النسائي ٧/ ١٤٠).
«أثرة عليك»: أي أن طاعة الأمير واجبة على الرعية، لا يتوقف على إيصالهم حقوقهم، بل عليهم الطاعة ولو منعهم حقَّهم.
وفي رواية: «وإن رأيت أنَّ لك في الأمر حقاً فلا تعمل بذلك الظن، بل اسمع وأطع إلى أن يصل إليك بغير خروج عن الطاعة».
وزاد في رواية: «وإن أكلوا مالك وضربوا ظهرك».
قال النووي: لا تُنازعوا ولاة الأمر في ولايتهم، ولا تعترضوا عليهم؛ إلاّ أن تروا منهم منكراً محقّقاً تعلمونه من قواعد الإسلام؛ فإذا رأيتم ذلك فأنكروا عليهم، وقولوا بالحق حيثما كنتم. انظر (فتح الباري ١٣/ ٨).

غيره ، وإيثار حبّه على حب غيره ، وإيثار خوفه ورجائه على خوف غيره ورجائه ، وإيثار الذلّ له والخضوع والاستكانة والضراعة والتملّق على بذل ذلك لغيره. وكذلك إيثار الطلب منه والسؤال وإنزال الفاقات به على تعلّق ذلك بغيره. فالأوَّلُ آثر بعضَ العبيد على نفسه فيما هو محبوبٌ له ، وهذ آثَرَ الله على غيره ونفسه من أعظم الأغيار؛ فآثر الله عليها فترك محبوبها لمحبوب الله.

وعلامةُ هذا الإيثار شيئان:

أحدهما: فعلُ ما يحبُّ الله إذا كانت النفسُ تكرهه وتهربُ منه.

والثاني: تركُ ما يكرهه إذا كانت النفسُ تحبّه وتهواه. فبهذين الأمرين يصحُّ مقام الإيثار. ومؤونة هذا الإيثار شديدةٌ لغلبة الأغيار ، وقوة داعي العادة والطبع ، فالمحنةُ فيه عظيمةٌ و المؤونة فيه شديدةٌ ، والنفسُ عنه ضعيفة ، ولا يتمُّ فلاحُ العبد وسعادته إلاَّ به ، وإنه ليسيرٌ على مَن يسَّره الله عليه ، فحقيقٌ بالعبدِ أن يسموَ إليه وإن صعب المرتقى ، وأن يشمِّر إليه وإن عظمت فيه المحنة ، ويحمل فيه خطراً يسيراً لملك عظيم وفوز كبير ، فإنَّ ثمرةَ هذا في العاجل والآجل ليست تشبه ثمرة شيء من الأعمال ، ويسيرٌ منه يرقي العبد ويسيره إلى ما لا يرقى غيره إليه من المدد المتطاولة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ ، ولا تتحقق المحبة إلا بهذا الإيثار.

والذي يسهّله على العبد أُمورٌ:

أحدها: أن تكون طبيعته ليّنة ، منقادة ، سلسة ، ليست بجافية ولا قاسية ، بل تنقادُ معه بسهولة.

الثاني: أن يكونَ إيمانُه راسخاً ويقينُه قوياً ، فإنَّ هذا ثمرةُ الإيمان ونتيجته.

الثالث: قوّة صبره وثباته.

فبهذه الأُمور الثلاثة ينهضُ إلى هذا المقام ويسهلُ عليه دركه.

والنقصُ والتخلُّفُ في النفس عن هذا يكونُ في أمرين:

الأول: أن تكون جامدةً غير سريعة الإدراك ، بل بطيئة ، ولا تكاد ترى حقيقةَ الشيء إلاّ بعد عُسْر. وإن رأتها اقترنت به الأوهام والشُّكوك والشُّبهات والاحتمالات ، فلا يتخلّصُ له رؤيتها وعيانها.

الثاني: أن تكون القريحةُ وقّادة درّاكة ، لكن النفسَ ضعيفةٌ مهينةٌ ، إذا أبصرت الحق والرّشد ضعفت عن إيثاره ، فصاحبُها يسوقها سَوْق العليل المريض ، كلّما ساقه خطوة وقف خطوة ، أو كسوق الطفل الصغير الذي تعلّقت نفسُه بشهواته ومألوفاته ، فهو يسوقه إلى رشده وهو ملتفتٌ إلى لهوه ولعبه؛ لا ينساق معه إلاّ كرهاً. فإذا رُزِقَ العبدُ قريحةً وقّادة ، وطبيعةً مُنقادةً: إذا زجرها انزجرت ، وإذا قادها انقادتْ بسهولة وسرعة ولين ، وارتدى مع ذلك بعلمٍ نافعٍ وإيمان راسخ ، أقبلت إليه وفودُ السعادة من كُلّ جانب.

ولما كانت هذه القرائحُ والطبائعُ ثابتةً للصحابة رضي الله عنهم ، وكمّلها الله لهم بنور الإسلام وقوّة اليقين ومباشرة الإيمان لقلوبهم ، كانوا أفضلَ العالمين بعد الأنبياء والمرسلين ، وكان مَن بعدهم «لو أنفق مثل جبل أُحد ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»[1]. ومن تصوَّر هذا الموضعَ حقَّ تصوّره علم من أين يلزمه النّقصُ والتأخّر ، ومن أين يتقدّم ويترقّى في درجات السعادة ، وبالله التوفيق[2].

إيثار الأعلى:

إن العبد لا يترك ما يحبه ويهواه إلا لما يحبه ويهواه ، ولكن يترك أضعفهما محبة لأقواهما محبة؛ كما أنه يفعل ما يكرهه لحصول ما محبته أقوى عنده من كراهة ما يفعله ، أو لخلاصه من مكروهٍ ، كراهته عنده أقوى من كراهة ما يفعله.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤٠).

(٢) طريق الهجرتين (٥٣٨).

وتقدم أن خاصية العقل إيثار أعلى المحبوبين على أدناهما ، وأيسر المكروهين على أقواهما ، وتقدم أن هذا من كمال قوة الحب والبغض.

ولا يتم له هذا إلا بأمرين: قوة الإدراك ، وشجاعة القلب ، فإن التخلف عن ذلك والعمل بخلافه يكون إما لضعف الإدراك ، بحيث إنه لم يدرك مراتب المحبوب والمكروه على ما هي عليه. وإما لضعف في النفس وعجز في القلب ، بحيث لا يطاوعه على إيثار الأصلح لرفع علمه بأنه الأصلح ، فإذا صح إدراكه وقويت نفسه وتشجع قلبه على إيثار المحبوب الأعلى والمكروه الأدنى ، فقد وفق لأسباب السعادة.

فمن الناس من يكون سلطان شهوته أقوى من سلطان عقله وإيمانه ، فيقهر الغالب الضغيف ، ومنهم من يكون سلطان إيمانه وعقله أقوى من سلطان شهوته. وإذا كان كثير من المرضى يحميه الطبيب عما يضرّه فتأبى عليه نفسه وشهواته إلا تناوله ، ويقدم شهوته على عقله ، وتسميه الأطباء: عدم المروءة ، فهكذا أكثر مرضى القلوب يؤثرون ما يزيد مرضهم ، لقوة شهوتهم له.

فأصل الشر من ضعف الإدراك وضعف النفس ودناءتها ، وأصل الخير من كمال الإدراك وقوة النفس وشرفها وشجاعتها.

فالحب والإرادة أصل كل شيء ومبدؤه ، والبغض والكراهة أصل كل شيء ومبدؤه ، وهاتان القوتان في القلب ، أصل سعادة العبد وشقاوته.

ووجود الفعل الاختياري لا يكون إلا بوجود سببه من الحب والإرادة.

وأما عدم الفعل فتارة يكون لعدم مقتضيه وسببه ، وتارة يكون لوجود البغض والكراهة المانعة منه ، وهذا متعلق الأمر والنهي ، وهو الذي يسمى الكف ، وهو متعلق الثواب والعقاب ، وبهذا يزول الاشتباه في مسألة الترك ، وهو أمر وجودي أو عدمي؟ والتحقيق أنه قسمان: فالترك المضاف إلى عدم

السبب المقتضى عدمي ، والمضاف إلى السبب المانع من الفعل وجودي[1] .

إيثـار الأنـفـع :

كل واحد من الفعل والترك الاختياريين إنما يؤثره الحي لما فيه من حصول المنفعة التي يلتذ بحصولها ، وزوال الألم الذي يحصل له الشفاء بزواله ، ولهذا يقال: شفى صدره ، وشفى قلبه ، قال:

هِـيَ الشِّفَـاءُ لِـدَائِـي لَـوْ ظَفِـرْتُ بِهَـا وَلَيْـسَ مِنْهَـا شفـاءُ الـدَّاءِ مَبْـذُولُ

وهذا مطلوب يؤثره العاقل بل الحيوان البهيم؛ ولكن يغلط فيه أكثر الناس غلطاً قبيحاً ، فيقصد حصول اللذة بما يعقب عليه أعظم الألم؛ فيؤلم نفسه من حيث يظن أنه يحصل لذتها ، ويشفي قلبه بما يعقب عليه غاية المرض ، وهذا شأن من قصر نظره على العاجل ولم يلاحظ العواقب ، وخاصّةُ العقل النظرُ في العواقب ، فأعقل الناس من آثر لذته وراحته الآجلة الدائمة على العاجلة المنقضية الزائلة ، وأَسْفَهُ الخلق من باع نعيم الأبد وطيب الحياة الدائمة واللذة العظمىٰ التي لا تنغيصَ فيها ولا نقص بوجهٍ ما بلذة منقضية مشوبة بالآلام والمخاوف ، وهي سريعة الزوال وشيكة الانقضاء.

قال بعض العلماء: «فكرت فيما يسعى فيه العقلاء ، فرأيت سعيهم كله في مطلوب واحد ، وإن اختلفت طرقهم في تحصيله ، رأيتهم جميعاً إنما يسعون في دفع الهم والغم عن نفوسهم ، فهذا بالأكل والشرب ، وهذا بالتجارة والكسب ، وهذا بالنكاح ، وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة ، وهذا باللهو واللعب ، فقلت: هذا المطلوب مطلوب العقلاء ، ولكن الطرق كلها غير موصلة إليه ، بل لعل أكثرها إنما يوصل إلى ضده ، ولم أر في جميع هذه الطرق كلها طريقاً موصلة إليه إلا الإقبال على الله ومعاملته وحده وإيثار مرضاته على كل شيء» .

---

(١) الداء والدواء (٣٢٦) .

فإنَّ سالكَ هذه الطريق إن فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالحظ العالي الذي لا فوت معه ، وإن حصل للعبد حصل له كل شيء ، وإن فاته فاته كل شيء ، وإن ظفر بحظه من الدنيا ناله على أهنأ الوجود؛ فليس للعبد أنفع من هذه الطرق ، ولا أوصل منها إلى لذته وبهجته وسعادته ، وبالله التوفيق[1] .

* * *

(١) الداء والدواء (٣٢٨).

الفصل الثاني

حب الله تعالى قمة السعادة

لا سعادة للقلب إلا بأن يكون الله أحب إليه من كل ما سواه:

معلومٌ أن كلَّ حيٍّ ـ سوى الله سبحانه ـ من ملك أو إنس أو جِنّ أو حيوان ، فهو فقيرٌ إلى جلب ما ينفعه ودَفْع ما يضره ، ولا يتمُّ ذلك له إلا بتصوُّره للنافع والضار ، والمنفعةُ من جنس النعيم واللذة ، والمضرَّةُ من جنس الألم والعذاب .

فلا بدَّ له من أمرين :

أحدهما: معرفة ما هو المحبوب المطلوب الذي ينتفع به ، ويلتذ بإدراكه .

والثاني: معرفة المعين الموصل المحصل لذلك المقصود. وبإزاء ذلك أمران آخران :

أحدهما: مكروه بغيض ضارّ .

والثاني: معين دافع له عنه ، فهذه أربعة أشياء :

أحدها : أمر هو محبوب مطلوب الوجود .

الثاني : أمر مكروه مطلوب العدم .

الثالث : الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب .

الرابع : الوسيلة إلى دَفْع المكروه .

فهذه الأمورُ الأربعة ضرورية للعبد ، بل ولكلِّ حيوان ، لا يقومُ وجوده وصلاحه إلا بها .

فإذا تقرر ذلك ، فالله تعالى هو الذي يجبُ أن يكون هو المقصودَ المدعوَّ المطلوب؛ الذي يراد وجهه ، ويُبتغى قُرْبه ، ويُطلب رضاه ، وهو المعينُ على حصول ذلك ، وعبودية ما سواه والالتفات إليه ، والتعلُّق به: هو المكروه الضارّ ، والله هو المعينُ على دَفْعه ، فهو سبحانه الجامع لهذه الأمور الأربعة دون ما سواه ، فهو المعبودُ المحبوب المراد ، وهو المعينُ لعبده على وصوله إليه وعبادته له ، والمكروه البغيض إنما يكونُ بمشيئته وقدرته ، وهو المعينُ لعبده على دفعه عنه ، كما قال أعرف الخلق به: «أعوذ برضاكَ من سخطك ، وأعوذ بمعافاتكَ من عقوبتك ، وأعوذ بك منك»[1] .

وقال: «اللهم إني أسلمتُ نفسي إليك ، ووَجَّهت وَجْهي إليك ، وفَوّضت أمري إليك ، وألجأتُ ظَهْرِي إليك ، رَغبةً ورهبةً إليك ، لا مَلْجأ ولا مَنْجَى منك إلا إليك»[2] . فمنه المنجَى ، وإليه الملجأ ، وبه الاستعاذة من شرِّ ما هو كائن بمشيئته وقدرته ، فالإعاذةُ فعله ، والمستعاذ منه فعله ، أو مفعوله الذي خلقه بمشيئته .

فالأمرُ كلُّه له ، والحمدُ كله له ، والملك كله له ، والخيرُ كلُّه في يديه ، لا يُحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وفوق ما يثني عليه كلّ أحدٍ من خلقه ، ولهذه كان صلاحُ العبد وسعادته في تحقيق معنى قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب ، لكن على أكمل الوجوه ، والمستعان هو الذي يُستعان به على المطلوب:

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٢٠١) ومسلم (٤٨٦) وأبو داود (٨٧٩) وابن ماجه (٣٨٤١) .
(٢) رواه البخاري (٢٤٧) ومسلم (٢٧١٠) .

فالأول: من معنى ألوهيته.

والثاني: من معنى ربوبيته، فإن الإلٰه هو الذي تألهه القلوب: محبة، وإنابة، وإجلالاً، وإكراماً، وتعظيماً، وذُلاًّ، وخضوعاً، وخوفاً، ورجاء، وتوكُّلاً، والربّ هو الذي يُرَبِّي عبده، فيعطيه خلقه، ثم يهديه إلى مصالحه. فلا إلٰه إلا هو، ولا رب إلا هو، فكما أن ربوبية ما سواه أبطل الباطل، فكذلك إلٰهية ما سواه.

وقد جمع اللهُ سبحانه بين هذين الأصلين في مواضع من كتابه كقوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣] وقوله عن نبيه شُعيب: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] وقوله: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ﴾ [الفرقان: ٥٨] وقوله: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٨ ـ ٩] وقوله: ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠] وقوله عن الحنفاء أتباع إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

فهذه سبعةُ مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين لمعنيي التوحيد؛ اللذين لا سعادةَ للعبد بدونهما ألبتة.

الوجه الثاني: أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لعبادته، الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته، والإخلاص له، فبذكره تطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم، وبرؤيته في الآخرة تَقَرُّ عيونهم، ويتمّ نعيمهم، فلا يعطيهم في الآخرة شيئاً هو أحبّ إليهم، ولا أقرّ لعيونهم، ولا أنعم لقلوبهم: من النظر إليه، وسماع كلامه منه بلا واسطة، ولم يعطهم في الدنيا شيئاً خيراً لهم ولا أحب إليهم، ولا أقر لعيونهم من الإيمان به، ومحبته والشّوق إلى لقائه، والأنس بقربه، والتّنعم بذكره.

وقد جمع النبيُّ صلى الله تعالى عليه وسلم بين هذين الأمرين في الدعاء الذي رواه النسائي، والإمام أحمد، وابن حِبَّان في صحيحه وغيرهم، من

حديث عَمَّار بن ياسر: أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يدعو به: «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمتَ الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاةُ خيراً لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا يَنْفَدُ، وأسألك قُرَّةَ عينٍ لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك بَرْد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك، في غير ضَرَّاء مُضِرَّة، ولا فتنة مُضِلَّة. اللهم زَيِّنا بزينة الإيمان، واجعلنا هُداة مهتدين»[1].

فجمع في هذا الدعاء العظيم القدر بين أطيب شيء في الدنيا، وهو الشوقُ إلى لقائه سبحانه، وأطيب شيء في الآخرة، وهو النظرُ إلى وجهه سبحانه. ولما كان كمال ذلك وتمامه موقوفاً على عدم ما يضرُّ في الدنيا، ويفتنُ في الدين؛ قال: «في غير ضَرَّاء مُضِرَّة، ولا فتنة مُضِلَّة».

ولما كان كمالُ العبد في أن يكون عالماً بالحق متبعاً له، معلّماً لغيره، مرشداً له، قال: «وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ».

ولما كان الرضا النافعُ المحصل للمقصود هو الرضا بعد وقوع القضاء لا قبله، فإنَّ ذلك عزم على الرضا، فإذا وقع القضاء انفسخ ذلك العزم، سأل الرضا بعده، فإن المقدور يكتنفه أمران: الاستخارة قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه. فمن سعادةِ العبد أن يجمعَ بينهما، كما في المسند وغيره عنه صلى الله تعالى وآله وسلم: «إنَّ مِنْ سعادة ابن آدم: استخارة الله ورضاه بما قضى الله، وإن من شقاوة ابن آدم استخارة الله، وسخطه بما قضى الله تعالى»[2].

---

(١) سبق تخريجه ص (١٧٦).

(٢) رواه أحمد (١/١٦٨) والترمذي (٢١٥١) والحاكم (١/٥١٨) والبزار كما في كشف الأستار (٧٥٠) والأصبهاني في الترغيب والترهيب (١٣٩١) وانظره في مجمع الزوائد (٢/٢٧٩).

ولما كانت خشيةُ الله عزّ وجل رأسَ كلِّ خير في المشهد والمغيب ، سأله خشيته في الغيب والشهادة.

ولما كان أكثرُ الناس إنما يتكلم بالحق في رضاه ، فإذا غضب أخرجه غَضَبُه إلى الباطل ، وقد يدخله أيضاً رضاه في الباطل ، سأل الله عزّ وجل أن يوفِّقه لكلمة الحق في الغضب والرضا ، ولهذا قال بعض السلف: «لا تكن ممن إذا رضي أدخله رضاه في الباطل ، وإذا غضب أخرجه غَضَبُه من الحق».

ولما كان الفقر والغِنى بليتين ومحنتين ، يبتلي اللهُ بهما عبده. ففي الغنى يبسطُ يده ، وفي الفقر يقبضها ، سأل الله عز وجل القصدَ في الحالين ، وهو التوسُّط الذي ليس معه إسرافٌ ولا تقتير.

ولما كان النعيمُ نوعين: نوعاً للبدن ، ونوعاً للقلب ، وهو قرةُ العين ، وكماله بدوامه واستمراره ، جمع بينهما في قوله: «أسألك نعيماً لا ينفد ، وقرة عينٍ لا تنقطع».

ولما كانت الزينةُ زينتين: زينة البدن ، وزينة القلب ، وكانت زينةُ القلب أعظمهما قدراً وأجلهما خطراً ، وإذا حصلتْ حصلتْ زينةُ البدن على أكمل الوجوه في العُقْبَى ، سأل ربّه الزينة الباطنة فقال: «زيّنا بزينة الإيمان».

ولما كان العيشُ في هذه الدار لا يبردُ لأحدٍ كائناً من كان ، بل هو محشوٌّ بالغصص والنكد ، ومحفوفٌ بالآلام الباطنة والظاهرة ، سأل بَرْدَ العيش بعد الموت.

والمقصودُ: أنه جَمَعَ في هذا الدعاء بين أطيب ما في الدنيا ، وأطيب ما في الآخرة ، فإن حاجة العباد إلى ربهم في عبادتهم إياه وتأليههم له ، كحاجتهم إليه في خلقه لهم ، ورزقه إياهم ، ومعافاة أبدانهم ، وستر عوراتهم ، وتأمين

روعاتهم ، بل حاجتهم إلى تأليهه ومحبته وعبوديته أعظم ، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم ، ولا صلاحَ لهم ولا نعيم ولا فلاح ولا لذة ولا سعادة بدون ذلك بحال ، ولهذا كانت: «لا إله إلا الله» أحسنَ الحسنات ، وكل توحيدُ الإلٰهية رأسَ الأمر ، وأما توحيد الربوبية الذي أقـرَّ به المسلم والكافر ، وقرَّره أهلُ الكلام في كتبهم ، فلا يكفي وحده ، بل هو الحجةُ عليهم ، كما بين ذلك سبحانه في كتابه الكريم في عدة مواضع ، ولهذا كان حقُّ الله على عباده أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً ، كما في الحديث الصحيح الذي رواه معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «أتدري ما حق الله على عباده»؟ قلت: الله ورسوله أعلم ، قال: «حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، أتدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك»؟ قلت: الله ورسوله أعلم قال: «حقُّهم عليه ألا يعذبهم بالنار»[1] .

ولذلك يحبُّ سبحانه عباده المؤمنين الموحِّدين ، ويفرح بتوبتهم ، كما أن في ذلك أعظم لذَّة العبد وسعادته ونعيمه ، فليس في الكائنات شيءٌ غير الله عز وجل يسكن القلبُ إليه ، ويطمئنُّ به ، ويأنسُ به ، ويتنعَّمُ بالتوجُّه إليه ، ومَنْ عَبَدَ غيره سبحانه ، وحصل له به نوعُ منفعة ولذة ، فمضرَّته بذلك أضعاف أضعاف منفعته ، وهو بمنزلة أكل الطعام المسموم اللذيذ ، وكما أنَّ السموات والأرض لو كان فيهما آلهة غيره سبحانه لفسدتا ، كما قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾ [الأنبياء: ٢٢] فكذلك القلب إذا كان فيه معبود غير الله تعالى فَسَد فساداً لا يرجى صلاحه إلا بأن يخرج ذلك المعبود منه ، ويكون الله تعالى وحده إلهه ومعبوده الذي يحبه ويرجوه ، ويخافه ، ويتوكل عليه ، وينيبُ إليه .

الوجه الثالث: أنَّ فقر العبد إلى أن يعبدَ الله سبحانه وحده لا يشرك به شيئاً؛ ليس له نظير ، فيقاس به ، لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الغذاء

---

(١) سبق تخريجه ص (١٢٤) .

والشراب والنَّفَس فيقاس بها ، لكنْ بينهما فروقٌ كثيرة ، فإنَّ حقيقةَ العبد قلبه وروحه ، ولا صلاحَ له إلا بإلٰهه الحق الذي لا إله إلا هو ، فلا يطمئنُّ إلا بذكره ، ولا يسكن إلا بمعرفته وحبه ، وهو كادحٌ إليه كَدْحاً فملاقيه ، ولا بدَّ له من لقائه ، ولا صلاحَ له إلا بتوحيد محبته وعبادته وخوفه ورجائه ، ولو حصل له من اللذات والسُّرور بغيره ما حصل فلا يدوم له ذلك ، بل ينتقلُ من نوع إلى نوع ، ومن شخص إلى شخص ، ويتنعم بهذا في حال وبهذا في حال ، وكثيراً ما يكونُ ذلك الذي يتنعمُ به هو أعظم أسباب ألمه ومضرَّته.

وأما إلٰهه الحق فلا بُدَّ له منه في كل وقت ، وفي كل حال ، وأينما كان فنفسُ الإيمان به ومحبته وعبادته وإجلاله وذكره هو غذاءُ الإنسان وقوته ، وصلاحه وقوامه ، كما عليه أهلُ الإيمان ، ودلَّتْ عليه السنةُ والقرآن ، وشهدت به الفطرة والجنان ، لا كما يقول مَنْ قَلَّ نصيبه من التحقيق والعرفان ، وبُخس حظُّه من الإحسان: إن عبادته وذِكْره وشكره تكليف ومشقة ، لمجرد الابتلاء والامتحان ، أو لأجل مجرد التعويض بالثواب المنفصل كالمعاوضة بالأثمان ، أو لمجرد رياضة النفس وتهذيبها؛ ليرتفعَ عن درجة البهيم من الحيوان ، كما هي مقالات مَنْ بخس حظّه من معرفة الرحمن ، وقلَّ نصيبه من ذوق حقائق الإيمان ، وفرح بما عنده من زَبَد الأفكار ، وزُبالة الأذهان ، بل عبادته ومعرفته وتوحيده وشكره قرة عينِ الإنسان ، وأفضل لذة للروح والقلب والجنان ، وأطيب نعيم ناله مَنْ كان أهلاً لهذا الشان ، والله المستعان ، وعليه التكلان.

وليس المقصودُ بالعبادات والأوامر المشقة والكلفة بالقصد الأول ، وإن وقع ذلك ضمناً وتبعاً في بعضها ، لأسباب اقتضته لا بدَّ منها ، هي من لوازم هذه النشأة.

فأوامره سبحانه ، وحقه الذي أوجبه على عباده ، وشرائعه التي شرعها لهم ، هي قرةُ العيون ، ولذَّة القلوب ، ونعيمُ الأرواح وسرورها ، وبها

شفاؤها وسعادتها وفلاحها ، وكمالها في معاشها ومعادها ، بل لا سرورَ لها ولا فرح ولا لذة ولا نعيم في الحقيقة إلا بذلك ، كما قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٧ ـ ٥٨].

قال أبو سعيد الخدري : «فضل الله : القرآنُ ، ورحمته : أن جعلكم من أهله».

وقال هلال بن يَساف : «بالإسلام الذي هداكم إليه ، وبالقرآن الذي علمكم إياه ، هو خيرٌ مما تجمعون ؛ من الذهب والفضة».

وكذلك قال ابن عباس والحسن وقتادة : «فضله : الإسلام ، ورحمته : القرآن».

وقالت طائفة من السلف : «فضله القرآن ، ورحمته الإسلام».

والتحقيقُ : أن كلاًّ منهما فيه الوصفان : الفضل والرحمة ، وهما الأمران اللذان امتنَّ اللهُ بهما على رسوله عليه الصلاة والسلام فقال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ ﴾ [الشورى : ٥٢] والله سبحانه إنما رَفَع مَنْ رَفَع بالكتاب والإيمان ، ووَضَع مَنْ وَضَع بعدمهما.

فإن قيل : فقد وقع تسمية ذلك تكليفاً في القرآن كقوله : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] وقوله : ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ ﴾ [الأنعام : ١٥٢].

قيل : نعم ، إنما جاء ذلك في جانب النفي ، ولم يسمّ سبحانه أوامره ووصاياه وشرائعه تكليفاً قط ، بل سمَّاها روحاً ونوراً ، وشفاء وهدى ورحمة ، وحياة ، وعهداً ، ووصية ، ونحو ذلك.

الوجه الرابع : أنَّ أفضلَ نعيم الآخرة وأجَلّه وأعلاه على الإطلاق هو النظر إلى وجه الرب عز وجل ، وسماع خطابه ، كما في صحيح مسلم عن صُهيب

ـ رضي الله عنه ـ عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «إذا دخل أهلُ الجنة الجنة نادى منادٍ: يا أهل الجنة! إن لكم عند الله مَوعداً يريدُ أن يُـنْجِزَكمـوه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيِّض وجوهنا، ويثقِّل موازيننا؛ ويدخلنا الجنة، ويُجِرْنا من النار؟ قال: فيكشف الحجـاب، فينظرون إليـه، فما أعطاهـم شيئـاً أحبّ إليهم من النظر إليه»[1].

وفي حديث آخر: «فلا يلتفتونَ إلى شيءٍ من النعيم ما داموا ينظرون إليه».

فبيَّن عليه الصلاة والسلام أنهم مع كمال تنعُّمهم بما أعطاهم ربهم في الجنة، لم يعطهم شيئاً أحبّ إليهم من النظر إليه، وإنما كان ذلك أحبّ إليهم؛ لأنَّ ما يحصلُ لهم به من اللذة والنعيم والفرح والسرور وقرة العين، فوق ما يحصلُ لهم من التمتع بالأكل والشرب والحور العين، ولا نسبةَ بين اللذتين والنعيمين ألبتة؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى في حق الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥ ـ ١٦] فجمع عليهم نوعي العذاب: عذاب النار، وعذاب الحجاب عنه سبحانه، كما جمع لأوليائه نوعي النعيم: نعيم التمتع بما في الجنة، ونعيم التمتع برؤيته، وذكر سبحانه هذه الأنواع الأربعة في السورة، فقال في حق الأبرار: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٢ ـ ٢٣] ولقد هضم معنى الآية مَنْ قال: ينظرون إلى أعدائهم يعذبون، أو ينظرون إلى قصورهم وبساتينهم، أو ينظر بعضُهم إلى بعض، وكلُّ هذا عدولٌ عن المقصود إلى غيره، وإنما المعنى ينظرون إلى وجه ربهم، ضد حال الكفار الذين هم عن ربهم لمحجوبون ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٦] وتأمل كيف قابل سبحانه ما قاله الكفار في أعدائهم في الدنيا وسخروا به منهم، بضده في القيامة، فإن الكفار كانوا إذا مر بهم المؤمنون يتغامزون ويضحكون منهم ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢] فقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٣٢) ومسلم (١٨١) والترمذي (٢٥٥٢) وابن ماجه (١٨٧).

[المطففين: ٣٤] مقابلة لتغامزهم وضحكهم منهم، ثم قال: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٥] فأطلق النظر، ولم يقيده بمنظور دون منظور، وأعلى ما نظروا إليه وأجلُّه وأعظمه هو الله سبحانه، والنظر إليه أجلّ أنواع النظر وأفضلها، وهو أعلى مراتب الهداية، فقال بذلك قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢] فالنظر إلى الرب سبحانه مراد من هذين الموضعين ولا بُدَّ، وإما بخصوصه وإما بالعموم والإطلاق، ومَنْ تأمل السياق لم يجدِ الآيتين تحتملان غير إرادة ذلك، خصوصاً أو عموماً[١].

الحب لله وحده:

كل حي له إرادة ومحبة وعمل بحسبه، وكل متحرك فأصل حركته المحبة والإرادة، ولا صلاح للموجودات إلا بأن تكون حركاتها ومحبتها لفاطرها وبارئها وحده، كما لا وجود لها إلا بإبداعه وحده. ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ولم يقل سبحانه: لما وجدتا ولكانتا معدومتين، ولا قال: لعدمتا، إذ هو سبحانه قادر أن يبقيهما على وجه الفساد، لكن لا يمكن أن يكونا على وجه الصلاح والاستقامة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودهما ومعبود ما حوتاه وسكن فيهما، فلو كان للعالم إلّهان لفسد نظامه غاية الفساد، فإن كل إلّه كان يطلب مغالبة الآخر، والعلو عليه، وتفرّده دونه بالإلّهية، إذ الشركة نقص في كمال الإلّهية، والإلّه لا يرضى لنفسه أن يكون إلّهاً ناقصاً، فإن قهر أحدهما الآخر كان هو الإلّه وحده والمقهور ليس بإله، وإن لم يقهر أحدهما الآخر لزم عجز كل منهما ونقصه، ولم يكن تام الإلّهية، فيجب أن يكون فوقهما إلّه قاهر لهما حاكم عليهما، وإلا ذهب كل منهما بما خلق، وطلب كل منهما العلو على الآخر، وفي ذلك فساد أمر السموات والأرض ومن فيهما، كما هو المعهود من فساد البلد إذا كان فيه

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٢٦).

ملكان متكافئان ، وفساد الزوجة إذا كان لها بعلان ، والشَّوْل[1] إذا كان فيه فحلان .

وأصل فساد العالم إنما هو من اختلاف الملوك والخلفاء ، ولهذا لم يطمع أعداء الإسلام فيه في زمن من الأزمنة إلا في زمن تعدد ملوك المسلمين واختلافهم ، وانفراد كل منهم ببلاد ، وطلب بعضهم العلو على بعض .

فصلاح السموات والأرض ، واستقامتهما ، وانتظام أمر المخلوقات على أتم نظام من أظهر الأدلة على أنه لا إلَه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، وأن كل معبود من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل إلا وجهه الأعلى ، قال تعالى : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩١ ـ ٩٢] .

وقال : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢١ ـ ٢٣][2] .

وقال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٤٢] ، فقيل : المعنى لابتغوا السبيل إليه بالمغالبة والقهر ، كما يفعل الملوك بعضهم من بعض ، ويدل عليه قوله في الآية الأخرى : ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴾ [المؤمنون : ٩١] .

قال شيخنا[3] ـ رحمه الله ـ : والصحيح أن المعنى : لابتغوا إليه سبيلاً بالتقرب إليه وطاعته ، فكيف تعبدونهم من دونه؟ وهو لو كانوا آلهة كما يقولون

---

(١) «الشول» : الماء القليل .
(٢) «ينشرون» : يُحيون الموتى .
(٣) يعني : ابن تيمية .

لكانوا عبيداً له ، قال : ويدل على هذا وجوه :

منها : قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء : ٥٧][1] أي : هؤلاء الذين تعبدونهم من دوني هم عبادي كما أنتم عبادي ، ترجون رحمتي وتخافون عذابي ، فلماذا تعبدونهم من دوني؟ .

الثاني : أنه سبحانه لم يقل لابتغوا عليَّ سبيلاً ، بل قال : ﴿ لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٤٢] وهذا اللفظ إنما يستعمل في التقرب ، كقوله تعالى : ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة : ٣٥]. وأما في المغالبة فإنما يستعمل بعلى ، كقوله : ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٣٤].

الثالث : أنهم لم يقولوا إن آلهتهم تغالبه وتطلب العلوَّ عليه ، وهو سبحانه قد قال : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ [الإسراء : ٤٢] وهم إنما كانوا يقولون : إن آلهتهم تبتغي التقرب إليه وتقربهم زلفى إليه ، فقال : لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيداً له ، فلماذا تعبدون عبيده من دونه[2]؟ .

المحبة المحمودة والمحبة المذمومة :

لما كانت المحبة جنساً تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف ، كان أغلب ما يذكر فيها في حق الله تعالى ما يختص به ويليق به من أنواعها ، وما لا تصلح إلا له وحده ، مثل العبادة والإنابة ونحوها ، فإن العبادة لا تصلح إلا له وحده ، وكذلك الإنابة ، وقد تذكر المحبة باسمها المطلق ، كقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة : ٥٤] وقوله : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥].

---

(١) «الوسيلة» : القُرْبة بالطاعة والعبادة .

(٢) الداء والدواء (٣٤١) .

وأعظم أنواع المحبة المذمومة: المحبة مع الله التي يسوِّي المحب فيها بين محبته لله ومحبته للند الذي اتخذه من دونه.

وأعظم أنواعها المحمودة محبة الله وحده ومحبة ما أحب، وهذه المحبة هي أصل السعادة ورأسها التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها، والمحبة المذمومة الشركية هي أصل الشقاوة ورأسها التي لا يبقى في العذاب إلا أهلها، فأهل المحبة الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له لا يدخلون النار، ومن دخلها بذنوبه فإنه لا يبقى فيها منهم أحد.

ومدار القرآن على الأمر بتلك المحبة ولوازمها؛ والنهي عن المحبة الأخرى ولوازمها، وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين، وذكر قصص النوعين، وتفصيل أعمال النوعين وأوليائهم ومعبود كليهما، وإخباره عن فعله بالنوعين، وعن حال النوعين في الدور الثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، والقرآن جاء في شأن النوعين.

وأصل دعوة جميع الرسل عليهم السلام من أولهم إلى آخرهم: إنما هي عبادة الله وحده لا شريك له؛ المتضمنة لكمال حبه، وكمال الخضوع والذل له، والإجلال والتعظيم، ولوازم ذلك: من الطاعة والتقوى.

وقد جاء في الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(١).

وفي صحيح البخاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ: لاَ يَا عُمَرُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ

---

(١) سبق تخريجه ص (٧٦).

نَفْسِي ، قَالَ: الآنَ يَا عُمَرُ»[1] فإذا كان هذا شأن محبة عبده ورسوله ﷺ ووجوب تقديمها على محبة نفس الإنسان وولده ووالده والناس أجمعين ، فما الظن بمحبة مرسله سبحانه وتعالى ، ووجوب تقديمها على محبة ما سواه؟ .

ومحبة الرب سبحانه وتعالى تختص عن محبة غيره في قدرها وصفتها ، وإفراده سبحانه بها ، فإن الواجب له من ذلك كله أن يكون أحب إلى العبد من ولده ووالده ، بل من سمعه وبصره ونفسه التي هي بين جنبيه ، فيكون إلٓهه الحق ومعبوده أحب إليه من ذلك كله ، والشيء قد يُحَبُّ من وجه دون وجه ، وقد يحب بغيره ، وليس شيء يحَب لذاته من كل وجه إلا الله وحده ، ولا تصلح الألوهية إلاَّ له ، و﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾ [الأنبياء: ٢٢] والتأله: هو المحبة والطاعة والخضوع[2].

* * *

(١) رواه البخاري (٦٦٣٢).

(٢) الداء والدواء (٣٣٦).

الفصل الثالث

من آثار المحبة

من آثار المحبة وموجباتها وأحكامها :

قال : «وقيل : المحبَّةُ القيامُ بين يديه وأَنت قاعد ، ومفارقةُ المضجع وأَنت راقد ، والسّكوتُ وأَنت ناطق ، ومفارقةُ المأْلوف والوطن وأَنت مستوطن» .

فيقال : وهذا أيضاً أَثرٌ من آثار المحبّة ، وموجبٌ من موجباتها ، وحكم من أَحكامها . وهو صحيح ، فإِنَّ المحبَّةَ تُوجبُ سفر القلب نحو المحبوب دائماً ، والمحب في وطنه قاطن ، وتوجبُ مثوله وقيامه بين يدي محبوبه وهو قاعد ، وتجافيه عن مضجعه ومفارقته إيّاه وهو فيه راقد ، وفراغه لمحبوبه بكلّه وهو مشغول في الظاهر بغيره . كما قال بعضهم :

وأُديمُ نحو مُحدِّثي لِيَرَىٰ   أَنْ قد عقلتُ وعندكم عَقْلي

وقال بعض المريدين لشيخه : أَيسجدُ القلبُ بين يدي الله؟ فقال : نعم سجدةً لا يرفع رأْسه منه إِلى يوم القيامة .

فهذه سجدةٌ متّصلة بقيامه وقعوده وذهابه ومجيئه وحركته وسكونه . وكذلك يكون جسدهُ في مضجعه وقلبه قد قطع المراحل مسافراً إلى حبيبه ، فإِذا أَخذ مضجعَه اجتمعَ عليه حُبُّه وشوقُه ، فيهزّه المضجعُ إلى مسكنه . كما قال الله تعالى في حقّ المحبين : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾

[السجدة: ١٦][1] فلما تجافت قلوبهم عن المضاجع جافت الجنوبَ عنها، واستخدمتها، وأَمرتها فأَطاعتها. وقال القائل:

نهاري نهارُ النَّاسِ، حتى إِذا بدا   ليَ الليلُ هزَّتني إِليك المضاجعُ[2]

ويُحكى أَنَّ بعضَ الصَّالحين اجتاز بمسجد، فرأَى الشيطان واقفاً ببابه لا يستطيع دخوله، فنظر فإِذا فيه رجلٌ نائم وآخر قائم يصلي. فقال له: أَيمنعك هذا المصلي من دخوله؟ فقال: كلا، إنما يمنعني ذلك الأسدُ الرابض، ولولا مكانه لدخلت.

وبالجملة فقلبُ المحبّ دائماً في سفرٍ لا ينقضي نحو محبوبه، كلما قَطَعَ مرحلة له ومنزلة تبدّت له أُخرى، كما قيل: «إِذا قَطَعْنَ عَلَماً بدا عَلَم»[3]. فهو مسافر بين أَهله، وظاعن وهو في داره، وغريب وهو بين إِخوانه وعشيرته، ويرى كُلّ أَحد عنده ولا يرى نفسه عند أَحد. فقوة تعلّق المحبّ بمحبوبه توجبُ له ألاَّ يستقرّ قلبه دون الوصول إليه، وكلما هدأَتْ حركاتُه وقلَّتْ شواغله اجتمعت عليه شؤون قلبه، بله قوى سيره إلى محبوبه.

ومحكُّ هذا الحال يظهر في مواطن أربعة:

أحدها: عند أخذ مضجعه وتفرّغ حواسّه وجوارحه من الشواغل، واجتماع قلبه على ما يحبّه، فإنه لا ينامُ إلاّ على ذِكْر من يحبّه وشغل قلبه به.

الموطن الثاني: عند انتباهه من النوم، فأَوَّلُ شيء يسبقُ إلى قلبه ذِكْر محبوبه. فإنه إذا استيقظ وردت إليه روحه ودفعها إليه ذكرُ محبوبه الذي كان قد

---

(١) «تتجافى جنوبهم»: ترتفع وتتنحّى للعبادة. «المضاجع»: الفُرُش التي يُضْطجع عليها.

(٢) البيت لقيس بن ذريح كما في الأمالي (٢/٣١٦) وتزيين الأسواق (٩٥) ونُسِب للمجنون في تزيين الأسواق (٩٩).

(٣) هذا شطر بيتٍ لجرير، وتمامه:

....   حتى تناهَيْنَ بنا إلى الحَكَمِ

و«العلم»: الجبل.

غاب عنه في النوم. ولكن كان قد خالط روحه وقلبه ، فلما ردّت إليه الروح أسرع من الطّرف ردّ إليه ذكر محبوبه متّصلاً بها ، مُصاحباً لها. فورد عليه قبل كلّ وارد ، وهجم عليه قبل كلّ طارق. فإذا وردت عليه الشواغلُ والقواطعُ وردت على محلّ ممتلىء بمحبة ما يحبّه فوردت على ساحته من ظاهرها ، فإذا قضى وطره منها قضاه بمصاحبته لما في قلبه من الحب. فإنه قد لزمه ملازمة الغريم لغريمه ولذلك يُسمّى غراماً ، وهو الحب اللازم الذي لا يفارق: فسمع بمحبوبه وأبصر به وبطش به ومشى به ، فصار محبوبه في وجوده في محلّ سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها.

هذا مثلُ محبوبه في وجوده وهو غير متّحد به ، بل هو قائم بذاته مباين له. وهذا المعنى مفهومٌ بين الناس لا ينكره منهم إلاَّ غليظ الحجاب ، أو قليل العلم ، ضعيف العقل ، يجدُ محبوبه قد استولى على قلبه وذكره ، فيظنّ أنه هو نفس ذاته الخارجة قد اتَّحدت به أو حلَّت فيه ، فينشأْ من قسوة الأول وكثافته وغلظ حجابه ، وقلّة علم الثاني ومعرفته وضعف تمييزه ضلال الحلول والاتحاد وضلال الإنكار والتعطيل والحرمان ، ويخرج للبصير من بين فرث ودم ، هذا لبن الفطرة الأُولى خالصاً سائغاً للشاربين.

الموطن الثالث: عند دخوله في الصَّلاة ، فإنها محكّ الأحوال وميزان الإيمان ، بها يُوزنُ إيمانُ الرجل ويتحقّق حاله ومقامه ، ومقدار قربه من الله ونصيبه منه ، فإنها محلُّ المناجاة والقربة ، ولا واسطة فيها بين العبد وبين ربه ، فلا شيءَ أقرّ لعين المحب ولا ألذّ لقلبه ولا أنعم لعيشه منها إن كان محبّاً ، فإنه لا شيء آثر عند المحب ولا أطيب له من خلوته بمحبوبه ، ومناجاته له ، ومثوله بين يديه؛ وقد أقبل محبوبه عليه ، وكان قبل ذلك معذّباً بمقاساة الأغيار ، ومواصلة الخلق ، والاشتغال بهم؛ فإذا قام إلى الصلاة هربَ من سوى الله إليه ، وآوى عنده ، واطمأن بذكره ، وقرّت عينُه بالمثول بين يديه

ومناجاته ، فلا شيءَ أهم إليه من الصلاة ، كأنه في سجن وضيق وغمّ حتى تحضرَ الصَّلاةُ فيجد قلبه قد انفسح وانشرح واستراح ، كما قال النبي ﷺ لبلال: «يا بلال ، أرحنا بالصلاة»[1] ولم يقل: أرحنا منها ، كما يقول المبطلون الغافلون.

وقال بعضُ السَّلف: ليس بمستكمل الإيمان مَن لم يزل في همّ وغمّ حتى تحضر الصلاة فيزول همّه وغمّه ، أو كما قال: فالصَّلاةُ قُرَّةُ عيون المحبّين ، وسرور أرواحهم ، ولذّة قلوبهم ، وبهجة نفوسهم ، يحملون همّ الفراغ منها إذا دخلوا فيها كما يحمل الفارغ البطّال همّها حتى يقضيها بسرعة ، فَلَهُمْ فيها شأن وللنقَّارين شأْن ، يشكون إلى الله سوءَ صنيعهم بها إذا ائتموا بهم ، كما يشكو الغافلُ المعرِضُ تطويلَ إمامه ، فسبحانَ مَن فَاضَلَ بين النفوس وفاوت بينها هذا التفاوت العظيم.

وبالجملة فمن كان قُرَّةُ عينه في الصَّلاة فلا شيءَ أحبّ إليه ولا أنعم عنده منها ، ويودّ أن لو قَطَعَ عمره بها غير مُشتغلٍ بغيرها ، وإنّما يُسلّي نفسه إذا فارقها بأنه سيعودُ إليها عن قرب؛ فهو دائماً يثوبُ إليها ولا يقضي منها وطراً ، فلا يزنُ العبدُ إيمانَه ومحبّته لله بمثل ميزان الصلاة ، فإنها الميزانُ العادل ، الذي وزنه غير عائل[2].

الموطن الرابع: عند الشدائد والأهوال ، فإنَّ القلبَ في هذا الموطن لا يذكر إلاَّ أحبّ الأشياءِ إليه ، ولا يهرب إلاّ إلى محبوبه الأعظم عنده. ولهذا كانوا يفتخرون بذكرهم مَن يحبّونهم عند الحرب واللقاءِ ، وهو كثير في أشعارهم ، كما قال:

ذَكَرْتُكِ والْخَطِّيُّ يَخْطُرُ بيننا وقد نهلتْ منّي المثقّفةُ السُّمرُ[3]

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٦٤) وأبو داود (٤٩٨٥ و٤٩٨٦).

(٢) «عائل»: عال الميزان عَوْلاً: لم يستوِ طرفاه ، فمال أحدُهما وارتفع الآخر.

(٣) البيت لأبي عطاء السندي ، كما في تزيين الأسواق (٤٦٢) وديوان الصبابة (٢٢١).

وقال غيره:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَالرِّمَاحُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بِئْرٍ فِي لَبَانِ الأَدْهَمِ[1]

وقد جاء في بعض الآثار: «يقول تبارك وتعالى: إنَّ عبدي كُلَّ عبدي الذي يَذْكُروني وهو مُلاقٍ قِرْنَه»[2]. والسِّرُّ في هذا ـ والله أعلم ـ أن عند مصائب الشّدائد والأهوال يشتدُّ خوفُ القلب من فوات أحبّ الأشياءِ إليه، وهي حياته التي لم يكن يؤثرها إلاّ لقربه من محبوبه، فهو إنما يحبُّ حياته لِتنعّمه بمحبوبه، فإذا خاف فوتها بدر إلى قلبه ذِكْرُ المحبوب الذي يفوت بفوات حياته. ولهذا ـ والله أعلم ـ كثيراً ما يعرض للعبد عند موته لهجه بما يحبّه وكثرة ذِكْره له، وربما خرجت روحُه وهو يلهج به.

وذكر ابنُ أبي الدنيا في «كتاب المحتضرين» عن زفر[3] ـ رحمه الله ـ أنه جعل يقولُ عند موته: لها ثلاثةُ أخماس الصّداق، لها ربعُ الصّداق، لها كذا حتّى مات؛ لامتلاءِ قلبه ـ رحمه الله ـ من محبّة الفقه والعلم.

وأيضاً فإنه عند الموت تنقطعُ شواغلُه وتبطلُ حواسّه فيظهرُ ما في القلب ويقوى سلطانه، فيبدو ما فيه من غير حاجب ولا مدافع. وكثيراً ما سُمع من بعض المحتضرين عند الموت: شاه مات، و سُمع من آخر بيت شعر لم يزل يُغنِّي به حتى مات وكان مُغنّياً. وأخبرني رجلٌ عن قرابة له أنه حضره عند الموت ـ وكان تاجراً يبيع القماش ـ قال: فجعل يقول: هذه قطعة جيدة، وهذه على

---

(١) البيت لعنترة بن شداد، انظر ديوانه (٢١٦).
«أشطان»: حبال. «لبان»: صدر. «الأدهم»: فرسه.

(٢) رواه الترمذي (٣٥٨٠).
«وهو ملاق قرنه»: يعني: عند القتال.

(٣) هو زُفَر بن الهَذَيل: فقيه كبير. من أصحاب الإمام أبي حنيفة. وُلِّي قضاء البصرة. وهو أحد العشرة الذين دوَّنوا «الكتب». جَمَعَ بين العلم والعبادة. وكان من أصحاب الحديث، فغلب عليه «الرأي» وهو قياس الحنفية. توفي سنة (١٥٨هـ). العبر (١/ ١٧٦) وشذرات الذهب (٢/ ٢٦١) والأعلام (٣/ ٤٥).

قدك ، هذه مشتراها رخيص يُساوي كذا وكذا حتى مات. والحكايات في هذا كثيرة جداً.

فمن كان مشغولاً بالله وبذِكْره ومحبّته في حال حياته وَجَدَ ذلك أحوجَ ما هو إليه عند خروج روحِه إلى الله ، ومَن كان مشغولاً بغيره في حال حياته وصِحَّته فيعسر عليه اشتغاله بالله وحضوره معه عند الموت ما لم تدركه عنايةٌ من ربّه ، ولأجل هذا كان جديراً بالعاقل أن يلزم قلبَه ولسانَه ذكرُ الله حيثما كان لأجل تلك اللحظة التي إن فاتت شقي شقاوة الأبد. فنسأل الله أن يعيننا على ذِكْره وشكره وحسن عبادته[1].

توابع المحبة ولوازمها:

المحبة لها آثار وتوابع ولوازم وأحكام ، سواء كانت محمودة أو مذمومة ، نافعة أو ضارة: من الوجد ، والذوق ، والحلاوة ، والشوق ، والأنس ، والاتصال بالمحبوب والقرب منه ، والانفصال عنه والبعد منه ، والصد والهجران ، والفرح والسرور ، والبكاء والحزن ، وغير ذلك من أحكامها ولوازمها.

والمحبة المحمودة هي المحبة النافعة التي تجلب لصاحبها ما ينفعه في دنياه وآخرته ، وهذه المحبة هي عنوان السعادة ، والضارة هي التي تجلب لصاحبها ما يضره في دنياه وآخرته ، وهي عنوان شقاوته.

ومعلوم أن الحي العاقل لا يختار محبة ما يضرّه ويشقيه ، وإنما يصدر ذلك عن جهل وظلم؛ فإن النفس قد تهوى ما يضرها ولا ينفعها ، وذلك ظلم من الإنسان لنفسه. إما بأن تكون جاهلة بحال محبوبها بأن تهوى الشيء وتحبه غير عالمة بما في محبته من المضرة ، وهذا حال من اتبع هواه بغير علم ، وإما عالمة بما في محبته من المضرة لكن تؤثر هواها على علمها ، وقد تتركب

(١) طريق الهجرتين (٥٥١).

محبتها من أمرين: اعتقاد فاسد ، وهوى مذموم ، وهذا حال من اتبع الظن وما تهوى الأنفس؛ فلا تقع المحبة الفاسدة إلا من جهل أو اعتقاد فاسد أو هوى غالب ، أو ما تركب من ذلك وأعان بعضه بعضاً فتنفق شبهة وشهوة ، شبهة يشتبه بها الحق بالباطل وتزين له أمر المحبوب ، وشهوة تدعوه إلى حصوله ، فيتساعد جيش الشبهة والشهوة على جيش العقل والإيمان ، والغلبة لأقواهما.

وإذا عرف هذا فتوابع كل نوع من أنواع المحبة له حكم متبوعه ، فالمحبة النافعة المحمودة التي هي عنوان سعادة العبد توابعها كلها نافعة له ، وحكمها حكم متبوعها؛ فإن بكى نفعه ، وإن حزن نفعه ، وإن فرح نفعه ، وإن انقبض نفعه ، وإن انبسط نفعه؛ فهو يتقلب في منازل المحبة وأحكامها في مزيد وربح وقربة.

والمحبة الضارة المذمومة توابعها وآثارها كلها ضارة لصاحبها مبعدة له من ربه ، كيفما تقلب في آثارها ونزل في منازلها فهو في خسارة وبعد.

وهذا شأن كل فعل تولَّد عن طاعة ومعصية ، فكل ما تولَّد من الطاعة فهو زيادة لصاحبها وقربة ، وكل ما تولَّد عن المعصية فهو خسران لصاحبه وبُعد ، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠ ـ ١٢١][(١)].

فأخبر سبحانه في الآية الأولىٰ: أن المتولد عن طاعتهم و أفعالهم يكتب لهم به عمل صالح.

وأخبر في الثانية: أن أعمالهم الصالحة التي باشروها تكتب لهم أنفسها ،

---

(١) الداء والدواء (٣٤٣).

والفرق بينهما : أن الأول ليس من فعلهم ، وإنما تولد عنه ، فكتب لهم به عمل صالح ، والثاني نفس أعمالهم فكتب لهم.

فليتأمل قتيل المحبة هذا الفصل حق التأمل ليعلم ما له وما عليه :

سَيَعْلَـمُ يَـوْمَ الْعَـرضِ أيَّ بِضَـاعَـةٍ   أَضَاعَ ، وَعِنْدَ الْوَزْنِ مَا كَانَ حَصَلاَ

* * *




الباب الرابع

روح المحبة وكمالها

الفصل الأول: ضرورة توحيد المحبوب.

الفصل الثاني: متعلقات المحبة.

الفصل الثالث: كمال محبة الله تعالى.




الفصل الأول

ضرورة توحيد المحبوب

توحيد المحبوب:

لا يمكن أن يجتمعَ في القلب حب المحبوب الأعلى وعشق الصور أبداً، بل هما ضدان لا يتلاقيان، بل لا بد أن يخرج أحدهما صاحبه. فمن كانت قوة حبه كلها للمحبوب الأعلى الذي محبة ما سواه باطلة وعذاب على صاحبها؛ صرفه ذلك عن محبة ما سواه، وإن أحبه لم يحبه إلا لأجله، أو لكونه وسيلة إلى محبته، أو قاطعاً له عما يضادّ محبته وينقصها، والمحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب، وأن لا يشرك بينه وبين غيره في محبته، وإذا كان المحبوب من الخلق يأنف ويغار أن يشرك معه محبة غيره في محبته، ويمقته لذلك، ويبعده ولا يحظيه بقربه، ويعدّه كاذباً في دعوى محبته، مع أنه ليس أهلاً لصرف كلّ قوة المحبة إليه، فكيف بالحبيب الأعلى الذي لا تنبغي المحبة إلا له وحده، وكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها ووبال؟ ولهذا لا يغفر الله سبحانه أن يشرك به في هذه المحبة، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء[1].

فمحبة الصور تفوّت محبة ما هو أنفع للعبد منها، بل تفوت محبة ما ليس له صلاح ولا نعيم، ولا حياة نافعة إلا بمحبته وحده، فليختر العبد إحدى المحبتين، فإنهما لا يجتمعان في القلب ولا يرتفعان منه، بل مَنْ أعرض عن

---

(١) قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

محبة الله وذكره والشوق إلى لقائه ابتلاه بمحبة غيره؛ فيعذبه بها في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة ، فإمَّا أن يعذبه بمحبة الأوثان ، أو بمحبة الصُّلبان ، أو المردان ، أو محبة النيران ، أو محبة النسوان ، أو محبة الأيمان ، أو محبة العشراء والإخوان ، أو محبة ما دون ذلك مما هو في غاية الحقارة والهوان؛ فالإنسان عبد محبوبه كائناً من كان. كما قيل:

أَنْتَ الْقَتِيلُ بِكُلِّ مَنْ أَحْبَبْتَهُ ... فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ فِي الْهَوَى مَنْ تَصْطَفِي

فمن لم يكن إلَهه مالكه ومولاه كان إلَهه هواه ، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣][(١)(٢)].

كلمة التوحيد:

هي الكلمة التي قامت بها الأرض والسموات ، وفطر الله عليها جميع المخلوقات ، وعليها أسست الملة ونصبت القبلة ، وجردت سيوف الجهاد ، وهي محض حق الله على جميع العباد ، وهي الكلمة العاصمة للدم والأموال والذرية في هذه الدار ، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار ، وهي المنشور الذي لا يدخل أحد الجنة إلا به ، والحبل الذي لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه ، وهي كلمة الإسلام: ومفتاح دار السلام ، وبها انقسم الناس إلى شقي وسعيد ومقبول وطريد ، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإيمان ، وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان ، وهي العمود الحامل للفرض والسنة و«مَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[(٣)].

روح كلمة التوحيد:

وروح هذه الكلمة وسرها: إفراد الرب جل ثناؤه ، وتقدّست أسماؤه ،

---

(١) أفرأيت»: أخبرني. «غشاوة»: غطاء حتى لا يُبْصر الرُّشْد.

(٢) الداء والدواء (٣١١).

(٣) رواه أحمد (٥/ ٢٣٣ ، ٢٤٧) والحاكم (١/ ٣٥١ ، ٥٠٠).

وتبارك اسمه ، وتعالى جده ، ولا إلّه غيره : بالمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء وتوابع ذلك : من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة ، فلا يحب سواه ، وكل ما يحب غيره فإنما يحب تبعاً لمحبته ، وكونه وسيلة إلى زيادة محبته ، ولا يخاف سواه ، ولا يرجو سواه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يرغب إلا إليه ، ولا يرهب إلا منه ، ولا يحلف إلا باسمه ، ولا ينذر إلا له ، ولا يُتاب إلا إليه ، ولا يُطاع إلا أمرهُ ، ولا يُتاب إلا إليه ، ولا يُطاع إلا أمرهُ ، ولا يُتحسب إلا به ، ولا يُستعان في الشدائد إلا به ، ولا يلتجأ إلا إليه ، ولا يسجد إلا له ، ولا يذبح إلا له وباسمه ، ويجتمع ذلك كله في حرف واحد ، وهو : أن لا يعبد إلا إياه بجميع أنواع العبادة ؛ فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إلّه إلا الله ، ولهذا حرم على النار من شهد أن لا إلّه إلا الله حقيقة الشهادة ، ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾ [المعارج : ٣٣] فيكون قائماً بشهادته في ظاهره وباطنه في قلبه وقالبه ؛ فإن من الناس من تكون شهادة ميتة ، ومنهم من تكون نائمة إذا نبهت انتبهت ، ومنهم من تكون مضطجعة ، ومنهم من تكون إلى القيام أقرب ، وهي في القلب بمنزلة الروح في البدن ، فروح ميتة ، وروح مريضة إلى الموت أقرب ، وروح إلى الحياة أقرب ، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن .

وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ : «إنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لاَ يَقُولُهَا عَبْدٌ عِنْدَ الْمَوْتِ إلاَّ وَجَدَتْ رُوحُهُ لَهَا رُوحاً»[1] فحياة الروح بحياة هذه الكلمة فيها ، كما أن حياة البدن بوجود الروح فيه ، وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها ، فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوى وعيشه أطيب عيش . قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠ ـ ٤١] فالجنة مأواه يوم اللقاء .

(١) رواه أحمد (١ / ٣٧) وابن ماجه (٣٧٩٥) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٢٩٦) .

وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله والشوق إلى لقائه والفرح به والرضا به وعنه؛ مأوى روحه في هذا الدار، فمن كانت هذه الجنة مأواه ها هنا كانت جنة الخلد مأواه يوم الميعاد، ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرماناً، والأبرار في النعيم وإن اشتد بهم العيش وضاقت عليهم الدنيا، والفجار في جحيم وإن اتسعت عليهم الدنيا، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] وطيب الحياة جنة الدنيا، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] فأي نعيم أطيب من شرح الصدر؟ وأي عذاب أمرّ من ضيق الصدر؟.

وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤] فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشاً، وأنعمهم بالاً، وأشرحهم صدراً، وأسرِّهم قلباً، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة.

قال النبي ﷺ: «إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا، قَالُوا: وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: حِلَقُ الذِّكْرِ»[1].

ومن هذا قوله ﷺ: «مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ»[2].

ومن هذا قوله ـ وقد سألوه عن وصاله في الصوم ـ «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أَظَلُّ عَنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي»[3] فأخبر ﷺ أن ما يحصل له من الغذاء عند ذِكْر ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسي، وأن ما يحصل له من ذلك أمر

(١) رواه الترمذي (٣٥١٠) وأحمد (٣/ ١٥٠).
(٢) رواه البخاري (١٨٨٨) ومسلم (١٣٩٠).
«بيتي»: مكان قبري. «روضة من رياض الجنة»: أي: أن العبادة فيه تؤدي إلى الجنة.
(٣) رواه البخاري (١٩٦٣) ومسلم (١١٠٥).

يختص به لا يشاركه فيه غيره ، فإذا أمسك عن الطعام و الشراب فله عنه عوض يقوم مقامه وينوب منابه ، ويغني عنه ، كما قيل:

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْغُلُهَا ... عَنِ الشَّرَابِ وَتُلْهِيهَا عَنِ الزَّادِ
لَهَا بِوَجْهِكَ نُورٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ ... وَمِنْ حَدِيثِكَ فِي أَعْقَابِهَا حَادِي
إِذَا شَكَتْ مِنْ كَلَالِ السَّيرِ أَوْعَدَهَا ... رُوْحُ اللِّقَاءِ ، فَتَحْيَا عِنْدَ ميعادِ

وكلما كان وجود الشيء أنفع للعبد وهو إليه أحوج كان تألمه بفقده أشد ، وكلما كان عدمه أنفع له كان تألمه بوجوده أشد ، ولا شيء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله ، واشتغاله بذكره ، وتنعمه بحبه ، وإيثاره لمرضاته ، بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلا بذلك ، فعدمه آلم شيء له وأشده عذاباً عليه ، وإنما تغيب الروح عن شهود هذا العذاب والألم لاشتغالها بغيره ، واستغراقها في ذلك الغير ، فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم الفوات بفراق أحب شيء إليها وأنفعه لها ، وهذه منزلة السكران المستغرق في سكره الذي احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده ، وهو لاستغراقه في السكر لا يشعر بألم ذلك الفوات وحسرته ، حتى إذا صحا وكشف عنه غطاء السكر وانتبه من رَقْدة الخمر ، فهو أعلم بحاله حينئذٍ.

وهكذا الحال سواء عند كشف الغطاء ومعاينة طلائع الآخرة والإشراف على مفارقة الدنيا ، والانتقال منها إلى الله ، بل الألم والحسرة والعذاب هناك أشد بأضعاف مضاعفة ، فإن المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبته بالعوض ، ويعلم أنه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له ، فكيف بمن مصيبته بلا عوض عنه ، ولا بدل منه ، ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعها؟ فلو قضى الله سبحانه عليه بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديراً به ، فإن الموت ليعود أعظم أمنيته وأكبر حسراته ، هذا لو كان الألم على مجرد الفوات ، فكيف وهناك من العذاب على الروح والبدن بأمور أخرى وجودية ما لا يقدر قدره؟ فتبارك من حمَّل هذا الخلق الضعيف هذين الألمين العظيمين ، اللذين لا تحملهما الجبال الرواسي.

فاعرض الآن على نفسك أعظم محبوب لك في الدنيا ، بحيث لا تطيب لك الحياة إلا معه ، فأصبحت وقد أخذ منك ، وحيل بينك وبينه أحوج ما كنت إليه ، كيف يكون حالك؟ هذا ومنه كل عوض ، فكيف بمن لا عوض عنه؟ كما قيل:

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِذَا ضَيَّعْتَهُ عِوَضٌ ... وَمَا مِنَ اللهِ إِنَّ ضَيَّعْتَهُ عِوَضُ

وفي أثر إلّهي: «ابن آدم ، خلقتك لعبادتي فلا تلعب ، وتكفّلت برزقك فلا تتعب ، ابن آدم ، اطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فِتُّكَ فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء»[1].

الشرك في المحبة:

أصل الشرك بالله: الإشراك في المحبة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] فأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به نداً يحبه كما يحب الله ، وأخبر أن الذين آمنوا أشداً حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم.

وقيل: بل المعنى أنهم أشد حباً لله ، فإنهم وإن أحبوا الله ، لكن لما شرّكوا بينه وبين أندادهم في المحبة ضعفت محبتهم لله ، والموحّدون لله لما خلصت محبتهم له كانت أشد من محبة أولئك ، والعدل برب العالمين ، والتسوية بينه وبين الأنداد هو في هذه المحبة ، كما تقدم.

ولما كان مراد الله من خلقه خلوص هذه المحبة له أنكر على من اتخذ من دونه ولياً أو شفيعاً غاية الإنكار ، وجمع ذلك تارة ، وأفرد أحدهما عن الآخر فقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

---

(١) الداء والدواء (٣٣٢).

[يونس: ٣][1] ، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [السجدة: ٤] ، وقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٥١].

وقال في الإفراد: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٤٣ ـ ٤٤] ، وقال تعالى: ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الجاثية: ١٠].

فإذا والى العبد ربه وحده أقام له الشفعاء ، وعقد الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين فصاروا أولياءه في الله ، بخلاف من اتخذ مخلوقاً ولياً من دون الله.

فهذا لون وذاك لون. كما أن الشفاعة الشركية الباطلة لون ، والشفاعة الحق الثابتة التي إنما تنال بالتوحيد لون ، وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الإشراك ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

* والمقصود: أن حقيقة العبودية لا تحصل مع الإشراك بالله في المحبة ، بخلاف المحبة لله ، فإنها من لوازم العبودية وموجباتها؛ فإن محبة الرسول ـ بل تقديمه في الحب على الأنفس والآباء والأبناء ـ لا يتم الإيمان إلا بها ، إذ محبته من محبة الله ، وكذلك كل حب في الله ولله ، كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ»[2].

وفي لفظ الصحيحين: «لاَ يَجِدُ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ إِلاَّ مَنْ كَانَ فِيهِ ثَلاَثُ خِصَالٍ: ـ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنَّ يُحِبَّ الْمَرْءَ

---

(١) «استوى على العرش»: استواء يليق به سُبحانه.
(٢) سبق تخريجه ص (٢٠).

لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يَلْقَى فِي النَّارِ»[١] .

وفي الحديث الذي في السنن : «مَنْ أَحَبَّ اللهِ ، وَأَبْغَضَ للهِ ، وَأَعْطَى للهِ ، وَمَنَعَ للهِ ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيْمَانَ»[٢] .

وفي حديث آخر : «مَا تَحَابَّ رَجُلانِ فِي اللهِ إِلَّا كَانَ أَفْضَلُهُما أَشَدَّهُمَا حُبّاً لِصَاحِبِهِ»[٣] .

فإن هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها ، وكلما كانت أقوى ، كان أصلها كذلك[٤] .

كمـال الـمحبة :

* ثم الخُلَّة وهي تتضمن كمال المحبة ونهايتها ، بحيث لا يبقى في قلب المحب سعة لغير محبوبه ، وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجه مَّا ، وهذا المنصب خاصّ للخليلَيْن صلوات الله وسلامه عليهما : إبراهيم ومحمد ، كما قال ﷺ : «إِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً»[٥] .

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال : «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً ، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ»[٦] .

وفي حديث آخر : «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى كُلِّ خَلِيلٍ مِنْ خُلَّتِهِ»[٧] .

---

(١) رواه البخاري (٦٠٤١) ومسلم (٤٣) .
(٢) سبق تخريجه ص (٤١) .
(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٤٤) والحاكم (٤/ ١٧١) وأبو يعلى (٣٤١٩) وابن حبان (٥٦٦) والبزار كما في كشف الأستار (٣٦٠٠) .
(٤) الداء والدواء (٣٢٠) .
(٥) سبق تخريجه ص (١٨٤) .
(٦) سبق تخريجه ص (١٨٤) .
(٧) رواه أحمد (١/ ٣٧٧ و٤٠٩) ومسلم (٢٣٨٣) والترمذي (٣٦٥٥) .

ولما سأل إبراهيم عليه السلام الولد فأعطيه ، وتعلق حبّه بقلبه ، فأخذ منه شعبة ، غار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره ، فأمره بذبحه ، وكان الأمر في المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاء وامتحاناً ، ولم يكن المقصود ذبح الولد ، ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب ، فلما بادر الخليل إلى الامتثال ، وقدم محبة ربه على محبة ولده ، حصل المقصود فرفع الذبح ، وفُدِيَ الولدُ بذبحٍ عظيم ، فإن الرب تعالى ما أمر بشيء ثم أبطله رأساً ، بل لا بدّ أن يبقى بعضه أو بَدَله كما أبقى شريعة الفداء وكما أبقى استحباب الصدقة بين يدي المناجاة ، وكما أبقى الخمس صلوات بعد رفع الخمسين وأبقى ثوابها ، وقال: «لا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ، هِيَ خَمْسٌ فِي الْفِعْلِ ، وَهِيَ خَمْسُونَ فِي الأَجْرِ»[١][٢].

المحبة والخلة:

* وأما ما يظنه بعض الغالطين أن المحبة أكمل من الخلة ، وأن إبراهيم خليل الله ، ومحمد ﷺ حبيب الله ، فَمِنْ جهله ، فإن المحبة عامة ، والخلة خاصة. والخلة نهاية المحبة ، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله اتخذه خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ونفى أن يكون له خليل غير ربه ، مع إخباره بحبه لعائشة[٣] ولأبيها[٤] ، ولعمر بن الخطاب[٥] وغيرهم.

وأيضاً فإن الله سبحانه ﴿ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٢) ومسلم (١٦٣).

(٢) الداء والدواء (٣٢٤).

(٣) قال ﷺ: «يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة ، فإنه واللهِ ما نزل عليَّ الوحيُ وأنا في لحاف امرأةٍ منكنّ غيرها» رواه البخاري (٢٥٨١).

(٤) سأل عمرو بن العاص النبي ﷺ: «أيّ الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة» قال: من الرجال؟ فقال: «أبوها» رواه البخاري (٣٦٦٢).

(٥) قال ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدّثون ، فإنْ يكُ في أمتي أحدٌ فإنه عمر». رواه البخاري (٣٦٨٩).

و﴿ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦] و﴿ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٨] و﴿ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة: ٤٢] والشاب التائب حبيب الله، وخلّته خاصة بالخليلين، وإنما هذا من قلة العلم والفهم عن الله ورسوله ﷺ[١].

* * *

(١) الداء والدواء (٣٢٥).

الفصل الثاني

متعلقات المحبة

الشـــوق:

قال أبو العباس: «وأما الشوق فهو هبوبُ القلب إلى غائب، وإعواز الصبر عن فقده، وارتياح السِّرّ إلى طلبه. وهو من مقامات العوام، فأمّا الخواص فهو عندهم علّة عظيمة لأنّ الشَّوقَ إنما يكونُ إلى غائب. ومذهب هذه الطائفة إنما قامَ على المشاهدة، والطريق عندهم أن يكون العبد غائباً والحقّ ظاهراً. ولهذا المعنى لم ينطلقْ بالشوق كتابٌ ولا سُنَّة صحيحة. إلا أن الشوق مخبر عن بُعد ومشير إلى غائب، وهو يطلع إلى إدراك: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وقيل:

ولا معنى لشكوى الشَّوقِ يوماً إلى من لا يزولُ عن العيان»

اختلفَ النَّاسُ في الشَّوق والمحبّة أيّهما أعلى؟ فقالت طائفةٌ: المحبّةُ أعلى من الشوق. هذا قول ابن عطاءِ الله وغيره. واحتجُّوا بأنَّ الشَّوقَ غايتُه أن يكونَ أثراً من آثار المحبة، ومُتولداً عنها: فهي أصلُه وهو فرعها. قالوا: والمحبَّةُ توجبُ آثاراً كثيرةً، فمن آثارها الشوق.

وقالت طائفة منهم سري السَّقطي وغيره: الشوق أعلى. قال الجنيد: سمعتُ السري يقول: الشوق أجلُّ مقامات العارف، إذا تحقّق في الشوق لها عن كُلِّ شيء يشغله عمّن يشتاقُ إليه. وإنما يظهر سِرُّ المسألة بذكر فصلين:

الأول: في حقيقة الشوق.

والثَّاني: في الفرق بينه وبين المحبّة.

ويتبع ذلك خمسُ مسائل:

إحداها: هل يجوز إطلاقه على الله كما يطلقُ عليه أنه يحبّ عباده أم لا؟.

الثانية: هل يجوز إطلاقه على العبد، فيقالُ يشتاق إلى الله كما يقال يحبه؟.

الثالثة: أنه هل يقوى بالوصول والقرب، أم يضعفُ بهما؟ فأيّ الشوقين أعلى: شوق القريب الداني، أو شوق البعيد الطالب؟.

الرابعة: ما الفرق بينه وبين الاشتياق، فهل هما بمعنى واحد أم بينهما فرق؟.

الخامسة: في بيان مراتبه وأقسامها ومنازل أهله فيه.

الفصل الأول: في حقيقته. الشوق: هو سَفَرُ القلب في طلب محبوبه، بحيث لا يقرّ قراره حتى يظفرَ به ويحصلَ له. وقيل: هو لهيبُ ينشأ بين أثناءِ الحشا، سببه الفرقة. فإذا وقع اللقاءُ أطفأ ذلك اللهيبَ. وقيل: الشَّوقُ هبوبُ القلب إلى محبوب غائب. وقال ابن خفيف: الشوقُ ارتياحُ القلوب بالوجد، ومحبة اللقاء والقرب، وقيل: الشوق نزوع القلب نحو المحبوب من غير منازع. ويقال: الشوق انتظار اللقاء بعد البعاد. فهذه الحدودُ ونحوها مشتركةٌ في أنَّ الشَّوقَ إنما يكونُ مع الغيبة من المحبوب، وأما مع حضوره ولقائه فلا شوقَ. وهذه حُجّة مَن جعل المحبة أعلى منه؛ فإنَّ المحبة لا تزولُ باللقاءِ، وبهذا يتبيَّنُ الكلامُ في الفصل الثاني، وهو الفرق بينه وبين المحبة.

الفصل الثاني: والفرقُ بينهما فرقُ ما بين الشيء وأثره. فإنَّ الحاملَ على الشوق هو المحبّة؛ ولهذا يُقالُ: لمحبّتي له اشتقتُ إليه وأحببتُه فاشتقتُ إلى لقائه. ولا يقال: لشوقي إليه أحببته، ولا اشتقتُ إلى لقائه فأحببته. فالمحبَّةُ بَذْرٌ في القلب. والشوقُ بعض ثمرات ذلك البذر. وكذلك من ثمراتها حَمْدُ

المحبوب والرِّضا عنه وشكره ، وخوفه ورجاؤه ، والتنعّم بذكره ، والسكون إليه ، والأُنس به ، والوحشة بغيره ، وكلُّ هذه من أحكام المحبة وثمراتها ، وهو حياتها ، فمنزلةُ الشوق من المحبة منزلةُ الهرب من البغضاءِ والكراهة : فإنَّ القلبَ إذا أبغضَ الشيءَ وكرهه جدّ في الهرب منه ، وإذا أحبه جدَّ في الهرب إليه وطلبه ، فهو حركة القلب في الظفر بمحبوبه . ولشدَّة ارتباطِ الشوق بالمحبة يقعُ كُلُّ واحدٍ منهما موقعَ صاحبه ويفهم منه ويعبِّر عنه(١) .

مسائل في المحبة :

وأما المسائل الخمس :

فإحداها : هل يجوزُ إطلاقه على الله تعالى؟ فهذا مما لم يرد به القرآنُ ولا السُّنَّةُ بصريح لفظه . قال صاحب «منازل السائرين» وغيره : وسببُ ذلك أنَّ الشوقَ إنما يكونُ لغائب . ومذهبُ هذه الطائفة إنما قامَ على المشاهدة ، ولهذا السبب عندهم لم يجىء في حقّ الله ولا في حقّ العبد . وجوزت طائفة إطلاقه كما يطلق عليه سبحانه المحبة ، ورووا في أثر أنه يقول : «طال شوقُ الأبرارِ إلى لقائي ، وأنا إلى لقائهم أشوقُ»(٢) .

قالوا : وهذا الذي تقتضيه الحقيقة ، وإن لم يرد به لفظ صريح . فالمعنى حقّ ، فإنّ كُلَّ مُحِبٍّ فهو مشتاقٌ إلى لقاءِ محبوبه .

قالوا : وأما قولُكم إنَّ الشوقَ إنما يكونُ إلى الغائب وهو سبحانه لا يغيب عن عبده ولا يغيب العبدُ عنه ، فهذا حضورُ العلم ، وأما اللقاءُ والقربُ فأمرٌ آخر ، فالشوقُ يقعُ بالاعتبار الثاني وهو قرب الحبيب ولقاؤه والدنو منه ، وهذا له أجلٌ مضروبٌ لا ينالُ قبله . قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ ﴾ [العنكبوت : ٥] قال أبو عثمان الحيري(٣) : هذا تعزيةٌ للمشتاقين ،

---

(١) طريق الهجرتين (٥٩٠) .

(٢) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٣/ ١٣٥٩) .

(٣) هو سعيد بن إسماعيل : كان أوحد المشايخ في سيرته ، صحب أبا حَفْص في نيسابور ، =

معناه: إني أعلم أن اشتياقكم إليَّ غالب ، وأنا أجّلت للقائكم أجلاً ، وعن قريبٍ يكون وصولُكم إلى مَنْ تشتاقون إليه.

والصواب أن يقال: إطلاقُه مُتوقِّفٌ على السمع ، ولم يردْ به ، فلا ينبغي إطلاقه. وهذا كلفظ العشق أيضاً ، فإنه لما لم يردْ به سمع فإنه يمتنع إطلاقه عليه سبحانه. واللفظُ الذي أطلقه سبحانه على نفسه وأخبر به عنها أتمّ من هذا وأجلّ شأْناً وهو لفظ المحبة ، فإنه سبحانه يوصف من كلّ صفة كمال بأكملها وأجلّها وأعلاها ، فيوصفُ من الإرادة بأكملها وهو الحكمة وحصول كُلّ ما يريد بإرادته كما قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

وبإرادة اليسر لا العسر كما قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وبإرادة الإحسان وإتمام النعمة على عباده كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

فإرادة التوبة لله وإرادة الميل لمبتغي الشهوات. وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وكذلك الكلام يصفُ نفسه منه بأعلى أنواعه كالصِّدق والعدل والحقّ ، وكذلك الفعل يصفُ نفسه منه بأكمله وهو العدل والحكمة والمصلحة والنعمة. وهكذا المحبّةُ وصف نفسه منها بأعلاها وأشرفها ، فقال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] و﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ، و﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] و﴿يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. ولم يصف نفسه بغيرها من العلاقة والميل والصَّبابة والعشق والغرام ونحوها ، فإنَّ مُسمَّى

= وأخذ عنه طريقته. توفي سنة (٢٩٨هـ). طبقات الصوفية (١٧٠) وحلية الأولياء (١٠/ ٢٤٤).

المحبة أشرفُ وأكملُ من هذه المسمَّيات ، فجاءَ في حقّه إطلاقه دونها.

وهذه المسميات لا تنفكُّ عن لوازم ومعان تنزّه تعالى عن الاتّصاف بها ، وهكذا جميعُ ما أطلقه على نفسه من صفاته العلى أكملُ معنى ولفظاً مما لم يطلقه؛ فالعليمُ الخبيرُ أكملُ من الفقيه والعارف ، والكريم الجواد أكمل من السَّخي ، والخالقُ البارىءُ المصوِّرُ أكملُ من الصَّانع الفاعل ، ولهذا لم تجىءْ هذه في أسمائه الحسنى ، والرحيمُ والرؤوف أكمل من الشفيق والمشفق ، فعليكَ بمراعاة ما أطلقه سبحانه على نفسه من الأسماءِ والصفات والوقوف معها ، وعدم إطلاق ما لم يطلقْهُ على نفسه ما لم يكن مُطابقاً لمعنى أسمائه وصفاته ، وحينئذ ينطلق المعنى لمطابقته له دون اللفظ ولا سيما إذا كان مجملاً أو منقسماً إلى ما يمدح به ، وغيره فإنه لا يجوز إطلاقه إلاَّ مقيّداً ، وهذا كلفظ الفاعل والصانع؛ فإنه لا يطلق عليه في أسمائه الحسنى إلاّ إطلاقاً مقيّداً أطلقه على نفسه كقوله: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: ١٦] ، ﴿ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ، وقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

فإن اسمَ الفاعل والصانع منقسمُ المعنى إلى ما يمدحُ عليه ويذمّ ، ولهذا المعنى ـ والله أعلم ـ لم يجىءْ في الأسماء الحسنى المريد كما جاءَ فيها السميع البصير ، ولا المتكلِّم ولا الآمرُ النَّاهي لانقسام مسمى هذه الأسماء ، بل وصف نفسه بكمالاتها وأشرف أنواعها.

ومن هنا يعلم غلط بعضُ المتأخرين وزلقه الفاحش في اشتقاقه له سبحانه من كل فعل أخبر به عن نفسه اسماً مطلقاً ، فأدخله في أسمائه الحسنى! فاشتق له اسم الماكر ، والخادع ، والفاتن ، والمضلّ ، والكاتب ، ونحوها من قوله: ﴿ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ﴾ [الأنفال: ٣٠][(١)] ، ومن قوله: ﴿ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾

---

(١) «يمكر الله»: المكر من الله: جزاء المكذِّبين بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون. ومِنْ مَكْر الله تعالى: إمهالُ العبد ، وتمكينه من أغراض الدنيا.

[النساء: ١٤٢][(١)]، ومن قوله: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١][(٢)]، ومن قوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ٢٧][(٣)]، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ [المجادلة: ٢١] وهذا خطأ من وجوه:

أحدها: أنه سبحانه لم يطلقْ على نفسه هذه الأسماءَ، فإطلاقها عليه لا يجوز.

الثاني: أنه سبحانه إنّما أخبر عن نفسه بأفعال مختصّة مقيّدة، فلا يجوزُ أن ينسبَ إليه مسمّى الاسم عند الإطلاق.

الثالث: أنّ مسمّى هذه الأسماءِ منقسمٌ إلى ما يمدح عليه المسمّى به، وإلى ما يذمّ. فيحسن في موضع، ويقبح في موضع. فيمتنعُ إطلاقه عليه سبحانه في موضع، ويقبح في موضع. فيمتنع إطلاقه عليه سبحانه من غير تفصيل.

الرابع: أن هذه ليست من الأسماءِ الحسنى التي يسمّى بها سبحانه؛ فلا يجوز أن يُسمّى ما كان اسماً للرب تعالى، كلها حُسنى؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وهي التي يحب سبحانه أن يثني عليه ويحمد بها دون غيرها.

الخامس: أن هذا القائل لو سمّي بهذه الأسماء، وقيل له: هذه مدحتك وثناءٌ عليك، فأنت الماكر الفاتن المخادع المضلّ اللاعن الفاعل الصانع ونحوها لما كان يرضى بإطلاق هذه الأسماءِ عليه وتعدّها مدحة، ولله المثلُ الأعلى سبحانه وتعالى عمّا يقولُ الجاهلون به علواً كبيراً.

السادس: أن هذا القائل يلزمه أن يجعلَ من أسمائه اللاعن، والجائي

---

(١) «خادعهم»: أي: أن الله تعالى هو المجازي جزاء خداع الضالين.

(٢) «لنفتنهم فيه»: لنجعله فتنة لهم.

(٣) «يضل من يشاء»: أي يَضِلُّ الإنسانُ، فَيَحْكُم اللهُ عليه بذلك في الدنيا، ويَعْدِل به عن طريق الجنة إلى النار في الآخرة، وذلك إضلالٌ هو حقٌّ وعَدْل.

والآتي ، والذاهب والتارك ، والمقاتل والصادق ، والمنزل والنازل ، والمدمدم والمدمِّر ، وأضعاف أضعاف ذلك ، فيشتقّ له اسماً من كُلِّ فعلٍ أخبر به عن نفسه ، وإلاّ تناقض تناقضاً بيّناً ، ولا أحد من العقلاءِ طرد ذلك ، فعلم بطلان قوله ، والحمد لله رب العالمين.

وأما **المسألة الثانية** وهي: هل يطلق على العبد أن يشتاق إلى الله وإلى لقائه؟ فهذا غير ممتنع، فقد روى الإمام أحمد في مسنده والنسائي وغيرهما من حديث حمّاد بن سلمة ، عن عطاءِ بن السَّائب ، عن أبيه ، قال: صلَّى بنا عمّارُ بنُ ياسر صلاةً فأوْجَزَ فيها، فقلتُ: خَفَّفْتَ يا أبا اليقظان، فقال: وما عليَّ من ذلك ولقد دعوتُ الله بدعواتٍ سمعتُها من رسول الله ﷺ. فلما قام تبعه رجلٌ من القوم فسأله عن الدعوات ، فقال: «اللهمَّ بِعِلْمِكَ الغيبَ وقُدْرَتِكَ على الخَلْقِ أَحْيِني مَا عَلِمْتَ الحياةَ خيراً لي ، وتوفَّني إذا عَلِمْتَ الوفاةَ خَيراً لي. اللهم إني أسأَلُكَ خَشْيَتَكَ في الغيب والشَّهادة ، وأسأَلُكَ كَلِمَةَ الحقِّ في الغضب والرِّضا ، وأسألك القصدَ في الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا يَنْفَدُ، وأسأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لا تنقطعُ، وأسأَلُكَ الرِّضَا بعد القضاء، وأسأَلُكَ بَرْدَ العيشِ بعد الموت، وأسألك لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وجهك والشَّوْقَ إلى لقائك؛ في غير ضَرَّاءِ مُضِرَّةٍ ولا فتنةٍ مُضِلَّةٍ. اللهم زيِّنَّا بزينةِ الإيمان، واجعلنا هُدَاةً مهتدين»[1].

فهذا فيه إثبات لذَّةِ النظر إلى وجهه الكريم ، وشوق أحبابه إلى لقائه. فإنَّ حقيقةَ الشوق إليه هو الشوقُ إلى لقائه ، قال أبو القاسم القشيري: سمعت الأُستاذ أبا علي يقول في قوله ﷺ: «أسأَلُكَ الشَّوْقَ إلى لقائك» قال: كان الشوقُ مئة جزءٍ ، فتسعة وتسعون له ، وجزءٌ متفرّق في الناس: فأراد أن يكون ذلك الجزءُ له أيضاً ، فغار أن تكون شظية من الشوق في غيره[2].

---

(١) سبق تخريجه ص (١٧٦).
«القصد»: التوسُّط بلا إفراط ولا تفريط.

(٢) الرسالة القشيرية (٣٣٢).

قال: وسمعته يقول في قول موسى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤] قال: معناه شوقاً إليك، فستره بلفظ الرضا[١]. وهذا أكثر مشايخ الطريق يطلقونه ولا يمتنعون منه. وقيل: إنَّ شعيباً بكى حتى عمي بَصَرُهُ، فأوحى الله إليه: إن كان هذا لأجل الجنة فقد أبحتُها لك، وإن كان لأجل النَّار فقد أجرتُك منها. فقال: لا، بل شوقاً إليك[٢].

وقال بعض العارفين: من اشتاقَ إلى اللهِ اشتاقَ إليه كُلُّ شيء.

وقال بعضُهم: قلوبُ العاشقين منوَّرة بنور الله، فإذا تحرَّك اشتياقُهم أضاء النورُ ما بين السماء والأرض، فيعرضهم اللهُ على الملائكة فيقول: هؤلاءِ المشتاقون إليّ، أشهدكم أني إليهم أشوق، وإذا كان الشوقُ هو سَفَرُ القلب في طلب محبوبه ونزوعه إليه فهو من أشرف مقامات العبيد وأجلّها وأعلاها، ومن أنكر شوق العبد إلى ربه فقد أنكر محبته له، لأنَّ المحبة تستلذ الشوق، فالمحب دائماً مشتاق إلى لقاءِ محبوبه، لا يهدأُ قلبه ولا يقر قراره إلا بالوصول إليه.

فأما قوله: «إنَّ الشوقَ عند الخواصّ عِلَّةٌ عظيمةٌ، لأنَّ الشَّوقَ إنما يكونُ إلى غائب، ومذهب هذه الطائفة إنما قام على المشاهدة».

فيقال: المشاهدةُ نوعان: مشاهدة عرفان، ومشاهدة عيان. وبينهما من التفاوت ما بين اليقين والعيان. ولا ريبَ أن مشاهدةَ العرفان متفاوتةٌ بحسب تفاوت الناس بالمعرفة ورسوخهم فيها، وليس للمعرفة نهايةٌ تنتهي إليها بحيث إذا وصل إليها العارفُ سكن قلبه عن الطلب، بل كُلّما وصل منها إلى مَعْلَم ومنزلة اشتدَّ شوقُه إلى ما وراءَه، وكلما ازداد معرفة ازداد شوقاً، فشوقُ العارف أعظمُ الشوق؛ فلا يزالُ في مزيدٍ من الشوق ما دام في مزيدٍ من

(١) الرسالة القشيرية (٣٣١).
(٢) المصدر السابق (٣٣٣).

المعرفة ، فكيف يكون الشوقُ عنده علّةً عظيمة؟ هذا من المحال البين. بل من عرف الله اشتاق إليه ، وإذا كانت المعرفة لا نهاية لها فشوق العارف لا نهاية له. هذا مع الشوق الناشىء عن طلب اللقاءِ والرؤية والمعرفة العيانية ، فإذا كان القلب حاضراً عند ربه وهو غير غائب عنه لم يوجب له هذا ألاَّ يكون مشتاقاً إلى لقائه ورؤيته ، بل هذا يكون أتم لشوقه وأعظم.

فظهر أنَّ قوله «وإنَّ الشوقَ علّة عظيمة في طريق الخواص» كلام باطل على كل تقدير ، وإن الشوق بالحقيقة إنما هو شوق الخواص العارفين بالله ، والعبد إذا كان له مع الله حال أو مقام وكشف له عما هو أفضل منه وأجلّ اشتاقَ إليه بالضَّرورة ، ولم يكن شوقُه عِلَّةً له ونقصاً في حاله بل زيادة وكمالاً ، ويكون تركُ الشوقِ هو العِلّة. وقد تقدَّم أن لا غايةَ للمعرفة تنتهي إليها فيبطلُ الشوقُ بنهايتها ، بل لا يزالُ العارفُ في مزيدٍ من معرفته وشوقه ، والله المستعان.

وأما **المسألة الثالثة** وهي: هل يزول الشوق باللقاءِ أم يقوى؟ فقالت طائفة: الشوقُ يزولُ باللقاءِ ، لأنّه طَلَبٌ ، فإذا حصلَ المطلوبُ زالَ الطلبُ ، لأنَّ تحصيلَ الحاصل محالٌ ، ولا معنى للشوق إلى شيء حاصلٍ وإنما يكون الشوقُ إلى شيءٍ مراد الحصول محبوب الإدراك ، وقالت طائفة أُخرى: ليس كذلك بل الشوق يزيد بالوصل و اللقاءِ ويتضاعف بالدنوّ؛ ولهذا قال القائل:

وأعظَمُ مَا يكونُ الشَّوقُ يوماً … إذا دَنَتِ الدِّيارُ مِنَ الدِّيَار

ولهذا قال بعضُهم: شوقُ أهل القرب أتمّ من شوق المحبوبين. واحتجَّتْ هذه الطائفةُ بأنَّ الشوقَ من آثار الحبّ ولوازمه ، فكما أنَّ الحبَّ لا يزولُ باللقاءِ فهكذا الشوقُ الذي لا يفارقه.

قالوا: ولهذا لا يزالُ الرضا والحمد والإجلال والمهابة ـ التي هي من آثار المحبّة ـ باللقاءِ ، فهكذا الشّوقُ يتضاعفُ ولا يزولُ ، والقولان حقّ.

وفصلُ الخطاب في المسألة أنَّ المحبَّ إذا اشتاقَ إلى لقاءِ محبوبه؛ فإذا حصل له اللقاءُ زال ذلك الشوق الذي كان متعلّقاً بلقائه وخلفه شوق آخر أعظم

منه وأبلغ إلى مزيد قربه والحظوة عنده ، وأما إذا قدّر أنه لقيه ثم احتجب عنه ازداد شوقه إلى لقاء آخر ، ولا يزال يحصلُ له الشوق كلما احتجب عنه ، فهذا لا ينقطعُ شوقُه أبداً ، فهو إذا رآه بلّ شوقه برؤيته ، وإذا زال عنه الطرف عاوده الشوقُ ، كما قيل:

ما يرجعُ الطّرفُ عنه عِنْدَ رُؤْيَتِهِ ... حَتَّى يَعُودَ إليه الطّرْفُ مُشْتَاقا

وإنما الشأْنُ في دوام الشوق حال الوصول واللقاءِ ، فاعلم أَنَّ الشوقَ نوعان: شوقٌ إلى اللقاءِ ، فهذا يزولُ باللقاءِ. وشوقٌ في حال اللقاءِ ، وهو تعلّق الروح بالمحبوب تعلّقاً لا ينقطعُ أبداً ، فلا تزالُ الروحُ مشتاقةً إلى مزيد هذا التعلق وقوته اشتياقاً لا يهدأُ. وقد أفصحَ بعضُ المحبّين للمخلوق عن هذا المعنى بقوله:

أُعَانِقُها والنَّفْسُ بعدُ مشوقةٌ ... إليها وهل بعد العناقِ تَدَانِ

وألثمُ فاها كي تزولَ صَبَابَتِي ... فَيَشْتَدُّ ما ألقى مِنَ الهيمانِ[1]

فالشوقُ في حال الوصل والقرب إلى مزيد النعيم واللذّة لا ينقطع ، والشوق في حال السير إلى اللقاءِ ينقطع . ونستغفرُ الله من الكلام فيما لسنا بأهل له:

فالخوفُ أولى بالمسي ... ءِ إذا تألّه والْحَزَنْ

والحبُّ يجملُ بالتّقِيّ ... وبالنقيِّ من الدَّرَنْ

لكن إذا ما لم يحبكم المسيءُ إذاً فمن؟!

وإذا تخوّن فعلنا ... فعل المحبّة مؤتمن

أيحبُّ شيء غيركم ... وحياتكم كلا ولن

أيحبّ من يأْتي محبّـ ... ـته بأنواعِ المحن

والسعدُ فيها ذابحٌ ... والقلبُ فيها ممتحن

دُونَ الَّذِي في حُبِّه ... نيلُ السَّعادةِ والمنن

ومحل بدر كمالها ... سعد السعود في الوطن

(١) البيتان لابن الرومي كما في تزيين الأشواق (٣٢).

والقلبُ حين يحلّ في ... تلك المنازل والدِّمَن
يُمسي ويُصبحُ من رضا ... ه ومن مُناه في وطن
أيحبّهم قلبٌ ويخـ ... ـشى أن يُضامَ؟ فلا إذن

وأما **المسألة الرابعة** وهي: الفرقُ بين الشوق والاشتياق ، فقال أبو عبد الرحمن السّلمي: سمعت النصر أباذي يقول: للخلق كلّهم مقام الشوق ، وليس لهم مقام الاشتياق. ومَن دَخَلَ في حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له أثر ولا قرار. وهذا يدلُّ على أنَّ الاشتياقَ عنده غير الشوق. ولا ريبَ أنَّ الاشتياقَ مصدر اشتاقَ يشتاقُ اشتياقاً ، كما أن التشوّقَ مصدر تشوّق تشوّقاً ، والشَّوقُ في الأصل اسم مصدر شاقه يشوقه شوقاً مثل شاقه شوقاً إذا دعاه إلى الاشتياق ، فالاشتياق مطاوع شاقه. يقال: شاقني فاشتقت إليه ، ثم صار الشوقُ اسم مصدر الاشتياق ، وغلب عليه حتى لا يفهم عند الإطلاق إلا الاشتياق القائم بالمشوق ، والمشوق هو الصّبّ المشتاق ، والشائقُ هو الذي قام به داعي الشوق.

فها هنا ألفاظ الشوق والاشتياق والتشوّق والشائق والمشوق والشيّق. فهذه ستة ألفاظ:

أحدها: الشوق ، وهو في الأصل مصدر الفعل المتعدي شاقه يشوقه ، ثم صار اسم مصدر الاشتياق.

اللفظ الثاني: الاشتياق ، وهو مصدر اشتاق اشتياقاً ، والفرقُ بينه وبين الشّوق هو الفرقُ بين المصدر واسم المصدر.

اللفظ الثالث: التّشوّق ، وهو مصدر تشوّق إذا اشتاقَ مرّة بعد مرّة ، كما يقال: تجرّع وتعلّم وتفهّم ، وهذا البناءُ مُشْعِرٌ بالتكلّف وتناول الشيء على مهلة.

اللفظ الرابع: الشائق: وهو الدّاعي للمشوق إلى الاشتياق.

واللفظ الخامس: المشوق ، وهو المشتاق الذي قد حصل له الشوق.

اللفظ السادس: الشَّيِّق ، وهو فيعل بمنزلة هيّن وليّن ، وهو المشتاق. فهذه فروق ما بين هذه الألفاظ.

وأمّا كونُ الاشتياق أبلغ من الشوق فهذا قد يُقالُ فيه إنه الأصل ، وهو أكثر حروفاً من الشوق ، وهو يدلُّ على المصدر والفاعل. وأما الشوق ففرع عليه لأنّه اسمُ مصدر وأقلّ حروفاً ، وهو إنّما يدلُّ على المصدر المجرّد ، فهذه ثلاثةُ فروقٍ بينها. والله أعلم.

وأما **المسألةُ الخامسةُ**: وهي في مراتب الشوق ومنازله ، فقال صاحب «منازل السائرين»: «هو على ثلاث درجات:

الدرجة الأُولى: شوق العابد إلى الجنة؛ ليأْمن الخائف ، ويفرح الحزين ، ويظفر الآمل.

والدرجة الثانية: شوق إلى الله عزّ وجلّ ، زرعه الحب الذي يَنْبُتُ على حافات المنن ، فعلق قلبه بصفاته المقدسة ، واشتاق إلى معانيه لطائف كرمه ، وآيات بِرّه ، وعلامة فضله. وهذا شوق تغشاه المبارُّ ، وتخالجه المسارُّ ، ويقاومه الاصطبار.

والدرجة الثالثة: نار أضرمها صفو المحبة ، فنغصت العيش ، وسَلَبَت السلوة ، ولم يُنَهْنِهْهَا مَعْزىً دون اللقاءِ».

قلت: الدرجة الأُولى: هي شوقٌ إلى فضل الله وثوابه. والثانية: شوقٌ إلى لقائه ورؤيته. والثالثة: شوقٌ إليه لا لِعِلّةٍ ولا لسبب ولا ملاحظة فيه غير ذاته. فالأول: حظّ المشتاق من إفضاله وإنعامه ، والثاني: حظّه من لقائه ورؤيته ، والثالث: قد فنيت فيه الحظوظُ ، واضمحلت فيه الأقسام.

وقوله في الدرجة الأُولى: «ليأْمن الخائف ، ويفرح الحزين ، ويظفر الآمل» هذه ثلاث فوائد ذكرها في هذا الشوق: أمن الخائف ، وفرح الحزين ، والظفر بالأمل. فهذه المقاصدُ لمّا كانت حاصلة بدخول الجنة كانت مصوّرة

للنفس أشدّ الشوق إلى حصول هذه المطالب وهي الفوز والفرح. وجماع ذلك أمران: أحدهما: النَّجاةُ من كل مكروه، والثاني: الظفرُ بكل محبوب. فهذان هما المشوِّقان إلى الجنة.

وقوله في الثانية: «شوق إلى الله زرعه الحب» قد تقدَّم أنَّ الشَّوقَ ثمرةُ الحبّ. وقوله: «الذي ينبتُ على حافات المنن» أي: أنشأه الفكر في منن الله وأياديه وأنعامه المتواترة، وفيه إشارة إلى أنَّ هذا الحبَّ الذي هو نابت على الحافات والجوانب بعده حبّ أكمل منه وهو الحب الناشيء من شهود كمال الأسماءِ والصفات، وذلك ليس من نبات الحافات ولكن من الحبّ الأول يدخلُ في هذا كما تقدَّم، ولهذا قال: «تعلق قلبه بصفاته المقدسة».

وقوله: «واشتاق إلى معاينة لطائف كرمه، وآيات برّه، وعلامة فضله» يشير به إلى ما يكرم الله به عبده من أنواع كراماته التي يستدلُّ بها على أنّه مقبولٌ عند ربِّه، مُلاحَظٌ بعنايته، وأنه قد استخدمه، وكتبه في ديوان أوليائه وخواصه. ولا ريبَ أنّ العبدَ متى شاهد تلك العلامات والآيات قويَ قلبه، وفرحَ بفضل ربه، وعَلِمَ أنه قد أهل فطاب له السير، ودام اشتياقُه، وزالت عنه العللُ، وما لم ينعمْ عليه بشيء من ذلك لم يزلْ كئيباً حزيناً خائفاً أن يكونَ مِمَّن لا يصلحُ لذلك الجناب، ولم يصلْ لتلك المنزلة.

قوله: «وهذا شوقٌ تغشاه المبارّ» هي جمع مبرّة وهي البرّ، أي: إنَّ هذا الشوقَ مشحونٌ بالبرّ مغشى به، وهو إما برّ القلب وهو كثرة خيره، فهذا القلبُ أكثر القلوب خيراً، فيفعل البرّ تقرباً إلى من هو مشتاق إليه، فهو يجيشُ بأنواع البرّ، وهذا من فوائد المحبة أنَّ قَلْبَ صاحبها تنبعُ منه عيونُ الخير، وتتفجر منه ينابيعُ البر، أو يريد به أن مبارَّ اللهِ ونعمه تغشاه على الدوام.

وقوله: «وتخالجه المسارّ» أي: يخالطه السرور في غضون أشواقه، فإنها أشواق لا وحشةَ معها ولا ألم، بل هي محشوّة بالمسرّات.

وقوله: «ويقاومه الاصطبار» أي: صاحبه له قوّة على اصطباره على مرضاة

حبيبه لشوقه إليه ، وإنما يضعفُ الصّبر لضعف المحبة ، والمحب من أصبر الخلق كما قيل:

نَفْسُ المحِبِّ عَلَىٰ الآلامِ صَابِرةٌ ... لَعَلَّ مُسْقِمَهَا يوماً يُدَاوِيها

وقوله في الدرجة الثالثة: «إنها نارٌ أضرمها صفو المحبة» يعني أن هذا الشوقَ يتوقَّدُ من خالص المحبّة التي لا تشوبها عِلّة ، فهو أشدّ أنواع الشوق ، ولهذا «نغصت العيش»: أي كدّرته ، ونغّصت المشتاق فيه لأنه لا يصلُ إلى محبوبه ما دام فيه ، فهو يترقَّبُ مفارقته.

وقوله: «وسلبت السلوة» يعني أنّ صاحبه لم يَبْقَ له مطمعٌ في سلوه أبداً ، وهذا أعظمُ ما يكون من الحبِّ والشَّوق ، إنَّ المحبَّ ييأسُ من السلو وينقطع طمعه منه ، كما ييأس من الأُمور الممتنعة كرجوع أيام الشّباب عليه وعوده طفلاً ونحو ذلك.

وقوله: «ولم ينهنهها مَعْزىً دون اللقاء» أي: إن هذا النار لا يبردها ولا يفتر حرّها مقصود ولا مطلب ولا مراد دون لقاءِ محبوبه ، فليس له سبيل إلى تبريدها وتسكينها إلا بلقاءِ محبوبه[1].

مقام الفناء في الشوق:

قال أبو العباس: «فهذه كلُّها عِلَلٌ أنف الخواصُّ منها ، وأسباب انفطموا عنها ، فلم يبق لهم من الحق إرادة ، ولا في عطائه تشوق إلى استزادة. فهو منتهى زادهم وغاية رغبتهم ، فيعتقدون أنّ ما دونه قاطع عنه ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ [الأنعام: ١٩] ، وإنما زهدهم جمع الهمة عن تعريفات الكون؛ لأنَّ الحقَّ عافاهم بنور الكشف عن التعلّق بالأحوال ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٦ ـ ٤٧]».

قلتُ: يشيرُ بذلك إلى المحو ومقام الفناءِ الذي هو غاية الغايات عنده ،

---

(١) طريق الهجرتين (٥٩٣).

وقد تقدَّم الكلام عليه ، وأنَّ مقامَ الصحو والبقاءِ أفضلُ منه وأتمّ عبودية .

وينبغي أن يعرفَ أنَّ مراعاة مقام الفناء الذي جعلوه غاية آلَ بكثير من طالبيه إلى ترك القيام بالأعمال جملةً ، ورأوا أنها عِلَلٌ قاطعةٌ عنه! واشتدَّ نكيرُ الشيوخ والأئمة عليهم؛ حتى قال شيخُ الطائفة الجنيد: إن الذي يزني ويسرق خيرٌ من هؤلاء.

وهم نوعان: نوع جرّدوا الفناءَ من شهود الحكم وهو الحكم القدري ، ورأوا أنه نهاية التوحيد ، فآلَ بهم استغراقُهم فيه إلى اطّراح الأسباب حتى قال قائلُهم: العارف لا يعرّف معروفاً ولا ينكرُ منكراً لاستبصاره بِسِرّ الله في القدر.

والنوع الثاني: أصحابُ تجريد الفناءِ والإرادة ، فجردوا الفناءَ والإرادة تجريداً آلَ بهم إلى ترك الأسباب جملةً.

والطائفتان منحرفتان ، ضالّتان ، خارجتان عن العلم والدين ، ولهذا قال لهم شيخُ القوم الجنيد: عليكم بالفرق الثاني. يعني أن الفرق فرقان: فرق بالطبع والهوى ، وهو الفرقُ الذي شهدوه وفرّوا منه إلى معنى الجمع. ولكن بعد الجمع فرق ثان وهو الفرق بالأمر والمحبة ، لا بالشهوة والطبع ، وهو دينُ الرسل عليهم السلام ، فإنَّ دينهم مبناه على الفرق الأمري الشرعي بين محبوب الربّ ومأموره وبين مسخوطه ومنهيه ، فمن لم يشهدْ هذا الفرقَ ولم يكن من أهله لم يكن من أتباع الرسل ، فإنَّ الكمالَ شهودُ الجمع في هذا الفرق؛ فيشهدُ انفراد الله وحده بالخلق والأمر ، ويشهدُ الفرقَ بين ما يحبّه فيؤثره ويقدّمه وبين ما يبغضه فيتركه ويتجنّبه ، فيصير له هذا الفرق في محلّ فرقه الطبعي الحسي بين ما يلائمه وينافره.

ومن المعلوم أنَّ صاحب الجمع لا بُدَّ أن يفرقَ بطبعه وحسّه ، وإن ادَّعى عَدَمَ التَّفريق طبعاً فإنه كاذبٌ مُفْتَرٍ. وإذا كان لا بُدَّ من الفرق فالفرقُ الشَّرعي الإيماني الذي بعث الله به رسله أدنى به من الفرق الطبعي الحيواني الذي شاركه فيه سائر البهائم.

وأبْطَلُ مِن هذا الجمع الجمعُ في الوجود ، وهو أن يرى الوجودَ كُلّه واحداً لا فرق فيه أصلاً ، وإنما التفريقُ بالعادة والوهم فقط كما يقول زنادقةُ القائلين بوحدة الوجود؛ الذين لا يفرقون بين الخالق والمخلوق بل يجعلون وجود أحدهما وجود الآخر ، بل ليس عندهم فرق بين أحدهما والآخر إذ ما ثم غير. فهذا جمعٌ في الوجود وجمعُ أُولئك جمع في الشهود ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢١٣] فكانوا أصحاب الجمع في الفرق ، ففرّقوا بين ما فرّق اللهُ بينه بإذنه ، وجمعوا الأشياءَ كلّها في خلقه وأمره ، وجمعوا إرادتهم ومحبّتهم وشهودهم فيه ، فكانوا أصحاب جمع في فرق وفرق في جمع. فهؤلاء خواصّ الخلق ، فنسألُ اللهَ العظيمَ من فضله وكرمه أن يجعلَنا منهم.

فهؤلاءِ هم الذين لم يَبْقَ لهم من الحقّ إرادةٌ ، بل صارت إرادتُهم تابعةً لإرادته ، فحصلَ الاتّحادُ في المراد فقط لا في الإرادة ولا في المريد. فأصحابُ الوحدة ظنُّوا الاتّحاد في المريد وأصحاب الحلول توهّموا الاتّحاد في الإرادة ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢١٣] فعلموا أنَّ المرادَ واحدٌ ، فالاتّحاد وَقَعَ في المراد فقط ، لا في الإرادة ولا في المريد.

وقوله: «فيعتقدون أن ما دونه قاطع عنه» إنما يكونُ ما دونه قاطعاً عنه إذا وقف العبدُ معه ، وتعلّقت إرادته به ، وانصرف طلبُه إليه. وأمّا إذا جعله وسيلةً إلى الله ، وطريقاً يصلُ بها إليه لم يكن قاطعاً ولا حاجباً ، بل يكونُ حاجباً موصلاً إليه ، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩] المرادُ بالآية شهادته سبحانه لرسوله بتصديقه على رسالته ، فإن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: مَن يشهدُ لك على ما تقول؟ فأنزل الله تعالى آيات شهادته له وشهادة ملائكته وشهادة علماءِ أهل الكتاب به ، فقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]

أي: ومن عنده علم الكتاب يشهد لي، وشهادته مقبولة لأنها شهادة بعلم.

قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].

فأخبر سبحانه في هذه المواضع بشهادته لرسوله، وكفى بشهادته إثباتاً لصدقه، وكفى به شهيداً. فإن قيل: وما شهادتُه سبحانه لرسوله؟ قيل: هي ما أقام على صدقه من الدلالات والآيات المستلزمة لصدقه بعد العلم بها ضرورة، فدلالتُها على صدقه أعظمُ من دلالة كُلّ بيّنة وشاهد على حقّ، فشهادتُه سبحانه لرسوله أصدقُ شهادة وأعظمها وأدلّها على ثبوت المشهود به، فهذا وجه.

ووجهٌ آخر أنه صدقه بقوله، وأقام الأدلّةَ القاطعةَ على صِدْقه فيما يخبر به عنه. فإذا أخبرَ عنه أنه شَهدَ له قولاً لزم ضرورة صدقه في ذلك الخبر، وصحّت الشهادة له به قطعاً، فهذا معنى الآية، وكان أجنبياً عما استشهد به المصنف.

ونظير هذا استشهادُهم بقوله تعالى: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١] حتى رتّب على ذلك بعضهم أن الذّكر بالاسم المفرد، وهو: «الله، الله» أفضل من الذكر بالجملة المركبة كقوله: «سبحان الله والحمد لله، ولا إلّه إلا الله، والله أكبر». وهذا فاسد مبني على فاسد؛ فإنّ الذكرَ بالاسم المفرد غير مشروع أصلاً، ولا مفيد شيئاً، ولا هو كلام أصلاً، ولا يدلُّ على مدح ولا تعظيم، ولا يتعلّق به إيمانٌ، ولا ثوابٌ، ولا يدخلُ به الذاكرُ في عقد الإسلام جملة، فلو قال الكافر: «الله، الله» من أول عمره إلى آخر لم يصرْ بذلك مسلماً؛ فضلاً عن أن يكونَ من جملة الذكر، أو يكون أفضل الأذكار.

وبالغ بعضُهم في ذلك حتى قال: الذِّكرُ بالاسم المضمر أفضلُ من الذكر بقولهم: «الله، الله» وكلّ هذا من أنواع الهوس والخيالات الباطلة المفضية

بأهلها إلى أنواعٍ من الضلالات ، فهذا فساد هذا البناءِ الهائر ، وأما فساد المبني عليه فإنهم ظنّوا أن قوله تعالى : ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام : ٩١] أي : قل هذا الاسم ، فقل : الله الله ، وهذا من عدم فهم القوم لكتاب الله ، فإنّ اسمَ الله هنا جواب لقوله : ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام : ٩١][1] إلى أن قال : ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام : ٩١] أي قل : الله أنزله ؛ فإنَّ السؤال معادٌ في الجواب ، فيتضمّنه فيحذف اختصاراً ، كما يقول : من خلق السماء والأرض؟ فيقال : الله . أي : اللهُ خلقهما ، فيُحذف الفعل لدلالةِ السؤال عليه ، فهذا معنى الآية الذي لا تحتمل غيره .

قوله : «وإنما زهدهم جمع الهمة عن تعريفات الكون ؛ لأنَّ الحقَّ عافاهم بنور الكشف عن التعلّق بالأحوال» .

فيقالُ : الكشفُ الذي أوجبَ لهم هذا الجمع ، وقطع هذا التعلّق ؛ هو الكشف الإيماني القرآني ، فهو في الحقيقة الكشفُ النّافعُ الجاذبُ لصاحبه إلى سلوك منازل الأبرار ، والوصول إلى مقامات القرب ، ولا سيّما إذا قارنه الكشفُ عن عيوب النفس وعلى الأعمال ، فناهيك به من كشف .

والكرامةُ المرتّبة عليه هي لزومُ الاستقامة ودوام العبودية ، فهذا أفضلُ كشفٍ يُعطاه العبدُ ، وهذا أفضلُ كرامة يُكرم بها الولي . رزقنا الله من فضله وبرّه .

وأما استشهادُه بقوله تعالى : ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص : ٤٦] فهذه الآية يخبر فيها سبحانه عما أخلصَ له أنبياؤه ورسله من اختصاصهم بالآخرة ، وفيها قولان : **أحدهما** : أنَّ المعنى نزعنا من قلوبهم حبّ الدنيا وذكرها وإيثارها والعمل بها ، وأخلصنا بالحب للآخرة وذكرها وإيثارها

(١) «قراطيس» : أوراقاً مكتوبة مُفَرَّقة .

والعمل لها. والقول **الثاني**: إنا أخلصناهم بأفضل ما في الدار الآخرة واختصصناهم به عن العالمين.

قوله: «وتوكلهم: رضاهم بتدبير الحق، وتخلّصهم من تدبيرهم، وفراغ هممهم من احتيالها في إصلاح شؤونها، بوقوفهم على فراغ المدبّر منها، ومرّها على علمه بمصالحهم فيها، ونفوس مطمئنة بذلك: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧] الآية». وقد تقدَّم الكلامُ على التوكّل، وبيان أنه من مقامات العارفين، وأنه لا انفكاكَ للمؤمنِ منه، وذكر العلّة فيها ما هي.

وقوله: «وتوكّلهم رضاهم بتدبير الحق» الرضا بالتدبير ثمرةُ التوكّل وموجبه لا أنه نفس التوكّل والمقدور، يكشفه أمران: التوكّل قبل وقوعه، والرضا به بعد وقوعه، ومن هنا قال بعضُهم: حقيقةُ التوكّل الرضا لأنه لمّا كان ثمرته وموجبه استدل له عليه استدلالاً بالأثر على المؤثر، وبالمعلول على العلّة، ولهذا قال في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسائي وغيرهما عن النبي ﷺ أنه قال في دعائه: «اللهم إني أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي. اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاءِ، وأسألك بَرْدَ العيش بعد الموت»(١) الحديث، وقد تقدّم. فقال: «وأسألك الرضا بعد القضاءِ» وأما التوكّل فإنما يكون قبله.

وقوله: «وتخلّصهم من تدبيرهم» هذا مقامٌ كثيراً ما يشيرُ إليه السالكون، وهو تركُ التّدبير، وينبغي ألّا يؤخذَ على إطلاقه، بل لا بُدَّ فيه من التَّفصيل؛ فيقالُ: العبدُ دائرٌ بين مأمور يفعله، ومحظور يتركه. وقد يجري عليه بلا إرادة منه ولا كسب، فوظيفتُه في المأمور كمالُ التدبير والجدّ والتشمير، وأن يدبِّرَ

---

(١) سبق تخريجه ص (١٤٣).

الحيلةَ في تنفيذه بكل ما يمكنه ، فتَرْكُ التدبير هنا تعطيلٌ للأمر. بل يدبّر فعله ناظراً إلى تدبير الحقّ له ، وأن تدبيرَهُ إنما يتمُّ بتدبير الله له ، فلا يكونُ هنا قدرياً مجوسياً ناظراً إلى فعله جاحداً لتدبير الله وتقديره ومعونته ، ولا قدرياً مجبراً واقفاً مع القدر جاحداً لفعله وتدبيره ومجلي أمر الله ونهيه ، فإنّ فعله الاختياري هو محلّ الأمر والنهي ، فمن جَحَدَ فِعْلَ نفسه فقد عطّل الأمر والنَّهي وجَحَدَ محلّهما ، ووظيفته في المحظور الفناءُ عن إرادته وفعله ، فإن عارضته أسبابُ الفعل فالواجبُ عليه الجدّ في الهرب والتّشمير في الكفّ والبعد ، وهذا تدبيرٌ للنهي. وأما القدرُ الذي يصيبه بغير إرادته فهذا الذي يحسنُ فيه إسقاطُ التدبير جملة ، وصبره ورضاه بما قسم له من محبوب ومكروه. فعلى هذا التفصيل ينبغي أن يوضعَ إسقاطُ التدبير.

وجماعُ ذلك أنك تسقطُ التدبيرَ في حظّك وتكون قائماً بالتدبير في حقّ ربك ، وهكذا ينبغي أن تفرغ الهمة من إجالتها في إصلاح شأْنك ، فإنّ إصلاحَ شأْنك بحصول حظوظك يحصل فيه فراغ الهمة وترك التدبير ، وأما إصلاحُ شأْنك بأداءِ حقّ الله فالواجبُ شغلُ الهمّة وإجالتها في القيام به.

وقوله: «بوقوفهم على الفراغ المدبّر منها ، ومرّها على علمه بمصالحهم فيها» فلا ريبَ أنَّ الله سبحانه قضى القضية ، وفرغ من تدبير أُمور الخلائق ، ولكن قدّرها بأسبابها المفضية إليها ، فلا يكونُ وقوفُ العبد على فراغه سبحانه من أقضيته في خَلْقه وتدبيره مانعاً له من قيامه بالأسباب التي جَعَلَها طرقاً لحصول ما قضاه منها.

وكذلك يباشرُ العبدُ الأسبابَ التّي بها حِفْظُ حياته من الطعام والشراب واللباس والمسكن ، ولا يكون وقوفه مع فراغ المدبر منها مانعاً له من تعاطيها.

وكذلك يباشرُ الأسبابَ الموجبةَ لبقاءِ النوع من النّكاح والتّسرّي ، ولا يكون وقوفه مع فراغ الله من خلقه مانعاً له من ذلك. وهكذا جميعُ مصالح

الدنيا والآخرة؛ وإن كانت مفروغاً منها قضاءً وقدراً فهي منوطةٌ بأسبابها التي يتوقّف حصولُها عليها شرعاً وخلقاً.

وأمّا استدلالُه بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٢٨] فالنفسُ المطمئنة هي التي اطمأنت إلى ربّها، وسكنتْ إلى حُبِّه، واطمأنتْ بذكره، وأيقنتْ بوعده، ورضيتْ بقضائه، وهي ضدّ النفس الأمّارة بالسُّوءِ، فلم تكنْ طمأْنينتها بمجرّد إسقاط تدبيرها، بل القيام بحقّه والطمأْنينة بحبّه وبذكره[1].

صون القلب عن خواطر السوء:

قال: «وصبرهم: صونهم قلوبهم عن خواطر السوءِ بأن الله تعالى قضى قضاءً عارياً عن الموافقة، خارجاً عن الخيرة، قال تعالى: ﴿وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ [الأنفال: ١٧]».

إنَّ صونَ القلب عن اعتقاد ما لا يليقُ بالله سبحانه لا يقالُ له صبر، بل هذا من لوازم الإيمان، وهو كاعتقاد أنه سبحانه وتعالى حكيم رحيم عليم سميع بصير، إلى غير ذلك من صفات كماله، فلا يُقالُ: الصَّبْرُ صونُ القلب عن اعتقاد أضدّادها، هذا بعيدٌ جداً، وتكلّف زائد لتفسير الصبر، وهل فهم أحدٌ قطّ هذا المعنى من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨].

وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٩].

وقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦] وسائر نصوص الصبر.

---

(١) طريق الهجرتين (٦٠٧).

ومن العجب جعل الصبر الذي هو نصفُ الإيمان من منازل العوامّ؛ وتفسيره بهذا التفسير! نعم يجبُ على كُلِّ مسلم أن ينزّه الله سبحانه عن أن يقضيَ قضاءً ينافي حكمته وعدله وفضله وبرّه وإحسانه، بل كُلّ أقضيته لا تخرجُ عن الحكمة والرحمة والعدل والمصلحة، وإنْ كان كثيرٌ من المتكلّمين ينازعُ في هذا الأصل ويقول: الذي ينزّه الله عنه من الأقضية هو المستحيلُ الممتنعُ، وأما الممكن فلا يقبحُ منه شيء، وهؤلاء لا معنى لصون القلوب عن خواطر السوءِ المتعلّقة بما يقضيه اللهُ عندهم إلاّ صونها عن خواطر الممتنعات والمستحيلات فقط.

وبالجملة هذا مقامٌ آخر غير مقام الصبر، بل هذا بابٌ من أبواب المعرفة والعلم، ولكل مقام مقال.

وأما استشهادهُ بقوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ [الأنفال: ١٧] البلاءُ الحسنُ هنا هو النعمة بالظفر والغنيمة والنصر على الأعداء، وليس من الابتلاءِ الذي هو الامتحانُ بالمكروه، بل مِن أبلاه بلاءً حسناً إذا أنعم عليه، يقال: أبلاك الله ولا ابتلاك، فأبلاه في الخير، وابتلاه بالمكاره غالباً كما في الحديث: «إني مبتليك ومبتل بك»[١].

قدر شكره لله بالأعمال الظاهرة والباطنة، وتصحيح العبودية يكون سروره واستبشاره بلقائه.

وأما قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ [التوبة: ١١١] فهذا إنما قاله للشاكرين الذين يقاتلون في سبيله فَيَقْتُلُون ويُقْتَلُون، ثم وصفهم بعد ذلك بقيامهم بأعمال الشكر، فقال: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢][1] فهؤلاءِ المستبشرون ببيعهم جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه.

البقاء والفناء في المحبة:

قال: «ومحبّتهم فناؤهم في محبة الحق، فماذا بعد الحقّ إلا الضلال»؟.

البقاءُ في المحبّة أفضلُ وأكملُ في الفناءِ فيها من وجوه متعددة، والفناءُ إنما هو لضعف المحبّ عما حمل، وأما الأقوياءُ فهم ـ مع شدّة محبّتهم ـ في مقام البقاءِ والتمييز، وأما استدلالُه بقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢] فالآيةُ إنما سيقت في الكلام على من يعبدُ غير الله ويشركُ به، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١ ـ ٣٢].

فَمَنْ عَبَدَ غير الله فما عبد إلاّ الضلال المحض والباطل البحت، وأما مَنْ عَبَدَ الله بأمره، وكان في مقام التمييز بين محابّه ومساخطه، مفرّقاً بينهما يحبّ هذا ويبغض هذا، ناظراً بقلبه إلى ربّه، عاكفاً بهمّته عليه، منفّذاً لأوامره فهو مع الحقّ المحض[2].

الشوق من آثار المحبة:

من منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] منزلة «الشوق».

قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ﴾ [العنكبوت: ٥] قيل: هذا تعزية للمشتاقين، وتسلية لهم، أي: أنا أعلم أنَّ مَنْ كان يرجو لقائي

---

(١) «السائحون»: الغزاة المجاهدون، أو الصائمون. «لحدود الله»: لأوامره ونواهيه.

(٢) طريق الهجرتين (٦١٤).

فهو مشتاقٌ إليَّ ، فقد أَجَّلتُ له أجلاً يكون عن قريب ، فإنه آتٍ لا محالة ، وكل آتٍ قريب.

وفيه لطيفةٌ أخرى ، وهي : تعليلُ المشتاقين برجاء اللقاء.

لولا التعللُ بالرجاء لقُطِّعتْ نفسُ المحبِّ صَبابةً وتشوقا
ولقد يكادُ يذوبُ منه قلبه مما يقاسي حسرةً وتحرقا
حتى إذا رَوْحُ الرجاءِ أصابه سَكَنَ الحريقُ إذا تعلَّلَ باللقا

وقد كان النبيُّ ﷺ يقول في دعائه : «أسألك لذَّةَ النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك»[1].

قال بعضهم : كان النبيُّ ﷺ دائم الشوق إلى لقاء الله ، لم يسكن شوقُه إلى لقائه قطُّ. ولكن الشوق مئة جزء ، تسعة وتسعون له ، وجزء مقسومٌ على الأمة ، فأراد ﷺ أن يكونَ ذلك الجزء مضافاً إلى ما له من الشوق الذي يختصُّ به ، والله سبحانه وتعالى أعلم.

و«الشوقُ» أثر من آثار المحبة ، وحكْم من أحكامها؛ فإنه سَفَر القلب إلى المحبوب في كل حال.

وقيل : هو اهتياجُ القلوب إلى لقاء المحبوب.

وقيل : هو احتراقُ الأحشاء ، ومنها يتهيج ويتولد ، ويُلهِب القلوب ، وَيُقَطِّع الأكباد.

و«المحبة» أعلى منه؛ لأنَّ الشوقَ عنها يتولد ، وعلى قدرها يقوى ويضعف. قال يحيى بن معاذ : علامةُ الشوق فطامُ الجوارح عن الشهوات.

وقال أبو عثمان : علامته حبُّ الموت ، مع الراحة والعافية ، كحال يوسف لما أُلقي في الجب لم يقل : «توفني» ولما أُدخل السجنَ لم يقل : «توفني» ولما تَمَّ له الأمر والأمن والنعمة ، قال : «توفني مسلماً».

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٦٤) والنسائي (٣/ ٥٤) وابن حبان (١٩٧١) والحاكم (١/ ٥٢٤) وابن أبي شيبة في المصنف (١٠/ ٢٦٥).

قال ابن خفيفُ[1]: الشوق ارتياح القلوب بالوجد ، ومحبة اللقاء بالقرب.

وقيل: هو لهبٌ ينشأ بين أثناء الحشا[2] ، يسنحُ عن الفرقة ، فإذا وقع اللقاء طفيء.

قلت: هذه مسألةُ نزاع بين المحبين ، وهي: أن الشوق هل يزولُ باللقاء أم لا؟ ولا يختلفون أن المحبة لا تزول باللقاء.

فمنهم من قال: يزولُ اللقاء؛ لأن الشوقَ هو سفر القلب إلى محبوبه ، فإذا قدم عليه ، ووصل إليه ، صار مكانَ الشوق قُرَّة عينه به ، وهذه القرة تجامعُ المحبة ، ولا تنافيها.

قال هؤلاء: وإذا كان الغالب على القلب مشاهدة المحبوب ، لم يطرقه الشوق.

وقيل لبعضهم: هل تشتاقُ إليه؟ فقال: لا. إنما الشوقُ إلى غائب. وهو حاضر.

وقالت طائفة: بل يزيدُ الشوق بالقرب والوصول ، ولا يزول؛ لأنه كان قبل الوصول على الخبر والعلم ، وبعده: قد صار على العيان والشهود؛ ولهذا قيل:

وأبرحُ ما يكون الشوق يوماً إذا دَنَتِ الخيامُ من الخيامِ

قال الجنيدُ: سمعتُ السريَّ يقول: الشوقُ أجلُّ مقام للعارف إذا تحقق فيه ، وإذا تحقق في الشوق لها عن كلِّ شيء يشغله عمن يشتاق إليه ، وعلى هذا: فأهلُ الجنة دائماً في شوق إلى الله ، مع قربهم منه ، ورؤيتهم له.

---

(١) هو محمد بن خفيف الشيرازي: صوفي ، عالم ، له كلام مشهور وحكمة. توفي سنة (٣٧١هـ). طبقات الصوفية (٤٦٢) وحلية الأولياء (١٠/ ٣٨٥) وطبقات الأولياء (٢٩٠).

(٢) «الحشا»: ما دون الحِجاب مما في البطن كله؛ من الكبد والطحال والكَرِش وغيرها.

قالوا: ومِنَ الدليل على أن الشوقَ يكونُ حال اللقاء أعظم ؛ أنَّا نرى المحبَّ يبكي عند لقاء محبوبه ، وذلك البكاء إنما هو من شدة شوقه إليه ، ووَجْده به ، ولذلك يجدُ عند لقائه نوعاً من الشوق ، لم يجدْه في حال غيبته عنه .

والنزاعُ في هذه المسألة : أن الشوقَ يُراد به : حركة القلب ، واهتياجه للقاء المحبوب ، فهذا يزولُ باللقاء ، ولكن يعقبه شوقٌ آخر أعظم منه ، تثيره حلاوةُ الوصل ، ومشاهدة جمال المحبوب ، فهذا يزيدُ باللقاء والقرب ولا يزول ، والعبارة عن هذا : وجوده ، والإشارة إليه : حصوله .

وبعضهم سمَّى النوع الأول : شوقاً . والثاني : اشتياقاً .

قال القشيريُّ : سمعتُ الأستاذ أبا علي الدقاق يفرقُ بين الشوق والاشتياق ، ويقول : الشوقُ يسكنُ باللقاء ، والاشتياق لا يزولُ باللقاء . قال : وفي معناه أنشدوا :

ما يرجع الطرفُ عنه عند رؤيته حتى يعودَ إليه الطرفُ مشتاقا

وقال النَّصر أباذي : للخلق كلِّهم مقامُ الشوق ، وليس لهم مقام الاشتياق ، ومَنْ دخل في حال الاشتياق : هام فيه ؛ حتى لا يُرى له فيه أثر ولا قرار .

قال الدقاق ـ في قول موسى : ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه : ٨٤] قال : معناه شوقاً إليك ، فستره بلفظ الرضا .

وقيل : إنَّ أهلَ الشوق إلى لقاء الله يَتَحَسَّسون حلاوة القرب عند وروده ـ لما قدم كشف لهم من روح الوصول ـ أحلى من الشُّهد ، فهم في سكراته في أعظم لذة وحلاوة . وقيل : مَن اشتاق إلى الله اشتاق إليه كلُّ شيء . كما قال بعضُهم : أنا أدخلُ في الشوق ، والأشياء تشتاقُ إلي ، وأتأخر عن جميعها . وفي مثل هذا قيل :

إذا اشتاقت الخيلُ المناهلَ أعرضتْ عن الماء ، فاشتاقتْ إليها المناهل

وكانت عجوز مُغِيبة[1] ، فقدم غائبها من السفر ، ففرح به أهلُه وأقاربه ، وقعدتْ هي تبكي ، فقيل لها: ما يبكيك؟ فقالت: ذكَّرني قدومُ هذا الفتى يومَ القدوم على الله عز وجل.

يا من شكا شوقَه من طول فُرْقته ... اصبِرْ؛ لعلك تلقَى مَنْ تُحِبُّ غدا

وقيل: خرج داود ـ عليه السلام ـ يوماً إلى الصحراء منفرداً ، فأوحى اللهُ تعالى إليه: مالي أراكَ منفرداً؟ فقال: إلٰهي استأثر شوقي إلى لقائك على قلبي ، فحال بيني وبين صُحبة الخلق ، فقال: ارجعْ إليهم ، فإنك إن أتيتني بعبدٍ آبقٍ[2] أثبتك في اللوح المحفوظ جِهْبِذاً[3].

أقوال في الشوق:

قال صاحبُ المنازل ـ رحمه الله ـ:

«الشوقُ: هبوبُ القلب إلى غائب. وفي مذهب هذه الطائفة: علةُ الشوق عظيمة؛ فإن الشوقَ إنما يكون إلى الغائب ، ومذهب هذه الطائفة: إنما قام على المشاهدة ، ولهذه العلة لم ينطقِ القرآنُ باسمه».

قلت: هو صدرُ الباب ، بقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ﴾ [العنكبوت: ٥] فكأنه جعل «الرجاء» شوقاً بلسان الاعتبار ، لا بلسان التفسير ، أو أن دلالة «الرجاء» على الشوق باللزوم ، لا بالتضمُّن ولا بالمطابقة.

قوله: «هبوب القلب إلى غائب» يعني: سفره إليه ، وَهُوِيُّه إليه.

وأمَّا العلةُ التي ذكرها في الشوق ، فقد تقدم أنَّ مِنَ الناس مَنْ جعل

---

(١) «مغيبة»: هي التي غاب عنها زوجُها أو غيره.
(٢) «عبد آبق»: هو الهارب من مالكه.
(٣) «جهبذاً»: هو النَّقَّاد الخبير بغوامض الأمور.

«الشوق» في حال اللقاء أكمل منه في حال المغيب ، فعلى قول هؤلاء : لا علَّة فيه .

وأما مَنْ جعله سَفَر القلب إلى المحبوب في حال غيبته عنه ، فعلى قوله يجيء كلامُ المصنف ، ووجهه مفهوم .

وقوله : «فإن مذهب هذه الطائفة» ـ الذي هو الفناء ـ يريد : أن الفناء إنما قام على المشاهدة ، فإنَّ بدايته ـ كما قرره هو ـ المحبة التي هي نهاية مقامات المريدين . والفناء : إنما يكونُ مع المشاهدة ، ومع المشاهدة لا عملَ للشوق .

فيقال : هذا باطلٌ من وجوه :

أحدها : أن المشاهدة لا تزيل الشوق ، بل تزيده .

الثاني : أنه لا مشاهدةَ أكمل من مشاهدة أهل الجنة ، وهم إلى يوم المزيد ـ وهو يوم الجمعة ـ أشوق شيء ، كما في الحديث . وكذلك هم أشوقُ شيء إلى رؤية ربهم ، وسماع كلامه تعالى ، وهم في الجنة ، فإن هذا إنما يحصلُ لهم في حال دون حال .

ومعلوم قطعاً : أنَّ شوقَ هذا إلى الرؤية قبل حصولها ؛ أعظم شوق يقدر ، وصول المشاهدة لأهل الجنة ؛ أتم منها لأهل الدنيا .

الثالث : أنه لا سبيلَ في الدنيا إلى مشاهدةٍ تزيلُ الشوق ألبتة ، ومَنِ ادَّعى هذا فقد كذب وافترى ، فإنه لم يحصلْ هذا لموسى بن عمران ، كليم الرحمن عز وجل ، فضلاً عمن دونه . فما هذه المشاهدةُ التي مبنى مذهب هذه الطائفة عليها؟! بحيث لا يكون معها شوق؟ أهي كمالُ المشاهدة عياناً وجهرة؟ سبحانك هذا بهتانٌ عظيم .

أم نوعٌ من مشاهدة القلب لمعروفه ، مع اقترانها بالحجب الكثيرة ؛ التي لا يحصيها إلا الله؟ . فهل تمنع هذه المشاهدة الشوق إلى كمالها وتمامها؟ . وهل الأمرُ إلا بالعكس في العقل والفطرة والحقيقة ؛ لأن من شاهد محبوبه من

بعض الوجوه ، كان شوقه إلى كمال مشاهدته أشد وأعظم. وتكونُ تلك المشاهدة الجزئية سبباً لاشتياقه إلى كمالها وتمامها ، فأين العلة في الشوق؟ وأين المشاهدة المانعة من الشوق؟ .

وهذا بحمد الله ظاهر ، ومَنْ نازع فيه كان مكابراً ، والله أعلم.

درجـات الـشـوق:

قال «وهو على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: شوق العابد إلى الجنة؛ ليأمن الخائف ، ويفرح الحزين ، ويظفر الآمل».

يعني: شوق العابد إلى الجنة فيه هذه الحكم الثلاث:

أحدها: حصول الأمن الباعث على الأمل ، فإنَّ الخوفَ المجرد من الأمن من كل وجه ، لا ينبعثُ صاحبه لعمل ألبتة ، إن لم يقارنه أمل ، فإن تجرد عنه قُطِع ، وصار قنوطاً.

الثاني: فرح الحزين ، فإنَّ الحزنَ المجرد أيضاً إن لم يقترنْ به الفرح؛ قتل صاحبه ، فلولا روحُ الفرح لتعطلت قوى الحزين ، وقعد حزنُه به ، ولكن إذا قعد به الحزن ، قام به روح الفرح.

الثالث: روح الظفر ، فإنَّ الآملَ إن لم يصحبه روحُ الظفر ، مات أمله. والله أعلم.

قال «الدرجة الثانية: شوقٌ إلى الله عز وجل ، زرعه الحبُّ الذي يَنبُتُ على حافات المنن ، فعلق قلبه بصفاته المقدسة ، فاشتاق إلى معاينة لطائف كرمه ، وآيات بره ، وأعلام فضله. وهذا شوق تغشاه المبارُّ ، وتخالجه المسارُّ ، ويقاومه الاصطبار».

الشوق إلى الله: لا ينافي الشوقَ إلى الجنة ، فإن أطيبَ ما في الجنة: قربه تعالى ، ورؤيته ، وسماع كلامه ورضاه. نعم الشوق إلى مجرد الأكل والشرب ، والحور العين في الجنة ناقص جداً؛ بالنسبة إلى شوق المحبين إلى

الله تعالى ، بل لا نسبةَ له إليه ألبتة ، وهذا الشوقُ درجتان :

إحداهما : شوقُ زرعه الحبُّ الذي سببه الإحسان والمنة ، وهو الذي قال فيه : «ينبت على حافات المنَنِ» فسببه : مطالعة منّة الله ، وإحسانه ، ونعمه .

وفي قوله : «تنبت على حافات المنن» أي : جوانبه ، إشارة إلى عدم تمكُّنها وقوتها ، وأنها من نبات الحافات التي هي جوانبُ المنن ، لا من نبات الأسماء والصفات .

وقوله : «فعلق قلبه بصفاته المقدسة» يعني الصفات المختصَّة بالمنن والإحسان ، كالبرِّ ، والمنان ، والمحسن ، والجواد ، والمعطي ، والغفور ، ونحوها .

وقوله : «المقدسة» يعني : المطهرة المنزَّهة عن تأويل المحرّفين ، وتشبيه الممثلين ، وتعطل المعطلين . وإنما قلنا : إنَّ مراده هذه الصفات الخاصة لوجهين :

أحدهما : أن تعلُّق القلب بالصفات العامة ، إنما يكونُ في الدرجة الثالثة .

الثاني : أنه جعل ثمرة هذا التعلق : شوق العبد إلى معاينة لطائف كرم الرب ، ومنَنه ، وإحسانه ، وآيات بره ، وهي علاماتُ برِّه بالعبد ، وإحسانه إليه ، وكذلك أعلام فضله ، وهو ما يُفْضِل عليه به ، ويفضّله به على غيره .

قوله : «وهذا شوق تغشاه المبار» يعني : أنه شوق معلول ، ليس خالصاً لذات المحبوب ، بل لما ينالُ منه من المبار «فقد غشيته» أي : أدركته المبار .

قوله : «وتخالجه المسار» أي : تجاذبه . فإن المخالجة هي المجاذبة . فإذا خالط هذا الشوق الفرح : كان ممزوجاً بنوع من الحظ .

وقوله : «ويقاومه الاصطبار» أي : أن صاحبه يقوى على الصبر ، فيقاوم صبرُه شوقَه ولا يغلبه ، بخلاف الشوق في الدرجة الثالثة .

قال : «الدرجة الثالثة : نار أضرمها صفو المحبة ، فنغّصت العيش ،

وسَلَبت السلوة ، ولم يُنَهْنِهْـهَا مَعْـزًى دون اللقاء».

يريدُ: أن الشوقَ في هذه المرتبة؛ شبيه بالنار التي أضرمها صفو المحبة ، وهو خالصها. وشبهه بالنار لالتهابه في الأحشاء.

وفي قوله: «صفو المحبة» إشارة إلى أنها محبة لم تكن لأجل المنّة والنعم ، ولكن محبة متعلقة بالذات والصفات.

قوله: «فنغصت العيش» أي: منعت صاحبها السكون إلى لذيذ العيش. و«التنغيص» قريبٌ من التكدير.

قوله: «وسلبت السلوة» أي: نهبت السلو ، وأخذته قهراً.

و«السلوة» هي الخلاصُ من كُرب المحبة ، وإلقاء حملها عن الظهر ، والإعراض عن المحبوب تناسياً.

وقوله: «لم ينهنهها مَعْزًى دون اللقاء» أي: لم يَكُفَّها ويردها قرار دون لقاء المحبوب، وهذه لا يقاومها الاصطبار؛ لأنه لا يكفّها دون لقاء من يحبُّ قرار.

وقد يقوى هذا الشوق ، ويتجرَّد عن الصبر ، فيسمَّى «قلقاً» وبذلك سمَّاه صاحبُ المنازل ، واستشهد عليه بقوله تعالى ـ حاكياً عن كليمه موسى ﷺ: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤] فكأنه فهم: أنَّ عجلته إنما حمله عليها القلق ، وهو تجريدُ الشوق للقائه وميعاده.

وظاهرُ الآية: أنَّ الحاملَ لموسى على العجلة: هو طلبُ رضا ربه ، وأن رضاه في المبادرة إلى أوامره ، والعجلة إليها؛ ولهذا احتجَّ السلفُ بهذه الآية على أن الصلاة في أول الوقت أفضل. سمعتُ شيخَ الإسلام ابن تيمية يذكر ذلك.

قال: إن رضا الرب في العجلة إلى أوامره.

ثم حدَّه صاحبُ المنازل بأنه «تجريد الشوق بإسقاط الصبر» أي: تخلّصه من كلِّ شائبة بحيث يسقط معه الصبر ، فإنْ قارنه اصطبار فهو شوق.

ثم قال: «وهو على ثلاث درجات ، الدرجة الأولىٰ: قلق يضيق الخُلُق ، ويبغض الخلق ، ويلذذ الموت».

يعني: يضيق خُلق صاحبه عن احتمال الأغيار ، فلا يبقى فيه اتساعٌ لحملهم ، فضلاً عن تقييدهم له ، وتعوقه بأنفاسهم.

و«يبغض الخلق» يعني: لا شيءَ أبغضُ إلى صاحبه من اجتماعه بالخلق؛ لما في ذلك من التنافر بين حاله وبين خلطتهم.

وحدَّثني بعضُ أقارب شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ قال: كان في بداية أمره: يخرجُ أحياناً إلى الصحراء يخلو عن الناس ، لقوة ما يردُ عليه ، فتبعته يوماً ، فلما أصحر[1] تنفَّس الصُّعداء[2] ، ثم جعل يتمثَّل بقول الشاعر ـ وهو لمجنون ليلى من قصيدته الطويلة ـ:

وأخـرجُ مـن بيـن البيـوتِ لعلَّنـي أحدثُ عنك النفس بالسرِّ خاليا

وصاحبُ هذه الحال: إن لم يرده الله سبحانه إلى الخَلْق بتثبيت وقوة ، وإلا فإنه لا صَبْرَ له على مخالطتهم.

قوله: «ويلذذ الموت» فإن صاحبه يرجو فيه لقاءَ محبوبه ، فإذا ذكر الموت التذَّ به ، كما يلتذ المسافرُ بتذكُّر قدومه على أهله وأحبابه.

قال: «الدرجة الثانية: قلق يغالب العقل ، ويُخَلِّي السمع ، ويطاول الطاقة» أي: يكاد يقهر العقل ويغلبه ، فهو والعقل تارة وتارة ، ولكن لما لم يصلْ إلى درجة الشهود لم يصطلمه[3]، فإن العقل لا يصطلمه إلا الشهود؛ ولذلك قال «يغالب» ولم يقل «يغلب».

---

(١) «أصحر»: خرج إلى الصحراء.

(٢) «تنفس الصُّعَداء»: الصُّعَداء: المشقَّة. وتنفُّسُ الصُّعَداء: التَّنفُّس الشاقُّ الممدود بعمق من همٍّ أو توجُّع.

(٣) «يصطلمه»: اصطلم أذنه: استأصلها. والقومَ: أبادهم من أصلهم.

وأما «إخلاؤه السمع» فهو يتضمَّن إخلاءه من شيء ، وإخلاءه لشيء ، فيخليه من استماعه ذِكْر الغير ، ويخليه لاستماعه أوصاف المحبوب ، وذكره وحديثه. وقد يقوى إلى أن يبعدَ بين قلب صاحبه وبين إدراك الحواس؛ لانقهار الحسِّ لسلطان القلق.

قوله: «ويطاول الطاقة» يعني: يصابرها ويقاومها ، فلا تقدرُ طاقةُ الاصطبار على دفعه وردِّه. والله أعلم.

قال: «الدرجة الثالثة: قلق لا يرحم أبداً ، ولا يقبل أمداً ، ولا يبقي أحداً» يريد: أن هذا القلق له القهر والغلبة؛ لأنه ربما كان عن شهود ، فإذا علق بالقلب لم يُبْقِ عليه حتى يلقيه في فناء الشهود.

«ولا يقبل أمداً» أي: لا يقبلُ حداً ومقداراً يقفُ عنده ، وينقضي به ، كما ينقضي ذو الأمد ، فإنه حاكم ، غير محكوم عليه ، مالكٌ للقلب غير مملوك له.

«ولا يبقي أحداً» أي: يلقي صاحبه في الشهود الذي تفنى فيه الرسوم ، وتضمحل ، فلا يبقى معه على أحدٍ رسمه حتى يفنيه. والله أعلم.

ثم يقوى هذا «القلق» ويتزايدُ حتى يورث القلب حالة شبيهة بشدة ظمأ الصادي الحران إلى الماء ، وهذه الحالةُ هي التي يُسمِّيها صاحب المنازل «العطش» ، واستشهد عليه بقوله تعالى عن الخيل: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ [الأنعام: ٧٦] كأنه أخذ من إشارة الآية: أنه لشدة عطشه إلى لقاء محبوبه ـ لما رأى الكوكب ـ قال: هذا ربي ، فإن العطشان إذا رأى السراب ذَكَر به الماء ، فاشتدَّ عَطَشُه إليه.

وهذا ليس معنى الآية قطعاً ، وإنما القومُ مولعون بالإشارات ، وإلا فالآية

قد قيل: إنها على تقدير الاستفهام، أي: أهذا ربي؟، وليس بشيء[١].

وقيل: إنها على وجه إقامة الحجة على قومه، فتصوَّر بصورة الموافق؛ ليكون أدعى إلى القبول. ثم توسّل بصورة الموافقة إلى إعلامهم بأنه لا يجوزُ أن يكون المعبود ناقصاً آفلاً، فإن المعبود الحق: لا يجوز أن يغيبَ عن عابديه وخلقه، ويأفل عنهم، فإن ذلك منافٍ لربوبيته لهم، أو أنه انتقل من مراتب الاستدلال على المعبود حتى أوصله الدليل إلى الذي فطر السموات والأرض، فوجّه إليه وجهه حنيفاً موحِّداً، مقبلاً عليه، مُعْرِضاً عما سواه. والله سبحانه أعلم[٢].

الغيرة من المحبة:

ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «الغيرة».

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وفي الصحيح عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما أحدٌ أغيرَ من الله، ومن غَيْرَته: حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن. وما أَحَدٌ أَحَبَّ إليه المدح من الله، ومن أجل ذلك: أثنى على نفسه. وما أَحَدٌ أَحَبَّ إليه العذر من الله؛ من أجل ذلك: أرسل الرسل مبشرين ومنذرين»[٣].

---

(١) قال: محمد حامد الفقي: لعل هذا هو الوجه الواضح في سياق الآيات، فإنه عليه السلام إنما يحاجّ قومه، وما يحاججهم إلا بما هو مؤمن موقن به، ومن المحال أن يحاججهم بما هو شاكّ فيه، ولذلك قال: ﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾ ثم هو سياقٌ واضحٌ في الاستفهام الإنكاري التوبيخي، وذلك أسلوبٌ من المحاجة رفيع، وأسلوب من التأنيب والتقريع عديد.

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٥١).

(٣) رواه البخاري (٤٦٣٧) ومسلم (٢٧٦٠ و٢٧٦١).

وفي الصحيح أيضاً ، من حديث أبي سلمة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : «إن الله يغار ، وإن المؤمن يغار ، وَغَيرة الله : أن يأتي العبد ما حرّم عليه»[1] .

وفي الصحيح أيضاً : أن النبيَّ ﷺ قال : «أتعجبون من غَيْرة سعد؟ لأنا أغير منه ، والله أغيرُ مني»[2] .

ومما يدخل في الغَيرة قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٥] .

قال السريُّ لأصحابه : أتدرون ما هذا الحجاب؟! حجاب الغيرة ، ولا أحد أغير من الله . إن الله تعالى لم يجعلِ الكفارَ أهلاً لفهم كلامه ، ولا أهلاً لمعرفته وتوحيده ومحبته ، فجعل بينهم وبين رسوله وكلامه وتوحيده حجاباً مستوراً عن العيون ، غَيرةً عليه أن يناله مَنْ ليس أهلاً له .

و«الغيـرة» منزلـةٌ شريفـةٌ عظيمة جـداً ، جليلـةُ المقـدار ، ولكن الصوفيـة المتـأخرين منهم مَنْ قلب موضوعهـا ، وذهب بهـا مذهبـاً آخـر باطلاً ، سمَّاه «غيرةً» فوضعها في غير موضعها ، ولُبِّس عليه أعظم تلبيس» .

نـوعـا الـغيـرة :

«والغيـرة» نوعان : غيرة من الشيء . وغيرة على الشيء .

والغَيـرة من الشيء : هي كراهةُ مزاحمته ومشاركته لك في محبوبك .

والغَيـرة على الشيء : هي شدةُ حرصك على المحبـوب أن يفـوزَ بـه غيرك دونك ، أو يشاركك في الفوز به .

و«الغيـرة» أيضاً نوعان : غيرة العبـد من نفسه على نفسه ، كغيرته من نفسه

---

(١) سبق تخريجه ص (١٢٠) .

(٢) رواه البخاري (٦٨٤٦) ومسلم (٢٧٦٠) .

على قلبه ، ومن تفرقته على جمعيته ، ومن إعراضه على إقباله ، ومن صفاته المذمومة على صفاته الممدوحة. وهذه الغَيرةُ خاصية النفس الشريفة الزكية العلوية. وما للنفس الدنية المهينة فيها نصيب ، وعلى قدر شرف النفس وعلوّ همتها تكون هذه الغَيرة.

ثم «الغيرَة» أيضاً نوعان: غيرة الحق تعالى على عبده ، وغيرة العبد لربه لا عليه. فأما غَيرة الربِّ على عبده: فهي ألا يجعله للخلق عبداً ، بل يتخذه لنفسه عبداً ، فلا يجعل له فيه شركاء متشاكسين ، بل يفرده لنفسه ، ويضنُّ به على غيره ، وهذه أعلى الغَيرتين.

وغَيرةُ العبد لربِّه ، نوعان أيضاً: غيرة من نفسه ، وغَيرة من غيره ، فالتي مِنْ نفسه: ألا يجعل شيئاً مِنْ أعماله وأقواله وأحواله وأوقاته وأنفاسه لغير ربِّه؛ والتي مِنْ غيره: أن يغضبَ لمحارمه إذا انتهكها المنتهكون ، ولحقوقه إذا تهاونَ بها المتهاونون.

وأما الغيرة على الله: فأعظم الجهل وأبطل الباطل ، وصاحبها من أعظم الناس جهلاً. وربما أدَّت بصاحبها إلى معاداته وهو لا يشعر ، وإلى انسلاخه من أصل الدين والإسلام ، وربما كان صاحبها شراً على السالكين إلى الله من قُطَّاع الطريق ، بل هو من قُطَّاع طريق السَّالكين حقيقة. وأخرج قَطْع الطريق في قالب الغَيرة. وأين هذا من الغيرة لله؟ التي توجبُ تعظيمَ حقوقه ، وتصفية أعماله وأحواله لله؟ فالعارفُ يغار لله ، والجاهل يغارُ على الله ، فلا يقال: أنا أغارُ على الله ، ولكن أنا أغار لله.

وغَيرة العبد من نفسه: أهمّ من غيرته من غيره؛ فإنك إذا غِرْتَ من نفسك صَحَّت لك غَيرتُك لله من غيرك ، وإذا غِرْت له من غيرك ، ولم تغرْ من نفسك ، فالغيرةُ مدخولةٌ معلولة ولا بُدَّ ، فتأملها ، وحقِّقِ النظرَ فيها.

فليتأمَّل السالكُ اللبيبُ هذه الكلمات في هذا المقام؛ الذي زلَّت فيه أقدامُ كثيرٍ من السالكين ، والله الهادي ، والموفق المثبِّت.

كما حكي عن واحدٍ من مشهوري الصوفية ، أنه قال: لا أستريحُ حتى لا أرى من يذكر الله. يعني: غيرةً عليه من أهل الغفلة ، وذِكْرهم.

والعجبُ أن هذا يُعَدُّ من مناقبه ومحاسنه.

وغايةُ هذا: أن يعذرَ فيه لكونه مغلوباً على عقله ، وهو من أقبح الشطحات. وذِكْر الله على الغفلة ، وعلى كل حال؛ خيرٌ من نسيانه بالكلية. والألسن متى تركت ذِكْر الله ـ الذي هو محبوبها ـ اشتغلتْ بذكر ما يبغضه ، ويمقتُ عليه ، فأيُّ راحةٍ للعارف في هذا؟ وهل هو إلا أشقّ عليه ، وأكره إليه؟.

وقول آخر: لا أحبُّ أن أرى الله ، ولا أنظر إليه. فقيل له: كيف؟ قال: غَيرة عليه من نَظَر مثلي.

فانظر إلى هذه الغَيرة القبيحة ، الدالة على جَهْل صاحبها ، مع أنه في خفارة ذلِّه ، وتواضعه [1] ، وانكساره ، واحتقاره لنفسه.

ومن هذا ما يُحكى عن الشبلي: أنه لما مات ابنُه دخل الحمام ، ونَوَّر لحيته [2] ، حتى أذهب شعرها كله. فكل من أتاه معزياً ، قال: إيش هذا يا أبا بكر؟ قال: وافقتُ أهلي في قَطْع شعورهم. فقال له بعضُ أصحابه: أخبرني ، لِمَ فعلتَ هذا؟ فقال: علمتُ أنهم يعزونني على الغفلة ، ويقولون: آجرك الله ، ففديتُ ذكرهم لله على الغفلة بلحيتي.

فانظرْ إلى هذه الغَيرة المحرمة القبيحة؛ التي تضمَّنتْ أنواعاً من المحرمات: حلق الشعر عند المصيبة ، وقد قال رسولُ الله ﷺ: «ليس منّا من

---

(١) ليس هذا بتواضع ، وإنما هو تظاهرٌ بالتواضع؛ لينال من قلوب الدهماء عبادة وتقديساً أكثر. والتواضع: تواضع رسول الله وأصحابه.

(٢) «نوَّر لحيته»: النُّورة: حجر يُحرق ويُسَوَّى منه الكِلْس ، ويُحلق به شعرُ العانة وغيرها.

حلق وصَلَق وخرق»[1] أي: حلق شعره، ورفع صوته بالندب والنياحة، وخرق ثيابه.

ومنها: حلق اللحية، وقد أمر رسول الله ﷺ بإعفائها وتوفيرها.

ومنها: منع إخوانه من تعزيته ونيل ثوابها.

ومنها: كراهته لجريان ذكر الله على ألسنتهم بالغفلة، وذلك خيرٌ بلا شك من ترك ذكره.

فغايةُ صاحب هذا: أن تُغفر له هذه الذنوب، ويُعفى عنه. وأما أن يعدَّ ذلك في مناقبه، وفي الغَيرة المحمودة: فسبحانك، هذا بهتانٌ عظيم.

من هذا: ما ذُكر عن أبي الحسين النّوري: أنه سمع رجلاً يؤذِّن، فقال: طعنه وسم الموت.

وسمع كلباً ينبح، فقال: لبيك وسعديك. فقالوا له: هذا تركٌ للدين.

وصَدَقُوا والله، يقول للمؤذِّن في تشهده: طعنه، وسم الموت، ويلبّي نباحَ الكلب؟!

فقال: أما ذاك فكان يذكرُ الله على رأس الغفلة، وأما الكلب: فقد قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

فيا لله!! ماذا ترى رسول الله ﷺ يواجه هذا القائل لو رآه يقول ذلك، أو عمر بن الخطاب، أو من عَدَّ ذلك من المناقب والمحاسن؟!.

وسمع الشبليُّ رجلاً يقول: جَلَّ الله. فقال: أحبُّ أن تجلّه عن هذا.

وأذَّن مرة، فلما بلغ الشهادتين، قال: لولا أنك أمرتني ما ذكرتُ معك غيرك.

---

(١) رواه النسائي (٤/ ٢٠).

وقال بعضُ الجهال من القوم: «لا إله إلا الله» من أصل القلب، و«محمد رسول الله» من القرط.

ونحن نقولُ: محمد رسول الله؛ من تمام لا إله إلا الله، فالكلمتان تخرجان من أصل القلب، من مشكاة واحدة. لا تتم إحداهما إلا بالأخرى.

* * *

قال صاحبُ المنازل: «باب الغيرة»: قال الله تعالى ـ حاكياً عن نبيه سليمان عليه السلام ـ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣].

ووَجْهُ استشهاده بالآية: أن سليمان ـ عليه السلام ـ كان يحبُّ الخيل، فشغله استحسانها، والنظر إليها ـ لما عُرضت عليه ـ عن صلاة النهار، حتى توارتِ الشمسُ بالحجاب، فلحقته الغَيرةُ لله من الخيل، إذا استغرقه استحسانها، والنظر إليها عن خدمة مولاه وحقّه، فقال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ فطفق يضربُ أعناقها وعراقيبها بالسيف[1] غيرةً لله.

قال: «الغيرة: سقوط الاحتمال ضنّاً، والضيق عن الصبر نَفَاسة».

أي: عجز الغيور عن احتمال ما يشغله عن محبوبه، ويحجبه عنه ضنّاً به

---

(١) قال العلامة مصطفى الخيري المنصوري: وعندي أنَّ هذا بعيد، ويدلُّ عليه وجوه:
الأول: أنه لو كان معنى مَسْح السوق قطعها؛ لكان معنى ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: ٦] قطعها.
الثاني: القائلون بهذا القول جمعوا على سليمان ـ عليه السلام ـ أنواعاً من الأفعال المذمومة: (١) ترك الصلاة. (٢) الاشتغال بحبِّ الدنيا. (٣) أنه خاطب ربَّ العالمين بقوله: ﴿ردُّوها علي﴾ وهذه الكلمة لا يذكرها الرجلُ إلا مع الخادم الخسيس. (٤) عقر الخيل في سوقها، وهو منهيّ عنه. (٥) إنه بعد الإتيان بهذه الذنوب لم يشتغل بالتوبة، فهذه أنواع من الذنوب نسبوها إلى سليمان ـ عليه السلام ـ مع أن لفظ القرآن لم يدلَّ على شيء منها، بل ينادي على هذه الأقوال بالردِّ والإبطال. المقتطف من عيون التفاسير (٤/ ٤٢١ ـ ٤٢٢).

ـ أي: بخلاً به ـ أن يعتاضَ عنه بغيره ، وهذا البخلُ: هو محضُ الكرم عند المحبين الصَّادقين.

وأما «الضيق عن الصبر نفاسة» فهو أن يضيقَ ذَرْعُه بالصبر عن محبوبه ، وهذا هو الصبرُ الذي لا يذمُّ من أنواع الصبر سواه ، أو ما كان من وسيلته ، والحامل له على هذا الضيق: مغالاته بمحبوبه ، وهي النفاسة؛ فإنه ـ لمنافسته ورغبته ـ لا يسامحُ نَفْسَه بالصبر عنه. و«المنافسة» هي كمالُ الرغبة في الشيء ، ومنع الغير منه: إن لم يمدحْ فيه المشاركة ، والمسابقة إليه إن مدحت فيه المشاركة.

قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] وبين «المنافسة» و«الغبطة» جمع وفرق ، وبينهما وبين «الحسد» أيضاً جمع وفرق.

فالمنافسة: تتضمَّن: مسابقة واجتهاداً وحرصاً ، والحسد: يدلُّ على مهانة الحاسد وعجزه ، وإلا فنافس من حسدته ، فذلك أنفع لك من حسده ، كما قيل:

إذا أعجبتْكَ خِلال امرىءٍ ... فكنُهْ ، يَكُنْ منك ما يعجبك
فليسَ على الجودِ والمكرما ... تِ إذا جِئْتَها حاجبٌ يحجبك

و«الغبطة» تتضمَّنُ نوع تعجب وفرح للمغبوط ، واستحسان لحاله.

درجات الغَيرة:

قال: «وهي على ثلاث درجات: الدرجة الأولى: غَيرة العابد على ضائع يستر ضياعه ، ويستدرك فواته ، ويتدارك قواه».

«العابد» هو العامل ـ بمقتضى العلم النافع ـ للعمل الصالح ، فغَيرته على ما ضاع عليه من عملٍ صالح ، فهو يستردُّ ضياعه بأمثاله ، ويجبر ما فاته من الأوراد والنوافل وأنواع القرب بفِعْل أمثالها ، من جنسها وغير جنسها ، فيقضي ما ينفعُ فيه القضاء ، ويعوض ما يقبل العوض ، ويجبر ما يمكنُ جبره.

وقوله: «ويستدرك فواته» الفرق بين استرداد ضائعه، واستدراك فائته، أنَّ الأول: يمكن أن يُستردَّ بعينه، كما إذا فاته الحجُّ في عام تمكّن منه، فأضاعه في ذلك العام: استدركه في العام المقبل، وكذلك إذا أخَّر الزكاة عن وقت وجوبها استدركها بعد تأخيرها، ونحو ذلك.

وأما الفائت: فإنما يستدركُ بنظيره؛ كقضاء الواجب إذا فات وقته، أو يكون مراده باسترداد الضائع، واستدراك الفائت: نوعي التفريط في الأمر والنهي، فيستردّ ضائع هذا بقضائه وفعل أمثاله، ويستدرك فائت هذا ـ أي سالفه ـ بالتوبة والندم.

وأما «تدارك قواه» فهو أن يتداركَ قوته ببذلها في الطاعة قبل أن تتبدلَ بالضعف، فهو يغارُ عليها: أن تذهبَ في غير طاعة الله؛ ويتدارك قوى العمل الذي لحقه الفتورُ عنه؛ بأن يكسوه قوة ونشاطاً، غيرةً له وعليه.

فهذه غيرةُ العباد على الأعمال. والله أعلم.

قال: «الدرجة الثانية: غَيرة المريد، وهي غيرةٌ على وقتٍ فات، وهي غيرةٌ قاتلة؛ فإن الوقتَ وَحِيُّ التقضِّي، أبيُّ الجانب، بَطِيُّ الرجوع».

و«المريدون» هم أربابُ الأحوال، و«العبّاد» أرباب الأوراد والعبادات، وكلُّ مريد عابد، وكلُّ عابد مريد، لكن القوم خصّوا أهل المحبة وأذواق حقائق الإيمان باسم «المريد» وخصُّوا أصحابَ العمل المجرد باسم «العابد» وكلُّ مريدٍ لا يكونُ عابداً فزنديق، وكلُّ عابد لا يكون مريداً فمراءٍ.

و«الوقت» عند العابد: هو وقتُ العبادة والأوراد، وعند المريد: هو وقتُ الإقبال على الله، والجمعية عليه، والعكوفُ عليه بالقلب كله.

و«الوقتُ» أعزُّ شيء عليه، يغارُ عليه أن ينقضي بدون ذلك، فإذا فاته الوقتُ لا يمكنه استدراكه ألبتة؛ لأن الوقتَ الثاني قد استحقُّ واجبه الخاص، فإذا فاته وقت فلا سبيل له إلى تداركه، كما في المسند مرفوعاً: «من أفطر يوماً

من رمضان ، متعمداً من غير عذر : لم يقضه عنه صيام الدهر وإن صامه»[1] .

وقوله : «وهي غيرةٌ قاتلة» يعني : مضرَّة ضرراً شديداً بيِّناً يشبه القتل ؛ لأن حَسْرَة الفوت قاتلة ، ولا سيما إذا علم المتحسِّر : أنه لا سبيلَ له إلى الاستدراك .

وأيضاً ؛ فالغيرةُ على التفويت تفويتٌ آخر ، كما يقال : الاشتغالُ بالندم على الوقت الفائت تضييعٌ للوقت الحاضر ؛ ولذلك يقال : الوقت سيف ، إن لم تقطعه ، وإلا قطعك .

ثم بيَّن الشيخُ السببَ في كون هذه الغيرة قاتلة ، فقال :

«فإن الوقت وحيّ التقضي» أي : سريع الانقضاء ، كما تقول العرب : «الوحا الوحا ، العجَل العجل» والوحْيُ : الإعلام في خفاء وسرعة . ويقال : جاء فلان وَحِيّاً ، أي : مجيئاً سريعاً . فالوقت منقضٍ بذاته ، منصرم بنفسه ، فمن غَفَل عن نفسه تصرَّمتْ أوقاتُه ، وعظم فواتُه ، واشتدت حسراته . فكيف حاله إذا علم عند تحقق الفوت مقدار ما أضاع ، وطلب الرُّجْعَى ، فحيل بينه وبين الاسترجاع ، وطلب تناول الفائت ، وكيف يردّ الأمس في اليوم الجديد؟ ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [سبأ : ٥٢][2] ومُنع مما يحبه ويرتضيه ، وعلم أن ما اقتناه ليس مما ينبغي للعاقل أن يقتنيه ، وحيل بينه وبين ما يشتهيه .

فيا حسرات ، ما إلى رَدِّ مثلها سبيلٌ ، ولو رُدَّت لهانَ التَّحسُّر
هي الشَّهوات اللائي كانت تحولتْ إلى حَسَراتٍ حين عَزَّ التَّصبر
فلو أنها رُدَّت بصبرٍ وقوة تَحَوَّلْنَ لَذَّاتٍ ، وذو اللبِّ يُبصر

ويقال : إن أصعبَ الأحوال المنقطعة : انقطاع الأنفاس ، فإن أربابها إذا صعد النفس الواحد صَعَّدوه إلى نحو محبوبهم ، صاعداً إليه ، متلبساً بمحبته

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٤٥٨) .

(٢) «التناوش» : تناوُل الإيمان والتوبة . «مكان بعيد» : هو الآخرة .

والشوق إليه ، فإذا أرادوا دفعه لم يدفعوه حتى يتبعوه نفساً آخر مثله ، فكلُّ أنفاسهم بالله ، وإلى الله ، متلبسة بمحبته ، والشوق إليه والأنس به ، فلا يفوتهم نَفَس من أنفاسهم مع الله إلا إذا غلبهم النوم. وكثير منهم يرى في نومه: أنه كذلك؛ لالتباس روحه وقلبه ، فيحفظ عليه أوقات نومه ويقظته ، ولا تستنكر هذه الحال؛ فإن المحبة إذا غلبتْ على القلب وملكته: أوجَبت له ذلك لا محالة.

والمقصودُ: أن الوارداتِ سريعة الزوال ، تمرُّ أسرعَ من السحاب ، وينقضي الوقتُ بما فيه ، فلا يعودُ عليك منه إلا أثره ، وحكمه ، فاخترْ لنفسك ما يعودُ عليك من وقتك ، فإنه عائد عليك لا محالة ، لهذا يقال للسعداء: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] ويقال للأشقياء: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥][(١)].

قال: «الدرجة الثالثة: غَيرة العارف على عين غَطَّاها غيْنٌ ، وسِرٍّ غَشِيَهُ رَيْن ، ونَفَس علق برجاء ، أو التفت إلى عطاء».

أي: يغار على بصيرة غطَّاها ستر أو حجاب ، فإن «الغين» بمنزلة الغطاء والحجاب ، وهو غطاءٌ رقيقٌ جداً ، وفوقه «الغَيم» وهو لعموم المؤمنين ، وفوقه «الرين ، والران» وهو للكفار.

وقوله: «وسرّ غشيه رين» أي: حجاب أغلظ من الغيم الأول.

و«السر» ها هنا: إما اللطيفة المدركة من الروح ، وإما الحال التي بين العبد وبين الله عز وجل ، فإذا غشيه رينُ النفس والطبيعة استغاث صاحبه ، كما يستغيثُ المعذّب في عذابه ، غَيرةً على سرّه من ذلك الرين.

وقوله: «ونفس علق برجاء ، والتفت إلى عطاء».

يعني: أنَّ صاحب النفس يغارُ على نفَسه إذا تعلَّق برجاء من ثواب منفصل ،

---

(١) «تفرحون»: تبطرون وتأشُرون. «تمرحون»: تتوسَّعون في الفرح والبطر.

ولم يتعلَّقْ بإرادة الله ومحبته ، فإنَّ بين النفسين كما بين متعلّقهما .

وكذلك قوله : «أو التفت إلى عطاء» يعني : أنه يلتفتُ إلى عطاء من دون الله فيرضى به ، ولا ينبغي أن يتعلَّق إلا بالله ، ولا يلتفتُ إلا إلى المعطي الغني الحميد ، وهو الله وحده . والله أعلم[١] .

* * *

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٢) .

الفصل الثالث

كمال محبة الله تعالى

كمال اللذة في كمال المحبوب وكمال المحبة:

ها هنا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به ، وهو أن كمال اللذة والفرح والسرور ونعيم القلب وابتهاج الروح تابع لأمرين:

أحدهما: كمال المحبوب في نفسه وجماله ، وأنه أولى بإيثار المحبة من كل ما سواه.

والأمر الثاني: كمال محبته ، واستفراغ الوسع في حبه ، وإيثار قربه والوصول إليه بكل شيء.

وكل عاقل يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوة محبته ، فكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة المحبة أكمل ، فلذة من اشتد ظمؤه بإدراك الماء الزلال ، ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهي ، ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته.

وإذا عرف هذا ، فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب في نفسه ، بل هو مقصود كل حي وعاقل ، وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهي تذم إذا أعقبت ألماً أعظم منها ، أو منعت لذة خيراً منها وأجلَّ ، فكيف إذا أعقبت أعظم الحسرات ، وفَوَّتَتْ أعظم اللذات والمسرات؟ وتحمد إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستقرة لا تنغيص فيها ولا نكد بوجهٍ ما ، وهي لذة الآخرة

ونعيمها وطيب العيش فيها ، قال الله تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى : ١٦ ـ ١٧]. وقال السحرة لفرعون لما آمنوا : ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه : ٧٢ ـ ٧٣].

* والله سبحانه خلق الخلق لينيلهم هذه اللذة الدائمة في دار الخلد ، وأما هذه الدار فمنقطعة ، ولذّاتها لا تصفو أبداً ولا تدوم ، بخلاف الآخرة ، فإن لذاتها دائمة ونعيمها خالص من كل كدر وألم ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين مع الخلود أبداً ، ولا تعلم نفس ما أخفى الله لعباده فيها من قرة أعين ، بل فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وهذا المعنى الذي قصده الناصح لقومه بقوله : ﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ [غافر : ٣٨ ـ ٣٩] فأخبرهم أن الدنيا متاع يُتمتع بها إلى غيرها ، وأن الآخرة هي المستقر.

وإذا عُرف أن لذات الدنيا ونعيمَها متاع ووسيلة إلى لذات الآخرة ، ولذلك خُلقت الدنيا ولذاتُها ، فكل لذة أعانت على لذة الآخرة وأوصلت إليها لم يُذَمَّ تناولُها ، بل يُحمد بحسب إيصالها إلى لذة الآخرة(١).

حب الله رأس مال العبد :

وأما الرّغبةُ في الله وإرادةُ وجهه ، والشوقُ إلى لقائه فهي رأس مال العبد ، ومِلاكُ أمره ، وقوامُ حياته الطيبة ، وأصل سعادته وفلاحه ونعيمه وقُرّة عينه ، ولذلك خُلق ، وبه أُمِرَ ، وبذلك أُرسلت الرُّسلُ ، وأُنزلت الكتب ، ولا صلاحَ للقلب ولا نعيمَ إلا بأن تكون رغبتُهُ إلى الله عزَّ وجلَّ وَحْدَه ، فيكون هو وحدَه مرغوبَه ومطلوبَه ومرادَه كما قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الانشراح : ٧ ـ ٨] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟

(١) الداء والدواء (٣٨٥).

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

والراغبون ثلاثة أقسام: راغِبٌ في الله، وراغِبٌ فيما عند الله، وراغِبٌ عن الله. فالمحبُّ راغبٌ فيه، والعاملُ راغب فيما عنده، والرَّاضي بالدُّنيا من الآخرة راغبٌ عنه. ومَن كانت رغبتُه في الله كفاه الله كلَّ مهمٍّ، وتولاّه في جميع أُموره، ودفع عنه ما لا يستطيع دفْعَه عن نفسه، ووقاه وقايةَ الوليد، وصانه من جميع الآفات. ومَن آثَر اللهَ عَلَى غيره آثره اللهُ عَلَى غيره. ومن كان لله كان الله له حيث لا يكون لنفسه، ومن عرف اللهَ لم يكن شيءٌ أحبَّ إليه منه، ولم تبقَ له رغبةٌ فيما سواه، إلاَّ فيما يُقرِّبه إليه، ويعينه عَلَى سفره إليه.

ومن علامات المعرفة: الهيبةُ، فكلّما ازدادت معرفةُ العبد بربه ازدادت هيبتُه وخشيتُه إياه، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] أي: العلماء به. وقال النبي ﷺ: «أَنَا أَعْرَفُكُمْ بِالله وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً»(١) ومن عرف الله صفا له العيش، وطابت له الحياة، وهابه كل شيءٍ، وذهب عنه خوف المخلوقين، وأَنِسَ بالله، واستوحش من الناس، وأورثته المعرفة الحياءَ من الله، والتعظيمَ له، والإجلالَ والمراقبة والمحبة والتوكُّل عليه، والإنابةَ إليه والرّضا به والتسليم لأمره. وقيل للجُنَيْد رحمه الله تعالى: إن ها هنا أقواماً يقولون: إنهم يَصِلون إلى البِرِّ بترك الحركات، فقال: هؤلاء تكلّموا بإسقاط الأعمال وهو عندي عظيم، والذي يزني ويسرِق أحسنُ حالاً من الذي يقول هذا، فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله، وإلى الله رجعوا فيها، ولو بقيتُ ألفَ عامٍ لم أنقص من أعمال البرّ شيئاً.

وقال: لا يكون العارفُ عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤه البَرُّ والفاجر، وكالمطر يسقي ما يُحب وما لا يحبّ.

وقال يحيى بن مُعاذ: يخرج العارف من الدُّنيا ولا يقضي وطرَه من شيئين:

---

(١) رواه البخاري (٦١٠١) ومسلم (٢٣٥٦).

بكاؤُه على نفسه ، وشوقه إلى ربه. وقال بعضُهم: لا يكون العارف عارفاً حتى لو أُعطي ملك سليمانَ لم يَشغَلْهُ عن الله طَرْفَةَ عين. وقيل: العارف أنِسَ بالله فاستوحش من غيره. وافتقر إلى الله فأغناه عن خلقه ، وذلّ لله فأعزّه في خلقه.

وقال أبو سليمان الدَّاراني[1]: يُفْتحُ للعارف على فراشه ما لا يُفتح له وهو قائم يصلّي.

وقال ذُو النُّون[2]: لكل شيء عقوبةٌ ، وعقوبة العارف: انقطاعه عن ذكر الله.

وبالجملة فحياةُ القلب مع الله لا حياة له بدون ذلك أبداً ، ومتى واطأ[3] اللسانُ القلب في ذكره ، وواطأَ القلب مرادَ حبيبه منه ، واستقلّ له الكثيرَ من قوله وعمله ، واستكثر له القليلَ من برّه ولطفه ، وعانق الطاعة وفارق المخالفة ، وخرج عن كلّه لمحبوبه فلم يبقَ منه شيءٌ ، وامتلأ قلبُه بتعظيمه وإجلاله وإيثار رضاه ، وعَزّ عليه الصبرُ عنه ، وعَدِم القرارَ دون ذكره والرغبة إليه والاشتياق إلى لقائه ، ولم يجد الأنس إلا بذكره ، وحفظ حدوده ، وآثره على غيره ، فهو المحب حقّاً.

وقال الْجُنَيْد: سمعت الحارث الْمُحَاسبيَّ يقول: المحبةُ ميلُك إلى الشيء بكلّيّتك ، ثم إيثارُك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتُك له سراً وجهراً ، ثم علمُك بتقصيرك في حبه. وقيل: المحبةُ نارٌ في القلب تحرق ما سوى مرادِ الحبيب من محبه. وقيل: بل هي بذلُ المجهود في رضا

---

(١) هو عبد الرحمن بن أحمد: زاهد مشهور. من أهل داريًا بغوطة دمشق. كان من كبار المتصوفين. له أخبار في الزهد. توفي سنة (٢١٥هـ). طبقات الصوفية (٧٥) ووفيات الأعيان (١/ ٢٧٦) والأعلام (٣/ ٢٩٣).

(٢) هو ثوبان بن إبراهيم ، أبو الفيَّاض ، أو أبو الفيض: أحد الزهاد العُبَّاد المشهورين. كانت له فصاحة وحكمة وشعر. توفي سنة (٢٤٥هـ). وفيات الأعيان (١/ ١٠١) وحلية الأولياء (٩/ ٣٣١ و١٠/ ٣) والأعلام (٢/ ١٠٢).

(٣) «واطأ»: طابق ووافق.

الحبيب ، ولا تَصِحُّ إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب. وفي بعض الآثار الإلهية: عبدي أنا ـ وحقِّك ـ لك محبٌّ فبحقي عليك كن لي مُحبّاً. وقال عبد الله بن المبارك: من أُعطي شيئاً من المحبة ولم يُعْطَ مثلَه من الخشية فهو مخدوع.

وقال يحيى بن مُعاذ: مثقال خردلةٍ[1] من الحب أحبُّ إليَّ من عبادة سبعين سنة بلا حبّ.

وقيل: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود إني حرّمتُ على القلوب أن يدخلها حبي وحبُّ غيري.

فأجمع العارفون كلُّهم أن المحبة لا تَصِحّ إلاَّ بالموافقة؛ حتى قال بعضهم: حقيقة المحبّ موافقة المحبوب في مراضيه ومساخطه ، واتفق القوم أن المحبة لا تَصِحُّ إلاَّ بتوحيد المحبوب. وَيُحكى أن رجلاً ادَّعى الاستهلاك[2] في محبة شخص فقال له: كيف وهذا أخي أحسن مني وجهاً وأتمُّ جمالاً؟ فالتفت الرجلُ إليه فدفعه الشابُّ وَقال: من يدَّعي هوانا ينظر إلى سوانا؟. وذكرت المحبة عند ذي النون فقال: كُفُّوا عن هذه المسألة لا تسمعها النفوس فتدَّعيها ، ثم أنشأ يقول:

الخوف أولى بالمسيء إذا تألَّه والْحَزَنْ
والحبُّ يجمُل بالتّقِيِّ وبالنقيِّ من الدَّرَنْ

وقال سمنون: ذهب المحبون لله بشرف الدُّنيا والآخرة. إن النبي ﷺ قال: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»[3] فهم مع الله في الدنيا والآخرة. وقال يحيى بن مُعاذ:

---

(١) «خردلة»: الخردل: نبات عشبي ، له حَبٌّ صغير جداً. الواحدة: خَرْدلة. ويُضْرَب بحَبّه المَثَل في الصِّغر.

(٢) «الاستهلاك»: إجهاد النفس وإتلافها.

(٣) سبق تخريجه ص (٤٤).

ليس بصادقٍ من ادّعى محبته ثم لم يحفظ حدودَه[1].

رؤيـة الله عـز وجـل:

إذا عُرف هذا، فأعظم نعيم الآخرة ولذاتها: هو النظر إلى وجه الرب جل جلاله، وسماع كلامه منه، والقرب منه، كما ثبت في الصحيح في حديث الرؤية: «فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمْ شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِم مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ»[2] وفي حديث آخر: «إِنَّهُ إِذَا تَجَلَّى لَهُمْ وَرَأَوْهُ نَسُوا مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ»[3].

وفي النسائي ومسند الإمام أحمد من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه عن النبي ﷺ في دعائه: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ، وَالشَّوقَ إِلَى لِقَائِكَ»[4].

وفي كتاب «السنة» لعبد الله بن الإمام أحمد مرفوعاً: «كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن، إذا سمعوه من الرحمن فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك»[5].

وإذا عُرف هذا، فأعظم الأسباب التي تحصل هذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الإطلاق، وهو لذة معرفة الله سبحانه وتعالى ولذة محبته، فإن ذلك هو جنة الدنيا ونعيمها العالي، ونسبة لذاتها الفانية إليه كتفلة في بحر، فإن الروح والقلب والبدن إنما خلق لذلك، فأطيب ما في الدنيا معرفته ومحبته، وألذ ما في الجنة رؤيته ومشاهدته، فمحبته ومعرفته قرة العيون، ولذة الأرواح، وبهجة القلوب، ونعيم الدنيا وسرورها، بل لذات الدنيا القاطعة

---

(١) روضة المحبين (٤٥٧).
(٢) رواه مسلم (١٨١) والترمذي (٢٥٥٢).
(٣) مختصر تذكرة القرطبي؛ للشعراني (٢٠٦).
(٤) رواه أحمد (٥/ ١٩١) والنسائي (٣/ ٥٥).
(٥) رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في السنة برقم (١١٩) موقوفاً على محمد بن كعب القرظي.

عن ذلك تنقلب آلاماً وعذاباً ، ويبقى صاحبها في المعيشة الضنك ، فليست الحياة الطيبة إلا بالله.

وكان بعضُ المحبين تمرُّ به أوقات فيقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيِّب. وكان غيره يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

وإذا كان صاحب المحبة الباطلة التي هي عذاب على قلب المحب ، يقول في حاله:

وَمَا النَّاسُ إلاَّ الْعَاشِقُونَ ذَوُو الْهَوَى   فَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يُحِبُّ وَيَعْشَقُ

ويقول:

أُفٍّ لِلدُّنْيَا إِذَا مَا لَمْ يَكُنْ   صَاحِبُ الدُّنْيَا مُحِبّاً أَوْ حَبِيبَا

وقال آخر:

وَلاَ خَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي نَعِيمِهَا   وَأَنْتَ وَحِيدٌ مُفْرَدٌ غَيْرُ عَاشِقِ

وقال آخر:

اسْكُنْ إِلى سَكَنٍ تَلَذُّ بِحُبِّهِ   ذَهَبَ الزَّمَانُ وَأَنْتَ مُنْفَرِدُ

وقال:

تَشَكَّى الْمُحِبُّونَ الصَّبَابَةَ ، لَيْتَنِي   تَحَمَّلْتُ مَا يَلْقونَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحْدِي
فَكَانَتْ لِقَلْبِي لَذَّةُ الْحُبِّ كُلُّهَا   فَلَمْ يَلْقَهَا قَبلي مُحِبٌّ وَلاَ بَعْدِي

فكيف بالمحبة التي هي حياةُ القلوب وغذاءُ الأرواح ، وليس للقلب لذة ، ولا نعيم ، ولا فَلاح ، ولا حياة إلا بها؟ وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها ، والأذن إذا فقدت سمعها ، والأنف إذا فقد شمّه ، واللسان إذا فقد نطقه ، بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإلٓهه الحق؛ أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح ، وهذا الأمر لا يصدق به إلا من فيه حياة ، وما لجرح بميت إيلام.

والمقصود: أن أعظم لذات الدنيا هو السبب الموصل إلى أعظم لذة في الآخرة، ولذات الدنيا ثلاثة أنواع:

فأعظمها وأكملها: ما أوصل إلى لذة الآخرة، ويُثاب الإنسان على هذه اللذة أتم ثواب، ولهذا كان المؤمن يُثاب على ما يقصد به وجه الله من أكله وشربه ولباسه ونكاحه، وشفاء غيظه بقهر عدو الله وعدوه، فكيف بلذة إيمانه، ومعرفته بالله، ومحبته له، وشوقه إلى لقائه، وطمعه في رؤية وجهه الكريم في جنات النعيم؟!

النوع الثاني: لذة تمنع لذة الآخرة وتعقب آلاماً أعظم منها، كلذة الذين اتخذوا من دون الله أوثاناً مودة بينهم في الحياة الدنيا، يحبونهم كحب الله، ويستمتعون بعضهم ببعض، كما يقولون في الآخرة إذا لقوا ربهم: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٨ ـ ١٢٩].

ولذَّةُ أصحاب الفواحش والظلم والبغي في الأرض والعلو بغير الحق.

وهذه اللذاتُ في الحقيقة إنما هي استدراجٌ من الله لهم ليذيقهم بها أعظم الآلام، ويحرمهم بها أكمل اللذات، بمنزلة مَنْ قدَّم لغيره طعاماً لذيذاً مسموماً يستدرجه به إلى هلاكه، قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾[1] [الأعراف: ١٨٢ ـ ١٨٣].

قال بعضُ السلف في تفسيرها: كلما أحدثوا ذنباً أحدثنا لهم نعمة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] [الأنعام: ٤٤ ـ ٤٥].

---

(١) «سنستدرجهم»: سنقرِّبهم للهلاك بالإنعام والإمهال. «أُملي لهم»: أمهلهم في العقوبة.

(٢) «بغتة»: فجأة. «مبلسون»: آيسون من الرحمة. «دابر»: آخر.

وقال تعالى في أصحاب هذه اللذة: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦][1].

وقال في حقهم: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٥٥].

وهذه اللذة تنقلب آخراً آلاماً من أعظم الآلام، كما قيل:

مَآرِبُ كَانَتْ فِي الْحَيَاةِ لأَهِلْهِا عِذاباً، فَصَارَتْ فِي الْمَعَادِ عَذَابَا

النوع الثالث: لذة لا تعقب لذة في دار القرار ولا ألماً، ولا تمنع أصل لذة دار القرار، وإن منعت كمالها، وهذه اللذة المباحة التي لا يستعان بها على لذة الآخرة، فهذه زمانها يسير، ليس لتمتع النفس بها قدر، ولا بُدَّ أن تشغل عما هو خير وأنفع منها.

وهذا القسم هو الذي عناه النبي ﷺ: «كُلُّ لَهْوٍ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ فَهُوَ بَاطِلٌ، إِلاَّ رَمْيَهُ بِقَوسِهِ، وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ، وَمُلاعَبَتَهُ امْرَأَتَهُ، فَإِنَّهُنَّ مِن الْحَقِّ»[2].

فما أعان على اللذة المطلوبة لذاتها فهو حق، وما لم يعنْ عليها فهو باطل[3].

محبة العبد لربه ولذّته بقربه على قدر معرفته به:

اللذةُ تابعةٌ للمحبَّةِ؛ تقْوى بقوَّتِها، وتضْعُفُ بضَعْفِها، فكلَّما كانتِ الرغبةُ في المحبوبِ والشوقُ إليه أقوى؛ كانتِ اللَّذَّةُ بالوصول إليه أتمَّ.

والمحبةُ والشوقُ تابعان لمعرفتِهِ والعلم به؛ فكلَّما كان العلمُ به أتَمَّ؛ كانتْ محبتُهُ أكملَ.

---

(١) «نمدّهم به»: نجعله مَدَداً لهم.

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٤٤) وأبو داود (٢٥١٣) والترمذي (١٦٣٧) والنسائي (٦/ ٢٢٣) والحاكم (٢/ ٩٥).

(٣) الداء والدواء (٣٨٧).

فإذا رَجَعَ كمالُ النعيم في الآخرةِ وكمالُ اللَّذَّةِ إلى العلم والحُبِّ؛ فمَن كان باللهِ وأسمائِه وصفاتِهِ ودينِه أعرفَ؛ كان له أحَبَّ ، وكانت لذَّتُه بالوصول إليه ومجاورتِهِ والنظرِ إلى وجهِهِ وسماعِ كلامِهِ أتمَّ. . . وكلُّ لَذَّةٍ ونعيم وسرورٍ وبهجةٍ بالإَضافة إلى ذلك كقطرةٍ في بحرٍ.

فكيف يُـؤْثِـرُ مَنْ له عقلٌ لَـذَّةً ضعيفةً قصيرةً مشوبـةً بالآلام على لَذَّةٍ عظيمةٍ دائمةٍ أبدَ الآبادِ؟!

وكمالُ العبد بحسبِ هاتين القوتينِ؛ العلم والحبِّ ، وأفضلُ العلم العلمُ باللهِ ، وأعلى الحبِّ الحبُّ له ، وأكملُ اللَّذَّةِ بِحَسَبِهما[1].

لـذة النظـر إلـى وجـه الله يـوم الـقيـامـة:

وكما أنه لا نسبة لنعيم ما في الجنة إلى نعيم النظر إلى وجهه الأعلى سبحانه ، فلا نسبةَ لنعيم الدنيا إلى نعيم محبته ومعرفته والشوق إليه والأنس به ، بل لذةُ النظر سبحانه تابعةٌ لمعرفتهم به ، ومحبتهم له ، فإن اللذة تتبعُ الشعورَ والمحبة ، فكلما كان المحبُّ أعرفَ بالمحبوب ، وأشد محبة له ، كان التذاذه بقربه ورؤيته ووصوله إليه أعظم.

والمخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضر ، ولا عطاء ولا منع ، ولا هدى ، ولا ضلال ، ولا نصر ولا خذلان ، ولا خفض ولا رفع ، ولا عزّ ولا ذلّ ، بل الله وحده هو الذي يملكُ له ذلك كله ، قال الله تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢][2].

وقال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٧].

---

(١) الفوائد (١٣٤).

(٢) «ما يفتح»: ما يرسل.

وقال تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وقال تعالى عن صاحب يس: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾ [يس: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣][١].

وقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ [الملك: ٢٠ - ٢١][٢].

فجمع سبحانه بين النصر والرزق، فإن العبد مضطرّ إلى من يدفعُ عنه عدوه بنصره، ويجلبُ له منافعه برزْقه، فلا بُدَّ له من ناصر ورازق. والله وحده هو الذي ينصرُ ويرزق، فهو الرزاق ذو القوة المتين. ومِنْ كمال فطنة العبد ومعرفته: أن يعلم أنه إذا مسّه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره، وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه. ويذكر أنَّ الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: «أدرك لي لطيف الفِطنة، وخفيَّ اللطف، فإني أحبُّ ذلك. قال: يا رب وما لطيف الفطنة؟ قال: إن وقعتْ عليك ذبابةٌ فاعلم أني أنا أوقعتها فاسألني أرفعها. قال: وما خفيُّ اللطف؟ قال: إذا أتتك حبّة فاعلم أني أنا ذكرتك بها».

وقد قال تعالى عن السحرة: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [البقرة: ١٠٢] فهو سبحانه وحده الذي يكفي عبده، وينصره، ويرزقه، ويَكْلَؤُه.

---

(١) «فأنى يؤفكون»: فكيف يُصرفون عن توحيده؟!

(٢) «أمَّن هذا؟»: بل مَنْ هذا؟ «جندٌ لكم»: أعوان لكم ومَنَعة. «غرور»: خديعة من الشيطان وجنده. «لجّوا في عتوّ»: تمادَوْا في استكبار وعِناد. «نفور»: شِراد وتباعد عن الحق.

قال الإمامُ أحمد: حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر قال: سمعت وَهْباً يقول: قال الله تعالى في بعض كتبه: «بعزتي ، إنه من اعتصم بي ، فإن كادته السموات بمن فيهن ، والأرضون بمن فيهن ، فإني أجعلُ له من ذلك مخرجاً ، ومن لم يعتصم بي ، فإني أقطعُ يده من أسباب السماء ، وأخسفُ به من تحت قدميه الأرض ، فأجعله في الهواء ، ثم أكِلُه إلى نفسه ، كَفِّي لعبدي مَلأى ، إذا كان عبدي في طاعتي أعطيه قبل أن يسألني ، وأستجيب له قبل أن يدعوني ، فأنا أعلمُ بحاجته التي ترفُق به منه».

قال أحمد: وحدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا أبو سعيد المؤدِّب ، حدثنا مَنْ سمع عطاء الخراساني قال: «لقيت وهب بن مُـنَـبِّه؛ وهو يطوف بالبيت؛ فقلت له: حدثني حديثاً أحفظهُ عنك في مقامي هذا ، وأوجزْ ، قال: نعم ، أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود: يا داود ، أما وعزتي وعظمتي لا يعتصمُ بي عبدٌ من عبيدي دون خلقي ـ أعرف ذلك من نيَّته ـ فتكيده السمواتُ السبع ومَنْ فيهن ، والأرضون السبع ومَنْ فيهن؛ إلا جعلت له من بينهن مخرجاً ، أما وعزتي وعظمتي لا يعتصمُ عبدٌ من عبادي بمخلوقٍ دوني ـ أعرف ذلك من نيَّته ـ إلا قطعتُ أسبابَ السماء من يده ، وأسَخْتُ الأرضَ من تحت قدميه ، ثم لا أبالي بأيّ وادٍ هلك».

وهـذا الوجـهُ أظهر للعامـة من الـذي قبله ، ولهـذا خُـوطبوا بـه في القرآن أكثر من الأول ، ومنه دعتِ الرسلُ إلى الوجه الأول. وإذا تدبر اللبيبُ القرآنَ وجـدَ الله سبحانه يدعو عباده بهذا الوجـه إلى الوجـه الأول ، وهذا الوجـهُ يقتضـي التوكـل علـى الله تعـالى ، والاستعانـة بـه ، ودعـاءه ، ومسألته دون ما سواه ، ويقتضـي أيضـاً: محبتـه وعبادتـه ، لإحسانـه إلى عبده ، وإسْباغ نعمه عليه ، فإذا أحبُّـوه وعبدوه وتوكلوا عليه من هذا الوجه ، دخلوا منه إلى الوجه الأول.

ونظير ذلك: من ينزلُ به بلاء عظيم ، أو فاقة[1] شديدة ، أو خوف مُقْلِق ، فجعل يدعو الله سبحانه ، ويتضرَّع إليه ، حتى فتح له من لذيذ مناجاته ، وعظيم الإيمان به ، والإنابة إليه ما هو أحبّ إليه من تلك الحاجة التي قصدها أوّلاً ، ولكنه لم يكنْ يعرفُ ذلك أوَّلاً حتى يطلبه ، ويشتاق إليه ، وفي نحو ذلك قال القائل:

جزى اللهُ يومَ الرَّوع خيراً ، فإنه أرانا على عِلاَّته أمَّ ثابت
أرانا مَصُونات الحِجال ، ولم نكنْ نراهنَّ إلا عند نَعْتِ النواعت

وإنَّ تَعَلُّقَ العبد بما سوى الله تعالى مَضرَّة عليه ، إذا أخذ منه فوق القدر الزائد على حاجته ، غير مستعينٍ به على طاعته ، فإذا نال من الطعام والشراب والنكاح واللباس فوق حاجته ضرَّه ذلك ، ولو أحبَّ سوى الله ما أحبّ ، فلا بُدَّ أن يسلبه ويفارقه ، فإن أحبه لغير الله فلا بُدَّ أن تضرَّه محبته ، ويعذَّب بمحبوبه ، إما في الدنيا وإما في الآخرة ، والغالبُ أنه يُعذَّبُ به في الدارين.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤ـ٣٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥] ولم يصب من قال: إن الآية على التقديم والتأخير ، كالجرجاني ، حيث قال: ينتظم قوله «في الحياة الدنيا» بعد فصل آخر ليس بموضعه ، على تأويل: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥] وهذا القول يُروى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وهو منقطع ، واختاره قتادة وجماعة ، وكأنهم لما

(١) «فاقة»: فقر وحاجة.

أشكل عليهم وَجْهُ تعذيبهم بالأموال والأولاد في الدنيا ، وأن سرورهم ولذَّتهم ونعيمهم بذلك ، فرّوا إلى التقديم والتأخير.

وأما الذين رأوا أنَّ الآية على وجهها ونظمها ، فاختلفوا في هذا التعذيب ، فقال الحسنُ البصريُّ : يعذّبهم بأخذ الزكاة منها والإنفاق في الجهاد ، واختاره ابنُ جرير ، وأوضحه ، فقال : العذاب بها إلزامهم بما أوجب الله عليهم فيها من حقوق وفرائضه ، إذ كان يُؤخذ منه ذلك وهو غير طيب النفس ، ولا راجٍ من الله جزاء ، ولا من الآخذ منه حمداً ولا شكراً ، بل على صغار منه وكره[1].

وهذا أيضاً عدولٌ عن المراد بتعذيبهم في الدنيا بها ، وذهاب عن مقصود الآية.

وقالت طائفة : تعذيبهم بها أنهم يتعرَّضون بكفرهم لغنيمة أموالهم ، وسَبْي أولادهم ، فإن هذا حُكم الكافر ، وهم في الباطن كذلك. وهذا أيضاً من جنس ما قبله ، فإن الله سبحانه أقرَّ المنافقين ، وعَصَم أموالهم وأولادهم بالإسلام الظاهر ، وتولَّى سَرائرهم ، فلو كان المرادُ ما ذكره هؤلاء ، لوقع مراده سبحانه؛ من غنيمة أموالهم وسبي أولادهم ، فإن الإرادة ها هنا كونِيَّة بمعنى المشيئة ، وما شاء الله كان ولا بُدَّ ، وما لم يشأ لم يكن.

والصوابُ ـ والله أعلم ـ أن يقال : تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاَّب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة؛ بالحرص على تحصيلها ، والتعب العظيم في جمعها ، ومقاساة أنواع المشاق في ذلك ، فلا تجدُ أتعبَ ممن الدنيا أكبرُ هَمِّه ، وهو حريصٌ بجهده على تحصيلها. والعذاب هنا هو

---

(١) نص عبارة ابن جرير : «لا تعجبك يا محمد أموال هؤلاء المنافقين وأولادهم ، فتصلّي على أحدهم إذا مات ، وتقوم على قبره من أجل كثرة ماله وولده ، فإني إنما أعطيته من ذلك لأعذبه في الدنيا بالغموم والهموم بما ألزمه فيها من المؤن والنفقات والزكوات ، وبما ينوبه فيها من الرزايا والمصيبات».

الألم والمشقة والنَّصَب ، كقوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «السفرُ قطعةٌ من العذاب»[١].

وقوله: «إنَّ الميت ليعذَّبُ ببكاء أهله عليه»[٢].

أي: يتألم ويتوجَّع ، لا أنه يُعاقب بأعمالهم ، وهكذا مَنِ الدنيا كلُّ همه أو أكبر همه ، كما قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره من حديث أنس رضي الله عنه: «مَنْ كانت الآخرةُ هَمه جعل الله غِناه في قلبه ، وجمع له شَمْله ، وأتته الدنيا هي راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفَرَّق عليه شَمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له»[٣].

ومِنْ أبلغ العذاب في الدنيا: تشتيت الشَّمل ، وتفريق القلب ، وكون الفقر نُصْب عيني العبد لا يفارقه ، ولولا سكرةُ عشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب ، على أن أكثرهم لا يزال يشكو ويصرخُ منه.

وفي الترمذي أيضاً عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: «يقول اللهُ تبارك وتعالى: ابنَ آدم ، تَفَرَّغْ لعبادتي أملأْ صدرك غنًى ، وأسُدّ فقرك ، وإن لا تفعلْ ملأت يديك شغلاً ، ولم أسد فقرك»[٤].

وهذا أيضاً من أنواع العذاب ، وهو اشتغالُ القلب والبدن بتحمُّل أنكاد الدنيا ، ومحاربة أهلها إياه ، ومقاساة معاداتهم ، كما قال بعضُ السلف: من أحب الدنيا فليوطِّن نفسه على تحمل المصائب.

---

(١) رواه البخاري (١٨٠٤) ومسلم (١٩٢٧).
(٢) رواه البخاري (١٢٨٦) ومسلم (٩٢٨/ ٢٣) و(٩٢٩).
(٣) رواه الترمذي (٢٤٦٥) وابن حبان (٦٧) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٤٧).
(٤) رواه أحمد (٢/ ٣٥٨) والترمذي (٢٤٦٦) وابن ماجه (٤١٠٧) وابن حبان (٢/ ٤٤٣) والحاكم (٢/ ٤٤٣) والبيهقي في الزهد (٩٨٨).

ومُحِبُّ الدنيا لا ينفكُّ من ثلاثة: هَمٌّ لازم، وتعب دائم، وحسرة لا تنقضي، وذلك أن محبها لا ينالُ منها شيئاً إلا طمحتْ نَفْسُه إلى ما فوقه، كما في الحديث الصحيح عن النبي عليه الصلاة والسلام: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثاً»[1].

وقد مثَّل عيسى ابن مريم عليه السلام محب الدنيا بشارب الخمر، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً.

وذكر ابنُ أبي الدنيا أن الحسنَ البصري كتب إلى عمر بن عبد العزيز: «أما بعد؛ فإن الدنيا دار ظَعْن[2]، ليست بدار إقامة، إنما أُنزل إليها آدم ـ عليه السلام ـ عقوبة، فاحذرْها يا أمير المؤمنين، فإن الزادَ منها تَرْكُها، والغِنى فيها فقرها. لها في كلِّ حينٍ قتيل، تذلُّ مَنْ أعزها، وتفقر من جمعها. هي كالسّم يأكله من لا يعرفه، وهو حَتْفُه، فكن فيها كالمداوي جراحَه، يحتمي قليلاً، مخافةَ ما يكره طويلاً، ويصبرُ على شدة الدواء مخافةَ طول البلاء، فاحذرْ هذه الدار الغرَّارة، الخدَّاعة الخيالة، التي قد تزينتْ بخدعها، وفتنتْ بغرورها، وختلتْ[3] بآمالها؛ وتشوَّفت[4] لخطَّابها، فأصبحت كالعروس المجلوّة؛ فالعيونُ إليها ناظرة، والقلوبُ عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلهم قاتلة؛ فعاشقٌ لها قدر ظفر منها بحاجته، فاغتر وطغى، ونسي المعاد، فشَغل بها لُبَّه، حتى زَلَّت عنها قدمه، فعظمتْ عليها ندامته، وكثرتْ حسرته، واجتمعتْ عليه سكراتُ الموت وألمه، وحسراتُ الفوت، وعاشق لم ينلْ منها بغيته، فعاش بغُصَّته، وذهب بكمده، ولم يدركْ منها ما طلب، ولم تسترحْ نفسُه من التعب، فخرج بغير زاد، وقدم على غير

(١) رواه البخاري (٦٤٣١) ومسلم (١٠٤٨).
(٢) «ظَعْن»: رحيل.
(٣) «ختلت»: خدعت.
(٤) «تشوّفت»: تطلّعت ونظرت.

مِهاد. فكن أسرَّ ما تكونُ فيها أحذر ما تكون لها ، فإِنَّ صاحبَ الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه ، وُصِل الرخاء منها بالبلاء ، وجُعل البقاء فيها إلى فناء.

سرورها مشوبٌ بالحزن ، أمانيها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصفوها كدر ، وعيشها نكد.

فلو كان ربنا لم يخبرْ عنها خبراً ، ولم يضربْ لها مثلاً ، لكانت قد أيقظت النائم ، ونبَّهت الغافل ، فكيف وقد جاء من الله فيها واعظ ، وعنها زاجر؟ فما لها عند الله قدر ولا وزن ، ولا نظر إليها منذ خلقها.

ولقد عُرضت على نبينا بمفاتيحها وخزائنها[1] لا ينقصها عند الله جَناح بعوضة ، فأبى أن يقبلها ، كره أن يحبَّ ما أبغض خالقه ، أو يرفع ما وضع مليكه ، فزواها[2] عن الصالحين اختياراً ، وبسطها لأعدائه اغتراراً. فيظنُّ المغرور بها المقتدر عليها أنه أُكرم بها ، ونسي ما صنع الله عز وجل برسوله حين شدَّ الحجر على بطنه.

وقال الحسن أيضاً: إنَّ قوماً أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخُشُب ، فأهينوها ، فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها. وهذا باب واسع.

وأهلُ الدنيا وعشَّاقها أعلم بما يقاسونه من العذاب وأنواع الألم في طلبها.

ولما كانت هي أكبر هَمِّ من لا يؤمن بالآخرة ، ولا يرجو لقاء ربه ، كان عذابه بها بحسب حرصه عليها ، وشدة اجتهاده في طلبها.

وإذا أردتَ أنِ تعرفَ عذابَ أهلها بها فتأمل حالَ عاشق ، فانٍ في حُبِّ معشوقه ، وكلما رامَ قرباً من معشوقه نأى عنه ، ولا يفي له ، ويهجره ، ويصل

---

(١) يشير إلى حديث: «أُعطيتُ ما لم يُعْطَ أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصِرْتُ بالرعب ، وأُعطيتُ مفاتيح الأرض. . . .» رواه أحمد (١/ ٩٨).

(٢) «زواها»: قبضها ، وصَرَفها ، ونحَّاها.

عدوه. فهو مع معشوقه في أنكد عيش، يختار الموتَ دونه، فمعشوقُه قليل الوفاء، كثير الجفاء، كثير الشُّركاء، سريع الاستحالة، عظيم الخيانة، كثير التلون، لا يأمنُ عاشقه معه على نفسه ولا على ماله، مع أنه لا صبرَ له عنه، ولا يجدُ عنه سبيلاً إلى سَلْوة تُريحه، ولا وصال يدومُ له، فلو لم يكنْ لهذا العاشق عذاب إلا هذا العاجل لكفى به، فكيف إذا حِيل بينه وبين لذاته كلها، وصار معذّباً بنفس ما كان ملتذاً به على قدر لذَّته به؛ التي شغلته عن سعيه في طلب زاده، ومصالح معاده؟.

والمقصود بيان أن من أحب شيئاً سوى الله تعالى، ولم تكن محبته له لله تعالى، ولا لكونه معيناً له على طاعة الله تعالى: عُذِّب به في الدنيا قبل يوم القيامة، كما قيل:

أنــت القتيــلُ بكــلِّ مــن أحببتــه فاخترْ لنفسك في الهوى مَنْ تَصْطفي

فإذا كان يومُ المعاد ولّى الحَكَمُ العدل سبحانه كلَّ محبٍّ ما كان يحبه في الدنيا، فكان معه: إما منعماً أو معذباً؛ ولهذا «يمثل لصاحب المال ماله شجاعاً أقرع يأخذ بلِهْزِمَتيه ـ يعني: شدقيه ـ يقول: أنا مالُك، أنا كنزك، ويُصَفَّح له صفائح من نارٍ يُكْوَى بها جَبينه وجَنبه وظهره»[1].

وكذلك عاشق الصور إذا اجتمع هو ومعشوقه على غير طاعة الله تعالى، جمع الله بينهما في النار، وعذّب كل منهما بصاحبه، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧][2].

وأخبر سبحانه أن الذين توادُّوا في الدنيا على الشرك يكفر بعضهم ببعض يوم القيامة، وَيَلْعَنُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَمَأْوَاهُم النَّارُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ[3].

---

(١) رواه مسلم (٩٨٨) عن جابر، والنسائي (٥/ ١١) عن أبي هريرة.

(٢) «الأخلاء»: الأحباء في غير ذات الله.

(٣) قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

فالمحبُّ مع محبوبه دنيا وأخرى؛ ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة للخلق: «أليس عدلاً مني أن أُولِّي كل رجل منكم ما كان يتولى في دار الدنيا؟» وقال ﷺ: «المرء مع مَنْ أحب»[1].

وقال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٢٥].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أزواجهم: أشباههم ونظراؤهم.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير: ٧] فقُرن كل شكل إلى شكله، وجعل معه قريناً وزوجاً: البرُّ مع البر، والفاجر مع الفاجر.

والمقصودُ: أنَّ مَنْ أحبَّ شيئاً سوى الله عزّ وجل حاصلٌ له بمحبوبه، إن وجد وإن فقد، فإنه إن فقده عذّب بفواته، وتألّم على قدر تعلق قلبه به، وإن وجده كل ما يحصلُ له من الألم قبل حصوله، ومن النكد في حال حصوله، ومن الحسرة عليه بعد فواته؛ أضعاف أضعاف ما في حصوله له من اللذة:

فما في الأرض أَشْقى مِنْ مُحبٍّ ... وإن وَجَد الهوى حُلْوَ المذاقِ
تراه باكياً في كلِّ حالٍ ... مخافةَ فرقةٍ، أو لاشتياقِ
فيبكي إن نأوا، شوقاً إليهم ... ويبكي إن دنوا، حَذَر الفراقِ
فتسخنُ عينه عند التَّلاقي ... وتسخنُ عينه عند الفراقِ

وهذا أمرٌ معلومٌ بالاستقرار والاعتبار والتجارب؛ ولهذا قال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره: «الدنيا ملعونة

---

(١) سبق تخريجه ص (٤٤).

ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه»[1].

فذِكْرُه: جميعُ أنواع طاعته، فكلُّ مَنْ كان في طاعته فهو ذاكر له، وإن لم يتحرَّكْ لسانه بالذكر، وكلّ من والاهُ الله فقد أحبَّه وقربه، فاللعنةُ لا تُنال ذلك بوجه، وهي نائلةٌ كلَّ ما عداه.

ثم إن اعتمادَ العبد على المخلوق وتوكُّله عليه يُوجِبُ له الضَّرر من جهته هو ولا بُدَّ، عكس ما أمَّله منه، فلا بُدَّ أن يخذلَ من الجهة التي قَدَّر أن ينصر منها، ويذمّ من حيث قدر أن يحمد، وهذا أيضاً كما أنه ثابتٌ بالقرآن والسنة فهو معلومٌ بالاستقرار والتجارب.

قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١ ـ ٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤ ـ ٧٥] أي: يغضبون لهم ويحاربون، كما يغضبُ الجند ويحاربُ عن أصحابه، وهم لا يستطيعون نَصْرهم، بل هم كَلٌّ عليهم.

وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١] أي: غير تَخْسير.

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢].

فإن المشركَ يرجو بشركه النَّصر تارة، والحمد والثناء تارة؛ فأخبر سُبحانه أن مقصوده ينعكس عليه، ويحصلُ له الخذلان والذم.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٢٢) وابن ماجه (٤١١٢).

والمقصودُ: أنَّ هذين الوجهين في المخلوق ضدّهما في الخالق سبحانه، فصلاحُ القلب وسعادته وفلاحه في عبادة الله تعالى والاستعانة به، وهلاكه وشقاؤه وضَرره العاجل والآجل في عبادة المخلوق، والاستعانة به.

وإن الله سبحانه غني كريم، عزيز رحيم، فهو محسنٌ إلى عبده مع غناه عنه، يريدُ به الخير، ويكشفُ عنه الضر، لا لجلب منفعةٍ إليه من العبد، ولا لدفع مضرّة، بل رحمة منه وإحساناً، فهو سبحانه لم يخلقْ خَلْقَه ليتكثَّر بهم من قِلَّة، ولا ليعتزَّ بهم من ذِلَّة، ولا ليرزقوه ولا لينفعوه، ولا ليدفعوا عنه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١] فهو سبحانه لا يوالي من يواليه من الذل، كما يوالي المخلوقُ المخلوقَ، وإنما يوالي أولياءه إحساناً ورحمة ومحبة لهم، وأما العبادُ فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨].

فهم لفقرهم وحاجتهم إنما يُحسن بعضهم إلىٰ بعض لحاجته إلى ذلك وانتفاعه به عاجلاً أو آجلاً. ولولا تصوُّر ذلك النفع لما أحسن إليه، فهو في الحقيقة إنما أراد الإحسانَ إلى نفسه، وجعل إحسانَه إلى غيره وسيلةً وطريقاً إلى وصول نَفْع ذلك الإحسان إليه. فإنه إما أن يحسنَ إليه لتوقع جزائه في العاجل، فهو محتاجٌ إلى ذلك الجزاء، أو معاوضة بإحسانه، أو لتوقُّع حمده وشكره، وهو أيضاً إنما يحسنُ إليه ليحصل منه ما هو محتاج إليه من الثناء والمدح، فهو محسنٌ إلى نفسه بإحسانه إلى الغير، وإما أن يريد الجزاء من الله تعالى في الآخرة، فهو أيضاً محسن إلى نفسه بذلك، وإنما أخَّر جزاءه إلى يوم فقره وفاقته، فهو غير ملوم في هذا القصد، فإنه فقير محتاج، وفقره وحاجته أمر لازم له من لوازم ذاته، فكماله أن يحرص على ما ينفعه ولا يعجز عنه،

وقال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، وقال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال تعالى، فيما رواه عنه رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضرّي فتضروني؛ يا عبادي، إنما هي أعمالُكم أحصيها لكم، ثم أُوَفّيكم إياها، فمن وَجَد خيراً فليحمدِ الله، ومن وَجَد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»(١).

فالمخلوقُ لا يقصدُ منفعتك بالقصد الأول، بل إنما يقصدُ انتفاعه بك، والربُّ تعالى إنما يريدُ نفعك لا انتفاعه به، وذلك منفعةٌ محضة لك خالصة من المضرَّة، بخلاف إرادةِ المخلوق نفعك، فإنه قد يكون فيه مضرَّة عليك، ولو بتحمُّل مِنَّته.

فتدبَّر هذا فإنَّ ملاحته تمنعك أن ترجو المخلوق أو تعامله دون الله عز وجل، أو تطلب منه نفعاً، أو دفعاً، أو تعلّق قلبك به، فإنه إنما يريدُ انتفاعه بك لا مَحْض نفعك، وهذا حالُ الخلق كلهم بعضهم من بعض، وهو حالُ الولد مع والده، والزوج مع زوجه، والمملوك مع سيده، والشريك مع شريكه، فالسعيدُ مَنْ عاملهم لله تعالى لا لهم، وأحسنَ إليهم لله تعالى، وخاف الله تعالى فيهم، ولم يخفهم مع الله تعالى، ورجا الله تعالى بالإحسان إليهم، ولم يرجهم مع الله، وأحبهم لحبِّ الله، ولم يحبهم مع الله تعالى، كما قال أولياء الله عزّ وجل: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

وإن العبد المخلوق لا يعلم مصلحتك حتى يُعرِّفه الله تعالى إياها، ولا يقدر على تحصيلها لك، حتى يقدره اللهُ تعالى عليها، ولا يريدُ ذلك حتى

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٦٠) ومسلم (٢٥٧٧/ ٥٥) والترمذي (٢٤٩٥) وابن ماجه (٤٢٥٧).

يخلق الله فيها إرادة ومشيئة ، فعاد الأمر كله لمن ابتدأ منه ، وهو الذي بيده الخيرُ كله ، وإليه يرجعُ الأمرُ كله ، فتعلّق القلب بغيره رجاء وخوفاً وتوكلاً وعبودية: ضرر محض ، لا منفعة فيه ، وما يحصلُ بذلك من المنفعة ، فهو سبحانه وحده الذي قدَّرها ، ويسَّرها ، وأوصلها إليك.

وإنَّ غالبَ الخلق إنما يريدون قضاء حاجاتهم منك ، وإن أضرَّ ذلك بدينك ودنياك ، فهم إنما غرضهم قضاء حوائجهم ولو بمضرَّتك ، والربُّ تبارك وتعالى إنما يريدك لك ، ويريدُ الإحسان إليك لك لا لمنفعته ، ويريدُ دَفْعَ الضَّرر عنك ، فكيف تُعلِّق أملك ، ورجاءك ، وخوفك بغيره؟ وجماع هذا أن تعلم: «أنَّ الخلق كلهم لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا كلهم على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك»[1].

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١][2].

محبة الله تعالى نجاة وأمان:

ولو لم يكن في محبة الله إلاَّ أنها تنجي مُحِبَّهُ من عذابه لكان ينبغي للعبد ألاَّ يتعوّض عنها بشيء أبداً. وسئل بعض العلماء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذّب حبيبه؟ فقال: في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨].

وقال الإمام أحمد: حدّثنا إسماعيل بن يونس ، عن الحسن رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «والله ، لا يُعَذِّبُ اللهُ حَبِيبَهُ ، ولَكِن قَدْ يَبْتَلِيه فِي الدُّنْيَا»[3].

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٣٣).

(٣) رواه أحمد في الزهد (٢٩٨).

وقال الإمام أحمد: حدّثنا سيّار، حدّثنا جعفر، حدّثنا أبو غالب قال: بلغنا أن هذا الكلام في وصية عيسى ابن مريم ﷺ: يا معشرَ الحواريّين تحبّبوا إلى اللهِ ببغض أهل المعاصي، وتقرّبوا إليه بالمَقْت لهم، والتمسوا رضاه بسخطهم. قالوا: يا نبيَّ الله فمن نجالس؟ قال: جالسوا من يزيد في أعمالكم منطقه، ومن تذكركم بالله رؤيته، ويزهّدكم في دنياكم عملُه.

ويكفي في الإقبال على الله تعالى ثواباً عاجلاً أنَّ الله سبحانه وتعالى يُقبل بقلوب عباده إلى من أقبل عليه، كما أنه يُعرض بقلوبهم عمن أعرض عنه، فقلوب العباد بيد الله لا بأيديهم.

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا حسن في تفسير شيبان عن قتادة قال: ذُكر لنا أن هَرِم بن حيان كان يقول: ما أقبلَ عبدٌ على اللهِ بقلبه إلا أقبل الله عزّ وجلّ بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقَه مودَّتهم ورحمتَهم.

وقد روي هذا مرفوعاً ولفظه: «ومَا أَقْبَلَ عَبْدٌ عَلى اللهِ بِقَلْبِهِ إلاَّ أَقْبَلَ اللهُ عَزّ وجلّ عَلَيْهِ بِقُلُوبِ عِبَادِهِ، وَجَعَلَ قُـلُوبَهُم تَـفِدُ إِلَيْهِ بِالْـوُدِّ والرَّحمَةِ، وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ خَيرٍ إِلَيْـهِ أَسرَعَ»[1]. وإذا كانت القلوبُ مجبولـةً على حبِّ من أحسن إليها، وكلُّ إحسان وصل إلى العبد فمن الله عزَّ وجلَّ كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣] فلا ألأمَ ممن شغل قلبَه بحبِّ غيره دونه.

وقال الإمـام أحمـد: حدَّثنـا أبو معاويـة قـال: حدَّثنـي الأعمـش، عـن المُـنْـهَال، عن عبد الله بن الحارث قال: أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود أحببني وحبّب عبادي إليَّ وحببني إلى عبادي، قال: يا ربّ هذا أنا أُحبك وأحبُّ عبادك إليك فكيف أُحبّبك إلى عبادك؟ قال: تذكرني عندهم، فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن.

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٥٠٢١) وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٢٧) وانظره في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٤٧).

ومن أفضل ما سئل اللهُ عزّ وجلّ حبُّه وحبُّ من يحبّه وحبّ عملٍ يقرب إلى حبّه ، ومن أجمع ذلك أن يقول: «اللهمَّ إني أسألك حبّك وحبّ من يحبُّك وحبّ عملٍ يقرّبني إلى حبّك ، اللهمَّ ما رزقتني مما أُحبُّ فاجعله قوّةً لي فيما تحب ، وما زَوْيتَ عني[1] مما أُحب فاجعله فراغاً لي فيما تحبّ ، اللهمَ اجعل حبّك أحبَّ إليَّ من أهلي ومالي ومن الماء البارد على الظمأ ، اللهمّ حبّبني إليك وإلى ملائكتك وأنبيائك ورسلك وعبادك الصالحين ، واجعلني ممن يحبّك ويحبُّ ملائكتك وأنبياءك ورسلك وَعبادك الصالحين ، اللهمَّ أحي قلبي بحبّك واجعلني لك كما تحبّ ، اللهمَّ اجعلني أُحبّك بقلبي كلِّهِ ، وأرضيك بجُهدي كلِّه ، اللهمّ اجعل حبي كلَّه لك ، وسعيي كلّه في مرضاتك»[2] وهذا الدُّعاء هو فُسطاط خيمة الإسلام الذي قيامُها به ، وهو حقيقة شهادة أن لا إلّه إلا الله وَأَنَّ محمداً رسولُ الله ، والقائمون بحقيقة ذَلك هم الذين هم بشهادتهم قائمون. والله سبحانه تعرَّف إلى عباده من أسمائه وصفاته وأفعاله بما يوجب محبتهم له ، فإن القلوب مفطورةٌ علىٰ محبة الكمال ومن قام به ، والله سبحانه وتعالى له الكمالُ المطلَقُ من كل وجهٍ الذي لا نقصَ فيه بوجهٍ ما ، وهو سبحانه الجميل الذي لا أجمل منه ، بل لو كان جمالُ الخلْق كلِّهم عَلَى رجلٍ واحدٍ منهم ، وكانوا جميعُهم بذلك الجمال لما كان لجمالهم قطُّ نسبةٌ إلى جمال الله ، بل كانت النسبة أقلَّ من نسبة سراجٍ ضعيفٍ إلى حِذاء جِرْم الشمس ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَال»[3] عبدُ الله بن عَمْرو بن العاص ، وأبو سعيد الْخُدْري ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله

---

(١) «زويت عني»: صَرَفْتَ ونَحَّيْتَ.

(٢) سبق تخريجه ص (٧) .

(٣) رواه أحمد (٤/ ١٣٣) ومسلم (٩١) والترمذي (١٩٩٩).

ابن عمر بن الخطاب ، وثابت بن قيس ، وأبو الدَّرداءِ ، وأبو هريرة ، وأبو ريحانة رضي الله عنهم .

ومن أسمائه الحسنى: الجميلُ ، ومَن أحقُّ بالجمال ممن كلُّ جمالٍ في الوجود فهو من آثار صُنعه ، فله جمالُ الذَّات ، وجمال الأوصاف ، وجمالُ الأفعال ، وجمالُ الأسماء ، فأسماؤه كلُّها حُسْنى ، وصفاتُه كلُّها كمال ، وأفعاله كلها جميلة ، فلا يستطيع بشرٌ النظر إلى جلاله وجماله في هذه الدار ، فإذا رأوه سبحانه في جنات عدنٍ أَنستهم رؤيتُه ما هم فيه من النعيم ، فلا يلتفتون حينئذٍ إلى شيء غيره ، ولولا حجابُ النور عَلَى وجهه لأحرقت سُبُحَات[1] وجهه سبحانه وتعالى ما انتهى إليه بصره من خلقه ، كما في صحيح البخاري[2] من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسولُ الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إنَّ اللهَ لا يَنَامُ وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ[3] ويَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وعمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لأحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وجْهِهِ ما انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِه»[4] .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ليس عند ربكم ليلٌ ولا نهار ، نورُ السموات من نور وجهه ، وإن مقدار كلّ يوم من أيامكم عند الله اثنتا عشرة ساعة ، فتعرض عليه أعمالكم بالأمس فتعرض عليه أولَ النهار أو اليومِ فينظر فيها ثلاث ساعات ، فيطَّلع منها عَلَى بعض ما يكره فيغضبه ذلك ، فأوّل من يعلم بغضبه الذين يحملون العرش يجدونه يَثقُل عليهم فيسبحه الذين يحملون العرش وسُرادقات العرش والملائكةُ المقرّبون وسائر الملائكة ، وينفخ جبريلُ في القَرْنِ فلا يبقى شيءٌ إلاَّ الثقلين الجنَّ والإنس ، فيسبحونه ثلاث ساعات

(١) «سُبُحات»: أنوار.

(٢) لم أجده في صحيح البخاري.

(٣) «القسط»: العدل والميزان.

(٤) رواه أحمد (٤/ ٤٠٥) ومسلم (١٧٩) وابن ماجه (١٩٥).

حتى يمتلىء الرحمن رحمةً ، فتلك ستُّ ساعاتٍ ، ثم يُؤْتَى بما في الأرحام فينظر فيها ثلاث ساعات فيصوّركم في الأرحام كيف يشاء لا إلّه إلا هو العزيز الحكيم ، فتلك تسع ساعات ، ثم ينظر في أرزاق الخلق كلّهم ثلاث ساعات ، فيبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيءٍ عليم ، ثم قرأ : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : ٢٩] ، ثم قال عبد الله : هذا من شأْنكم وشأْن ربكم تبارك وتعالى .

رواه عثمان بن سعيد الدَّارمي ، حدَّثنا موسى بن إسماعيل ، حدّثنا حمَّاد بن سلمة ، عن الزبير بن عبد السلام ، عن أيوب بن عبد الله الفهري ، عن ابن مسعود رضي الله عنه .

ورواه الحسن بن إدريس ، عن خالد بن الهياج ، عن أبيه ، عن عَبّاد بن كثير ، عن جعفر بن الحارث ، عن مَعْدان ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إن ربكم ليس عنده نهار ولا ليلٌ ، وإن السموات مملوءاتٌ نوراً من نور الكرسي ، وإن يوماً عند ربك اثنتا عشرة ساعةً ، فترفع فيها أعمال الخلائق في ثلاث ساعات ، فيرى فيها ما يكره فيغضبه ذلك ، وإن أوّلَ من يعلم بغضبه حَمَلَةُ العرش يرونه يَـثْـقُلُ عليهم فيسبّحون له ويسبح له سُرادقات العرش في ثلاث ساعات من النهار ، حتى يمتلىء ربنا رضاً فتلك ستّ ساعات من النهار ، ثم يأْمر بأرزاق الخلائق فيعطي من يشاء في ثلاث ساعاتٍ من النهار ، فتلك تسع ساعات ، ثم يرفع إليه أرحام كل دابّة فيخلق فيها ما يشاء ، ويجعل المدَّة لمن يشاء في ثلاث ساعات من النهار ، فتلك اثنتا عشرة ساعةً ، ثم تلا ابن مسعود رضي الله عنه هذه الآية : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : ٢٩] هذا من شأن ربنا تبارك وتعالى .

وفي دعاء النبي ﷺ الذي دعا به يوم الطائف : «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلَماتُ وَصلحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا والآخِرَةِ أَنْ يَحِلَّ عَليَّ غَضَبُكَ أَوْ يَنْزِلَ عَلَيَّ سَخَطُكَ لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلا بكَ»[1] وإذا جاء

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٥/ ٣٤٦) وذكره ابن كثير في تفسيره الآية (٣٥) من =

سبحانه وتعالى يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده تشْرق لنوره الأرض كلّها كما قال الله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [الزمر: ٦٩] وقولُ عبد الله بن مسعود ضي الله عنه: نورُ السموات والأرض من نور وجهه، تفسيرٌ لقوله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

وفي الصحيحين من حديث أبي بكر رضي الله عنه في استفتاح النبي ﷺ قيام اللّيل: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نورُ السَّمواتِ والأَرْضِ ومَنْ فِيهِنَّ»[١].

وفي سنن ابن ماجه وحرب الكرماني من حديث الفضل بن عيسى الرّقاشي، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَا أَهْلُ الْجَنَّةِ في نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نورٌ فَرَفَعوا رُؤُوسَهُمْ فَإِذَا الرَّبُّ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ فَيَقُولُ: السَّلاَمُ عَلَيْكم يا أَهْلَ الْجَنَّةِ وذَلِكَ قولُهُ: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] فيرفعوا رُؤوسَهُمْ فينظرون إليهِ وينظرُ إليهمْ ولا يَلْتَفِتونَ إلى شيءٍ مِنَ النَّعِيمِ حتى يَحْتَجِبَ عَنْهُمْ فَيَبْقَى نورُهُ وبَرَكَتُهُ عَلَيْهِمْ وَعَلى دِيارِهمْ ومَنَازِلِهم»[٢].

لفظ حديث حرب: «فَمَا ظَنُّ الْمُحِبِّينَ بِلَذَّةِ النَّظَرِ إلى وجْهِهِ الكَرِيمِ في جنَّاتِ النَّعِيمِ؟».

وقد كان من دعاء النبي ﷺ: «أسألكَ لَذّةَ النَّظَرِ إِلى وَجْهِكَ والشّوق إلى

= سورة النور، وابن هشام في السيرة النبوية (٢/ ٦٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣٥).

(١) رواه البخاري (٦٣١٧) ومسلم (٧٦٩).

(٢) رواه ابن ماجه (١٨٤) والبزار كما في كشف الأستار (٢٢٥٣) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٩٨).

لقَائك»[1]. ذكره الإمام أحمد والنسائي وابن حِبَّان في صحيحه ، فاسمع الآن شأنَ أوليائه وأحِبّائه عند لقائه ثم اختر لنفسك:

أنــت القتيــلُ بكــلّ مــن أحببتَــه ... فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

قال هشام بن حسان عن الحسن: إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى نَسُوا نعيم الجنة. وقال هشام بن عمار: حدّثنا محمد بن سعيد بن سابور ، حدّثنا عبد الرحمن بن سليمان ، حدّثنا سعيد بن عبد الله الجرشي القاضي أنه سمع أبا إسحاق الهمداني يحدّث عن الحارث الأعور ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه رفعه قال: «إنَّ الله إذَا أَسْكَنَ أَهْلَ الجنَّـةِ الْجَنَّـةَ وَأَهْلَ النَّـارِ النَّـارَ ، بَعَثَ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّـةِ الرُّوحَ الأَمِينَ[2] فيقولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّـةِ إِنَّ رَبَّـكُمْ يُـقْرِئُـكُمُ السَّلَامَ وَيَأْمُرُكُمْ أَنْ تَـزُورُوه إِلى فِنَاءِ الْجَنَّـةِ وَهُوَ أَبْطَحُ[3] الْجَنَّـةِ ، تُـرْبَتُـهُ الْمِسْكُ وَحَصْبَاؤُهُ[4] الـدُّرُّ وَالْيَـاقُوتُ وَشَجَرُهُ الذَّهَبُ الرَّطْبُ وَوَرَقُـهُ الـزُّمُـرُّد ، فَيَخْرُجُ أَهْلُ الْجَنَّـةِ مُسْتَبْشِرِين مَسْرُورِينَ ، فَثَمَّ يَجْمَعُهُمْ وَثَـمَّ كَرَامَـةُ اللهِ وَالنَّظَرُ إلى وَجْهِـهِ ، وَهُوَ مَوْعِدُ اللهِ أَنْجَـزَهُ لَهمْ ، فَيَـأْذَنُ اللهُ لَهمْ في السَّماعِ وَالأَكْلِ وَالشُّرْبِ ، وَيُـكْسَوْنَ حُلَلَ الْكَرَامَـةِ.

ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَوْلِيَاءَ اللهِ هَلْ بَقِيَ ممَّا وَعَدَكُمْ اللهُ رَبُّـكُم شيءٌ؟ فيقولونَ: لا ، وَقَدْ أَنْجزَنَا ما وَعدَنَا فَمَا بَقِيَ شَيْءٌ إلا النظرُ إلى وَجْهِهِ ، فَيَتَجَلّى لهُم الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالى في حُجُبٍ فَيَقُولُ: يا جِبْرِيلُ ارْفَعْ حِجَابي لِعِبَادي كيْ يَنْـظُرُوا إِلى وَجْهِي ، قالَ: فيَرْفَعُ الْحِجَابَ الأَوَّلَ فَيَنْظُرُونَ إِلى نُورٍ مِنْ نُورِ الرَّبِّ فَيَخِرُّونَ له سُجَّداً ، فَيُنَادِيهم الرَّبُّ: يَا عِبَادِي ارْفَعُوا رُؤُوسَكُمْ فَإِنَّهَا لَيْسَتْ بدَارِ عَمَلٍ إنما هِيَ دارُ ثَوَابٍ ، فيَرْفَعُ الْحِجَابَ الثاني فينظرُون أَمْراً هُوَ أَعْظَمُ وَأَجَلُّ فَيَخِرُّون للهِ

---

(١) سبق تخريجه ص (٢٨٤).

(٢) «الروح الأمين»: جبريل ـ عليه السلام ـ.

(٣) «الأبطح»: المكان المتسع يمرُّ به السيل ، فيترك فيه الرمل والحصى.

(٤) «حصباؤه»: جمع حصبة ، وهي الحصاة.

حَامِدِينَ سَاجِدِين ، فيُنَادِيهِمْ الرَّبُّ أنِ ارْفعُوا رُؤُوسَكُمْ إِنَهَا لَيْسَتْ بِدَار عَمَلٍ إِنَّمَا هِيَ دَارُ ثَـوَابِ وَنَعِيم مُقِيمٍ. فيَرْفَعُ الْحِجَابَ الثَّالِثَ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَنْظُرُونَ إِلَى وَجْهِ رَبِّ الْعَالِمينَ ، فيَقُولُونَ حِينَ يَنْظُرُونَ إِلى وَجْهِهِ: سُبْحَانَكَ مَّا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ ، فيَقُولُ: كَرَامَتِي أَمْكَنَتْكُمْ مِنْ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِي وَأَحَلّتْكُمْ دَاري. فيَأْذَنُ اللهُ لِلْجَنَّةِ أَنْ تَكَلَّمِي فتَقُولُ: طوبَى لِمَنْ سَكَنَنِي وَطوبى لِمَنْ يَخْلُدُ فِيَّ وَطُوبى لِمَنْ أُعْدِدْتُ له. وَذَلِكَ قوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيتُهمَا وَحِلْيَتُهُما وَمَا فيهما ، وَجَنتان مِنْ فضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَحِلْيَتُهُمَا وَمَا فيهمَا ، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلى رَبِّهِمْ إلاَّ رِدَاءُ الْكِبرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»[1].

وذكر عثمان بن سعيد الدَّارمي: حدّثنا أبو الرَّبيع ، حدّثنا جرير بن عبد الحميد ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن عبد الله بن الحارث ، عن كعب قال: ما نظر الله إلى الجنة إلا قال: طيبي لأهلك فزادت طيباً على ما كانت ، وما من يوم كان عيداً في الدُّنيا إلا يخرجون في مقداره إلى رياض الجنة ، ويَبْرُزُ لهمُ الربُّ تبارك وتعالى وينظرون إليه ، وتَسْفي[2] عليهم الريح بالطيب المِسك فلا يسألون ربَّهم تبارك وتعالى شيئاً إلا أعطاهم ، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا على ما كانوا عليه من الحسن والجمال سبعين ضعفاً.

وقال عَبْدُ بن حمَيد ، أخبرني شبابة عن إسرائيل ، حدّثنا ثُوَيْر بن أبي فاختة: سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أدنى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلةً مَنْ يَنظرُ إلى خَدَمِهِ وَنَعِيمِهِ وَسُرُورِهِ مَسِيرةَ ألفِ سنة ، وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى الله مَنْ يَنظرُ إلى وَجْهِهِ غَدْوَةً وَعَشِيَّةً» ثم تلا هذه الآية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝

---

(١) رواه البخاري (٧٤٤٤) ومسلم (١٨٠).
(٢) «تسفي»: سَفَتِ الريحُ التراب: حَمَلَتْهُ ونَثَرَتْهُ.

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1] رواه الترمذي في جامعه عنه.

وذكر عثمان بن سعيد الدَّارمي، عن ابن عمر رضي الله عنهما رفعه إلى النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا بَلَغَ مِنْهُم النعِيمُ كُلَّ مَبلَغٍ وَظَنوا أَنْ لاَ نَعيمَ أَفْضَلُ مِنْهُ تَجَلّى لَهُم الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَنَظَرُوا إِلى وَجْهِ الرَّحْمَنِ فَنَسُوا كلَّ نَعِيمٍ عَايَنُوهُ حِينَ نَظَرُوا إِلى وَجْهِ الرَّحْمَنِ»[2].

وقال الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] قال: حسّنها الله تعالى بالنظر إليه سبحانه، وحَقَّ لها أن تَنضُرَ وهي تنظر إلى ربها عزّ وجلّ. قال أبو سليمان الدَّاراني: لو لم يكن لأهل المحبَّة ـ أو قال: المعرفة ـ إلا هذه الآية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] لاكْتَفَوْا بها.

وذكر النسائي من حديث الزُّهري، عن سعيد بن المسيّب، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هَلْ تُضَامُونَ في رُؤيَة الشَّمْسِ فِي يَوْمٍ لا غَيْمَ فِيهِ وَفِي الْقَمَر لَيْلَةَ الْبَـدْرِ لا غَيْمَ فيهَا؟» قلنا: لا، قال: «فَإِنَّـكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّـكُم حَتَّى إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيُحَاضِرُهُ مُحَاضَرَةً فَيَقولُ: عَبْدِي هلْ تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا كذا؟ فيقول: يا ربِّ أَلَمْ تَغْفِرْ لي؟ فيقول: بِمَغْفِرَتي صِرْتَ إلى هذا»[3].

وفي الصحيحين من حديث مالك، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يَسَار، عن أبي سعيد الْخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تَعَالَى يَقولُ لأهلِ الجنَّةِ: يَا أَهلَ الجنةِ، فيقولون: لَبَّيكَ رَبَّـنَا وَسَعدَيكَ وَالْخيرُ فِي يَدَيكَ فيقولُ: هلْ رَضِيتمْ؟ فيقولون: وَمَا لَنَا لا نرضى وَقَدْ أَعطيتَنا ما لمْ

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٦٤) والترمذي (٢٥٥٣ و٣٣٣٠) وعبد بن حميد في المنتخب (٨١٩).
(٢) ذكره ابن قيم الجوزية في حادي الأرواح (٤٥٢).
(٣) رواه النسائي في السنن الكبرى (٧٧٦٣) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٦/ ١٢٧).
«ليحاضره»: ليحادثه ويكلّمه.

تُعْطِ أَحداً مِنْ خَلْقِكَ ، فيقولُ: أَلا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فيقولون: يا رَبِّ وَأَيُّ شيءٍ أفضلُ مِنَ ذَلِكَ؟ فيقول: أُحِلُّ عَلَيكُمْ رِضْوَانِي فلا أَسْخَطُ عَلَيكُمْ أَبَداً»[1].

وفي الصحيح والسنن والمسانيد من حديث ثابت البُناني ، عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى ، عن صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا دَخلَ أَهلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ نادى منادٍ: يَا أَهلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِداً يُرِيدُ أَنْ يُنْجزَكُمُوهُ ، فيقولون: ما هو؟ أَلمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُثقِّلْ مَوَازِيننَا وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَيُجِرْنَا مِنَ النَّارِ؟ فَيَكْشِفُ الْحِجابَ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، فَواللهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ منَ النَّظَرِ إِلَيْهِ وَلا أَقَرَّ لأَعْيُنِهمْ»[2].

وفي صحيح البخاري من حديث جرير بن عبد الله قال: كُنَّا جُلوساً عند النبي ﷺ إذْ نَظَرَ إلى القمر لَيلةَ الْبدر فقالَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كما تَرَوْنَ هذا القَمَرَ لا تُضَامُونَ في رُؤيَتِهِ ، فإن اسْتَطَعْتُمْ ألاَّ تُغْلَبوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلوعِ الشَّمْس وقَبْلَ غُرُوبهَا فافْعَلُوا»[3].

وفي الصحيحين من حديث الزُّهرِي ، عن عطاء بن يزيد الليثي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هَلْ تُضَارُّونَ في الْقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ؟» قالوا: لا يا رسول الله قال: فَهَلْ تُضَارُّونَ في الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَها سَحَابٌ؟» قالوا: لا يا رسول الله ، قال: «فإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذلِكَ». وَفي لَفْظٍ: «فإِنَّكُم لاتُضَارُّون في رُؤيَةِ رَبِّكُمْ إلاَّ كما تُضَارُّون في رُؤيَتهِمَا»[4].

---

(١) رواه البخاري (٦٥٤٩) ومسلم (٢٨٢٩).

(٢) سبق تخريجه ص (٢٣٦).

(٣) رواه البخاري (٧٤٣٤) ومسلم (٦٣٣).
«لا تضامون»: لا تضارُّون ، ولا يلحقكم بسبب الرؤية ضيم ولا ضرر.

(٤) رواه البخاري (٦٥٧٣ و٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢ و٢٩٦٨).

وقال الترمذي: حدَّثنا قُتَيْبَـة ، حدَّثنا عبد العزيز بن محمد ، عن العَلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنّ رسول الله ﷺ قال: «يَجْمَعُ اللهُ النَّـاسَ يَوْمَ القِيامَةِ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ ثُـمَّ يَطَّلِعُ عَلَيهِمْ ربُّ العَالِمِينَ تَـبَارِكَ وَتَعَالى فَيقُولُ: لِيَتَّبعْ كلُّ إنْسَانٍ مَا كانَ يَعْبُدُ ، فيُـمَثَّلُ لِصَاحِبِ الصَّلِيبِ صَلِيبُهُ ولِصَاحِبِ التَّصَاوِيرِ تَصَاوِيـرُهُ ، ولصاحِبِ النَّـارِ نارُهُ فَيَـتَّبِعُونَ مَا كانُوا يَعْبُدُونَ وَيَبْـقَى الْمُسْلِمُونَ فَيَطَّلِعُ عَلَيهِمْ ربُّ الْعَالِمِينَ تَبارَكَ وَتَعَالَى فيَقُولُ: أَلا تَـتَّبِعُونَ النَّاسَ؟ فَيَقُولون: نَعُوذُ باللهِ مِنْكَ نَعُوذُ باللهِ مِنْكَ ، اللهُ رَبنا ، هَذَا مَـكانُنَا حَتى نَرى ربَّـنَا ، وَهُوَ يَأْمُـرُهُمْ وَيُـثَـبِّـتُهُمْ.

ثُمَّ يَتَوَارَى ثمّ يَطّلِعُ عَلَيهِمْ فيقول: أَلا تَتبعُون النَّاسَ؟ فَيقُولون: نَعُوذُ باللهِ مِنكَ ، نَعُوذُ باللهِ مِنك ، اللهُ ربُّنَا ، وهذا مَكانُنا حَتَّى نَرى ربَّنا ، وهُوَ يَأْمُرُهُم ويُثَبِّتُهُم.

قالوا: وهَلْ نراهُ يا رسول اللهِ؟ قال: وهَل تُضَارُّون في رُؤيَة القَمَر ليلَةَ البَدْرِ؟ قالوا: لا يا رسول الله قال: فإنّكُمْ لا تُضَارُّون في رؤْيَتِهِ تِلك السَّاعَةَ. قال: ثُمَّ يَتَوارى ثم يَطّلِعُ فَيُعرِّفُهُم نَفْسَهُ ثم يقول: أنا ربُّكُم فاتّبِعُوني ، فَيقومُ الْمُسْلِمُون ويُوضَعُ الصِّرَاطُ فيمُرُّون عليهِ مِثلَ جِيَاد الْخَيلِ والرِّكابِ ، وقَولُهم عليه: سَلِّم سَلِّم ، ويَبقى أهلُ النَّار فيُطْرَح منهُم فيهَا فَوْجٌ فيُقالُ: هل امتلأتِ؟ فتَقُولُ: هل مِنْ مَزيدٍ؟ ثمَّ يُطْرَحُ فيها فَوْجٌ فيُقال: هلِ امتلأتِ؟ فتَقولُ: هل مِنْ مَزيدٍ؟ حَتى إذا أوعبُوا فيهَا[1] وضَعَ الرَّحمنُ تَبارَكَ وَتَعالى فيها قَدمَـهُ فأَزْوَى[2] بَعْضَها إلى بَعضٍ و قالت: قَطْ قَطْ ، فإذا أدخَلَ اللهُ أهلَ الْجَنَّـةِ الْجَنَّـةَ وأهلَ النَّـارِ النَّـارَ أُتِيَ بالموتِ مُلَبّباً فيُوقَفُ عَلى السور الَّذي بَـيْنَ أهلِ الْجَنَّـةِ وأهل النَّـار ، ثمَّ يُقالُ: يا أهل الْجَنَّـةِ فيَطّلِعون خَائِفين ، ثمَّ يُـقالُ: يا أهل النَّـار! فَيَطَّلِعونَ مُسْتَبشِرينَ يَرجُون الشَّفَاعَـةَ ، فيُقالُ لأهلِ الْجَنَّـةِ وأهلِ النَّـارِ: هل

---

(١) «أوعبوا فيها»: دخلوا جميعاً فيها.

(٢) «أزوى»: ضمَّ.

تَعرفُونَ هذا؟ فيَقُولون هَؤُلاء وهؤلاءِ: قَد عرَفناهُ، هُو المَوتُ الذِي وُكلَ بنا، فيُضْجَعُ فيُذبَحُ ذبْحاً عَلى السُّور، ثمَّ يُقَالُ: يا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلودٌ ولا مَوْتٌ، ويَا أَهْلَ النَّارِ خُلودٌ ولا مَوْتٌ»[1].

قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وأصلُه في الصحيحين، لكنْ هذا السياقُ أجمع وأخصر. وفي لفظِ الترمذي: «فَلَوْ أَنّ أحداً مَاتَ فَرَحاً لمَاتَ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَلَوْ أَنَّ أَحداً مَاتَ حُزْناً لمَاتَ أَهْلُ النَّار»[2].

وفي مسند الحارث بن أبي أُسامة من حديث أبي قرّة، عن مالك، عن زياد بن سعد، حدَّثنا أبو الزبير قال: سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِذَا كَانَ يَوْم الْقِيَامَةِ جُمِعَتِ الأمَمُ وَدُعِيَ كُلُّ أُناسٍ بإمامهم فَجِئْنَا آخِرَ النَّاسِ فيَقُولُ قائِلٌ مِنَ النَّاس: مَنْ هَذِهِ الأمّةُ؟ قال: فيُشْرِفُ إِلَيْنَا النَّاسُ فيُقَالُ: هَذه الأَمّةُ الأمِينَةُ، هَذِهِ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ، وَهَذَا مُحَمّدٌ في أُمَّتِهِ، فيُنَادِي مُنَادٍ: إنكُم الآخِرُونَ الأوّلونَ، قال: فَنَأْتي فَنَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ حَتَّى نَكُونَ أقْرَبَ النَّاسِ إِلى اللهِ تَعَالَى مَنْزلةً، ثمّ يُدْعَى النَّاسُ كلُّ أُناسٍ بإمامِهِمْ، فَيُدْعى اليَهُودُ فيُقَالُ: مَنْ أنتُمْ؟ فيَقُولونَ: نحْنُ اليهودُ، فيقول: مَنْ نَبيُّكُمْ؟ فيَقُولون: نبيُّنَا مُوسى، فيقول: مَا كِتابُكُمْ؟ فيقولون: كِتَابُنَا التَّوْراةُ، فيقول: مَا تَعْبُدُونَ؟ فيقولون: نَعْبُدُ عُزَيْراً ونَعْبُدُ اللهَ، فيقول لِلْملأَ حوله: اسْلُكُوا بهِمْ في جَهَنّم. ثمّ يُدْعى النَّصَارى فيقول: مَنْ أنتُمْ؟ فيقولون: نحْنُ النَّصَارى، فيقول: مَنْ نَبيُّكُمْ؟ فيقولون: نَبينَا عِيسى، فيقول: مَا كِتَابُكُمْ؟ فيقولون: كتابنَا الإنجيلُ، فيقول: مَا تَعْبُدُونَ؟ فيقولون: نَعْبُدُ عِيسى وأُمَّهُ واللهَ. فيقول لِلْملأ حوله: اسْلُكُوا بهؤلاءِ في جَهَنَّمَ، فيُدْعى عيسى فيقول لعيسى: يا عيسى ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] فيقول: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٥٧).

(٢) المصدر السابق.

إلى قوله: ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] ثم يدْعى كلُّ أُناسٍ بإمَامِهِمْ وَمَا كانُوا يَعْبُدُونَ، ثمّ يَصْرُخُ الصَّارخُ: أيُّهَا النَّاسُ مَنْ كانَ يَعْبُدُ إلَهاً فلْيَتّبِعْهُ، تَقَدمهُمْ آلِهَتُهُمْ مِنها الْخَشَبُ والْحِجارةُ، ومِنْهَا الشَّمْسُ والقَمَرُ، ومِنها الدَّجَّالُ، حَتَّى يَبْقَى المُسْلِمُونَ فَيقِفُ عليهم فيقول: مَنْ أُنتُمْ؟ فيقولون: نحن المُسلمونَ، قال: فيقولُ: خَيْرُ اسمٍ وخَيْرُ دَاعِيَةٍ، فيقول: مَنْ نبِيُّكُمْ؟ فيقولون: مُحَمَّدٌ، فيقول: مَا كِتَابُكم؟ فيقولون: القُرآنُ، فيقول: ما تعْبُدونَ؟ فيقولون: نعْبُدُ اللهَ وحْدَهُ لا شرِيكَ لهُ، قال: سَيَنْفَعُكُم ذَلِكَ إنَّ صَدقْتُم، قالوا: هذا يومُنا الَّذي وُعِدْنا، فيقول: أَتَعْرِفونَ الله إذا رأَيْتُمُوهُ؟ فيقولون: نَعَمْ، فيقول: وكَيْفَ تعْرفونَهُ ولَم تَرَوْهُ؟ فيقولون: نَعْلَمُ أَنَّهُ لا عِدْل لهُ، قال: فَيَتَجَلَّى لهُمْ تَبارَكَ وتَعَالَى فيقولون: أَنْتَ ربُّنا تباركَتْ أَسْماؤُكَ، ويَخِرُّون لهُ سُجَّداً، ثمّ يَمضي النُّور بأَهْلِهِ(١).

وفي مسند الإمام أحمد رضي الله عنه من حديث أبي الزبير قال: سألت جابراً عن الورود فأخبرني أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نَجيءُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلَى كَومٍ(٢) فوقَ النَّاسِ، فَتُدْعَى الأمَمُ بأَوْثانِها ومَا كانَتْ تَعْبُدُ، الأوّلُ فالأوّلُ، ثمّ يَأْتِينا ربُّنا بَعْدَ ذَلِكَ فيقول: مَا تَنْظرُونَ؟ فيقولون: نَنْتَظِرُ ربَّنا، فيقول: أنا رَبُّكُم، فيقولون: حَتَّى نَنْظُرَ إِلَيْكَ، فَيَتَجَلَّى لهُمْ يَضْحَكُ فَيَتَّبِعونَهُ»(٣).

وذكر عثمان بن سعيد الدَّارمي أن أبا بُرْدَة بن أبي موسى الأشعري أتى عمرَ بن عبد العزيز فقال: حدَّثنا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يَجْمَعُ اللهُ الأمَم يَوْمَ القيَامَةِ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فإذا بَدَا لَهُ أن يَصْدَعَ بَيْنَ خَلْقِهِ مَثَّلَ لِكلِّ قَوْمٍ ما كانُوا يَعْبُدون فَيَتَّبِعونَهُمْ حَتَّى يُقْحِمُوهم

---

(١) ذكره ابنُ قيم الجوزية في حادي الأرواح (٤٤٤).

(٢) «كوم»: تل مرتفع.

(٣) رواه أحمد (٣/ ٣٤٥) ومسلم (١٩١).

النَّارَ[1] ، ثمَّ يأتِينا ربُّنا ونَحْنُ في مَكانٍ فيقول: مَنْ أَنْتُم؟ فنَقولُ: نَحْنُ المُؤْمِنونَ ، فيقول: ما تَنْتَظِرُون؟ فنقول: نَنْتَظِرُ ربَّنا ، فيقولُ: مِنْ أَيْنَ تعْلَمون أَنَّهُ ربُّكُم؟ فنَقولُ: حَدَّثَتنَا الرُّسلُ أَوْ جاءَتْنا الكُتُبُ ، فيَقولُ: هَلْ تَعْرفونَه ، فيَقولونَ: نَعْلَمُ أَنَّهُ لا عِدْلَ لَهُ ، فيَتَجَلَّى لنَا ضاحِكاً ، ثم يقول: أبْشِروا مَعْشَرَ الْمُسْلِمينَ فإنهُ ليْسَ مِنْكُم أحَدٌ إلاَّ وقَدْ جَعلْتُ مَكانَهُ في النَّار يَهُودِيّاً أو نَصْرَانِيّاً» فقال عمر لأبي بُرْدَة: آللهِ ، لقد سمعتَ أبا موسى يحدّث بهذا الحديث عن رسول الله ﷺ؟ قال: إي والله الذي لا إلَه إلاَّ هو لقد سمعت أبي يذكره عن رسول الله ﷺ غيرَ مرَّةٍ ولا مرَّتين ولا ثلاثاً ، فقال عمر بن عبد العزيز: ما سمعت في الإسلام حديثاً هو أحبُّ إليّ منه[2] .

وفي الترمذي من حديث الأوزاعي: حدَّثني حسّان بن عطية ، عن سعيد بن المسيّب أنه لقي أبا هريرة رضي الله عنه فقال أبو هريرة: أسألُ الله تعالى أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة ، فقال سعيد: أوَ فيها سوق؟ قال: نعم أخبرني رسول الله ﷺ: «أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم فيُؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدُّنيا فيزورون الله تبارك وتعالى ، فيبرز لهم عرشه ويتبدَّى لهم في روضةٍ من رياض الجنة ، فتُوضع لهم منابرُ من نُورٍ ومنابرُ من لُؤلُؤٍ ومنابرُ من ياقوتٍ ومنابرُ من زَبَرْجَدٍ ومنابرُ من ذهب ومنابرُ من فِضّةٍ ، ويجلس أدناهم وما فيهم دنيءٌ عَلَى كثبان[3] المسك والكافور ما يرون أَنَّ أهل الكراسي أفضلُ منهم مجلساً» .

قال أبو هريرة: قلت يا رسول الله وهل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «نَعَمْ ، هَلْ تُمَارُونَ في رُؤيَةِ الشَّمْسِ والقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ؟» قلنا: لا ، قال: «كَذَلِكَ لا تُمَارُونَ في رُؤيَةِ رَبِّكُم وَلا يَبْقَى في ذَلِكَ الْمَجْلِسِ أَحَدٌ إلاَّ حَاضَرَهُ اللهُ تَعالَى

---

(١) «يقحموهم النار»: يرمونهم على وجوههم فيها .

(٢) رواه أحمد (٤/ ٤٠٧) وعبد بن حميد (٥٤٠) .

(٣) «كثبان»: جمع كثيب ، وهو التل من الرمل .

مُحَاضَرَةً حَتَّى يقول للرَّجُلِ مِنهُمْ: يَا فُلَانَ ابْن فُلَانٍ أَتَذْكُرُ يَوْمَ كَذَا عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا؟ فَيُذَكِّرُهُ بِبَعْضِ غَدَرَاتِهِ فِي الدُّنيا فيقُولُ: يا ربِّ أَلَمْ تَغْفِرْ لي؟ فيَقولُ: بَلَى فَبِسَعَةِ مَغْفِرَتِي بَلَغْتَ مَنْزِلَتَكَ هَذِهِ، فبَيْنَا هُمْ عَلَى ذَلِك غَشِيَتْهُمْ سَحَابَةٌ مِنْ فَوْقِهِمْ فأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ طِيباً لم يَجِدُوا مِثْلَ رِيحِه شَيْئاً قطُّ، ثمَّ يقُولُ: قُومُوا إلى ما أَعْدَدْتُ لَكُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ فَخُذُوا ما اشْتَهَيْتُمْ، فنَأْتِي سُوقاً قَدْ حَفَّتْ بِهِ الْمَلائِكَةُ، فِيهِ ما لَمْ تَنْظُر الْعُيونُ إِلَى مِثْلِهِ وَلَمْ تَسْمَعِ الآذَانُ وَلَم يَخْطُرْ عَلَى القُلُوبِ، فَيُحْمَلُ إِلَيْنَا ما اشْتَهَيْنَا لَيْسَ يُبَاعُ فِيهِ شَيْءٌ وَلا يُشْتَرَى، وَفِي ذَلِكَ السُّوقِ يَلْقَى أَهْلُ الْجَنةِ بَعْضُهُمْ بَعْضاً فيُقْبِلُ الرَّجُلُ ذُو الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ فَيَلقى مَنْ هُوَ دُونَهُ وَمَا فِيهِمْ دَنيٌّ، فيَرُوعُهُ ما يَرى عَلَيْهِ مِنَ اللِّبَاسِ فمَا يَنْقَضِي آخِرُ حَدِيثِهِ حَتَّى يَتَمَثَّلَ عَلَيْهِ أَحْسَنُ مِنْهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَحْزَنَ فِيهَا، ثمّ ننصَرِفُ إِلى مَنَازِلِنَا فَتَتَلَقَّانَا أَزْوَاجُنَا فيَقُلْنَ: مَرْحَباً وَأَهْلاً لَقَدْ جِئْتَ وَإِنَّ بِكِ مِنْ الْجَمَالِ وَالطيبِ أكثَرَ مِمَّا فارَقْتَنا عَلَيْهِ، فيَقُولُ: إِنَّا جَالَسْنَا الْيوم رَبَّنَا الْجَبَّارَ وَيَحقنا أَنْ نَنْقَلِبَ بِمِثْلِ مَا انقلبنا»[1].

وقال يعقوب بن سفيان في مسنده: حدَّثنا ابن المصفَّى، حدَّثنا سُويد بن عبد العزيز، حدَّثنا عمرو بن خالد، عن زيد بن علي، عن أبيه، عن جدّه، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَزُورُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الرَّبَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كلِّ يَوْمِ جُمُعَةٍ... وَذَكَرَ ما يُعْطَوْنَ. قال: ثم يقول اللهُ تعالى: اكْشِفوا الْحُجُبَ، فَيَكْشِفُون حِجَاباً ثمَّ حجَاباً حتى يتجلى لهم عن وجهه تبارك وتعالى وكأنهم لم يَرَوْا نعمةً قبلَ ذلك، وهو قولُ الله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [قٓ: ٣٥]»[2].

وذكر عثمان بن سعيد الدَّارِمي من حديث الحسن رضي الله عنه عن

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٤٩) وابن ماجه (٤٣٣٦) وابن حبان (٧٤٣٨) وابن أبي عاصم في السنة (٥٨٥) وذكره صاحب المشكاة (٥٦٤٧).

(٢) رواه اللالكائي كما في كنز العمال (٢/ ٥٠٩).

النبي ﷺ مرسَلاً أنَّه قال: «يَأتينَا ربُّنا يَوْمَ القيَامَةِ وَنحنُ عَلَى مَكانٍ رفيعٍ فيتجلَّى لنا ضاحكاً» مرسَلٌ صحيح.

وقال عثمان الدَّارمي: حدَّثنا أبو موسى، حدَّثنا أبو عوانة، حدَّثنا الأجلح، حدَّثنا الضحاك بن مزاحم قال: إن الله يأمر السماءَ يوم القيامة فتنشقّ بمن فيها فيحيطون بالأرض ومن فيها، ثم يأمر السماء الثانية حتى ذكر سبع سموات فيكونون سبعة صفوف قد أحاطوا بالناس، ثم ينزل المَلِك الأعلى جلّ جلالُه في بهائه وجماله ومعه ما شاء من الملائكة.

وقال عثمان بن سعيد: حدَّثنا هشام بن خالد الدمشقي، وكان ثقة، حدَّثنا محمد بن شعيب بن شاور، حدَّثنا عمر بن عبد الله مولى غفْرَة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جاءَنِي جِبْرِيلُ وَفي كَفِّهِ مِرآةٌ فيهَا نُكْتَةٌ[1] سَوْداءُ، فقلت: ما هَذِه يَا جِبْرِيلُ؟ قال: هَذِهِ الْجُمعَةُ أَرسَلَ بِهَا إِلَيْكَ ربُّكَ فَتكُون هُدىً لَكَ ولأمَّتِكَ مِنْ بَعْدِكَ، فقلت: وَمَا لَنَا فيهَا؟ قال: لَكُمْ فيهَا خَيْرٌ كَثِيرٌ أنتُمْ الآخِرُونَ السَّابقون يوْمَ الْقِيامَةِ وفيهَا ساعَةٌ لا يُوافِقْها عَبْدٌ مؤمِنٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللهَ خيراً هُوَ لهُ قسم إلاَّ أتاهُ وَلا خيراً لَيْسَ لَهُ بقسم إلاَّ ذُخِرَ لَهُ أَفْضَلُ منْهُ، وَلا يَسْتَعِيذُ باللهِ مِمّا هُوَ مَكْتوبٌ عَلَيْهِ إلاَّ دُفِعَ عَنْهُ أَكْثرُ منْهُ، قلت: ما هَذِه النُّكْتَةُ السَّوداءُ؟ قال: هذه السَّاعةُ يَوْمَ تَقومُ الْقِيامَةُ وَهُو سَيِّدُ الأيامِ وَنَحْنُ نُسَمِيهِ عنْدَنا يَوْمَ المَزِيدِ، قلت: وَلِمَ تُسمُّونهُ يومَ المَزِيدِ يا جِبْرِيلُ؟ قال: لأنَّ ربّكَ اتَّخَذَ في الْجَنَّةِ وَادِياً أَفْيحَ[2] مِنْ مسْكٍ أبيضَ فإذا كانَ يوْمُ الْجُمُعَةِ منْ أيّامِ الآخرةِ هَبطَ الْجَبَّارُ عَنْ عرْشِهِ إلى كُرْسِيِّهِ إلى ذَلِك الْوَادي وقَدْ حُفَّ الكُرْسيُّ بِمنَابِرَ منْ نُورٍ يَجْلِسُ عَلَيْها الصِّدِّيقونَ والشُّهَداءُ يوْمَ الْقيامةِ، ثمَّ يَجيءُ أَهْلُ الْغُرَفِ حَتَّى يَحُفُّوا بالْكَثِيبِ، ثمَّ يَبْدُو لَهُمْ ذُو الْجَلالِ والإِكْرَام تبَاركَ وتَعالَى فيَقُولُ: أَنَا الَّذِي صَدَقْتُكم وَعْدِي وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمتي وأَحْلَلْتُكم دَارَ كَرَامَتي

(١) «نكتة»: علامة، كالنقطة السوداء في الأبيض، أو البيضاء في الأسود.

(٢) «أفيح»: واسع مخصب.

فَسَلُوني ، فَيقُولُونَ بأَجْمَعِهِمْ: نَسْأَلُك الرِّضَا عَنا ، فَيَشْهَدُ لهم عَلى الرضا ثم يقُولُ لهمْ: سلوني ، فَيسألُونهُ حَتَّى يَنْتهِي نَهْمَةُ[١] كلِّ عَبْدٍ مِنْهُمْ ثمَّ يقول: سلوني فيقولون: حَسبُنا ربّنا رضينا ، فيَرْجِعُ الْجَبَّارُ جَلَّ جلاَلُهُ إِلَى عَرْشِهِ فَيُفْتَحُ لهُمْ بِقَدْرِ إِشْرَاقِهِمْ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ما لا عَين رأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. وَيَرْجِعُ أَهْلُ الغُرَفِ إِلى غُرَفِهِمْ وَهي غُرْفَةٌ مِنْ لُؤْلُؤة بَيْضَاءَ وَيَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ وَزُمُرُّدَةٍ خَضرَاءَ لَيْسَ فِيهَا قَصْمٌ[٢] وَلاَ وَصْمٌ[٣] مُطَّرِدَةٌ أَنهَارُها مُتَدَلِّيَةٌ فِيهَا ثِمَارُهَا ، فيهَا أزواجُهَا وَخَدَمُهَا وَمَسَاكِنُهَا ، فَلَيْسُوا إِلى يَوْمٍ أَحْوَجَ منهُمْ إِلى يَوْمِ الْجُمعَةِ لِيَزْدَادُوا فَضْلاً منْ رَبِّهِمْ ورضْواناً»[٤].

رواه عن أنسٍ جماعةٌ منهم عثمان بنُ عُمَيْر أبي اليقظان ، ومن طريقه رواه الشافعي في مسنده ، وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة ، ومنهم أبو صالح ، والزُّبير بن عدي ، وعلي بن الحكم البُناني ، وعبد الملك بن عُمَيْر ، ويزيد الرّقاشي ، وعبد الله بن بُرَيدة ، كلُّهم عن أنس وصححه جماعة من الحفَّاظ ، وزاد الشافعيُّ في مسنده في آخره: «وهُوَ الْيَوْمُ الَّذي اسْتَوى فيهِ ربُّكم عَلَى العَرْشِ» وساقه عثمان بن أبي شيبة من طُرق ، وقال في بعضها: «ثمَّ يَتَجَلَّى لَهُمْ ربُّهُمْ تَبارَكَ وتَعَالَى فَيَقُولُ: أنا الذِي صَدَقْتُكم وَعْدِي وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَهَـذَا مَحَلُّ كَرامتي» إلى أن قال: «ثمَّ يَرْتَفِـعُ عَلى كُرْسِيِّـهِ وَيَـرْتَفِـعُ مَعَهُ النَّبِيُّونَ والصِّديقُونَ والشُّهَداءُ ويرْجِـعُ أَهْلُ الْغُـرَفِ إلى غُرَفِهِمْ»[٥].

وروى محمد بن الزِّبرقان ، عن مقاتل بن حيَّان ، عن أبي الزبير ، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أهلَ الجَنَّـةِ لَيَحْتَاجُونَ إِلَى الْعُلَماءِ

---

(١) «نهمة»: حاجة.

(٢) «قصم»: كسر.

(٣) «وصم»: صدع وعيب.

(٤) رواه أبو يعلى (٤٠٨٩ و٤٢٢٨) والطبراني في المعجم الأوسط (٦٧٢٣) والبزار كما في كشف الأستار (٣٥١٩) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ١٦٣ و١٠/ ٤٢١).

(٥) رواه الشافعي في مسنده (١/ ١٢٦ ـ ١٢٧).

في الْجَنَّـةِ كما يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَـزُورُونَ رَبَّهُمْ في كلِّ جُمُعَةٍ فيقول لهُمْ: تَمنَّوا ، فَيقُولون: وَمَا نَتَمَنَّى؟! وَقَدْ أَدْخَلْتَنَا الْجَنَّةَ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا أَعْطَيْتَنَا ، فيُقَالُ لهُمْ: تَمنّوا ، فَيَلْتَفِتُونَ إلى الْعُلماءِ» وذكر الحديث في قصَّة الجمعة.

وذكر عثمان الدَّارمي ، عن محمد بن كعب القُرَظي ، أنه حدَّث عمرَ بن عبد العزيز قال: إذا فرغ الله من أهل الجنة والنار أقبل في ظُلَل من الغمام والملائكة فيسلّم على أهل الجنة في أوّل درجةٍ فيردُّون عليه السلام ، قال القُرَظي: وهذا في القرآن: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨] فيقولُ: سلوني ، يفعل بهم ذلك في درجهم حتى يستويَ على عرشه ، ثم تأتيهم التُّحَفُ من الله تحملها الملائكة إليهم.

وقال عبد الواحد بن زيد ، عن الحسن: لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدُّنيا. وقال هشام بن حسان عنه: أنه تبارك وتعالى يتجلّى لأهل الجنة فإذا رأوه نَسُوا نعيم الجنة.

وأعجبُ الصبر صبرُ المحبين ، قال الشاعر:

والصبرُ يُحْمَد في المواطن كلِّها إلاَّ عليك فإنه لا يُحْمَدُ

وقف رجلٌ على الشبلي فقال: أي الصبر أشدُّ على الصابرين؟ قال: الصبر في الله ، فقال السائل: لا ، فقال: الصبر لله ، قال: لا ، قال: فالصبر مع الله ، قال: لا ، قال: فما هو؟ قال: الصبر عن الله ، فصرخ الشبلي صرخةً كادت روحُه تَزْهَق. قال الشاعر:

والصبرُ عنك فمذمومٌ عواقبُهُ والصبرُ في سائر الأشياء محمود

والخوف يبعدك عن معصيته ، والرجاء يخرجك إلى طاعته ، والحبّ يسوقك إليه سوقاً. ولما علم الله سبحانه أن قلوبَ المشتاقين إليه لا تهدأ إلاَّ بلقائه ضرب لهم أجلاً للّقاء تسكيناً لقلوبهم ، فقال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ﴾ [العنكبوت: ٥].

يا من شكا شوقَه من طول فُرقته   اصبر لعلّك تَلْقَى من تحبُّ غدا
وسِرْ إليه بنار الشوق مجتهداً   عساك تلقى على نار الغرام هدى

والمحب الصادق كلما قرب من محبوبه زاد شوقاً إليه.

وأعظمُ ما يكون الشوقُ يوماً   إذا دَنَت الْخِيامُ من الخيامِ

وكلما وقع بصرُ المحبِّ على محبوبه أحدثت له رؤيتُه شوقاًعلى شوقه:

ما يَرْجعُ الطَّرْفُ عنه حين يبصره   حتى يعودَ إليه الطرفُ مشتاقا

والمحب الصادق إذا سافر طرفُه في الكون لم يجد له طريقاً إلاَّ على محبوبه، فإذا انصرف بصرُه عنه رجع إليه خاسئاً[1] وهو حسير[2].

ويَسْرَحُ طرفي في الأنام وينثني   وإنسانُ عيني بالدُّموع غريق
فيَرْجعُ مردوداً إليك ومالَه   على أحدٍ إلاَّ عليكَ طريق

وأقرُّ شيءٍ لعيون المحبّ خلوتُه بسرّه مع محبوبه. حدَّثني من رأىٰ شيخَنا في عُنْفُوان أمره، خرج إلى البريَّة بكرةً فلما أصحر[3] تنفَّس الصُّعَداءَ ثم تمثل بقول الشاعر:

وأخرُجُ من بين البيوت لعلّني   أُحدّث عنك القلبَ بالسرّ خاليا

والشوقُ يحمل المحبّ على العَجَلة في رضا المحبوب والمبادرة إليها على الفَوْر ولو كان فيها تَلَفُه: ﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴾ [طه: ٨٣ ـ ٨٤] قال بعضُهم: أراد شوقاً إليك فستره بلفظ الرضا.

ولو قلتِ طَأْ في النارِ أعلمُ أنه   رضاً لكِ أو مُدْنٍ لنا من وصالكِ
لقدَّمتُ رِجلي نحوها فوطِئْتُها   هدىً منكِ لي أو ضِلَّةً من ضلالكِ

---

(١) «خاسئاً»: ذليلاً.
(٢) «حسير»: كليل.
(٣) «أصحر»: خرج إلى الصحراء.

لِيَهْنِكِ إمساكي بكفّي على الحَشَا ورَقراقُ عيني خشيةً من زِيالكِ[1]
وإن ساءني أن نِلتِني بمساءةٍ لقد سرّني أني خطرتُ ببالكِ

ومن علامات المحبة الصادقة أن المحب لا يَتِمّ له سرورٌ إلاّ بمحبوبه ، وإذا كان غائباً عنه فعيشُه كلُّهُ مُنَغَّصٌ .

نحن في أكمل السرور ولكن ليس إلاّ بكم يَتِمُّ السرورُ
عيبُ ما نحن فيه يا أهل ودي أنكم غُيَّبٌ ونحن حضور

وقال آخر :

من سرّه العيدُ الجديـ ـد فقد عَدِمتُ به السرورا
كان السرور يَتِمُّ لي لو كان أحبابي حضورا

ولو قيل للمحبّ على الدَّوام : ما تتمنى؟ لقال : لقاء المحبوب .

ولما نزلنا منزلاً طَلّهُ الندى أنيقاً وبستاناً من النَّوْرِ حاليا[2]
أجدَّ لنا طيبُ المكان وحسنُه منّي فتمنَّينا فكنت الأمانيا[3]

وقال الْجُنيد : سمعت السرِيَّ يقول : الشوق أجلُّ مقامِ العارف إذا تحقّق فيه ، وإذا تحقّق بالشوق لها عن كل ما يَشْغَلُه عمن يشتاق إليه . وقيل : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قل لشبان بني إسرائيل لِمَ تَشْغَلُون نفوسكم بغيري وأنا مشتاق إليكم؟ ما هذا الجفاء؟ ولو يعلم المُدْبِرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم ومحبتي لترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليَّ وانقطعت أوصالهم من محبتي . هذه إرادتي للمُدْبرين عني فكيف إرادتي للمقبلين عليّ ؟! وسئل الْجُنَيْد : من أي شيء بكاء المحب إذا لقي المحبوب؟ فقال : إنما يكون ذلك سروراً به ووجداً من شدَّة الشوق إليه ، قال : ولقد بلغني أن أخوين تعانقا فقال أحدهما : واشوقاه! وقال الآخر : واوجدْاه! وكانت عجوزُ

---

(١) «رقراق» : رقرق الماء : صبَّه برقّة . «زيالك» : فراقك .
(٢) «حالياً» : مزداناً .
(٣) «أجدّ» : أحدثَ ، وأوجد أمراً جديداً .

لها غائبٌ فقدم من السفر فأظهر أهلُها الفرح والسرورَ به ، فجعلت تبكي فقيل لها : ما هذا البكاء؟ فقالت : ذكّرني قدومُ هذا الفتى يوم القدوم على الله .

وقال بعضُ المحبين : قلوبُ المشتاقين منوَّرةٌ بنور الله ، فإذا تحرك اشتياقُهم أضاء النورُ ما بين السماء والأرض ، فيعرضهم الله سبحانه وتعالى على الملائكة فيقول : هؤلاء المشتاقون إليّ أُشهدكم أني إليهم أشوق .

محبة الله مِنْ أعظم القُرَب :

قال ابن أبي الحواري رحمه الله تعالى : سئل أبو سليمان الدّاراني رحمه الله وأنا حاضرٌ : ما أقرب ما يُتَقَرّب به إلى الله عزَّ وجل؟ فبكى ثم قال : مثلي يُسأل عن هذا؟ أقربُ ما يُتَقَرّب به إليه ؛ أن يطّلع على قلبك وأنت لا تريد من الدُّنيا والآخرة غيره[1] .

وقال يحيى بن مُعاذ : النسكُ هو العناية بالسرائر وإخراجُ ما سوى الله من القلب .

وقال سهل بن عبد الله : ما من ساعةٍ إلاَّ واللهُ سبحانه يطّلع فيها على قلوب العباد ، فأي قلب رأىٰ فيه غيرَه سلّطَ عليه إبليس . وقال سهل بن عبد الله : من نظر إلى الله عزَّ وجلَّ قريباً منه بَعُد عن قلبه كلُّ شيءٍ سوى الله ، ومن طلب مرضاتَه أرضاه الله سبحانه وتعالى ، ومن أسلم قلبه إلى الله تولّى الله جوارحَه . وقال سهل أيضاً : حرام عَلَى قلبٍ أن يَشمّ رائحةَ اليقين وفيه سكونٌ إلى غير الله ، وحرامٌ عَلَى قلبٍ أن يدخلَه النورُ وفيه شيءٌ مما يكره الله . وسئل بعضُهم عن أفضل الأعمال فقال : رعايةُ السرّ عن الالتفات إلى شيءٍ سوى الله عزَّ وجلَّ . وقال سلم : تركتموه وأقبل بعضُكم عَلَى بعضٍ ، لو أقبلتم عليه لرأيتم العجائب[2] .

---

(١) حلية الأولياء (٩/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧) .

(٢) طريق الهجرتين (٤٦٨) .

المحبة سمة المسافرين إلى الله تعالى :

قال : «والمحبة هي سِمَةُ الطائفة ، وعنوانُ الطريقة ، ومعقدُ النسبة» .

يعني : سِمَة هذه الطائفة المسافرين إلى ربِّهم ، الذين ركبوا جناحَ السفر إليه ، ثم لم يفارقوه إلى حين اللقاء ، وهم الذين قعدوا على الحقائق ، وقعد مَنْ سواهم على الرسوم .

و«عنوان طريقتهم» أي : دليلها ، فإن العنوانَ يدلُّ على الكتاب ، والمحبة تدلُّ على صدق الطالب ، وأنه من أهل الطريق .

و«معقد النسبة» أي : النسبة : التي بين الرب وبين العبد ، فإنه لا نسبةَ بين الله وبين العبد إلا محض العبودية من العبد والربوبية من الرب ، وليس في العبد شيء من الربوبية ، ولا في الرب شيء من العبودية ، فالعبدُ عبدٌ من كل وجه ، والرب تعالى هو الإلهُ الحقُّ من كل وجه . ومعقد نسبة العبودية هو المحبة ، فالعبوديةُ معقودة بها ، بحيث متى انحلت المحبة انحلتِ العبوديةُ . والله أعلم[1] .

* * *

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٥) .

الخاتمة

لما كان الإنسانُ ، بل وكلُّ حيٍّ متحركٌ بالإرادة ، لا ينفكُّ عن علم وإرادة وعمل بتلك الإرادة ، وله مرادٌ مطلوب ، وطريقٌ وسببٌ يوصلُ إليه ، مُعين عليه ، وتارة يكون السبب منه ، وتارة يكون من خارج منفصلٍ عنه ، وتارة منه ومن الخارج ، فصار الحيُّ مجبولاً على أن يقصدَ شيئاً ويريده ، ويستعين بشيء ، ويعتمد عليه في حصول مراده .

والمراد قسمان : أحدهما : ما هو مراد لنفسه . والثاني : ما هو مراد لغيره .

والمستعان قسمان ، أحدهما : ما هو مستعان بنفسه ، والثاني : ما هو تبع له وآلة .

فهذه أربعةُ أمور : مراد لنفسه ، ومراد لغيره ، ومستعان بنفسه ، ومستعان بكون آلة ، وتبعاً للمستعان بنفسه .

فلا بُدَّ للقلب من مطلوب يطمئن إليه ، وتنتهي إليه محبته . ولا بُدَّ له من شيء يتوصلُ به ، ويستعينُ به في حصول مطلوبه ، والمستعان مدعو ومسؤول ، والعبادةُ والاستعانة كثيراً ما يتلازمان ، فمن اعتمد القلبَ عليه في رزقه ونصره ونفعه خضع له ، وذلَّ له ، وانقاد له ، وأحبه من هذه الجهة ، وإن لم يحبه لذاته ، لكن قد يغلبُ عليه حُكْمُ الحال حتى يحبه لذاته ، وينسى مقصوَده منه ، وأما من أحبه القلب وأراده وقصده فقد لا يستعينُ به ، ويستعينُ بغيره عليه ، كمن أحبَّ مالاً أو منصباً أو امرأة ، فإن علم أن محبوبه قادرٌ على تحصيل غرضه استعان به ، فاجتمع له محبته ، والاستعانة به .

فالأقسامُ أربعة: الأول: محبوب لنفسه وذاته، مستعانٌ بنفسه، فهذا أعلى الأقسام، وليس ذلك إلا لله وحده، وكل ما سواه فإنما ينبغي أن يحبَّ تبعاً لمحبته، ويُستعان به لكونه آلة وسبباً.

الثاني: محبوبه لغيره ومستعان به أيضاً، كالمحبوب الذي هو قادرٌ على تحصيل غرض محبه.

الثالث: محبوب مستعان عليه بغيره.

الرابع: مستعان به، غير محبوب في نفسه.

فإذا عرف ذلك تبين مَنْ أحقُّ هذه الأقسام الأربعة بالعبودية والاستعانة، وأنَّ محبة غيره واستعانته به إن لم تكن وسيلة إلى محبته واستعانته، وإلا كانت مضرَّة على العبد، ومفسدتها أعظم من مصلحتها. والله المستعانُ، وعليه التكلان.

* * *




الفهارس العلمية




فهرس الآيات الكريمة

(٣) سورة آل عمران

(٤) سورة النساء

(٥) سورة المائدة

(٦) سورة الأنعام

(٧) سورة الأعراف

(٣٦) سورة يس

(٣٧) سورة الصافات

(٣٨) سورة ص

(٣٩) سورة الزمر

(٤٠) سورة غافر

فهرس الأحاديث النبوية

طرف الحديث	رقم الصفحة

- ل -

- م -

فهرس الأعلام

فهرس الأشعار

- ل -

فهرس الأماكن والبقاع

فهرس القبائل

فهرس الموضوعات